تفريغ شرح

كتاب التوحيد

تصنيف الإمام

محمد بن عبد الوهاب التميمي

رحمه الله

شرح الشيخ المجاهد

أبي مالك أنس النشوان التميمي

تقبله الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٤٥ هـ ـــ ٢٠٢٤ م

إهـــــــداء

إلى أســــــرانا..

المنسيين في أقبية الطواغيت،

إلى الفتية الذين يجاهدون باسم الله،

في سبيــــــل الله،

على بركـــــة الله،

ولتكون كلمة الله هي العُليا..

إلى كل من نصر دين الله، و ابتُلي في ذات الله..

إلى كل موحد..

نُهدي هذا العمل.

إهـــــداء خـاص

إلى أخي الطريق وماء العين..

إلى من كان أنيسنا على هذا الدرب..

إلى أبي إبراهيم المكّي -فكّ الله قيده-.

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الموحدين وسيد الخلق أجمعين نبينا محمد الذي بُعث بالسيف حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرا.

أما بعد،

فهذا تفريغٌ نصي بتصرف يسير لدروس شرح كتاب التوحيد للشيخ المجاهد أبي مالك أنس النشوان التميمي -تقبله الله-، ألقاها الشيخ في جامع النووي في مدينة الرقَّة -أعادها الله للموحدين- أثناء حكم الدولة الإسلامية لها، وقد أدركت الشيخ المنية قبل أن يُتِم شرح الكتاب.

وقد قامت الأخت أم آدم الموحدة بنشر التفريغ أولًا، ثم وفقنا الله عز وجل لمراجعته وتدقيقه وإثبات ما لم يثبت في التفريغ الأول، عسى الله أن ينفع به.

فاللهم تقبل شيخنا وتقبل منه، وتقبل منا ومن كل من ساهم في هذا العمل، واجعله خالصًا لوجهك الكريم، وحُجّةً لنا وشافعًا يوم نلقاك.

والحمد لله رب العالمين.

الناشر:

عصر الجمعة ٢٤ شوال ١٤٤٥ هـ (٣ مايو ٢٠٢٤ م)

سيرةُ شارح الكتاب: [١]

مِهاد:

تنقسم سيرة شارح الكتاب إلى عدة أقسام نُجمِلها في الآتي: مرحلة النشأة والتعليم، مرحلة تعبيد النفس الخاصة والنفوس العامة للخالق -سُبحانَه وتعالَى-، مرحلة صدّ الكافرين بجهاد الدفع. وتلك المراحل مثَّلت الشيخ -تقبَّله الله تعالَى- في أعظم مبادئ الإسلام الكبرى، مبدأ (العلم للعمل).

التعريفُ بالشيخ، اسمه وعلمه ونشأته:

هو الشيخ المجاهد العالم العامل أبو مالك أنس بن علي بن عبد العزيز النشوان التميمي النجدي -تقبله الله-، ولد في نجد لعائلة كريمة غنية، تخرج من معهد إمام الدعوة العلمي، ودرس في قسم الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود في مدينة الرياض، ثم حصل على الماجستير في الفقه المقارن من المعهد العالي للقضاء، ورُشح ليكون قاضيًا في المحاكم الشرعية.

جهادُ العلم واللِّسان، وتعبيدُ النفوسِ للخَالق -جَلَّ جَلَالُهُ-:

كان من المفتِين في الدولة الإسلامية، عمل بمكتب البحوث والدراسات، ثمَّ أُمِّر على اللجنة الشرعية التابعة للجنة العامة المشرفة، وكُلِّف بالإشراف على القضاء بالولايات العربية، أقام الدورات المخصصة للشرعيين والقُضاة.

١- معظم ما كُتِب منقول من خطبة رثاء الشيخ المجاهد تركي بن مبارك البنعلي للشيخ المجاهد أنس النشوان -تقبلهما الله-.

مَنَّ الله عليه بمنصب تكليفي تشريفي، فعُيّن مشرفًا على الدواوين الشرعية، ومع ذلك المنصب الذي تولاه -رحمه الله- إلا أنه كان يخرج في الثغر يرابط ويقاتل أعداء الملة.

كان -تقبله الله- صاحب عقيدة صافية، واصل الليل بالنهار لخدمة الإسلام، وذودًا عن الدين، وأقام حلقات العلم، وفضّ الخصومات وقضى بين الناس بشرع الله، كان لا يدع قيام الليل، وكان مثالًا للخلق الحسن، تهوي إليه القلوب.

فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ ... إِنَّ التَّشَبُّهَ بالكِرَامِ فَلاحُ

تفرغ الشيخ للتعليم وإقامة الدورات الشرعية بعد تنصيبه قاضيًا في تنظيم القاعدة، ووُضع اسمه في لوائح الشرف وعُمّم دوليًا.

جهادُ العملِ والسِّنان:

رُشح ليكون قاضيًا في المحاكم الشرعية [قبل نفيره أوَّل مرَّة للجهاد في سبيل الله]، لكنه أبى -رحمه الله- إلا العزة، وإلا الظهور بالدين، وإلا الصدع بالحق، وإلا الجهاد في سبيل الله، فترك الجاه والمال ورغد العيش، وخرج نافرًا إلى أفغانستان، هناك أمضى خمس سنوات في جهاد أعداء الملّة، يقاتل الأمريكان ويصيب منهم كما يصيبون منه، فكم من معركة خاضها -رحمه الله- فأصيب في يده وساقه رحمه الله رحمةً واسعة، وثبت في القتال معلِّمًا ومُرشدًا لإخوانه، حتى بلغ الغاية عند جميع إخوانه هناك من المجاهدين.

دارت المعارك في الشام، فاشرأبّ لها، تابع أخبارها، وهفا قلبه إليها، فخرج إليها ووصل بعد رحلة طويلة شاقة من أفغانستان إلى باكستان إلى إيران إلى تركيا وأخيرًا الشام..

كان تحت راية التَّوحيد التي نذر نفسه لنصرتها، وصل إلى إخوانه في الدولة الإسلامية فاجتمع معهم وسمع منهم، وقال إنما أتى مناصرًا لهم بلسانه وقلمه وماله ونفسه التي بين جنبيه، فلم يتخلف عن مواطن الرباط -رحمه الله-، كان يرابط بين الفينة والأخرى، وأصيب في بعض المعارك مع النظام النصيري الكافر.

استشهاده -تقبله الله-:

لم تكن نفسه الأبية -تقبله الله- لترضى أن يرى إخوانه يقاتلون الأعداء وهو في أواخر الصفوف، بل خرج إلى معركة حمص مُحرّضًا ومقاتلًا فنال الشهادة -نحسبه والله حسيبه-، تلك الشهادة التي قال وقد أقسم بالله العظيم أنه وفي ذات المعارك على جبال أفغانستان والصواريخ تقصفه، قال: والله إنّي أشتَمُّ رائحة الجنَّة! قال: قلت ذلك أمام إخواني، لم أقُل ذلك لأحرضهم، ولكن والله إني لأشتمّ رائحة الجنَّة!

اشتمّها على جبال أفغانستان، ونالها في فيافي حمص -نحسبه والله حسيبه- في رجب، ١٤٣٦ هـ — ١٣ مايو، ٢٠١٥ م

مَـــقِيلُكَ تَحْـــتَ أَظْـــلَالِ الْعَـــوَالِي ... وَبَـــيْتُكَ فَـــوْقَ صَـــهْوَاتِ الْجِيَـــادِ
فَكَـــمْ هَـــذَا التَّمَنِّـــي لِلْـــمَنَايَا ... وَكَـــمْ هَـــذَا التَّجَلُّـــدُ لِـــلْجِلَادِ!
لَئِـــنْ عُـــرِفَ الْجِـــهَادُ بِكُـــلِّ عَـــامٍ ... فإنـــك طـــولَ دهـــرِكَ في جهـــادِ
رَأَيْنَـــا الـــسَّيْفَ مُرْتَـــدِيًا بِسَـــيْفٍ ... وَعَايَنَّـــا الْجَـــوَادَ عَلَـــى الْجَـــوَادِ

فتقبَّل الله الشيخ المجاهد، ورضي عنه وأرضاه، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير ما يجزي به عباده الصالحين وجمعنا به في جنّات النعيم.

مقدمة شرح كتاب التوحيد

مِهاد:

الحمد لله الَّذي لَا إله إلَّا هُوَ وحْدَه لَا شرِيك له، والصلاة والسلام على المبعوث هاديًا للعالمين، محمدٍ صلى الله عليه وسلَّم وبعد، فهذه مُقدِّمةٌ بين يدَي هذه المادَّة المُباركَة بيَّنَّا فيها حاجةَ الناس للتَّوحيد شرعًا وعقلًا.

(الحاجةُ للتوحيد)

علَّةُ الوجود؟

إنَّ علَّة الوجود التي خَلَقَ اللهُ (جَلَّ جَلَالُهُ) الناسَ والشجر، والدوابَ والحجر، والسماء بسببها والأرض لأجلها، هي الاعترافُ بالعبودية له –سبحانه وتعالَى–، والإفرادُ له بصرف العبادة له دون سواه، والإقرارُ بالشهادة له بالوحدانيَّة وأنه الواحدُ الأحدُ المستحقُّ لذلك، الفردُ الصمدُ الَّذي لا ثاني معه، وأنَّه الَّذي لم يَلِد من شيءٍ ولم يَكُن له صاحبةٌ فيُولد له شيء، وأن المخاليق بكافتِهِم، حيّهم وهامدهم، وجامدهم وسائلهم، لا يكونون له بحالٍ مكافئين، قالَ أَعَزُّ مَن يقول: ﴿وَمَا خُلقتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعبُدُون﴾. [الذاريات]

والتوحيدُ هو إفرادُ الله –سبحانَه وتعالَى– بصرف العبادة المفروضة له وحده دون غيره، وإنفاذِ شرائع الله –سبحانَه وتعالَى– وحده المنزَلة من لدنه إلى الأرض دون شرائع غيره، فالعبادةُ عملٌ يصعد من الأرض إلى السماء، والشرائعُ أوامرُ أُنزِلَت من السماء للأرض، وصَاحبُ الأرض الذي خلقَها عيَّن نظامًا حكيمًا لحُكمِها، فالمشتغلُ بالعبادات الصاعدة إن عارضَ الأوامر النازلة؛ مَرَقَ من الدّين، لأنَّ فارض العبادات وطريقتها فارضُ نظام الحكم وطريقته، سبحانَه وتعالَى.

والذي نزَّل الشرائع وأمرَ بها لتُطاع فلا تُعصَى هو نفسُه الذي شكَّلها ليكون إنفاذها ممكنًا لا مستحيلًا، فشكَّلها بعلمٍ من علمه الواسع، وبحكمةٍ من حكمته البالغة، ثمَّ جعلَها متضمِّنةً كُلَّ ما من شأنه أن ينظِّم معايش الناس، ويُعينهم على التفرُّغ لتحقيق الغاية الكبرى من الوجود وهي طاعته وعبادته، فمَن رأى أنَّ شرعًا غير ما أنزلَه من شرعِه هو للناس أنسبُ وأنفعُ من شرعِه، فقد فارَقَ معنَى التوحيد الذي هو إفرادُ الله –سبحانَه وتعالَى– بصرف العبادة له وحده، وإفراده بأخذ الشرائع كافةً عنه –سبحانَه وتعالَى– وحده.

سرُّ أهميَّة التَّوحيد؟

والسرُّ في أن أهميَّةَ التَّوحيد كبرى، والحاجةَ له من العباد بكافتهم قصوى، وأنَّ تاركه وإن عَظُمَت أعمالُه على العالمين ليس يكون ذرَّةً من مُعتَقدِه وإن فرَغَت يدَاه من كُلِّ نفعٍ ولو كان نفعًا دقيقًا غير مشهود؛ أنَّ مع التَّوحيد تحقيقَ أمرين هما النجاة الأخروية بالسلامة من العذاب، والسعادة الدنيوية بانتظام معايش العباد.

وقد جعل الرَّحمَن الأخذَ بشرائعهِ أخذَ التزامٍ بها أو أخذَ إنفاذٍ لها، فرضًا قاطعًا لازمًا يدخل الآخذُ به الجنّة، ويُرمى ويُنسى ويُنبذ التارك والمعارض الرافض له في أصل النار، ورتَّب على الأخذ بها مسمَّى الإسلام الذي هو استسلام الفرد لاتِّباع أوامر الرَّحمَن إيمانًا بها، ورتَّب على الترك لها والأخذ بغيرها مسمى الكفر الذي هو رفضُ استسلام الفرد لأوامر الرَّحمَن إعراضًا منه عنها، وكلُّ من أبَى طاعة أوامر الخَالق فإنّه قد رأى بالضرورة تفضيلَ رأيٍ لمخلوقٍ عليها، فالله –سبحانَه وتعالَى– هو الذي خلقه وشقَّ سمعه وبصرَه ثمَّ أخرجه للدنيا وأبلغه أنَّ جنَّته يُتوصَّل إليها بطاعة أوامره واجتناب نواهيه، والنارَ يُدخل إليها بعصيان أوامره وإتيان نواهيه، ثمَّ يرَى أنْ يُعرض عن كلِّ ذلك صارفًا عبادته لبشرٍ مثله مفضِّلًا لأفكاره وجهله على علم خَالقه وحكمته، فمثلُه مستحقٌّ بمروقه ذلك مسمى الكفر.

ميزانُ التَّوحيد لحياةِ الدارين:

ولما خلَقَ الرَّحمَن الثقلين لغايةٍ واحدةٍ هي عبادته وتوحيده، نظَّم لهما أمورًا تتفاوت في سماتها تنظيمًا من عليمٍ خبير، وهي: الدين والدنيا والنفس، فالدينُ أوامرُ الله –سبحانَه وتعالَى– ونواهيه، والدنيا مكانٌ للعيش فيه، والنفسُ ساكنةٌ لذلك المكان.

ثم جعل –سبحانَه وتعالَى– الدين فرضًا يسلم الآخذ به من النار وينعم بالجنَّة، وجعل الدنيا مكانًا لإنفاذ الأوامر والنواهي، وجعل النفسَ هي المكلَّفةُ بالإنفاذ لكونها ساكنةٌ في المكان.

ثمَّ جعل سمة الدين فرضٌ واجب ومباحٌ مقبول وحرامٌ معصية وكفرٌ مُخرِج، وجعل سمات الدنيا اللهو واللعب والهمّ والغمّ والنكد والزوال، وجعل سمات النفس جبلَّةٌ فيها حبُّ الدنيا وزينتها والشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة والخيل والأنعام، وحبّ الخير وإتيانه، والأمر بالسوء والنزوع إليه، ثمَّ جعلَ النظامَ الذي تستقيمُ به تمامَ الاستقامة، بما تُعان معه النفوس على تحقيق الغاية من خلقها، أن تُنفِّذَ النفسُ الدّينَ النازلَ من السماء على النفسِ والأرض وأهل الأرض.

ثمَّ لتمامِ حكمة الخَالق (جَلَّ جَلَالُهُ)، وعلمه بما خلق من خلقه، راعَى جبِلَّةَ الخلق أتمَّ المراعاة، فلمَّا طبع نفوسهم على حبّ الدنيا بفطرتها، أباح للنفس حقَّها رحمةً بها ومجاراةً لطبعها في أن تطلب نصيبًا منها بجانب ما تطلبه من النجاة في الآخرة، على أن يكون طلبُ الآخرة هو الأصل والأساس، ولولا جمعُه الرَّحيم –سبحانَه وتعالَى– بين الأمرين لعباده ما استطاع العِبادُ للدنيا طلبًا ولا للآخرة ابتغاءً، لأنَّ النفسَ إن طلبت الدنيا وحدها دون الآخرة معها خسِرَت الآخرةَ وإن غنمت الدنيا كلّها، وإن طلبت الآخرةَ وحدها دون نصيب الدنيا خسِرَت الدارين، لأنَّ جبلَّة حبِّ الدنيا ومباحاتها هي محفِّزاتُ النفسِ على نشاطها؛ فتمَّت حِكمةُ رَبّكَ –سُبحانه وتعالَى– تمامًا مقصودًا، فجعل بالجمعِ بين الأمرين صلاح النفس العاملة، وصلاح الدنيا المعمول فيها، وأمان المستقبل في الآخرة التي فيها المستقرُّ.

فلمَّا أبى الناس الأخذ بالتَّوحيد وشرائعه استحالَت دنياهم خرابًا وأخراهم نارًا ونفوسُهم ضيّقة في حرجها، ومعيشتهم في بوار، فعبَّر الرَّحمَن عن إعراضِهم وعاقبته بالقول العَظيم، قال –سبحانَه وتعالَى–:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ معيشةً ضنْكًا ونحشُرُهُ يومَ القيامةِ أعْمَى﴾. [سورة طه] فانظُر كيف جعل الإعراض عن ذكره في الدنيا السببَ في ضيق الدنيا والآخرة جميعهما.

أمَّا الآخِذُ بالتَّوحيد فإنْ قَلَّ رِزقُه عَلَّمه التَّوحيد أن ذلك قد قُدِّر عليه، وإن كَثُرَ رِزقُه عَلِمَ أنَّ عظمةَ الرزقِ من عَظَمَةِ المعطِي المانِح، لأنه إذا لم يعلم بأنَّ ذلك مكتوبٌ عليه ومقدورٌ له، تركَت نفسُه الرِّضَا فسَعَى بالختل لزيادته، واجتهد في الخديعة لتنميته، وأكَلَ الحرامَ من حرزه متذرعًا بفقرِهِ وقلَّة ذات يدِه، كما أنه إذا لم يعلم بأنَّ عظمةَ الرزق من عَظَمَة المعطِي لا من عَظَمَتِهِ هُوَ، تَرَكَ أبواب الحلال وَكَرَّ في أبواب الحرام وزهد في العبادة انشغالًا بما في الرزق من الكفاية، فما حمله على ذلكم العصيان كله إلا اعتقاده بأنَّه ما أوتيه -أي الرزق- كان لاستحقاقه له، فتتغلَّقُ عنده أبوابٌ من العبادات ومنها بابُ الإحسان، فيرَى أنْ يمنعَ المصارف عن مستحقِّها لِمَا يرَاهُ من أنَّ إنفاقه هدرٌ لا يعود عليه بمنفعة، وهكذا فكلُّ بغيٍ في الدنيا فعلَّتُه عند التمحيص نقصٌ في تَوحيد المرءِ لله -سبحانَه وتعالَى-، حتَّى يبلغ البغيُ دركته السُّفلى بالشِرك بالله العَليّ العَظيم.

والتَّوحيدُ مصروفةٌ له النفوس بالفطرة قهرًا يمتنع عن الانتفاء، فمن أخذ بشرائع الله (جَلَّ جَلَاَلُهُ) دون تشريعات خلقه وحَّد اللهَ سبحانَه؛ لأنَّه أفردَه بأخذ الشرائع منه وحده، ومن أخذ بتشريعات الله (عَزَّ وَجَلَّ) مع تشريعات خلقه فقد أشرك به معه أحدًا، ومن أخذ بتشريعات العباد ولم يأخذ بتشريعات الخلق وحَّدَ العباد وكفر بالخَالق لأنَّه أفردَ العباد بأخذ تشريعاتهم عنهم بدلًا من أن يُفِردَ الخَالقَ بأخذ التشريعات عنه وحده، وذلك هو المعنى المقصود من حديث عديّ بن حاتم الطائي رضي الله عنه لما قدم على النبيّ ﷺ فسمعه يقرأ قوله تعالى ﴿اتَّخَذُوا أحبارَهُم ورُهبانَهم أربابًا من دون الله والمسيحَ ابْنَ مريمَ ومَا أُمِرُوا إلَّا ليعبُدُوا إلهًا واحدًا لَاَ إلهَ إلَّا هُوَ سُبحانَه عمَّا يُشرِكُونَ﴾ فقال عدي: إنّا لسنا نعبدهم. فقال النبيّ ﷺ ((**أليسَ يُحرِّمون ما أَحَلَّ اللهُ فتُحَرِّمونه، ويُحِلُّون مَا حَرَّم الله فتُحِلُّونَه، فقال عدي: بلى، فقال النبيّ ﷺ: فتلك عبادتُهم**.)) ؛ فمن لم يوحِّد الله -سبحانَه وتعالَى- فهو بالضرورة قد وحَّد غيره، سواءٌ كان الغير فردًا أو جماعةً أو حكومةً أو غير ذلك.

فتعبيدُ النفس ينجِّي الفرد وحده في الآخرة ويُسلِّمُ العبدَ من شرِّ نفسه المجبولة على النزوع إلى الأمر بالسوء، ولما كان التَّوحيد فرضًا لازمًا على العباد، وكان الدين رساليًّا للعالمين لا لأمةٍ واحدة، جعل الرَّحمَن التعبيد لازمًا للعالمين بدلًا من قصره على الأفراد المنفردين، فغدا لازمًا على العبد المؤمن أن يعبِّد الخلق لله –سبحانَه وتعالَى– ويفرض الإسلام عليهم نظامًا حاكمًا على مجتمعاتهم وذلك بالفرض والقهر، وأن يعرضَ التَّوحيد عليهم ليُوحِّدوا طواعيةً أو أن يدفعوا الجزية إن رفضوا الاعتقاد الاختياريّ.

وقد جعل الله –عَزَّ وَجَلَّ– عرض الإيمان والشرائع باللسان والقول الحسن، وجعلَ رفضهما سببًا كافيًا لفرضهما بالجهاد بالسِّلاح لإنفاذ نظامهما، مع تخيير الناس بين اعتناقهما طواعيةً أو أن يحتفظوا بعقائدهم على أن يجري النظامُ عليهم إلزامًا. فيُعرَضُ التَّوحيد على البلاد فإن آمنت به دون إكراه لزمها التزام الشرائع، فلا يسرق أحدٌ منهم نظامًا وإن لم يؤمن بحرمة السرقة اعتقادًا، ولا يزني ولا يقطع الطريق ولا ينهر اليتيم ولا يأكل حق المسكين وغير ذلك، فهي عليهم نظامٌ وعلى المسلمين اعتقادٌ وإيمان، فإن أبوا الإيمان العقدي القلبي فلهم الاحتفاظ بعقائدهم الكفرية في نفوسهم مع وجوب التزام الشرائع الرَّبَّانيَّة في واقعهم ومجتمعهم.

أما سِرُّ ضرورة التزام الكافر بشرائع المؤمن المسلم فذلك لأن شرائع المسلم المؤمن إلهيَّةٌ ليست بشرية، تنتظمُ بها معايش المؤمن والكافر من غير ظلم ولا إجحاف ولا عدوان، أما شرائع البشر فليست تُفضي لذلك، وهم يُقرُّون بأنَّها صنع أيديهم لا من صنع خَالقهم –سُبحانه وتعالَى–، وليست تنتظم بها المعايش من وجه إلا وتنتفش في أثارها المظالم من وجوه، فما ينظِّم معايش الفريقين إلا الأعلَمُ بهما وأمرهما، الذي حرَّم الظلم على نفسه، وجعله بين خلقه محرَّمًا، وذلك سِرُّ الأمن المجتمعي الذي عاشه الكافرون من اليهود والنصارى تحت ظل الإسلام ولا يعيشه المسلمون اليوم في حَرور أحكام الأوثان.

معنى الرساليَّة، وتعبيد المؤمنين الخلق للخَالق:

والرساليَّة: هي أن يحمل الفرد شيئًا من حاجة أو فكرٍ أو عقيدةٍ فيبلّغه الناس بقصد نفعهم أجمعين، وضدُّ الرساليَّة أن يحملَ الفردُ شيئًا من حاجة أو فكرٍ أو عقيدةٍ يراه نافعًا ثمَّ لا يرى تبليغه للعالمين.

وقد تمثَّلت أصرح صُوَر الرسالية وأجلاها في المشهد المهيب الذي وقفه الصحابي الجليل ربعيّ بن عامر -رضي اللهُ تعالَى عنه وأرضاه- على نمارق "رستم" في بلاد فارس: (إنَّ اللهَ [سُبحانَه وتعالَى] ابتعثنا لنُخرِجَ العِباد من عبادةِ العِباد إلى عبادة رَبّ العِباد، ومِن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام، ومِن ضيقِ الدنيا إلى سَعَة الدنيا والآخِرة).

وتبليغ الرسالة التي يحملها الفرد له طرائقُ عدة ووجوه تبليغٍ لا تحصى، منها الإبلاغ لها بنشرها دون فرضها، والإبلاغ لها بنشرها مع فرضها، وقد بُعِثَ النبيُّ ﷺ بالثانية ولم يبعث بالأولى، فأوتي الرسالة الخاتمةَ ليبلّغها باللسان وأوتي الجهاد ليفرضها بالسنان، وفرضُها باللسان والسيف فرضٌ رحيمٌ لا غُشم فيه، فيُعرَض الإسلام على الناس فإن قبلوه طواعيةً دون إكراه فُرِضَت عليهم شرائعه الحياتيَّة كافَّة، وإن أبوا إلَّا الكفر وما دونه من الاعتقادات تُرِكَت أنفسُهم وكفرُها وفُرِضَت شرائع التَّوحيد على واقعهم كافَّةً وإن كانوا كارهين، كما يُفرَض نظامُ الجزية على اليهود والنصارى وعامّة المشركين، فنظَّم الإسلام حياة الإنسان تنظيمًا قلبيًا بالاعتقاد بالتَّوحيد، ونظَّمها تنظيمًا إداريًا ومجتمعيًا بتشريعات التوحيد.

خاتمةُ القول:

إنَّ التَّوحيدَ هُوَ القضيَّة الأولى التي قامت لأجلها السماوات والأرض، وهُوَ أعظمُ قضيَّة تنجو بها النفس في الدنيا نجاةَ سلامةٍ من نكدها وشرورها، وتنجو بها في الآخرة نجاة سلامةٍ من نارِها وجحيمها. فتعظيمُها واجبٌ، وتعليمُها لازمٌ، وعلى ذلك فكلُّ إصلاحٍ لا يعتلي هامته التَّوحيد هو إفسادٌ من حيث لا يعلم العاملون، لأنَّ (الإصلاح) الذي أرادوه إن كان على ما جاء به النبيُّ ﷺ، فإنَّه جاء بتعبيد النفس

لله -سُبحانَه وتعالَى-، وبتعبيد الخلق مسلمهم وكافرِهم لله -سُبحانَه وتعالَى-، تعبيدَ عقيدةٍ بإفرادٍ دون شرك، وتعبيدَ دخولٍ في نظامِ شرعِه بشروطِه وإلَّا النفيُ للرافضين، والسيفُ للمعاندين.

لكاتبها -لا كسر الله له قلمًا-.

الدرس الأول

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: بسم الله الرحمن الرحيم.[١]

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدىً وتقىً وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يارب العالمين.

أحبابي الكرام، كما لا يخفى على كريم علمكم، أننا سنتدارس –بإذن الله تعالى– في هذه الأيام: كتاب التوحيد الذي هو حقُّ الله على العبيد، وهذا الكتاب ما زال أهل العلم يهتمّون به مدارسةً وحفظًا ، يوصون التلاميذ ويوصون طلاب العلم بحفظ هذا الكتاب وبمدارسته؛ لأن الإنسان إذا فَقِه هذه الأحكام وحَفِظ هذه النصوص؛ قوَّمَ الله سبحانه وتعالى معتقده، وصحَّحَ مساره، وكان من الذين هُدوا إلى صراطٍ مستقيم .

و مازال أهل العلم يثنون على هذا المصنف خيرًا، حيث أن بعضهم نظر إلى طريقة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله– في تصنيفه لهذا الكتاب، فأثنى عليه ثناءً عاطرًا، حتى أن بعضهم قال: إن المتأمل في طريقة تأليف وتصنيف كتاب التوحيد لَيظنُّ الظّانُّ لأول مرة أنه جزءٌ من صحيح البخاري" .

حيث أن المصنف –رحمه الله تعالى– اهتم بالتبويب و بإيراد النصوص الشرعية والآثار تحت كل تبويبٍ بحَسَبِه.

فتجد أن هناك مناسبة بين الدليل والتبويب، وهذا لا شك أنه إن دل؛ دل على رسوخ علم الإمام –رحمه الله تعالى–، فبإذن الله سنتناول وإياكم مدارسة هذا الكتاب، فنقول مستعينين بالله عز وجل:

(١): **(قال المصنف –رحمه الله تعالى–: بسم الله الرحمن الرحيم):** ابتدأ المصنف كتابه بالبسملة، ولاشك أنه هناك خبر مشتهر بين الناس رواه الخطيب البغدادي –رحمه الله تعالى– وفيه أن النبي ﷺ قال: ((كلُّ أمرٍ ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر)) بلفظ آخر فهو أقطع.

وهذا الحديث الذي عليه أكثر أهل العلم على تضعيفه، ضعفه الإمام ابن حجر وضعفه الإمام السيوطي وضعفه الألباني، إلا أنّ هناك جمع من أهل العلم حسّنوا هذا الحديث كالإمام النووي وابن الصلاح، ولكن الذي عليه التحقيق أنّ هذا الحديث ضعيف، ولكن هل ضَعْفُ هذا الحديث يُسقِط أو يلُغي سنّية البداءة بالبسملة أم لا؟!

إن المتأمل في أفعاله ﷺ يجد أنه داوم على البسملة في أفعاله وفي مكاتباته، ففي الصحيحين أن النبي ﷺ حينما كاتب هِرَقل عظيم الروم كتب بصدر رسالته: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هِرَقل عظيم الروم.. فهنا ابتدأ النبي ﷺ كتابه إلى هِرَقل بالبسملة.

إذن؛ فنقول أن سُنّية البداءة بالبسملة ثابتة من فعله ﷺ، وأما من قوله فالحديث فيها ضعيف لا يثبت. والصحيح أنه ضعيف لأن أهل العلم دائمًا يقولون أن الجارح أو أن المضعّف معه زيادة علم؛ لأن المصحح قد يبني تصحيحه على الأصل، لكن الذي يُضعّف اطّلع على علم أو على أمرٍ لم يطّلع عليه المصحح فمعه زيادة علم، وهذا ضابط أو قاعدة يذكرها أهل العلم أحيانًا.

إذن علمنا أن البداءة بالبسملة سنّة ثابتة من فعله ﷺ

الحمد لله وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.(١)

كتاب التوحيد.(٢)

= وكذلك أن في البداءة بالبسملة في المكاتبات تأسِّيًا بالكتاب العزيز، حيث أن الله سبحانه وتعالى افتتح كل سورة بالبسملة عدا سورة التوبة، ولأهل العلم أجوبة كثيرة: منها أنهّا كانت خطابًا للمشركين وكان البداءة بالبسملة فيه نوع لين، وعدم البداءة بالبسملة فيه شدّة وهذه التي أُمرنا با تخاذها تجاه من عادى الله ورسوله ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال]، وما شابه ذلك من النصوص. ومنهم من قال أنها امتداد لسورة الأنفال فيُكتفى ببسملة الأنفال. الشاهد من ذلك أنّ البسملة مشروعة تأسّيًا بأفعاله ﷺ، وكذلك تأسّيًا بالكتاب العزيز.

(١): صدَّرَ المصنف –رحمه الله تعالى– كتابه بالحمْدَلة، وكذلك وردَ معنا حديثٌ آخر أن: ((كلَّ أمر ذي بال لا يُبدأ فيه بالحمد لله رب العالمين فهو أقطع))، ولكن هذا الحديث لا يصح، ضعفه ابن حجر وغيره من أهل العلم، ولكن النبي ﷺ كان يفتتح خُطبه بالحمدلة.

فإذن يسنُّ في حق الخطيب وفي حق المتكلم أن يفتتح كلامه بالحمدلة، بالثناء على الله سبحانه وتعالى بما هو أهله، ثم بعد ذلك يصلي على النبي ﷺ.

(٢): (**كتاب التوحيد**): التوحيد في اللغة: مصدر وحَّد، يُوحِّد، توحيدًا أي؛ جعل الشيء المتعدد واحدًا، هذا هو التوحيد من الناحية اللغوية.

يُروى أن رجلًا كان يصاحب أشخاصًا قد عدَّدوا (تزوجوا أكثر من زوجة)، وكان هو من المستضعفين، فكانت عنده زوجة واحدة، فكانوا يجلسون في بعض المجالس وأحدهم معه زوجتين والآخر ثلاث وهكذا، وهو لوحده معه زوجة واحدة، فكانوا يتضاحكون عليه يقولون أنت ضعيف، فكان يقول أما أنا فمن الموحِّدين، أي أنّه جعلَ الشيء المتعدد واحدًا.

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾.(١)

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ..﴾ الآية.(٢)

= أيشرع التعدد في حق الأزواج (أن يعددوا من النساء)؟

نعم يشرع بحق الأزواج أن يعددوا من الزوجات ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء]

أما من الناحية الشرعية: فهو إفراد الله سبحانه وتعالى بما يستحقه في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات.

هنا المصنف –رحمه الله تعالى– أراد بهذا التبويب أن يبين حكم التوحيد على العبيد أي: هل هذا التوحيد واجبٌ على المكلَّفين أم لا؟

لا شك أنه من المتقرر عند الجميع أن إفراد الله بالعبادة فرضٌ لازم على المكلَّفين لا يتصور سقوطه البتَّة، سيأتي معنا إن شاء الله تفصيل في هذه المسألة.

(١): ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات]: فسّر ابن عباس رضي الله عنه هذه الآية بأن معنى قوله تعالى: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: ليوحِّدون، وهنا فسّر العبادة بجزء من أجزائها.

وكذلك قال بعضهم إلّا ليعبدون أي: إلا لآمرهم وأنهاهم، وبعضهم قال إلا ليتذللوا ويخضعوا لله عز وجل، فكلٌّ هذه المعاني تدور حول العبودية لله، فما مناسبة هذه الآية للباب؟!

نحن علمنا أن المصنف أراد بهذا التبويب بيان حكم التوحيد، هل هذه الآية بيّنت حكم التوحيد أم لا؟

هذه الآية بيّنت الغاية التي من أجلها خلق الله العباد وأوجدهم على ظهر البسيطة، أن الله ما خلق الجن والإنس إلا لغاية سامية وعظيمة وهي تحقيق التوحيد.

فإذا كانت الغاية من خلق العباد هي توحيد الله عز وجل علمنا وجوب التوحيد على العباد؛ لأن الغاية من خلقنا هي أن نعبد الله وحده لا شريك له، فما خلق الله الخلائق جمعاء.. ما خلق الله السموات والأراضين والجبال والأنهار والإنس والجن والدواب إلا لتحقيق هذه الغاية؛ إلا ليعبدون، إلا ليوحدون.

(٢): وقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**..﴾[النحل]: هنا بين المصنف -رحمه الله تعالى- بإيراده لهذه الآية حكم التوحيد.

عندنا أمرين: ﴿اعْبُدُوا﴾ ﴿وَاجْتَنِبُوا﴾، أوامر صادرة من الخالق إلى المخلوقين، من الله إلى عباده، والأصل في الأوامر التي نتلقاها من خطابات الشرع أنها تقتضي الوجوب، إلا إذا اقترن بهذا الأمر قرينٌ يصرفه من الوجوب إلى الاستحباب، ولم توجد فبقي الأمر على أصله، فدلت هذه الآية بمنطوقها على وجوب الأمر، ووجه الدلالة أن الله ما أرسل نبيًّا إلا بأن يأمر الناس إلى عبادة الله والكفر بالطاغوت، ولذلك اشتركت دعوة الأنبياء والرسل بهذا الأمر، وما من نبيٍّ أرسله الله سبحانه وتعالى إلا ودعا أمّته إلى الإيمان بالله، والكفر بالطاغوت.

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا..﴾ الآية.(١) [الإسراء]

---

(١) هل هذه الآية دلت على وجوب التوحيد أم لا؟

نعم هنا يقول الله عز وجل وقضى: أي فرضَ وأمرَ وأوجبَ عليكم ألّا تعبدوا: أي: عباداتكم الصادرة منكم لا ينبغي صرفها لغير الله، ألا تعبدوا: ألا تتذللوا ولا تخضعوا إلا لله، أي: أن العبادة الصادرة من المكلَّفين ومن الخلق أجمعين لا ينبغي أن تصرف لغير الله، لأن **توحيد الألوهية** معناه هو إفراد الله بأفعال العباد، أي: بالأفعال الصادرة من العباد.

الصلاة صادرة من العبد، صرفها لله توحيد وصرفها لغيره شرك. الذبح عبادة صادرة من العبد، صرفها لله توحيد وصرفها لغير الله شرك. الدعاء عبادة صادرة من العبد، صرفها لله توحيد وصرفها لغيره شرك. هذا هو معنى توحيد الألوهية أو الإلهية.

أما **توحيد الربوبية** فهو إفراد الله بأفعاله هو.

الخلق فعل صادر من الله سبحانه وتعالى، فحينما نثبته لله وحده لا شريك له فقد وحدنا الله بربوبيته، وحينما نصرفه لغير الله أو نشرك مع الله غيره في هذا الفعل، كنّا قد وقعنا بالشرك في توحيد الربوبية.

إذا أقر الإنسان أو اعتقد أن هناك من يخلق مع الله، فحكم هذا الاعتقاد شرك، ومن اعتقد أن هناك من يعلم الغيب مع الله فهذا شرك. هذا هو معنى توحيد الربوبية.

وأمّا **توحيد الأسماء والصفات**، فلا يتأتّى لمسلم أن يكون موحّدًا في هذا الباب حتى يثبت لله عز وجل ما أثبته لنفسه أو أثبته له نبيّه ﷺ، من غير تحريفٍ ولا تمثيلٍ ولا تكييفٍ ولا تعطيل، عند ذلك يكون الإنسان مُوحِّدًا في باب الأسماء والصفات.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً..﴾ الآية.(١)

وقوله تعالى: ﴿قُل تَعَالَوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسانًا..﴾ الآيات.(٢)

= إذن فهذه الآية دلت على وجوب التوحيد، ووجه الدلالة من ذلك أن الله سبحانه وتعالى صدَّرَ هذه الآية بقوله: ﴿وَقَضَى﴾ أي: أن الله فرضَ وأمرَ وأوجبَ على المكلَّفين ألا يعبدوا إلا إيّاه، ألا يصرفوا عبادتهم إلا لله عز وجل، وهذا هو معنى التوحيد، ألا يصرفوا عبادتهم إلا لله، وأن يكفروا بما سواه، وهذان هما رُكنا التوحيد.

(١): ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً..**﴾[النساء] هل هذه الآية دلت على وجوب التوحيد؟

هنا الآية السياق فيها سياق أمر ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ وشيئًا هنا نكرة، في سياق النهي (لا تشركوا) فتفيد العموم، أي: أن الله سبحانه وتعالى ينهانا عن الشرك بكل أنواعه وبكل صوره، ما عَظُمَ من الشرك وما صَغُر، الواجب علينا أن ننتهي عن كل صور الشرك.

إذن فهذه الآية دلت على وجوب التوحيد، وكما مر معنا في مقدمة هذا الدرس أن المصنف –رحمه الله تعالى– اهتمَّ بأن يُورِدَ أدلة من الكتاب والسنة تتوافق مع الترجمة أو التبويب، وهذا هو هدي العلماء الأكابر في مصنفاتهم، ليس من اللائق أن تكتب عنوانًا ثم تكتب تحت العنوان ما لا يتفق مع العنوان لا من قريب ولا من بعيد.

مثلًا نضع إعلانًا: محاضرة بعنوان (أحلَّ الله البيع وحرّمَ الربا) وجاء المحاضر يتحدث عن أحكام المسح على الخُفّين، هل هناك مناسبة بين العنوان ومحتوى المحاضرة؟! هناك فرق، لذلك أهل العلم كانوا يهتمون بالعنوان وما يوردونه تحت العنوان أو ما يسمى بالتبويب أو بالترجمة.

(٢): ﴿قُلْ تَعَالَوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[الأنعام]: هل هذه الآية دلت على وجوب التوحيد أم لا؟

هنا السياق سياق تعليم؛ ﴿قُلْ تَعَالَوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: تعالوا أبين لكم ما حرّم الله وما أحلَّ الله، فلمّا كان السياق سياق تعليم يُبيَّن فيه ما حرّم الله سبحانه وتعالى، كان أول مُحرّم جاء بيانه في هذا السياق ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾، فدل ذلك على أن أعظم مُحرّم، وأن أعظم معصية عُصيَ الله سبحانه وتعالى بها هي الشرك بالله والكفر بالله سبحانه وتعالى، لذلك ما من نبيٍّ بُعِثَ في أمة من الأمم إلا وحذر أُمّته من الوقوع في شِراك الشرك وفي حباله.

فهذه الآية دلت على وجوب التوحيد.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن ينظر إلى وصية مُحَمَّدٍ ﷺ التي عليها خاتَمُه، فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هٰذَا صِرٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾.

يريد ابن مسعود رضي الله عنه أن يبين أن الوصية التي أراد النبي ﷺ أن يوصي بها أمته لأنه في سكراتِ موته ﷺ جاءه الصحابةُ فقالوا له أوصِ يا رسول الله. فقال ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يريد أن يوصي أمّته بهذه الآية حتى أنه قال: من أراد أن ينظر إلى وصية مُحَمَّدٍ ﷺ التي عليها خاتَمُه، فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

فإذن وصيّة النبي ﷺ هي تلك الدعوة التي أرسله الله بها: **(أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)** فهذه وصيّة الحبيب ﷺ، يوصينا بأن نلزم غراس التوحيد، وأن نُجانب الشرك وأهله، وأن نكون في جانب، والشرك في جانب، وأن نتباعد عن سُبل الشرك التي توصلنا إلى شِراكه، وهذا هو الواجب على المكلفين، لا أن يطوف الإنسان حول الحمى، لذلك النبي ﷺ قال: ((ألا وإنّ لكلّ ملك حِمى، ألا وإنّ حِمى الله محارمه)) [أخرجه البخاري ومسلم واللفظ له].

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وعن معاذ بن جبل ﷺ قال: كنت رديف النبيّ ﷺ على حمارٍ فقال لي : يا معاذ، أتدري ما حقُّ الله على العباد، وما حقّ العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقُّ الله على العباد أن يعبدوه، ولا يُشركوا به شيئاً، وحقُّ العباد على الله أن لا يعُذِّب مَن لا يُشرك به شيئاً، قلت: يا رسول الله أفلا أُبشر الناس؟ قال: لا تُبشِّرهم فيتكّلوا.[1] أخرجاه في الصحيحين

= لذلك هناك وصف رائع لحديث النعمان –رضي الله تعالى عنه وأرضاه– أن النبي ﷺ قال: ((كالراعي يرعى حول الحِمى، يوشِكُ أن يرتع فيه))، يعني يأتي الإنسان بماشيته، ثم بعد ذلك يطوف بها حول مزرعة محميّة، وُضعت عليها أسوار، كان الغرض من وضع هذا السور أن يحمي صاحب البستان بستانه من أن تتعدى عليه الماشية، ولكن الماشية لا تعقل ولا تفهم، فبمجرد ما تجد فتحة أو مدخل مباشرة تدخل؛ لأنها ترى ذلك العشب وتستطيب ذلك الزرع، فتتمنى أن تأكل منه، فإذا جاء هذا الراعي يطوف بها حول هذا الحمى فإنها لا بد أن ترتع فيه، وكذلك الإنسان إذا حامَ ودارَ حول المشتبهات، فلذلك يجبُ على الإنسان ألّا يطوف حول الحمى، بل يتجانب الحمى.. فإذا علمنا ذلك فمن باب أولى ألا ندخل في الحمى.. إذا كان الله سبحانه وتعالى يُحذِّرنا من أن نطوف حول الحمى، فكيف بالدخول فيه؟!

(١): (**كنتُ رديف النبيّ ﷺ على حمارٍ**) في هذا اللفظ مسائل وأحكام.

أول هذه المسائل: جواز الإرداف على الدابّة بشرط أن تطيق الدابّة ذلك، إذا كان عندنا حمار صغير، وعندنا رجل ضخم ومعه أبناؤه، فهل يجوز لهذا الرجل الضخم أن يركب على هذا الحمار الضعيف ويرُدِف معه أسرته؟! لا تطيق الدابّة ذلك، فإذن لا يجوز الإرداف في مثل هذه الحالة.

يأتي رجل ضخم فيُردف زوجته وأبناءه على الحمار، فإذا انكسر ظهر الحمار وقتله، استدل علينا واعترض علينا بأن النبي ﷺ قد أردف معاذًا رضي الله عنه على حمار، هل هذا استدلالٌ صحيح؟!

نحن نقول أنّ الإرداف يجوز، لكن بشرط أن تكون الدابّة تطيق ذلك، أما إذا كانت الدابة لا تطيق ذلك لا يُشرع الإرداف.

من امتطى دابّة مستعارة أو مستأجرة وكانت لا تطيق الإرداف، فأردف عليها فتلفت الدابّة (انكسرت رجلها أو انكسر ظهرها) فهل يضمن المردف أم لا؟

نعم يضمن لأنه تعدى وقصر، وعندنا قاعدة: كل ما ترتب على غير المأذون فيه شرعًا مضمون.

فهل الشرع يأذن في مثل هذه الحالة أن تُردِف شخصًا على دابّة لا تطيق ذلك؟ لا يجوز.

كذلك إذا استأجر رجل سيارة، وكانت هذه السيارة تتحمل 2 طن، فحمّل عليها 5 طن، فتلفت العجلات، وتعطل المحرك بسبب ثقل الوزن، فإنه يضمن؛ لأنه تعدى، وفعَلَ فعِلًا غير مأذون فيه، وإنما المأذون فيه أن تردف عليها ما تطيق هذه الآلة. إذن هذا هو الحكم الأول المستفاد مما جاء في الحديث.

المسألة الأخرى: تواضع النبي ﷺ إمام المرسلين، وقائد الناس يوم الحشر على رب العالمين، خير البريّة، خير من وطئت قدمه الثرى، يركب الحمار.. الله أكبر! انظروا إلى هذا التواضع الجم، مع أنه ﷺ خُيّر بين أن يكون عبدًا رسولًا وأن يكون مِلكًا رسولًا، فاختار ﷺ أن يكون عبدًا رسولًا، الله أكبر! يتواضع ﷺ ويركب الحمار.

بعض الناس في هذا الزمان، تقول له تعال اركب تاكسي، يقول: أنا؟! أنا أركب تاكسي؟! أنا فلان بن فلان!! أو تقول له تعال اركب معي في الدراجة، فيقول: أنا معي شهادة في الهندسة، معي شهادة في الدكتوراة، وكذا وكذا من الألقاب، وتريد أن تُركبني على دراجة! أنا لا أركب إلا مرسيدس وبي إم دبليو ومن هذه السيارات..

انظر إلى تواضع النبي ﷺ يركب على حمار ويردف معه معاذًا -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-.

فهنا دعوة إلى التواضع، لأن التواضع خُلقٌ ممدوح حث عليه الشرع، والنبي ﷺ أخبر أن الله يرفع العبد بتواضعه ((من تواضع لله رفعه))، انظروا إلى هذا اللفظ ما أعظمه، من تواضع لله ليس للناس، بعض الناس يتصنع التواضع، فهذا سبحان الله يكشفه الله على رؤوس الأشهاد، لكن الذي ينال هذه المنزلة هو من تواضع لله.

وأعظم شيء أن تتواضع لله في موضع يسوغ فيه تكبرك على الآخرين، مثلًا: تواضع المتعلم للجاهل.. ألا يستقيم أن يتعالى المتعلم على الجاهل؟ هذا الموضع يستقيم فيه عقلًا أن يتعالى المتعلم على الجاهل، لكن تواضع في هذا الموضع المتعلم على الجاهل يدخل في قوله (من تواضع لله رفعه).

الغني من المحتمل عقلًا أن يتعالى على الفقير، فإذا جاء الغني عند الفقير متواضعًا، يدخل في عموم قوله (من تواضع لله رفعه).

الأمير مع المأمور.. بعض الناس كان بين عشيّة وضحاها رجلًا عاديًا، ثم أصبح على عشرة أميرًا مسؤولًا، فظن المسكين أنه أصبح خليفة للمسلمين، فأصبح يرغب في كرسي ضخم، وكل ما عنده عشرة! يريد أربعة حوله معهم الهوّايات يهفّون عليه الهواء.. ويا أيها الحاجب أدخل علينا فلان وائتني بالماء.. فظن المسكين أنه بلغ العلالي.. ولا شك أن هذا محروم من هذا الفضل (من تواضع لله رفعه).

نحن بحاجة أن نتواضع، خصوصًا أن نتواضع للجهّال لنعلمهم..

ولا شك أن من أعداء العلم وأعداء الجهاد التكبر، لأن العلم لا يناله مستكبر، ولا يناله متكبر، وكذلك الجهاد؛ لأن الجهاد فيه تذلل للمؤمنين، وخفض جناح للموحدين، وعزة على الكافرين، لذلك ما رأينا رجل يقلب هذه القاعدة إلا وتنقلب الموازين في حقّه. ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فمن كان عزيزًا على المؤمنين، جعله الله ذليلًا على الكافرين.. فهذا الرجل الناس ترتعد من حوله، يخافونه يخافون من بطشه وسطوته، ولكن إذا جاء النزال رأيته كالنعامة، وقد يكون فيه قوة ولكنه يُخذل في ذلك

اليوم. وهناك أناسٌ يتذللون لإخوانهم، ويخفضون جناحهم للمؤمنين، ولكن إذا جاء في ميدان النزال رأيتهم أسودًا ترهَبُها أعداؤهم، وهذا مما لا شك فيه أنه من توفيق الله عز وجل.

ولا شك أن الشريعة جاءت بالعدل، وجاءت لإعطاء الحقوق لمستحقيها، ولله الحمد والمنة قامت هذه الدولة على ذلك، ردت الحقوق، وأمكنت حكم الله، وسَعَت جادّة قصارى جهدها أن تعدل بين الناس على وفق ما يرضي الله سبحانه وتعالى.

يقول معاذ رضي الله عنه: فقال لي -أي النبي ﷺ-: يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟

سؤال.. وهذه هي الطريقة التي كنا نسير فيها معكم في هذا الدرس، سؤال يسأله المعلم، ينتظر به الإجابة من المتعلم، لأجل أن يكون هناك إعمالٌ للذهن، وكذلك تقوية لشخصية المتعلم، لأن بعض الناس عنده أسئلة كثيرة ولا يستطيع أن ينال العلم بسبب الاستحياء، لكن عندما تتيح المجال للسؤال فإنه يتجرّأ، فتزاح عنه كثير من الإشكالات والشُبه، وهذا أسلوبٌ نبويٌّ.

(يا معاذ): وهنا مسألة: من السنة أن تنادي أخاك بأحبِّ الأسماء والألقاب إليه.

بعض الناس إذا جاء ينادي إخوانه فإنه يتفنن باختيار أبشع الأوصاف وأسوأ الألقاب، بل بعضهم لا يناديه باسمه، بل بأوصاف: يا غبي تعال، يا أبله تعال، ويا سفيه تعال.. تعوّد على الجفاء، ولم يكن النبي ﷺ كذلك.. كان مربّيًا ﷺ.

قل: يا أخي، بارك الله فيك.. اختر العبارات الطيبة.

مرة سمعت رجلًا ينادي رجلًا آخر: يا هيه، يا هيه.. ويصرخ.. يا أخي هذا له اسم، قل له: يا أخي، يا عبد الله.. وصدقت هو عبدٌ لله.. يا أخي الكريم، يا أخي الفاضل..

حتى الإنسان إذا أراد أن يتخاطب مع زوجته أراد أن يتخاطب مع أمه، مع أخته، مع قرابته.. اختر أطيب العبارات وألينها على القلب.. يا فلان، يا أخي الطيب، يا أخي الفاضل، يا أخي الحبيب.. ناده بأحب الأسماء، بأحب الألقاب إليه، ومن أحب أن يتعامل معه الناس كذلك فعليه أن يعاملهم بما يحب.

(**يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟**): هنا الحق الذي أحقه الله على نفسه هو حق تفضُّل، خِلافًا للمعتزلة الذين قالوا أن الله أحقَّ على نفسه هذا الحق وهو حقٌّ واجبٌ عليه! وهذا سوء أدب مع الله، والواجب على المسلم أن يتأدّب مع خالقه، فإذا كنا نحث الناس على أن يتأدّبوا فيما بينهم، وهم خَلقٌ من جملة المخلوقين، فما بالك بتعامل المخلوق مع الخالق سبحانه وتعالى؟! لا شك أن التأدب معه سبحانه أولى وأحرى.

إذن فالحق الذي أحقّه الله على نفسه هو حق تفضل، أي أن الله تفضَّل به علينا، لا أن نوجبه نحن على الله ونقول له يجب عليه! لا هذا سوء أدب مع الله سبحانه وتعالى.

وأما الحق الذي على العباد لله هو حق إيجاب (وجوب)، أي أن الله أوجب على العباد هذا الحق.

(**قلتُ –القائل معاذ– الله ورسوله أعلم**): هنا مسألة وهي ما حكم قول الإنسان: الله ورسوله أعلم؟

فرّق أهل العلم بين المسائل الشرعية وبين المسائل الغيبية، فحين يقال: –حتى في زمن النبي ﷺ– هل جاء فلان (غائب) من سفره، هل يجوز أن أقول الله ورسوله أعلم؟

لا يجوز أن يقال الله ورسوله أعلم لأن النبي ﷺ لا يعلم الغيب إلا ما أطلعه الله سبحانه وتعالى عليه ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف].

إذن أهل العلم يفرّقون بين المسائل الشرعية وبين المسائل الغيبية، فأما المسائل الغيبية فلا يجوز أن يقال فيها إلا الله أعلم، لأن الذي يعلم الغيب هو الله، أما في المسائل الشرعيّة فلا حرج أن يقال في

حياة النبي ﷺ الله ورسوله أعلم، أما بعد وفاته ﷺ فحتى في المسائل الشرعية فإنك لا تقول إلا الله أعلم.

(قال –أي النبي ﷺ–: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعُذِّب مَن لا يشُرك به شيئًا).

بيَّن النبي ﷺ هنا كلا الحقّين، فبين الحق الذي يكون لله سبحانه وتعالى على العباد، وهو حقٌّ واجبٌ لا يُتصوّر سقوطه مطلقًا، حتى في حالة الإكراه، لأن الإكراه لا يُتصوّر أن يكون إلا على الأقوال والأفعال، لأن القلوب لا مجال لأحد عليها.

أصلًا من شروط صحة أن يكون الإكراه مانعًا من موانع التكفير؛ أن يكون القلب مطمئنًا بالإيمان ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل]، أما من أكره على قولِ كفرٍ أو فعلِ كفرٍ، وكان قلبه مطمئنًا بالكفر فلا ينفعه الإكراه حينئذٍ، لأن من شروط صحة الإكراه، أو أن يكون الإكراه مانعًا من موانع التكفير أن يكون القلب مطمئنًا بالإيمان.

يقسّم أهل العلم الإكراه إلى قسمين:

- إكراه تام.
- إكراه ناقص.

وبعضهم يسمّيه: الإكراه الملجئ، والإكراه غير الملجئ.

الإكراه المُلجئ: هو الذي يترتب على عدم فعله تلف النفس أو تلف عضو أو دخول سجن أو ضرب مبرح لا تطيقه النفوس السويّة.

كل ما لا تطيقه النفوس السوية داخل في ما يسمى الإكراه الملجئ؛ كأن يعلقك ويضربك بالسوط وبالكهرباء..

الإكراه غير المُلجئ: هو ما دون ذلك، يعني ضرب غير مبرّح مثل أن يضربك بمسواك، أو بشبشب..

وكذلك يضيف أهل العلم أربعة شروط أخرى للإكراه الملجئ:

الشرط الأول: أن يكون الإكراه صادرًا من قادرٍ على إنفاذ ما هدّد به؛ كالسلطان، واللص، وصاحب الشوكة والمنعة.

يعني لو يأتيك شخص معه سلاح وأنت مجرد من السلاح، ثم يرفع سلاحه عليك ويقول لك افعل ذلك وإلا قتلتك، وأنت تعرف أن هذا الرجل سلاحه معه والطلقة في بيت النار ومجرد فقط يضغط الزناد تكون أنت في خبر كان (في عداد المقبورين)، فهذا شخص قادر على إنفاذ ما هدّد به.

الصورة التي تقابل الشرط الأول: أن يأتيك شخص ضعيف كأن يأتيك طفل صغير ويهددك بقلم رصاص ويقول لك أن تقول كذا وكذا وإلا سيطعنك.. فهذا لا يبيح لك فعل أو قول الكفر لإن الإكراه هنا صادر من غير قادر من ضعيف. ممكن أنت تضربه على وجهه فيكون هو في خبر كان.

الشرط الثاني: أن يغلب على ظنك إيقاع المكرِه ما هدد به.

يعني أنت تعرف أن هذا الشخص إذا هدّد؛ هدّد، وإذا قال فعل.. لكن لو أن رجلًا من عشر سنوات وهو يهدّد، وما فعل شيئًا، يقول ما لا يفعل.. ليس عنده إلا الصراخ.. ضعيف.

الشرط الثالث: أن يكون الإكراه على أمرٍ لا تطيقه النفس، إما قتل أو ضرب شديد أو سجن أو إتلاف عضو. ورُوي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أربعٌ كلهن كره: السجن والضرب والوعيد والقيد.

الشرط الرابع (الأخير): أن يكون المكرَه ممتنعًا عن الوقوع في المكفِرّ قبل الإكراه.

فلو أن رجلًا يسبّ النبي ﷺ يوميًا، فجاءه أحدهم يومًا من الأيام وأمسكه، وأخذه وكبّله، ثم أوجعه ضربًا ورفع السلاح عليه وقال له سب النبي ﷺ فسب النبي ﷺ، فهل هذا يعد مانع من موانع التكفير؟!

هذا لا يعد مانعًا من موانع التكفير لأنه لم يكن ممتنعًا أصلًا عن السبّ قبل الإكراه.

وهناك شرط آخر يضيفه أهل العلم زيادة على ذلك وهو: أن يكون المكرَه غير قادر على الهروب.

علمنا أن هذا الواجب قد يُتصور سقوطه في حالة الإكراه، والإكراه هنا لا يُتصوّر وقوعه إلا على القول والفعل، أما الإكراه على الاعتقاد فهذا لا يتصور.. مثل أن يُكرهك على أن تعتقد أن هناك مع الله شريك.. مجرد اعتقاد، لا أن تقوله، هذا لا يتصور وقوعه، القول شيء محسوس يدرك بالسمع، الفعل شيء محسوس يدرك بالنظر، لكن الاعتقاد شيء غيبي لا تدركه.. إذن من شروط صحة الإكراه أن يكون القلب مطمئنًا بالإيمان.

ثم قال: (**وحق العباد على الله أن لا يُعذِّب مَن لا يُشرك به شيئًا**).

وهذا لا شك أنه قد بين المصنف فيه أن التوحيد حق واجب على العباد، وهذا يدل على وجوب التوحيد.

(**قلت: يا رسول الله، أفلا أُبشر الناس؟**) في ذلك مشروعيّة البشارة بالأخبار السارّة.

سمعت خبر طيب تذهب وتبشّر الناس ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ..﴾ [البقرة]، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتمْ توُعَدُونَ﴾ [فصلت]، ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِي الَّذِينَ يستمِعوُنَ الْقَوْلَ فَيَتَبَّعوُنَ أحْسَنَهُ﴾ [الزمر]، ﴿وَالذِّينَ اجْتنَبوا الطغُّوُتَ أنَ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابوُا إِلىَ الله لهُمُ الْبُشْرٰى ۚ فَبشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر].

﴿فَبشِّرْ عِبَادِ﴾: مشروعية البشارة؛ أن يبشر الإنسان إخوانه بكل أمر يسر به المرء.

قلت: يا رسول الله، أفلا أُبشر الناس؟ قال: (**لا تُبشّرهم فيتكلوا**): هنا النبي ﷺ نهاه عن البشارة، ونهيه عن البشارة أليس فيه كتمان للعلم؟ والله عز وجل يقول: ﴿وَإِذِ أخَذَ اللهُ مِيثٰقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰبَ لَتُبِيننُّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تكتمُونَهُۥ﴾ [آل عمران]، والنبي ﷺ يقول: ((من سُئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة))[شرح السنة].

كتمان أم ليس كتمان؟ حتى جاء في بعض الروايات أن معاذ رضي الله عنه ما حدّث بهذا الحديث إلا في آخر حياته، وأنه ما حدث به إلا خشية الإثم، والنبي ﷺ يقول لا تبشّرهم.

نحن نقول أن ظاهر هذا الحديث يتعارض مع الآية التي أوردناها ويتعارض مع والحديث الذي ذكرناه، وكذلك حديث أبو هريرة رضي الله عنه حينما كان مع النبي ﷺ في البستان، لكن أهل العلم قالوا:

أولًا: أنه لا يمكن أن يكون تعارض بين النصوص، فهذا التعارض يكون ظاهريًا فقط، وليس بتعارض حقيقي، لأن الشارع الواحد الحكيم لا يمكن أن يصدر عنه دليلٌ آخر يقتضي في الواقعة نفسها حكمًا خلافه في الوقت الواحد.

ودائمًا إذا حصل هناك تعارض ظاهري بين النصوص ماذا نعمل:

- أولًا: الجمع بين النصوص، لأن القاعدة تقول: إعمال النصوص أولى من إهمالها. لأننا إذا أهملنا أحد النصين نكون قد عطلنا العمل به، ولكن إذا أمكن أن نُعمِل النصين ونجمع بين النصين تعين علينا إعمال النصوص.. إذن أول خطوة، إذا أمكن الجمع بينها فهو المتّجه والمتعيّن.

- إذا لم يمكن الجمع نذهب إلى الترجيح: أن ننظر إلى درجة الخبرين أيهما أصح من حيث الإسناد.

- ثم بعد ذلك إذا تعذر الترجيح نأتي إلى الناسخ والمنسوخ. وهذا متوقف على التاريخ، ومعنى الناسخ هو أن يلغي الناسخ حكم المنسوخ، أي أن ينسخ الخبر المتأخر حكم الخبر المتقدم.

وهنا يمكن الجمع أم لا يمكن الجمع و كيف نجمع؟

يمكن أن نفرّق بين الحالات، أهل العلم يقولون أن هناك من العلم ما هو واجب، يجب بيانه وإظهاره للناس، لأنه يتوقف عليه صحة العقيدة أو يتوقف عليه عملٌ واجب، أو يتوقف عليه أمر يجب تركه، فهذا من قبيل العلم الواجب الذي يحرُم كتمانه.

هنا إذا لم يعلم الناس بهذا الحديث، هل ستفسد عقائد الناس؟ هل سيضل الناس؟ هذه البشارة، هل يجب إظهارها إلى الناس أم لا؟

إذن إذا كان العلم واجبًا فلا يجوز كتمانه، وإذا كان واجبًا يُحذّر كاتمه بقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾، ونحذره بقول النبي ﷺ: ((من سُئِل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة)).

ولكن إذا كان العلم غير واجب كما جاء معنا في حديث معاذ، فهذا يجوز كتمانه للمصلحة الراجحة.

دخل رجل على ابن عباس رضي الله عنهما وسيفه بيده، والشرُّ يقدح شررًا من عينيه، فقال يا ابن عم رسول الله، هل للقاتل من توبة؟، وقد كان يدرّس طلابه أن القتل ذنب عظيم ولكنّه من الذنوب التي من تاب منها تاب الله عليه؛ لأن القتل العمد (العدوان) تتعلّق به ثلاثة حقوق: حق لله، وحق للمقتول، وحق لأولياء الدم، فأما حقّ الله فيسقط بالتوبة، وأما حق المقتول فهذا لا يسقط إلا يوم القيامة حينما يوقف القاتل مع المقتول كما جاء في الخبر أنه: ما من نفس تقتل إلا وتأتي يوم القيامة ورأسها على كفها، يقول: يا رب، سل هذا فيم قتلني. [جاء الخبر بهذا المعنى عن ابن عباس في تخريج المسند لشعيب الأرناؤوط]

وأما حق أولياء الدم فيسقط بالقصاص أو بالعفو بالدية أو بالعفو مجانًا.

فبيّن ابن عباس رضي الله عنهما أن القتل داخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء]، إذا كان الشرك هو أعظم ذنب ومن تاب منه تاب الله عليه، فما بالك بما دون الشرك؟!

فلما دخل هذا الرجل على ابن عباس وكان هذا الرجل بهذه الصفة وهذه الحالة، قال هل للقاتل من توبة: قال: لا. فخرج، فتعجب تلاميذه، فقالوا: كيف تعلمنا أن للقاتل توبة ثم تقول لهذا السائل أنه لا توبة لك؟!

انظروا إلى الفقه.. انظروا إلى العلم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: علمت من حال هذا الرجل أني لو قلت له: له توبة، لذهب وقتل. فالمانع من القتل عند هذا الرجل أنه هل له توبة أم لا، فلو قال: له توبة لما امتنع من القتل، ولكن لما قال: ليس له توبة، امتنع من القتل.

فكتمان هذا العلم هل يتوقف عليه عمل واجب؟ لا.

أصلًا يجب درء هذا العمل الذي هو القتل بأي سبيل وبأي طريقة، وهذه من السبل والطرق الشرعية.

مثلاً رجل جاءك وأنت تعرف أنه سارق، وسأل: هل من سرق مالًا ولم يبلغ نصابًا أو لم يكن في حرز مثله، فهل على السارق قطع أم لا؟ هو في الحقيقة من ناحية الشروط ليس فيه قطع، لكن لو قلت له أن فيه قطع سيرتدع، فأنت تقول له فيه قطع وتنوي أنه إذا استوفى شروط القطع، وهكذا.

إذن ملخص الكلام: أن هناك من العلوم ما هو واجب يتوقف عليه صحة عبادة الناس وصحة معتقداتهم؛ كمن يكتم حقيقة الولاء والبراء، فهذا لا يجوز كتمانه لأنه يتوقف على علم حقيقة الولاء والبراء صحة العقيدة وصحة إيمان المرء، لكن ما دون ذلك من المسائل لا حرج إذا لم تكن من العلم الواجب.

الدرس الثاني

باب فضل التوحيد وما يُكفِّر من الذنوب.(١)

بسم الله، الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

نستأنف وإياكم معاشر الأحبة مدارسة كتاب التوحيد وقد مر معنا في الباب الأول بيان حكم التوحيد؛ فناسب بعدما بين المؤلف –رحمه الله تعالى– حكم التوحيد أن يبين فضائل التوحيد، فلذلك قال المصنف –رحمه الله تعالى–: باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب.

(١): **هنا مسألة**: أليس من فضائل التوحيد تكفير الذنوب؟ لماذا ذكر المؤلف هنا –رحمه الله– في التبويب "وما يكفر من الذنوب" ولم يقتصر على أن يقول: باب فضل التوحيد، مع أن تكفير الذنوب من فضائل التوحيد وداخل في قوله باب فضل التوحيد؟

المؤلف –رحمه الله– يريد أن يبين فضائل التوحيد، فقال: باب فضل التوحيد. ثم عطف وقال: وما يكفر من الذنوب.

يسمي أهل اللغة هذا العطف عطف الخاص على العام. قال: باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب. فضل من فضائل التوحيد أنه يكفر الذنوب. هنا عطف على قوله باب فضل التوحيد.

يقول أهل العلم –أن المصنف رحمه الله– عطف هنا بلفظة وما يكفر من الذنوب على فضل التوحيد؛ ليدل على أنّ أعظم فضائل التوحيد هو تكفير الذنوب، وهذا يدل على أهمية هذا الفضل..

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقوله الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾.(١) [الأنعام]

= وعلى آكديّته وعلى علوِّ شأنه. وهذا إن دل على عظم شأن الموحد وعظم منزلة التوحيد عند الله عز وجل.

وسيورد المصنف –رحمه الله تعالى– خمس فضائل للتوحيد، وسيورد –رحمه الله– لكل فضل من الفضائل دليلًا.

(١): ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾: انظروا إلى هذه الآية وإلى هذا السياق القرآني، وركزوا معي جيدًا، فإن المصنف –رحمه الله– أراد بهذه الآية أن يبين فضلًا من فضائل التوحيد؛ فأعمِلوا معي أذهانكم..

أولًا: لنأتي عند ترجمة ألفاظ الآية:

﴿**الَّذِينَ ءَامَنُوا**﴾: أهل العلم يقولون: أن لفظ الإيمان ولفظ الإسلام هما لفظان إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. أي: أنهما إذا اجتمعا في سياق واحد افترقا في المعنى؛ دل الإسلام على معنى، والإيمان على معنى، دل الإسلام على الأعمال الظاهرة، ودل الإيمان على الاعمال الباطنة. هذا هو المراد إذا اجتمعا في سياق واحد. مثلًا: المسلم المؤمن، أو المسلم والمؤمن.. فالإسلام هنا يدل على الأعمال الظاهرة والإيمان يدل على الأعمال الباطنة.

لفظان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، أي إذا ذُكر أحدهما على حِدة؛ دل لفظ أحدهما على كلا المعنيين، أي دل الإسلام إذا ذُكر لوحده على الأعمال الظاهرة والباطنة، ودل الإيمان إذا ذُكر لوحده على كلا المعنيين، على الأعمال الظاهرة والباطنة.

﴿**الَّذِينَ ءَامَنُوا**﴾: المراد: الذين حققوا الإيمان والإسلام بالمعنيين، أي حققوا الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، أي أتوا بالإيمان الذي يصح به توحيد المرء.

﴿**وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ**﴾: أي لم يخالط ولم يشُب إيمانهم ظلمًا. والمراد بالظلم هنا ليس كما ذهب إليه بعض الصحابة –رضوان الله عليهم– حينما أنزل الله هذه الآية.. شقَّ على الصحابة وعظم عليهم حينما فهموا من قول الله تعالى (وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) أن المراد بذلك الذنوب والمعاصي التي دون الشرك، فجاؤوا إلى الرسول ﷺ خائفين وجلين، فقالوا: يا رسول الله: ومن منا لا يلبس إيمانه بظلم؟!

الله أكبر! إذا كان صحابة رسول الله الذين اصطفاهم الله وانتقاهم الله سبحانه وتعالى لصحبة نبيه عليه الصلاة والسلام يخافون على أنفسهم من الذنوب والمعاصي، ولا يزكون أنفسهم بل يقولون يا رسول الله ومن منا لا يلبس إيمانه بظلم، فأين حالنا من حالهم؟! نقترف الذنوب ثم بعد ذلك ندَّعي الولاية! بل بعضهم لا يجد حياءً بأن يقول عن نفسه: أنا المؤمن المخلص! وقد سمعنا بعض العبارات من بعض الناس يتحدثون بها عن أنفسهم، ولا شك أن الإنسان إذا بلغ هذا الحد، فوصل إلى هذه المنزلة فقد أصيبت مقاتِلُه. والله عز وجل يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَى﴾[النجم].

فالصحابة رضي الله عنهم كانوا على قدرٍ عالٍ من الإيمان، وكانوا يخافون على أنفسهم من الذنوب والمعاصي، وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه الإنسان، يخاف على نفسه من أن يقترف ذنبًا قد يَزِل بسببه عن صراط الله المستقيم، والذنوب سبب للحرمان، وهذا أمر يجرّبه الإنسان في حياته، وقد دلّت على ذلك نصوص وآثار، كما جاء في بعض الأخبار ((إنّ الرجل ليُحرم الرزق بسبب الذنب يصيبُه)) [جاء بهذا المعنى في تخريج المسند لشعيب]. فالإنسان يصيب الذنب فيحرم بسببه رزقًا حلالاً طيبًا. بعض الناس يشتكي الفقر، ويشتكي قلة ذات اليد، وإذا نقّب وفتشّ في خبايا نفسه، لوجد أنّه من أكثر عباد الله اقترافًا للذنوب والمعاصي؛ لذلك

جعل الله سبحانه وتعالى التقوى بابًا من أبواب الرزق: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق]. فالتقوى جماع الخير: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف].

إذن فخشي الصحابة من ذلك، فقالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، ومن منا لا يلبس إيمانه بظلم، فاستدرك النبي ﷺ على الصحابة، وبين لهم أنّ المراد بالظلم في هذه الآية ليس هو المعنى الذي فهموه، فقال لهم ألم تسمعوا قول الرجل الصالح: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان].

الله أكبر! درسٌ تربوي، انظروا كيف لقمان عليه السلام يربي ابنه، يأتي إلى ابنه الصغير يُعلّمه.

بعض الناس يقول أنا لا أملك الوقت لأربي أبنائي، ولكن يظل نصف ساعة يعلم ابنه ويقول له: إن جاء فلان يسأل عني، حتى وإن كنت موجودًا لا تقل أني موجود، قل له أنّي غير موجود.. يعلّمه الكذب، ولم يجلس في يوم من الأيام ليعلّم فلذة كبده التوحيد.. يعلمه أمور الدنيا، بل بعضهم يعلمه بعض الكلمات الماجنة والساقطة ويعلّمه كيف يرد السباب بالسباب و...إلخ.

ولكن هنا درس تربوي، دعوة للآباء، دعوة لمن من الله سبحانه وتعالى عليه بذرية: اتق الله واهتم بتربيتهم، وأعظم أمر تقوّم به أبناءك أن تقوّمهم على ضوء كتاب الله وسنّة رسوله.

بل إن بعض الأبناء قد أحسن بعض الآباء تربيته، فأصبح هؤلاء الأبناء وهؤلاء الفتية –على صغر سنهم– دعاة إلى الله.

أذكر أن أحد الصغار كان في مجلس، وقد مُلِئ هذا المجلس بالكبار، وكان أصغر الحضور سنا ذلك الطفل، فتحدث أحدهم بحديث فيه كذب، فلم ينكر ذلك أحد من الكبار على ذلك الكذاب، فقام الصغير بمحضر الكبار وقال: اتق الله، فإن الله قد حرّم الكذب «وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا» [صحيح مسلم]. من الذي علم هذا الطفل؟ من الذي رباه هذه التربية؟ إنه ذلك الأب، الرجل الصالح، الذي لقن ابنه هذا الدرس التربوي. فلذلك علينا أن نحرص على هذه النقطة، وأن يجتهد الآباء بتنشئة أبنائهم.

فبين النبي ﷺ أن الظلم المراد هنا هو الشرك بالله؛ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بشرك، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون.

إذن أراد المصنف -رحمه الله- أن يبين لنا في هذا السياق الرباني فضلًا عظيمًا من فضائل التوحيد؛ وهو أنه سبب للأمن في الدنيا والآخرة، والأمن عمومًا يقول أهل العلم: الأمن أمنان: أمنٌ في الدنيا، وأمنٌ في الآخرة.

أما الأمن الذي يكون للموحّد في الدنيا: أن يؤمنه الله سبحانه وتعالى من الزيغ والضلال، الله أكبر! أن يؤمّنه الله سبحانه وتعالى من سوء الخاتمة، أن يؤمنه الله سبحانه وتعالى من الانتكاس والارتكاس واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، أمن من الزيغ بكل أشكاله، وأمن من سبل الوقوع في الشرك.. من منا لا يحتاج إلى هذا الأمن؟!

نجد أن هناك أناس حققوا التوحيد بما تعنيه هذه الكلمة، فحقق الله لهم الأمن، وانظروا إلى سير الصالحين.

ومن فضائل التوحيد أن الله يؤمن صاحبه من الوقوع في الفحشاء والمنكر، الربيع بن خُثيم -رحمه الله- كان يعيش في قرية وقد كَثُر الفساق والضُلّال فيها، فاجتمعت فرقة خاصة من الفسقة (كوماندوز) للتضليل ولحرف الناس عن صراط الله المستقيم، كانت مهمتهم هي إيقاع الربيع بن خثيم في الفحشاء، فجمعوا مالًا، وذهبوا إلى امرأة بغي مومسة -أكرمكم الله- تواقع الحرام وتؤجّر فرجها بمقابل المال ولا حول ولا قوة إلّا بالله، فجاؤوا إليها وعرضوا عليها مبلغًا من المال على أن توقع الربيع في قُبلة فقط، يريدون أن يحرفوا ذلك الرجل الصالح ويفتنونه عن دينه.

فقالت لهم: أعطوني هذا المبلغ وأوقعه في أعظم مما تتمنون.. انظروا إلى كيد شياطين الإنس!

فتجملت المرأة وأحسنت هيأتها، حتى جاء ذلك اليوم وتلك الساعة، فكان -رحمه الله- يخرج من المسجد بعد صلاة العشاء ويعود إلى بيته، فبينما هو في الطريق تحت ظلام الليل، تعترض له تلك الفتاة

الفاتنة، أظهرت إليه في بادئ الأمر أنها مستفتية، تريد أن تستفتيه وتسأله في بعض المسائل الشرعية، فلما وقفت أمامه وأخذت تتحدث معه كشفت عن محاسنها، وأخرجت وجهها فكان كفلق القمر، فلما رأى ذلك ودعته إلى ما يريد الزوج من زوجته، عند ذلك ظهرت بركة التوحيد وتوفيق الرب المجيد لذلك الرجل الصالح، فبدأ يذكّرها بالله: يا أمَة الله اتقي الله، أيسرُّك حينما يحضرك ملك الموت أني قد قضيت لك حاجتك تلك! فارتعدت المرأة وقالت: اللهم لا، قال: اتقي الله يا أمَة الله، أيسرُّك حينما توسدين في القبر وتكونين في ظلمة القبر وحدك، فيأتيك منكر ونكير، فيجلسانك وينتهرانك ويسألانك، أيسرك أنّي قد قضيت حاجتك تلك لكِ؟! قالت: اللهم لا، فقال لها: اتقي الله يا أمَة الله، أيسرُّك حينما يقوم الناس لرب العالمين، حفاة عراة غرلًا غير مختونين، والشمس تدنو من الخلائق، أيسرُّك أني قد قضيت هذه الحاجة لك؟! قالت: اللهم لا. وأغشي على المرأة فخرت على وجهها على الأرض.. الله أكبر! جاءت لتفتنه فعصمه الله.. أمنٌ في الدنيا، أمنٌ من الوقوع في الفحشاء والمنكر، أمنٌ من الزيغ عن صراط الله المستقيم.

حينما تتهيأ لك أسباب الغواية وأسباب الضلال، وتكون من الموحدين؛ فإن الله قد وعدك بالأمن في الدنيا من سبل الزيغ والضلال.. فضلٌ عظيم ومنزلةٌ عظيمة.. هذا هو الأمن في الدنيا.

أما الأمن في الآخرة، فيقسّمه أهل العلم إلى قسمين: أمن من الدخول في النار، وأمن من الخلود فيها.

ما الفرق بين القسمين؟

أحدهما أعم والآخر أخص؛ فمن أمن من الدخول أمن من الخلود، ومن أمن من الخلود لم يأمن من الدخول.

فهنا نقول: أن الإنسان إذا كان اهتداؤه تامًا، كان أمنه تامًا، وإذا كان اهتداؤه ناقصًا، كان أمنه ناقصًا، وإذا لم يكن عنده اهتداء، فلا أمن له لا في الدنيا ولا في الآخرة ولا حول ولا قوة إلا بالله!

نأتي إلى الصورة الأولى:

رجل أتى بالتوحيد، وأتى بما تستلزمه كلمة التوحيد، وحقق الشروط والواجبات، وكف نفسه عن اقتراف الذنوب والمعاصي، وتاب من كل ذنب اقترفه، فلقي الله تائبًا.. هذا اهتداءه تام، فله بوعد الله الأمن التام في الدنيا والآخر، فيكون أمنه في الآخرة أن يتفضّل الله سبحانه وتعالى عليه بأن يؤمنه من الدخول في النار.

الصورة الثانية:

رجلٌ حقق التوحيد، ولكنه أسرف على نفسه باقتراف الذنوب والمعاصي، هذا أمنه ناقص، فتحقيقه للاهتداء هنا ناقص، فلذلك يكون أمنه من الزيغ في الدنيا ناقصًا، وأمنه في الآخرة ناقصًا، وهو في الآخرة إن مات على هذا الحال فهو يأمن من الخلود وقد يدخل، لأنه لقي الله بذنوبٍ هي تحت المشيئة، فإن شاء الله غفر له وإن شاء عذّبه.

أما الحالة الثالثة:

رجل لا أمن له ولا اهتداء، وهو الذي لقي الله سبحانه وتعالى على الشرك، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فهو في الآخرة موعود بالخلود في النار ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إذن فهذه هي الآية الأولى، بين المصنف فيها فضلًا من فضائل التوحيد، وهو أن التوحيد ينال به صاحبه الأمن والاهتداء.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَن شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وأنَّ عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، والجنة حق، والنار حق؛ أدخله اللهُ الجنَّة على ما كان من العمل).[١] أخرجاه

ولهما في حديث عتبان: (فإنّ الله حرّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله).[٢]

---

(١): الفضل المستنبط من هذا الخبر: دخول الجنة يكون بعد تحقيق التوحيد، حتى وإن قصر في الأعمال غير الواجبة أو التي لا تتنافى مع أصل الإيمان، وإنما قد تتنافى مع كماله.

(**مَن شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له**): المراد بالشهادة هنا: أي حقق لا إله إلا الله، ليس المراد فقط أن يتحدث بها قولًا دون أن يحقق شيئًا من أركانها وشروطها ومقتضياتها؛ لأن أهل العلم قرروا أن لا إله إلّا الله هي كلمة لا تراد لحروفها فقط، بل تراد كذلك لحروفها وشروطها ومعانيها ومقتضياتها ولوازمها، لأن القول يشترك فيه المؤمن والمنافق، لأن المنافقين قالوها ولكنهم كانوا في الدرك الأسفل من النار، ولا شك أننا نعلم علمًا جازمًا، أنه لا يمكن أن يُساوى بين من يقولها لفظًا فحسب، وبين من يقولها ويأتي بلوازمها ومقتضياتها، هناك فرقٌ عظيم.

(**وأنَّ محمّدًا عبده ورسوله**): الشهادة للنبي ﷺ تكون بطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألّا يُعبد الله إلا بما شَرع. هذا هو معنى الشهادة للنبي ﷺ.

ثم هنا لفظة عظيمة، أن الله سبحانه وتعالى دائمًا يصف النبي ﷺ بوصف العبودية؛ أي أن النبي ﷺ عبد، وَوَصْفُ الله لنبيه بالعبودية هو وصف تكريم وتعظيم. أعظم شيء في هذه الدنيا أن تكون عبدًا لله، وأعظم الذل والخزي أن تكون عبدًا لغير الله، هناك مِن الناس مَن يكون عبدًا للمخلوقين،

بعضهم يكون عبدًا لشهوته، لشهوة بطنه، لشهوة فرجه، عبد للمال ((تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار)) [أخرجه البخاري باختلاف يسير]، لا شك أنه وُصِفَ بالتعاسة والشقاء، فكيف بإنسان يعيش تعيسًا في هذه الدنيا، كيف سيكون حاله حينما يلقى الله!

فالله سبحانه وتعالى وصف نبيه بهذا الوصف العظيم في أشرف المواضع، وصفه بالعبودية حينما أنزل عليه خير الكتب: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف].

ووصف النبي ﷺ بالعبودية في موضع عظيم آخر وهو يوم الإسراء والمعراج: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء]. وصف تشريف.

لذلك يقول أهل العلم: أن العبد حينما يتذلل للمخلوقين يزداد ذلًّا، وحينما يتذلل للخالق يزداد عزًّا. الله أكبر!

ما أعظم أن يتقرّب الإنسان إلى ربه بالافتقار والانكسار!، حينما يقف أمامك محتاج فينكسر بين يديك، ثم تذرف عيناه، ويقول لك يا عم، والله لا أجد في بيتي ما يسد جوعي ورمقي، وتذرف عيناه بين يديك، واللهِ إن كنت أقسى الناس قلبًا ستجد أنّ قلبك يلين تجاه هذا المنكسر.

فكيف حينما ينكسر المؤمن بين يدي أرحم الراحمين سبحانه وتعالى، إذا كانت هذه الرحمة التي يتراحم بها العباد وتتراحم بها المخلوقات جمعاء هي رحمة واحدة، وقد ادخر الله سبحانه وتعالى عنده تسعة وتسعين رحمة لعباده حينما يلقونه يوم القيامة، هو الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى.

إذن فهذا وصف تشريف وتعظيم.

ونجد أن الحديث هنا وُصِف النبي ﷺ بوصفين: وصف العبودية، ووصف الرسالة، فهو عبدٌ فلا يُعبد، ورسولٌ فلا يُكذب، فإذا علم الإنسان أن النبي عبدٌ لله أدرك الإنسان أنه لا يستحق شيئًا من أفعال العباد وطاعاتهم، لأنه عبد ﷺ لله، فلا يستحق وصف الألوهية، فلا يستحق أن يكون إلهًا يُعبد

من دون الله عز وجل.. كما وقع في ذلك كثير من الناس، استغاثوا به ﷺ في حال الكروب وفي حال الشدائد، وما علموا أن دعاء غير الله سبحانه وتعالى شركٌ بالله سبحانه.

إذن وُصِف النبي ﷺ في هذا الحديث بوصفين وصف العبودية، ووصف الرسالة، فهو عبدٌ فلا يعبد، ورسولٌ فلا يُكذَّب.

(وأنَّ عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه): الكلمة هنا كان بها عيسى عليه السلام، وليس هو الكلمة. والنصارى تقول أن عيسى بعض من الإله، فلذلك يقولون أن الله ثالث ثلاثة. وتوجيه أهل العلم لقوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء]، أن "مِن" هنا ابتدائية أي أن الكلمة كان ابتداؤها من الله، أي أن عيسى عليه السلام كان بالكلمة: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة]، لا أنه بعض الكلمة.

(والجنّة حق): الجنة هي دار النعيم، أعدها الله جزاءً للطائعين، جزاءً لمن امتثلوا أمر الله وانتهوا عن نهيه. العامل جزاؤه بعد الفراغ من العمل أن يعُطى أجرته.. حينما تأتي بعامل ليبني لك حائطًا أو ليعمل لك عملًا في دارك، يكدح هذا العامل، فبعدما ينتهي يتقاضى أجرته، فإن أحسن العمل أحسنت له العطاء، وإن أساء العمل أنقصت له من العطاء، وإن لم يقم بالعمل لم يستحق شيئًا من العطاء.

فكذلك الإنسان في هذه الدنيا، إن أحسن العمل بطاعة الله وامتثال أمره واجتناب نهيه؛ أحسن الله له الجزاء في الآخرة ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن]، وإن قصّر فلا شك أن جزاءه سينقص بقدر تقصيره، وإن لم يمتثل أمره ولم ينتهِ عن نهيه سبحانه وتعالى فجزاؤه معلوم حينما يلقى الله سبحانه وتعالى.

نعم إذن فالجنة هي دار النعيم التي يجازي الله بها عباده الصالحين.

(والنّار حق): كذلك النار هي دار أعدها الله للعصاة والمعرضين، خلقها الله وهي مخلوقة الآن، وهي دار يخوف الله بها عباده، ويتوعدهم إن خالفوا أمره بأن يذوقوا من حرها، وأن ينالهم شيء من حميمها وسمومها أجارنا الله وإياكم من نار جهنم.

(أدخله الله الجنَّة على ما كان من العمل): في آخر الحديث يتجلى الفضل بالتوحيد، وأنّه عمل ينال به الإنسان دخول الجنة حتى وإن حصل عنده تقصير يتنافى مع كمال الإيمان لا يتنافى مع أصله.

أي أن الإنسان إذا لقي –الله سبحانه وتعالى– محققًا للتوحيد ولكن عليه بعض الذنوب التي دون الشرك لم يتب منها، فهنا من لقي الله على هذا الحال، هو يأمن من الخلود في النار، أي أنه قد يدخل النار، حيث أنه لم يدخل الجنة ابتداءً وإنما مآلًا، لأنه هنا قال (على ما كان من العمل) فإن شاء الله أن يغفر له تلك الذنوب فيكون دخوله ابتداءً، وإذا لم يشأ الله سبحانه وتعالى أن تغفر تلك الذنوب وأراد الله أن يؤاخذه عليها كان الدخول هنا مآلًا .

(٢): **(فإنّ الله حرّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)** من يبين لنا الفضل؟

يمكن أن نحمل التحريم هنا على المعنيين، قد يكون قدر عمل الإنسان، فإن كان متمّمًا للاهتداء كان التحريم تامًا، أي تحريم دخول، وإذا كان الاهتداء ناقصًا كان التحريم من الخلود. إذن يمكن أن نحمله على هذين المعنيين بناءً على عمل العبد.

الفضل هنا: أن من حقق التوحيد حرّمه الله على النار، وهذه نعمة عظيمة، قد يسأل البعض: كيف أنجو من نار جهنم؟ ما السبيل للنجاة منها؟

فيكون الجواب: حقق التوحيد ينجيك الله سبحانه وتعالى منها.

(يبتغي بذلك وجه الله): فيه تأكيد كذلك على الإخلاص، وهو شرط من شروط الكلمة (لا إله إلا الله)، ودعوة إلى أن يتجرد الإنسان من أطماع النفس وحظوظ الدنيا والتطلع إلى ما عند الناس وثناء الناس.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: (قال موسى: يا ربِّ! علِّمني شيئًا أذكرك وأدعوك به قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله، قال: يا ربِّ! كلّ عبادك يقولون هذا! قال: يا موسى لو أنّ السموات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله).(١) رواه ابن حبان والحاكم وصححه

وللترمذي وحسَّنه عن أنس ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قال الله تعالى: يا ابن آدم! إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة).(٢)

---

(١): **(قال موسى: يا ربِّ! علمّني شيئًا أذكرك وأدعوك به)**: انظروا إلى حرص الكليم ﷺ كليم الله ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [النساء]، فهذه منزلة عظيمة لنبي من أولي العزم من الرسل.

انظروا إلى الحرص، انظروا إلى التفاني، انظروا إلى حرصه على أن يدلّه الله على خير يتمسك به ويلزم غراسه!

فهنا فائدة عظيمة: أن الهداية ودلالة الخير تُستمد ابتداءً من الله سبحانه وتعالى.

يا ربِّ دُلّني! كم نحن بحاجة إلى هذه الدعوة.. أن يكون الإنسان منكسرًا متذللًا خاضعًا وخاشعًا لله.. يا ربِّ اهدني ودلّني وأرشدني! لذلك كان النبي ﷺ كما في الصحيح من حديث علي ﷺ، أرشده إلى دعوة عظيمة طيبة نافعة: قال النبي ﷺ لعلي: ((قُلْ -في دعائك-: اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ بالهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ)) [صحيح الجامع].

دعوة عظيمة (**دُلّني**).. كم نحن بحاجة إلى أن يرشدنا الله سبحانه وتعالى إلى طريق الهداية والصلاح، فهذا أدب جم، وأدب عظيم، فعلى الإنسان أن يحرص عليه.

(**علِّمني شيئًا أذكرك وأدعوك به**): وهذه دعوة إلى أن الإنسان لا يتعالم، لأن الإنسان إذا تعالم أصبح يستغني عن العلم الذي يكون عند الآخرين.

علِّمني.. أنا جاهل، لا أعرف، لا أفهم، فعلى الإنسان أن يقتنع بأنه محتاج إلى التعلم ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه]، فنحن محتاجون إلى التعلم، لذلك قال بعضهم: طلب العلم من المحبرة إلى المقبرة. فعلى الإنسان أن يجتهد بطلب العلم، لذلك أهل العلم يقولون أن النبي ﷺ ما سأل ربّه أن يزيده من شيء إلا العلم، فطلب الازدياد منه، وهذا يدل على أهميته وفضيلته.

(**قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله**): الله أكبر! يريد ذكرًا ودعاءً فيرشده الله سبحانه وتعالى إلى أعظم كلمة تلفظت بها الشفاة ونطقت بها الألسن، كلمةٌ أُسست من أجلها الملة، ونُصبت القِبلة، وجُرّدت سيوف الجهاد، وانقسم الناس بسببها إلى مؤمن وكافر، وإلى شقي وسعيد، كلمةٌ من حققها نال الكرامة والجزاء العظيم حينما يلقى العظيم سبحانه وتعالى.

(**قال: يا ربِّ! كلّ عبادك يقولون هذا!**): فكأنّ موسى عليه السلام أراد شيئًا خاصًا به.

(**قال: يا موسى لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري، والأراضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله**): الله أكبر! يبين الحق تبارك وتعالى منزلة هذه الكلمة: يقول الله لموسى: لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري، أي أن السماوات السبع بما فيها من العُمَّار، بما فيها من الملائكة، بما فيها من العرش، و.. و.. و.. إلخ، سِوى الله سبحانه وتعالى، والأراضين السبع بمن فيها: بالأنبياء، والصالحين، والجبال والأنهار في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، تطيش الموازين عند ذلك، لأن كلمة التوحيد لا تزنها السماوات والأرض.

هذه منزلة كلمة التوحيد، فكيف بمن اعتقدها؟! فكيف بمن حققها؟! فكيف بمن دعا إليها؟! فكيف بمن جاهد من أجلها؟! فكيف بمن قتل في سبيلها؟! كيف ستكون منزلته عند الله؟! لا شك أن المنزلة عظيمة، وأن المكانة شريفة، ولكن ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق].

فالزموا هذه الكلمة، واجتهدوا في تحقيق أركانها وشروطها، فنحن بحاجة إلى موحدين بررة، يحملون هذه الراية، يذبّون عن حمى لا إله إلا الله، يذبّون عن حمى الدين وعن حرمات المسلمين، رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه،

إذا قُتل أحدهم أو طُعن أحدهم أخذ يمسح وجهه بدمائه يقول: فزتُ ورب الكعبة.. عند ذلك تنتصر الأمة، عند ذلك يسقط مُلك كسرى وقيصر، مُلك النصارى واليهود، مُلك فارس، يكونوا تحت سلطان ووصاية المؤمنين.

ولكن الخلل فينا، والتقصير فينا، لقد ابتعدنا كثيرًا عن التوحيد، فلذلك عشنا في السنوات الماضية في صَغار وذل، فلما بدأت الأمة تعود شيئًا فشيئًا إلى توحيدها أنفذ الله بكرمه على أيديها حكم الله، ومرغ الله على أيديها أنوف من كفر بالله عزة وكرامة لهذه الأمّة، فكلما كنا أكثر تحقيقًا لهذه الكلمة، كلما ازداد كرم الله لنا، وازدادت مكانتنا عند الله سبحانه وتعالى.

فالفضل المستمد من الحديث: أن التوحيد فضله لا يُساوى، ولا يمكن أن يُوزن بميزان حتى وإن كان في الكفة الأخرى السماوات والأرض.

لا شك أن الأدلة الواردة والتي تثبت أن الله سبحانه وتعالى في السماء والتي تثبت له علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات، هي أدلة كثيرة:

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام]، وكذلك هذا الحديث ((لو أن السموات السبع وعامرهن غيري))، ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه]، وحديث الجارية ((أفلا أعتقها؟ قال: ائتني بها، فجئت بها، فقال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: اعتقها فإنها مؤمنة)) [صحيح أبي داوود]، ﴿ءَأَمِنتمُ مَّن فِى السَّمَاءِ أنَ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ [الملك]، وحديث ((ارحموا من في الأرضِ يرحمْكم من في السماءِ)) [أخرجه أبو داوود والترمذي].

كل هذه الأدلة تدل على أن الله سبحانه وتعالى في السماء، فهي رد على من يقول بأنه -سبحانه- ليس داخل العالم ولا خارج العالم، وأنهم لا يثبتون لله الجهة، ويقولون أن الله في كل مكان. فالله في السماء ولكن أحاط بعلمه كل شيء سبحانه وتعالى، مستوٍ على عرشه بائنٌ من خلقه سبحانه وتعالى.

(٢): **(قال الله تعالى: يا ابن آدم! إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة)**: الفضل المستمد من هذا الحديث: أن من حقق التوحيد فإن الله سبحانه وتعالى يمحو ويغفر ما أمامه من الذنوب التي تكون دون الشرك، حتى وإن كانت كزبد البحر أو إن كانت كثيرة العدد.

(لو أتيتني بقراب الأرض خطايا) لكنّ الشرط: (ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا).

إذن فهذه خمس فضائل للتوحيد أوردها المصنف -رحمه الله تعالى- تحت هذا التبويب: باب فضل التوحيد وما يكفرّ من الذنوب.

الدرس الثالث

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: باب من حقَّق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.(١)

بسم الله، الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

ما زلنا معاشر الأحبة نتدارس وإياكم متن كتاب التوحيد، فنتناول وإياكم بإذن الله تعالى في درس هذا اليوم الباب الثالث.

(١): **(باب من حقَّق التوحيد)**: التحقيق في اللغة: هو التخليص والتصفية. إذا خلّصت الشيء وصفّيته.

أما من الناحية الاصطلاحية: فهو أن يحقق الإنسان أو أن يخلّص الإنسان ويصفي قلبه من الشرك والبدع والذنوب والمعاصي وما ينافي التوكل. هذا هو معنى التحقيق من الناحية الشرعية.. هو تخليص القلب وتنقيته من الشرك والبدع والذنوب والمعاصي وما ينافي التوكل.

والتحقيق يقسّمه أهل العلم إلى قسمين: تحقيق واجب وتحقيق مستحب.

ومعنى التحقيق الواجب: هو أن يخلّص الإنسان قلبه من الشرك والبدع والمعاصي، فهذا التحقيق واجب على المكلّفين يؤاخَذون إن قصّروا فيه.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَـانِتاً لِّلَهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.(١) [النحل]

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾(٢) [المؤمنون].

= القسم الثاني وهو التحقيق المستحب: عرّفه أهل العلم بأنه تخليص القلب وتصفيته من التعلق بالمخلوقين، ومما فيه مِنّة من الخلق أو ذِلّة ينالها الإنسان حال سؤاله المخلوقين.

(باب من حقَّق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب) أليس هذا فضل من فضائل التوحيد؟ لماذا لم يذكرها المصنف في الباب الماضي؟

إذن نفهم أن المصنف –رحمه الله تعالى– أفردها بالذكر لعلوِّ مكانتها، وعظيم منزلتها، ولكثرة الأدلة التي تدل عليها، ولكثرة الإخلال بها، ناسبَ أن يفردها المصنف بالذكر.

(١): **﴿إِنَّ إِبْرٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**: آية عظيمة يصف الله سبحانه وتعالى بها خليله إبراهيم بعدة صفات، أول وصفٍ وُصِفَ به إبراهيم في هذه الآية أنه كان أمّة أي كان إمامًا.

يقول المفسرون: وصف الله سبحانه وتعالى خليله إبراهيم بأنه كان أمّة مع أنه كان واحدًا؛ لأجل ألا يستوحش السالك من قلة السالكين. دائمًا أهل الحق في غربة «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء» [صحيح مسلم].

لا شك أن السائر على طريق الحق يستأنس حينما يعلم ويوقن أنه أمّة للزومه الحق، فبذلك يتبدد ذلك المفهوم الخاطئ عند كثير من الناس، الذين فهموا من الجماعة وفهموا من الحق أنه موافقة الكثرة.

يقول ابن مسعود ﷺ: (الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك). الله أكبر! معنى عظيم، فيُحمل على هذا المعنى النصوص الواردة التي توجب على المكلف لزوم الجماعة، فإذا قيل لك: الزم جماعة المسلمين، فإنك تلزم الحق وأهله، كَثُرَ عددهم أو قل.

هذا المفهوم قد يُشكل على البعض، حينما ينظر الإنسان في كل زمان ومكان، يجد أن أخصام الحق كثرة، وأن أهل الحق قلة وهذه سُنّة إلهية، أراد الله سبحانه وتعالى بها حِكمًا شتى.

إذن وصف الله سبحانه وتعالى خليله إبراهيم بأنه كان أمة وهذا وصف بليغ وعظيم.. لما حقق التوحيد كان بذلك التوحيد في مثابة وفي منزلة أمة من الناس.

فنفهم من ذلك أن كثيرًا من الدهماء وكثيرًا من الأعداد التي تتجمع على غير الحق والهدى هي ليست بشيء حتى وإن كانت على هذا القدر من الكثرة.

وقد جاءت الكثرة في كتاب الله عز وجل مذمومة في مواضع شتى ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف]، وكذلك جاء في كتاب الله العزيز الثناء على القلة ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص]، وغير ذلك من الآيات.

إذن فهذا هو الوصف الأول، يصف الله سبحانه وتعالى إبراهيم بأنه كان إمامًا، وكان أمّة بتوحيده، أمّة بإخلاصه، أمّة بيقينه، أمّة بتوكله على ربه سبحانه وتعالى.

لذلك لا غرابة حينما يتكالب أهل الشرك على إبراهيم الخليل، ثم يضرمون نارهم، ثم يكبّلوه ويقيدوه، لا غرابة أن يثبت إبراهيم ﷺ في مثل ذلك الموقف، ولا يمكن أن يوصف ﷺ بتلك الأوصاف ثم يزيغ قلبه وتضطرب أقدامه في ذلك الموقف، فلما أُلقي في النار قال: حسبي الله ونعم الوكيل، متوكلًا على الله، لم يجعل المخلوقين هم حسبه بل جعل الله سبحانه وتعالى هو حسبه وهو نصيره، لذلك جاء الفرج وجاء المدد من رب العالمين ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء].

هكذا يكرم الله سبحانه وتعالى عباده الموحدين، وها نحن نرى الآن -ولله الحمد والمنة- تكالب الأمم على قتال أناس وحّدوا الله، وحققوا التوحيد الخالص لله، أنفذوا حكمه، وأطروا الناس على شريعة الله أطرًا، فكان الحكم كله لله، وكان الأمر كله لله، لا مجال لأن تُسنّ القوانين، لا مجال لأن يُعبد غير رب العالمين، فوحّد الناس ربهم، واتجهوا إلى خالقهم، والتزموا شريعة مولاهم، فتآمر الشرق والغرب عليهم (سُنّة إلهية).

ولله سبحانه وتعالى في ذلك حِكَم، فبالبلاء يظهر الصادق من الكاذب.. بالبلاء تظهر معادن الرجال، لذلك في وقت الرخاء تجد أن الموافقين كُثر، وفي وقت الشدة تجد القلة القليلة؛ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد].

الله سبحانه وتعالى له حكمة في ذلك، لأن الأدعياء كُثر الكل يدّعي وصلًا لليلى، وليلى لا تقرّ لهم بذاك، الكل إذا فُتح المجال لأن يُدلي الإنسان بدلوه قال: أنا الموحد، أنا الذي آمنت بالله وكفرت بالطاغوت،

فإذا نزلت النازلة تبين من بكى ممن تباكى، وهذه سنة الله، فنسأل الله سبحانه وتعالى ألا نوكل إلى أنفسنا، وألا نكون من الذين يتزعزعون عند نزول الوقائع وحصول المتغيرات.

إذن هذا هو الوصف الأول أنه كان أمة.

الوصف الثاني: كان ﷺ قانتًا لله. والقنوت هو دوام الطاعة، أي أنه كان مديمًا للطاعة لله عز وجل، يديم التذلل لله، والخضوع لمولاه، وهذه كمال العبودية لله عز وجل.

فلذلك حريٌّ بكل إنسان أن يتذكر حينما نعرض هذه الأوصاف قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام]: هنا لا شك أن الأمر الإلهي اتجه إلى النبي ﷺ ابتداءً وأصالةً، ولكن قرر أهل العلم أن كل أمر تكليفي يتجه إلى النبي ﷺ فهو في الأصل أمر لأمته إلا إذا دل الدليل على تخصيص النبي ﷺ بذلك.

قانتًا لله: أي مديمًا للطاعة لله عز وجل. وهنا بين الله سبحانه وتعالى أن طاعة إبراهيم كانت لله، أي خالصةً لله وحده لا شريك له، لم تُصرف لغيره ولم يَشُبها رياء ولا نفاق ولا كذب ولا دجل.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة]، الحنيف يطلق في لغة العرب على المائل. والمراد بإيراد هذا اللفظ وهذا المعنى في هذا السياق: أي أن إبراهيم عليه السلام كان مائلًا عن الشرك إلى التوحيد. وهذا أعظم صور التحقيق، أن تجانب وأن تفارق الشركه وأهله؛ لأن مجالسة المشركين ومخالطتهم قد تؤول بالإنسان إلى الوقوع في المحذور؛ لأن كثرة الإمساس تميت الإحساس، فقد ترى في بادئ الأمر مظاهر الشرك فتنكرها بلسانك، ثم مع كثرة الإمساس تترك الإنكار باللسان، فتنكرها بقلبك ثم بعد ذلك تكون شيئًا عاديًا في حياتك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تعالى– بالاقتضاء: وموافقة الكفار في الظاهر تؤول بالموافِقِ إلى موافقتهم في الباطن.

لا يمكن موافقة الكفار في الظاهر إلا وتؤول بصاحبها إلى موافقتهم في الباطن.

أضرب مثالًا: رجل يتزيّا بزي المشركين، لماذا يلبس لباسهم؟ لو لم تكن هناك محبة لهذا المظهر لما تزيّا به. رجل يتشبه بالصالحين، يتشبه بالمجاهدين؛ هذا يدل على محبته لهم. رجل يتشبه بالفنانين والمغنيين والراقصين؛ هذا يدل على إعجابه وعلى محبته لهم. دائمًا الظاهر يترجم ما في الباطن.

يقول عثمان رضي الله عنه في موقف أورده أهل السير: دخل رجل على عثمان رضي الله عنه فنظر إليه عثمان – انظروا إلى فراسة عثمان– فقال عثمان: أيعصي أحدكم ربه ثم يدخل عليّ؟! فصعق ذلك الرجل وقال: يا أمير المؤمنين، أوحيٌ بعد رسول الله؟ قال: لا، ولكن ما أسرَّ رجل سريرة في نفسه إلا وأظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه. دائمًا: الظاهر يترجم ما في الباطن.

ولا يمكن أن يفلح المتصنع مع طول الزمان وطول الوقت، لا بد أن يُكشف، لذلك أبرز صفات المنافقين: مهما يكتم المنافق في نفسه خلاف ما يظهر فإن مع مرور الزمن تُكشف الحقائق، وحينما يوضع المنافق على المحك تظهر الحقيقة ﴿وَإِذَا قَامُوٓا إِلَى الصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ﴾ [النساء]، ((أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء، وصلاة الفجر)) [صحيح مسلم]، لا يمكن.. مهما سعى لأن يظهر ويتصنع الصلاح لا بد أن تُكشف الحقيقة. حينما ابتُلي المنافقون في زمن النبي ﷺ بالقتال، ماذا حصل؟ انسحبوا وولوا الدبر وانهزموا، لأن الله كره انبعاثهم ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة]. دائمًا لا يمكن للمنافق أن يستمر على هندامه الظاهري ولا على صورته الظاهرية، بل سرعان ما يُخذل وتُكشف صورته الحقيقة.

إذن عرفنا ما معنى الحنيف.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: أي أن إبراهيم عليه السلام ما كان في يوم من الأيام من الذين يصرفون عباداتهم لغير الله عز وجل، لم ينصرف بباطنه ولا ظاهره ولا بأقواله ولا بأفعاله لغير الله عز وجل، بل كانت عباداته لله وحده لا شريك له.

فما هي مناسبة إيراد هذه الآية ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إلى الباب؟ (باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب)؟

أورد المصنفُ -رحمه الله تعالى- هذه الآية تحت هذا الباب ليبين أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حقق التوحيد، وكان مَضربًا للمثل في تحقيق التوحيد، وأنه حقق أعلى صفات التحقيق عليه الصلاة والسلام.

(٢): وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ**﴾: هذه صفة الذين حققوا التوحيد، أنهم لا يشركون بالله عز وجل، لا يشركون به لا شرك أكبر ولا أصغر، لا يشركون به لا شركًا ظاهرًا ولا شركًا باطنًا، لا يشركون بالله عز وجل لا في أفعالهم ولا في أقوالهم ولا في اعتقاداتهم، بل يحققون التوحيد في هذه الأركان الثلاثة: القول والعمل والاعتقاد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيُّكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة؟ فقلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لُدِغت، قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيت، قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة، قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: عُرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك؛ فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام، فلم يشركوا بالله شيئا، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: هم الذين لا يَسْتَرقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون. فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم؟ قال: أنت منهم. ثم قام جل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: سبقك بها عكاشة.(١) [أخرجه البخاري ومسلم]

---

(١): **(أيُّكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة)** هنا مسألة: ظاهرة فلكية تحصل وتقع في زمن التابعين، فيهتم التابعون لها، فيتساءلون أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟

وهذا فيه دعوة لإدامة النظر في الأفلاك للتدبر والتفكر، حتى جاء في بعض الأخبار: أن تدبر ساعة أو تفكّر ساعة خير من قيام ليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يونس]. في ذلك تذكرة، في ذلك موعظة لأهل العقول وأصحاب القلوب الطاهرة الصافية.

إذن كان الصالحون يتواصى بعضهم مع بعض للتفكر في آيات الله الكونية لأن الآيات الدالة على وحدانيته سبحانه وتعالى إما أن تكون آيات كونية أو آيات شرعية.

كل هذه الأفلاك، وكل هذه السماوات، حركة المجرات، وحركة الأفلاك،كلها تدل على وحدانية الله سبحانه وتعالى، دقةٌ متناهية تظهر في مخلوقات الله عز وجل، مما يدل على عظمة الخالق سبحانه وتعالى عما يشركون.

فَيَـــا عَجَبـــاً كَيـــفَ يعُصـــى الإلـــه أمَ كَيـــــفَ يجَحَـــــدُهُ الجاحـــــدُ
وَفي كُـــــلِّ شَـــــيءٍ لَـــــهُ آيـــــةٌ تَـــــدُلُّ عَلـــــى أنَّـــــهُ واحِـــــدُ

(فقلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة): الكوكب الذي انقضَّ كان في آخر الليل، فالمستيقظ في هذا الوقت مظنّة أن يكون في صلاة في عبادة، ففي جواب حُصين دليل على مشروعية أن يدفع الإنسان عن نفسه ما قد يُتوهم فيه.

مثلًا: لو قيل لأحدنا أيُّكم سمع الصوت الذي خرج في الساعه الثانية ليلًا أمس؟ فقد يقول أحدهم: نعم أنا كنت مستيقظًا، فيظن البعض ما شاء الله.. نسأل الله الإخلاص.. أنه كان يتهجد أو يصلي.. فيقولون ما شاء الله أنت كنت مستيقظ؟ فيقول: نسأل الله الإخلاص! يعني أصلًا لم يكن في صلاة، ولكنه يحب أن يمدح بما لا يفعل.

مثلًا: تقول لرجل: تعال كُلْ، فيقول: بس بس.. جزاك الله خير. ويكون ذلك مثلًا في يوم الاثنين أو في يوم الخميس أو في الأيام البيض، أو في عشر ذي الحجة (بما أننا نستقبل عشر ذي الحجة)، وهو ليس بصائم، ماكل ثلاثة شاورما.. ثم بعد ذلك تقول له: تعال كُلْ.. فيقول: جزاك الله خير، بارك الله فيك، نسأل الله الإخلاص.. ما يريد أن يقول لست بصائم، يقول: نسأل الله الإخلاص!

بعض الناس يتصنع ويحب ذلك، فهذا لا شك أنه يخالف ما كان عليه السلف، بل بعضهم عنده مهارات عالية في ذلك حتى ممن اشتُهر بذلك علماء الشيعة، درجة أولى في التصنع، ولعلكم شاهدتم

بعض التسجيلات والمقاطع، إذا ابتعدت عنه الكاميرا عاد إلى هيئته الطبيعية، وإذا اقتربت منه الكاميرا بدأ يظهر الصراخ والنحيب، كذب وتلاعب بعقول الناس.

إذن نفهم من قول حصين مشروعية أن يدفع الإنسان عن نفسه ما قد يُتوهم فيه أو يُظن فيه.. (أما إني لم أكن في صلاة) وهذا من صدقه.. قال لك: تعال كُل، قُل: بس.. أنا أكلت قبل قليل، أو قل: بس.. ولكني لست بصائم.. فيتفطّن الإنسان لمثل ذلك، ولا يكن كحال صاحبنا الذي ذكرنا أنه يحب مثلًا أن يقول نسأل الله الإخلاص.

مثال آخر: رجل دخل إلى المسجد، وله قريب هنا (في المسجد) عنده مفتاح بيت أو مفتاح سيارة، فجاء فأخذ المفتاح ثم خرج، فالتقى به رجل آخر عند الباب وسأله من أين جئت؟ فيقول والله أنا كنت في درس التوحيد نسأل الله الإخلاص. وهو ما شهد الدرس وما حضر كلمة واحدة، ولكن أخذ المفتاح وخرج، فيحب أن يمدح بشيء لم يكن عليه ولم يفعله.

(**ولكني لُدِغت**): بيَّن سبب استيقاظه في هذه الساعة فقال لُدِغت، أي: قرصتني عقرب أو هامّة من الهوام.

(**قال: فما صنعت؟**): انظروا إلى هذا الأسلوب التربوي، سعيد –رحمه الله– عالم وإمام من أئمة التابعين، كان بوسعه أن يقول: عليك بارك الله فيك أن تفعل كذا وكذا.. يتعالم عليه ويتفلسف، ولكن انظروا إلى الأدب وانظروا إلى الأسلوب التربوي، لا يتعالم.. أهل التقوى لا يتصنعون ولا يتعالمون.

فقال له: ما صنعت؟ يسأله لعله يكون عنده علم، بل لعله عنده علم ليس عنده.. أما بعض الناس يحتقر الكل.. حفظ حديثًا أو حديثين، أو آية أو آيتين، فظن أنه شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–، وبلغ درجة الاجتهاد المطلق وحُق له أن يفتي في الدماء ويفتي في الأعراض، و يفتي في كل شيء، وتجد أن حصيلته العلمية لا تتجاوز حديثًا أو حديثين، فهذا لا شك أنه نذير شر لصاحبه.

الصحابة ﭭ كانوا يتدافعون الفُتيا على أنهم أصحاب علم وفقه، وقد ورد النهي عن أن يتصدر الإنسان لأجل أن يلفت أعناق الناس إليه.. انظروا إلى فلان..

يروى أن أحد السلف دخل على إمام من الأئمة وكان مجلسه مليئًا بطلبة العلم، وكانت الأعداد التي تحضر في درسه مضربًا للمثل آية.. فيه أعداد خيالية، فدخل هذا العالم الواعظ على ذلك العالم في درسه، فتخطّى الرقاب حتى وصل إليه فهمس في أذنه -انظروا إلى الصدق في النصيحة، ما أكثر عليه- قال: يا أخي إن كنت معجبًا بمجلسك هذا فقمْ. فقام هذا الإمام من درسه، خشي على نفسه، قال: أذهب لأصحح نيتي ثم أرجع.

ويروى كذلك أن عالما من العلماء أعجب بنفسه في أثناء درسه (بَشَر) فدخل العُجب في قلبه - نسأل الله أن يحفظنا وإياكم من مداخل الشيطان- فدخلت عليه عجوز في أثناء الدرس، فسألته مسألة من مسائل الحيض يجيب عنها أصغر طلبة العلم، فلما سُئِل أمام طلابه قال: ها؟ كيف؟ أعيدي السؤال؟ ما استطاع الإجابة.. رفع الله عنه العلم والبصيرة، فقال: الله أعلم ما أعرف.

تعجب الطلاب، هذا الشيخ في مرحلة متأخرة، الطلاب الذين يدرسون عنده على مستوى عالٍ، فتعجَّبت العجوز وقالت: على ماذا اجتمع هؤلاء؟! هذه المسألة البسيطة أسألك عنها فلا تجيب، وهؤلاء يجتمعون حولك؟

فخرجت، ففي أثناء خروجها عند باب المسجد التقت بطالب علم صغير جاء بالمحبرة والدفتر، فسألته هذا السؤال؛ قالت يا ولدي تعال، امرأة كذا وكذا فأجابها، قالت والله إنك خير من شيخك.

فانظروا إلى صدق الشيخ، تدارك هذا الشيء، فمكث يستغفر ربه، ويبرأ إلى الله من حوله وقوته، فقال: والله ما أعياني الجواب على هذه المرأة، ولكنه أمر حاك في نفسي، وألَمَّ بقلبي، فأُنسيت بسببه العلم، فوعظ طلابه، وأبلغ في الموعظة فبكى وبكى التلاميذ.

فنحن بحاجة أن نتعاهد قلوبنا، فوالله ما منا إلا ويصاب قلبه بمثل هذه الأمراض، نحن من جملة البشر، ولكن أهل التقى يتعاهدون قلوبهم كما يتعاهد أحدنا ماله ودنياه، يا ليت حرص المرء على قلبه وعلى تطهير قلبه كما يحرص أحدنا على ماله وعلى عياله وعلى دنياه، ولكن إلى الله المشتكى.

إذن هذا أسلوب تربوي، أن تسأل ما الذي حملك؟ رأيت ابنك الصغير يفعل طاعة من الطاعات أو جارك أو رجل من العامة، قلت له: يا أخي ما شاء الله، ما حملك على فعل هذه الطاعة؟ فقال والله سمعت حديثًا عن النبي ﷺ كذا وكذا، فتعرف أنه بنى عمله هذا على مستند شرعي، وقد يقول: والله بس قلدتُ فلانا، فتقول له: لا.. ينبغي عليك أن تعلم أن هذا الأمر ثبتَ بقال الله وقال الرسول وهكذا.

(قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيت –وفي رواية: استرقيت، أي: طلبت الرقية من الغير– قال: فما حملك على ذلك؟): انظروا، أسلوب تربوي آخر، ما صنعت؟ قال: ارتقيت. لماذا فعلت ذلك؟ ما الذي حملك؟ كان بوسع سعيد –رحمه الله– أن يقول له: كان من المفترض عليك أن تفعل كذا وكذا، ويبدأ يورد الأدلة على ذلك، لكنه أسلوب تربوي حتى أن المتعلم هنا لا يمكن أن ينسى هذه المعلومة، لأنه دار بينه وبين شيخه محادثة ونقاش ومحاورة، حتى أن المتخصّصين في علم النفس يذكرون هذه الأساليب على أنها أساليب نافعة ومؤثرة في قضية التعلم.

(قلت: حديث حدثناه الشعبي): حصين إذن ما يعمل هكذا كما يعمل كثير من الناس، بعض الناس هو مفتي نفسه، ما عنده أدنى مشكلة، تقع عليه مسألة أو تنزل به نازلة فيقول: الذي يظهر لي والله تعالى أعلى وأعلم بالصواب وهو لا يفقه شيئًا من أحكام الشرع. وقد رأيت أشكالًا وأنواعًا من هذا الصنف، فبعضهم يأتي ويناقش ويقول الذي يظهر لي.. وش يظهر لك؟!! ما قالها بعض العلماء وبعض الأجلاء.. تجد أنه لم يقرأ لا كتاب ولا سنّة ولم يطلب العلم...إلخ، فيبدأ والذي يظهر لي والذي تميل إليه النفس! تتعجب من بعض الناس كيف ينزلون أنفسهم هذه المسألة –نسأل الله أن يحفظنا وإياكم–.

(حديث حدثناه الشعبي): أي أن حصين في فعله هذا على مستند شرعي.

والأفعال والأقوال التي يستند عليها الإنسان إما أن تكون على دليل من الكتاب أو دليل من السنة أو على إجماع أو على فتوى.. وهكذا.

(قال: وما حدثكم؟): وهذا فيه أسلوب رائع.. يقينًا أن سعيد يعرف هذا الخبر، لذلك كان سفيان الثوري وبعض أئمة الحديث كان يأتيهم البعض يحدثونهم يقول وأنا أعرف الحديث، ومن راويه، وكم عدد طرق هذا الحديث، ولكنه يُظهر له أنه كأن أول مرة يسمع الحديث.. الله أكبر! لأجل ألا يكسر قلبه.

تخيل أن يأتي إليك شخص ويقول: والله اليوم حفظت حديث أريد بس أن أخبرك إياه، أو عرفت قصة من قصص الصحابة أو من سيرة النبي ﷺ وأريد أن أقصّها عليك، فتقول له: هذه أعرفها أنا من زمان.. امش امش.. لماذا! ماذا سيحصل لهذا الأخ المسكين؟ سينكسر قلبه. هنا سعيد كان بوسعه أن يقول: بس بس عرفت الحديث خلاص خلاص.. بعض الناس عامّي، يأتي يتكلم معك مثلًا يستفتيك، فتقول: بس بس عرفت.. لا تتكلم خلاص.. نعم يا أخي إيش عندك؟ خلّه يخرج ما في قلبه، لعلك تجد عنده فقه أو عنده مسحة من العلم.

فالشاهد من ذلك: هذا أدب يجب أن نتحلى به، قد تأتيك أمك سمعت في الإذاعة حديث أو سمعت قصة يوسف عليه السلام.. فكبار السن يحبون أن يتحدثوا بما يعرفون، فتأتي وتقول والله يا ولدي اليوم سمعت من مطوع في الرادو من الشيخ، والله يا ولدي أريد أسمعك القصة، فتبدأ تتحدث لك فتقول لها: بس بس يا أمي عارف عارف القصة خلاص، والله حافظها من عشرين سنة.. لا ما يليق! وفي حق الأم يتأكد هذا الأدب.

- مداخلة من أحد الإخوة:

يقول أبو تمام:

مـــن لي بإنســـانٍ إذا أغضـــبتُهُ ... وجَهِلـــتُ، كـــان الحِلـــمُ ردَّ جوابـــهِ
وتـــراهُ يُصـــغي للحَـــديثِ بطرفـــه ... وبقلبـــه، ولعلَّـــه أدرَى بـــه بـــهِ

- الشيخ: جزاك الله خير.

نعم، إذن لا بد أن نفهم هذا السمت، وأن نتعامل به مع الآخرين في حياتنا، لأنك أنت أصلًا ما تحب.

تخيل أنا الآن جالس أشرح لكم، ففي أثناء الشرح قال لي أحدكم: إييه، ترا هذا الحديث ترا والله فاهمينه يابو مالك، ما يحتاج، بس خلاص امش امش رحْ لأهلك! يعني والله تكسر قلبي ههههه ممكن أنا أحزن، أنا بشر، فما يليق، يعني تحملني شوي.. مشّها يعني.. خلاص يعني إذا كنت أنت فاهم خل نفهم غيرك.. فبعض الناس يحرم نفسه من الخير وحتى يحرم الآخرين.

لذلك كان الصحابة ﷺ يفرحون بسؤال الأعرابي يقولون: إذا جاء أعرابي فرحنا لعله يسأل سؤالًا، الرجل جاء متعطشًا مشفقًا يريد أن يتعلم.

(قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حُمَة): العين معروفة، والحُمَة: المراد بها القرصة أو اللدغة، قرصة الهوام التي تكون سامة كالعقرب والثعبان. والحمة بالتخفيف وليست الحمّى، فالحمّى هي الحرارة التي يصاب بها بدن الإنسان.

إذن ما معنى هذا الخبر: "لا رقية إلا من عين أو حُمَة"؟ هل السياق يفيد أنه لا تشرع الرقية في أي مرض من الأمراض إلا العين والحمة؟ فهذا أسلوب استثناء وحصر لأنه جاء بعد النفي، فهل الحصر هنا مراد؟

المراد هنا: أن أنفع علاج وأنجع علاج للعين والحمة هي الرقية، ولكن قد تُعالج العين وتعالج الحمة بأدوية أو بطرق طبية أخرى، لكن المراد أن أنفع دواء وأنفع علاج يستخدمه المعيون أو الملدوغ هو الرقية بالقرآن والأذكار الشرعية.

فماذا أجابه سعيد؟

قال: (**قد أحسن من انتهى إلى ما سمع**): الله أكبر! لم يقل له: كم سنة لك وأنت تطلب العلم؟ وعشر سنوات وخمس سنوات وما فهمت أن هذا الحديث المراد به كذا وكذا! يا قليل الفهم!!

بعض الناس هذا أسلوبهم، بعض الناس عندهم مهارة في استخدام أبشع الألقاب، ما عنده أساليب فيها تأليف للقلب، فتجده يقول: فعلًا أنك غبي.. ما تفقه.. عقلك لا يتجاوز جلدة رأسك.. أجهل من حمار أهلك! وأنت كذا وكذا.. ينزل عليه بألقاب!

لا لا، أولًا قال له: أحسنت ولكن.. هذا الذي نريده، أن تقول مثلًا لابنك الصغير أو تقول مثلًا لأختك أو لأمك أو لزوجتك أو لجارك: أحسنت ولكن..، تستدرك عليه الخطأ، هذا هو الأسلوب الذي نحتاجه، وهذا ما فعله سعيد -رحمه الله رحمة واسعة-، قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، لأنه فعل فعلًا يستحق حُصين أن يُمدح عليه، وهو عمل بنصٍ بلغه، مبلغه من العلم هذا النص الذي حدثه الشعبي، فعمل به، فهو يستحق بموجبه الثناء فأثنى عليه سعيد -رحمه الله-.

قال (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع. ولكن حدثنا ابن عباس): ما قدّم مقدمات يتفلسف، لا، رد عليه الدليل بدليل.. ثم بعد ذلك اترك الكلام بعد إيراد النصوص.

(**عن النبي ﷺ أنه قال: عُرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط**): الرهط هنا: جماعة من الناس لا يتجاوزون العشرة.

(**والنبي ومعه الرجل والرجلان**): هنا يقول أهل العلم: قد يراد بالرجل والرجلين هنا عين العدد، يعني فعلًا يرى النبي ﷺ النبي وليس معه إلا رجل أو رجلين. وقد يراد به هذا السياق التقليل؛ وهذا أسلوب دارج عند العرب، يقول جماعة فلان.. ليسوا بشيء.. اثنين ثلاثة، وتجد أنهم ثلاثمائة أو أربعمائة. هذا دارج.

مثلًا تقول: أنا اشتريت لك كيس مليء بالأرز.. كله كيلو كيلوين!! دارج على ألسنتنا.

(والنبي وليس معه أحد): الله أكبر! وهذه تسلية للدعاة أن الإنسان قد يمكث يدعو إلى الله سبحانه وتعالى، ولكن لا يستجيب لدعوته. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح]. إذن فهذه تسلية للدعاة إلى الله، عليكم أن تصبروا وتحتسبوا الأجر، فإن الهادي هو الله، لأن الدعاة لهم هداية الدلالة والإرشاد، وللمولى سبحانه وتعالى هداية التوفيق والإلهام، هداية التوفيق والإلهام هذه ليست لأحد من البشر لا لملك مُقرّب ولا لنبي مرسل، بل هي لله وحده لا شريك له.

(إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي): هنا يقول أهل العلم: أنه يجوز أن يخبر الإنسان بغالب ظنّه. يعني أن تظن ظنًا، مثلًا دخل الآن رجل مسرعًا وخرج من الباب الآخر، فسألتموني من هذا؟ قلت والله أظنّ أنه محمد فتبين أنه علي، هل أنا كاذب في حديثي؟ لا، لكن شريطة أن أتحدث وأنا يغلب على ظني أني ما رأيت إلا القرينة أو ما شابه ذلك، فقد يكون مثلًا هذا يلبس السواد ومحمد دائمًا يلبس السواد فظننت أنه محمد أو أن هذا طويل وذاك طويل أو أنه قصير وهذا قصير وهكذا.

لماذا ظنّ النبي ﷺ أنها أمته؟ لأنه عنده علم مسبق، الله سبحانه وتعالى أخبره أن أمته من أكثر الأمم.

(فقيل لي: هذا موسى وقومه): هل المراد بالقوم هنا قرابته من النسب؟

– الإخوة: أتباعه.

– الشيخ: طيب، إذا كان هناك رجل يدعو الناس إلى الحق وله أتباع فهل يجوز له أن يقول هؤلاء قومي؟ أو يقول هؤلاء أتباعي؟ أو نقول له هؤلاء قومك؟ أو هؤلاء أتباعك؟

– أخ: تحتمل المعنيين.

- الشيخ: لا حرج أن تطلق هذا الإطلاق، لكن إذا كان في ذلك ذريعة إلى أن يدخل في قلب الإنسان [زهو] هؤلاء قومي هؤلاء أتباعي .. لا شك، إذا وُصِفَ هو نقول نعم هؤلاء أتباع مثلًا كذا أو قوم..

الأنبياء عليهم السلام كانوا يبعثون أصالةً بين أقوامهم، الذين اتبعوا النبي ﷺ والذين خالفوه في بادئ الأمر قرابته، لكن هنا إذا قلنا أن القوم المراد بهم قرابته من النسب، أخرجنا أتباعه ممن ليسوا من قرابته، هذا لا شك أنه يتنافى مع الدليل، فالمراد هنا أتباعه الذين آمنوا.

(فنظرت فإذا سواد عظيم -أي أعظم من أول-، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب): نفهم من ذلك أن أتباع موسى عليه السلام كُثر، وأن أتباع محمد ﷺ أكثر، وأن أمة موسى عليه السلام تأتي بعد أمة النبي ﷺ في العدد، هذا ما دل عليه ظاهر الحديث.

(ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب): جاء في مسند أحمد بسندٍ صحيح

رواية أخرى: **(مع كل ألف سبعون ألف)**، وفي رواية عند مسلم: **(مع كل واحد سبعون ألف)**، أيهما أكثر؟ مع كل واحد سبعون ألف.

وفضل الله واسع لا شك، فأنت إذا قلت: أنهم سبعون ألف قليل العدد.. وخصوصًا أنه تقدم معنا أن أمة محمد كثيرة جدًا، حتى في بعض الروايات جاء أن سوادهم سدَّ الأفق، يعني نحتاج إلى اجتهاد كبير جدًا، لكن لما يقال لك مع كل واحد سبعون ألف يعني والله نعمة عظيمة أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم.

(يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب) نفهم من ذلك أنهم لا يحاسبون لا حساب يسير ولا حساب عسير، فنُفي عنهم الحساب، وإذا أُطلق الحساب هنا فإنه يشمل الحساب بنوعيه اليسير والعسير، لأنه مر في كتاب الله أنه هناك حساب يسير وحساب عسير.

(ولا عذاب): كذلك أطلق العذاب، فبكرم من الله عزّ وجل لا ينالون هذا العذاب.

(ثم نهض –النبي ﷺ– فدخل منْزله، فخاض الناس في أولئك): في ذلك بيان مشروعية النقاش العلمي، وهذا فيه مشروعية أن يطرح المعلم على التلاميذ مسألة ثم يذهب ويتركهم يتناقشون، وهذا أسلوب تعليمي، يُعمِل فيه الإنسان فهمه.

(فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ): أليس المتناقشون هم من أصحابه؟ كيف يقولون لعلهم الذين صحبوه؟

قال أهل العلم أن المراد هنا: الصحبة الخاصة، فالصحابة ليسوا على درجة واحدة، هل صحبة أبو بكر وعمر رضي الله عنهما كصحبة بعض الصحابة الذين فقط نالوا درجة الصحبة ثم فارقوا النبي ﷺ؟ لا، لا شك أنهم يتفاوتون.. أعرابي جاء من البادية فدخل على النبي فآمن به ورآه ثم رجع إلى باديته، فمات على ذلك فهو صحابي رأى النبي ﷺ وآمن به ثم مات على ذلك.. هذا صحابي لكن هل يُساوى هذا مع باقي الصحابة؟ لا.

فإذن أرادوا الصحبة الخاصة يعني أن يكون ملازمًا للنبي ﷺ، يحفظ منه الأحاديث ويتتبع سنته، وهكذا.

وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئا.. طبعًا هذه ظاهرة واضحة.

(فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه): فالمعلم لا يطرح فقط المسألة ويذهب ويتركهم، لا، يرجع إليهم ويسمع منهم أنت ماذا قلت؟ أحسنت.. وأنت ماذا قلت، نعم أحسنت.. أنت ماذا قلت؟ أحسنت.. ثم بعد أن يسمع ما عندهم يعطيهم الجواب النهائي.

(فقال: هم الذين لا يَسْتَرقون)، جاء في رواية: **(لا يرقون)** لكن هذه أعلها الحفاظ بالشذوذ.

لكن هنا المراد يسترقون (أي الذي يطلب الرقية من غيره)، وهذا يتنافى مع كمال التوكل، لأن فيه تعلق بالآخرين. مر معنا التحقيق المستحب أنه ترك سؤال ما فيه منّة وما فيه استعطاف.

(**ولا يكتوون**): الكي معروف. لأنه كذلك فيه استعطاف أن تطلبه من الآخرين

(**ولا يتطيرون**): هذا سيمرّ معنا في باب مستقل إن شاء الله.

(**وعلى ربهم يتوكلون**): قال أهل العلم: أن التوكل هو جماع هذه الصفات، لأنه مر معنا أن كل عمل يتنافى مع كمال التوكل؛ يُحرَم الإنسان بسببه هذا الفضل.

- أحد الإخوة: إذا وقع الإنسان في شرك ثم تاب إلى الله عز وجل..

- الشيخ: فضل الله واسع، لعل الله يمن عليه بأنه يدركه هذا الفضل، نحن نتعامل مع الله، لا نتعامل مع مخلوق يُمسك الدفتر عليك ويقول لك: لا أنت قلت.. أبدًا ما أرجع.. لا يا أخي، نحن نتعامل مع من اتصف بالكرم اتصف بالجود سبحانه وتعالى.

(**فقام عكّاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت منهم**)، بعض أهل العلم قالوا: أن سؤالَ الآخرين الدعاء يتنافى مع كمال التوكل، قالوا لأن الرقية دعاء فإذا كنت تسأل أحدًا أن يرقيك فكأنك تسأله أن يدعو لك.

هنا عكُّاشة سأل الدعاء من النبي ﷺ، وقال له النبي ﷺ أنت منهم. كيف نجمع؟ هذه آخر مسألة وأجمل مسألة حقيقة.

حديث عمر رضي الله عنه حين قال له النبي ﷺ ((لا تنسنا يا أخي من دعائك)) حين استأذنه في الذهاب إلى العمرة فقال أهل العلم هنا: النبي ﷺ لم يرد أن ينتفع بدعاء عمر ولكن أراد أن ينفع عمر. وفيه مقال تكلم أهل العلم عليه.

أختصرُ المسألة: عندنا عدة أجوبة:

هل النبي ﷺ دعا لعكاشة أصلًا؟

قال عكّاشة: ادع الله أن يجعني منهم. من المفترض أن يقول: اللهم اجعله منهم، لكن هنا النبي ﷺ قال (أنت منهم) أخبره إخبار.

الجواب الأول: أن النبي ﷺ لم يدع له. وإنما رأى النبي ﷺ أن الصفات تحققت في عكّاشة فأخبره.

ولا شك أن النبي ﷺ أخبر هنا بأمر غيبي. فالنبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

الثاني: أنه أمر غيبي خارج عن إدراك الناس.

الثالث: أن هذا قد يكون خاص بالنبي ﷺ، أن الناس حين يسألونه ﷺ في حياته حينما يباشرونه وهو أمامهم وهم أمامه، فيقولون له يا رسول الله ادعُ الله لي .. هذا خاص بالنبي ﷺ ويخرج عن عموم ما جاء معنا في هذا الخبر.

الجواب الرابع: أن عكّاشة ما أراد الدعاء وإنما أراد شيئًا آخر.

أو أن يقال سؤال الدعاء من الآخرين أصلًا لا يتنافى مع كمال التوكل، وكل هذه الأمور محتملة.

(ثم قام جل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم؟ فقال: سبقك بها عكاشة): قال رجل آخر.. لماذا سمى الرجل الأول (عكّاشة) ولم يسمِّ الثاني فقال (رجل آخر)؟ لأنه كان منقبة لعكّاشة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، منذ حدوث هذا الحدث إلى يومنا هذا والناس تعرف عكاشة حتى أصبح عَلمًا، حتى أصبح الإنسان إذا شك بأن عكاشة ليس من أهل الجنة فإنه يكفر. فلا بد أن نوقن جميعًا أن عكاشة من أهل الجنة.

(سبقك بها عكّاشة): هنا قال أهل العلم أنه لم يقل له مثلما قال لعكاشة:

- أولًا إغلاقًا للباب.

- وبعضهم قال: ممكن أن النبي ﷺ ما رأى في هذا الرجل صفات يستحق بسببها أن يكون.. فتلطّف النبي ﷺ، فما قال له أنت! أنت تريد أن تكون من السبعين؟! لا لا لم يقل ذلك، انظروا إلى أدب النبي ﷺ مع الصحابة!، كان بوسعه أن يقول هذا الكلام، لكن المقام مقام تربية.

فمثلًا يأتيك رجل مبتلى بمعصية فتوسّم فيك الخير، فقال: يا مطوّع، لا تنسانا من صالح دعائك الله يفكنا من الذنوب والمعاصي. ما تقول له أنت!! يتوبون الناس كلهم إلا أنت!.. لا يا أخي، قل: أبشر بالخير، وإن شاء الله ما دامك تنوي هذا الأمر فإن الله سبحانه وتعالى سيفتح لك من أبوابه، وإني أرى ملامح الخير في وجهك وأرى النور.. يعني من الكلام الطيب.

فهذا أدب وسمت عظيم (سبقك بها عكّاشة) ما أراد أن يجرح قلبه، وما أراد أن يؤثر فيه.

- سؤال لأحد الإخوة: هل قول النبي ﷺ «**لا يَسْتَرقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون**» دليل للنهي عن الرقية؟

- أجاب الشيخ: الرقية في أصلها مباحة، والكي مكروه «**وإنّي أنهى أمتي عن الكي**» النهي نهي كراهة، والطيرة سيأتي إن شاء الله مزيد تفصيل لها وبيان أقسامها إن شاء الله في درس مستقل.

فإذن اجتماعها في سياق واحد لا يعني أنها تشترك في حكم واحد.

الدرس الرابع

قال المصنف -رحمه الله تعالى- : باب الخوف من الشرك.(١)

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.(٢) [النساء]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحاً ورشاداً يا رب العالمين.

نستأنف وإياكم معاشر الأحبة مدارسة كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد.

(١): يقول المصنف –رحمه الله تعالى–: باب الخوف من الشرك..

هل الشرك يُخاف منه؟

– أحد الإخوة: نعم، إبراهيم عليه السلام خاف من الشرك، قال: اللهم اجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام.

– الشيخ: نعم، إبراهيم عليه السلام خاف من الشرك، فسأل الله متضرّعًا: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾. [إبراهيم]

نعم، فالشرك معصية عظيمة توجب لصاحبها الخزي والعار والعذاب والوبال والحسرة في الدنيا والآخرة. وسيورد المصنف –رحمه الله تعالى– نصوصًا شرعية تدل على هذا المعنى.

فالمؤمن الصادق يلزم كل ما يحبه الله سبحانه وتعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وكذلك المؤمن الصادق يجتنب كل ما لا يحبه الله ولا يرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

(٢): ﴿**إنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أنَ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دوُنَ ذٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾: علمنا أن المصنف -رحمه الله- عنونَ لهذا الباب بعنوان سمعتموه: باب الخوف من الشرك، فما مناسبة هذه الآية للباب؟

هنا أراد المصنف من إيراد هذه الآية أن يبين أن الشرك ذنب عظيم لا يغفره الله سبحانه وتعالى، إذا لقي الإنسان ربه سبحانه وتعالى مشركًا به فإن هذا الشرك لا يغفره الله تعالى -**وحديثنا هنا عن الشرك الأكبر**-، فإذا علم الإنسان أن الشرك ذنب لا يُغفر أوجب ذلك الخوف من الشرك.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنَ يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دوُنَ ذٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[النساء] : هنا تحدث أهل العلم في هذه الآية وبينوا أمرًا عظيمًا، وهو أن أهل العلم اختلفوا هل يدخل الشرك الأصغر في سياق هذه الآية أم لا؟

قولان لأهل العلم:

- منهم من قال أن الشرك الأصغر لا يدخل تحت سياق هذه الآية، وبناءً عليه يكون حاله كحال سائر الذنوب التي دون الشرك، أي أنه تحت المشيئة، وهذا قول لشيخ الإسلام.

- وهناك قول آخر وهو الذي -والله تعالى أعلى وأعلم- يعضده الدليل، أن الشرك الأصغر ذنب لا يغفره الله سبحانه وتعالى لمن مات عليه، بل يؤاخذ به ويُعاقب عليه، ولكن لا يلزم من ذلك أن يخلد صاحبه في النار، وهذا قول آخر لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-.

فقال أهل العلم أن هذه الآية التي صُدّرت بِ(إنّ)، قالوا أن (إن) وما بعدها جاء في تأويل مصدر، ويكون السياق المقدّر: إن الله لا يغفر شركًا. وهنا جاءت لفظة الشرك مُنكَّرة مسبوقة بـ(لا النافية) فتفيد العموم، أي أن الله سبحانه وتعالى لا يغفر شركًا، أيًا كان هذا الشرك، أي أن الله لا يغفر الشرك بنوعيه أصغرًا كان أو أكبر.. وقلنا أن من قال ذلك استدل بهذه الآية.

ولكن قولنا بأنه ذنب لا يغفر لا يعني ذلك أن صاحبه يخلد في النار، بل إن صاحبه يؤاخذ على شركه ما دام أنه مات ولم يتب منه، أما من تاب تاب الله عليه حتى وإن كان قد ارتكب الشرك الأكبر،

فمن تاب من الشرك الأكبر: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِن يَنتَهُوا يُغفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[الأنفال]، ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي الدِّينِ﴾[التوبة]، هذا يدل على أن من تاب من الشرك الأكبر في حال حياته تاب الله عليه. ولكن حديثنا عن من مات على الشرك الأصغر ولم يتب منه.

إذن فنفهم أن الشرك الأصغر لا بد أن يؤاخذ العبد عليه إن مات ولم يتب منه، فقال أهل العلم أن المؤاخذة تكون إما في سكرات الموت، أو في القبر، أو في عرصات يوم القيامة، أو أن يُدخِله النار ثم بعد ذلك يُخرِجهُ منها.

إذن علمنا أن الله سبحانه وتعالى لا يغفر الشرك بنوعيه أي أنه ليس تحت المشيئة، ولكن هناك فرق بين الشرك الأصغر والشرك الأكبر.

إذن فالذنوب عندنا على ثلاثة أقسام:

- شرك أكبر.
- شرك أصغر.
- ذنوب من الكبائر والصغائر وما دونها.

فالكبائر والصغائر هي تحت مشيئة الله اتفاقًا، والشرك الأكبر ليس تحت المشيئة اتفاقًا، والشرك الأصغر هو ليس تحت المشيئة على الصحيح من أقوال أهل العلم، بل إن من مات عليه يؤاخذ بذنبه هذا. وعلمنا أن المؤاخذة إما أن تكون في سكرات الموت أو في القبر أو في عرصات يوم القيامة، أو أن يُدخل الله سبحانه وتعالى صاحب هذا الشرك في النار ثم بعد ذلك يُخرِجه منها.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.(١) [إبراهيم]

= أخ يسأل: المعاتبة هي المؤاخذة؟

- الشيخ: المعاتبة أي أن الله سبحانه وتعالى إذا عاتب عبده يوم القيامة لا شك إن لم تكن هذه هي المؤاخذة فما هي المؤاخذة إذن؟ ألّا يُقرّ -الله سبحانه وتعالى- لك صنيعًا. ولا بد من المؤاخذة كما قرر ذلك أهل التحقيق من أهل العلم.

(١): هذه الآية يحكي الله سبحانه وتعالى فيها واقع الخليل، حيث بين الله سبحانه وتعالى أن الخليل إبراهيم عليه السلام قد اتصف بصفاتٍ حقق بها التوحيد، ومر معنا في درس الأمس أن الله سبحانه وتعالى أثنى على إبراهيم عليه السلام ونعته بعدة صفات ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[النحل]، اتصف الخليل بهذه الصفات، فحريٌّ بمن كان هذا حاله أن يتقي الشرك وسبله، فلذلك كان يدعو الله: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ**﴾[إبراهيم]، أي اجعلني يا رب في جانب، واجعل الشرك وسبله في جانب آخر. وهذه غاية في المباعدة، وقمة في مجانبة الضلال وسبله. كما يشرع للعبد أن يقول في دعائه سائلًا المولى سبحانه وتعالى أن يباعد بينه وبين خطاياه ((كما باعدت بين المشرق والمغرب))[البخاري]، كما أن الإنسان يعلم ويدرك أن البعد بين المشرق والمغرب يسأل الله سبحانه وتعالى أن يباعد بينه وبين الذنوب والمعاصي، وهذه قمة في التباعد.

وتعرفون قصة ذلك الرجل وهي مخرّجة في الصحيحين، رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا ثم بعد ذلك ضاقت عليه الدنيا بما رحبت حتى أدرك أنه لا خلاص من هذا الضيق إلا بالعودة إلى الله سبحانه وتعالى.

ولا شك أن الحق تبارك وتعالى هو الذي إليه الملتجأ وإليه يفزع العباد، يقول الله عز وجل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى الله إِنِّي لكُم مِّنْهُ نذيرٌ مُّبِينٌ﴾[الذاريات]، يقول أهل العلم: كل شيء في هذه الدنيا تخاف منه تهرب منه، إلا الله فإنك حينما تخاف منه تهرب إليه.

أمان الخائفين، أمان الفزعين، يفزع الإنسان إلى ربه خائفًا من ذنبه فيجد الأمن والطمأنينة، فيُنزل الله سبحانه وتعالى السكينة على قلبه.

ضاقت الأرض بما رحبت على هذا الرجل.. أسرف على نفسه بإراقة الدماء المعصومة، ثم بعد ذلك بدأ يتحسس طريق الهداية..

وهنا وقفة: أن الإنسان الصادق إذا أراد الهداية طلبها، وطلبها من مظانها، لا أن يجلس الإنسان في بيته مدّعيًا الصدق في توبته، ثم بعد ذلك يتسلط عليه الشيطان من جديد.

فبدأ يتحسس طريقًا للهداية وطريقًا للعودة إلى الله سبحانه وتعالى، ولكن بجهله بطرق الوصول ذهب إلى عابدٍ قلّ علمه بالله عز وجل، قلّت معرفته بالله عز وجل، فجاءه فقصّ عليه خبره وبين له حاله، فلما اطلع هذا العابد قليل العلم بالله عز وجل إلى عظيم جرم ذلك الرجل، قال: لا توبة لك.

الله أكبر! أما علم هذا العابد أن الله سبحانه وتعالى يقبل التوبة عن عباده! ألم يعلم ذلك العابد أن الله سبحانه وتعالى يبدّل سيئات المرء إن تاب إليه إلى حسنات!

فلما أجاب العابد ذاك القاتل بذاك الجواب، ازداد ضيق الأمر عليه.. رجل لم توقفه تسع وتسعون نفس، هل ستوقفه هذه النفس؟! أبدًا.. رجل اعتاد على قطع الرؤوس، وإجراء الدماء، فقال نكمل بهذا العابد المائة، فقتله واحتز رأسه.

ثم بعد ذلك ما زال الصدق يجري في عروق القاتل، قال لا بد من العودة، لا بد من الأوبة إلى الله سبحانه وتعالى، ثم أعاد الكرة من جديد..

وهنا وقفة: أن الإنسان لا ييأس من رحمة الله، ولا ييأس من روح الله، فإن الله سبحانه وتعالى يقبل التوبة عن عباده.

فأعاد الكرة مرة أخرى، ولكنه في هذه المرة وُفِّقَ للصواب والسداد، فذهب إلى العالم الذي يعلم أن الله سبحانه وتعالى يقبل التوبة عن عباده، وأنه وإن عظمت ذنوب العبد فإن رحمة الله سبحانه وتعالى أعظم منها.

يا رَبِّ إِن عَظُمَـت ذُنـوبي كَثـرَةً … فَلَقَـد عَلِمـتُ بِأَنَّ عَفـوَكَ
إِن كـانَ لا يَرجـوكَ إِلّا مُحسِـنٌ … فَـبِمَن يَلـوذُ وَيَسـتَجيرُ المجـرِمُ
أَدعـوكَ رَبِّ كَمـا أَمَـرتَ تَضَـرُّعا … فَـإِذا رَدَدتَ يَـدي فَمَـن ذا
مـا لي إِلَيـكَ وَسـيلَةٌ إِلّا الرَجـا … وَجَميـلُ عَفـوِكَ ثُمَّ أَنّي مُسـلِمُ

فلما جاء هذا القاتل إلى ذلك العابد استقبله استقبالًا حسنًا.. وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه المرء؛ مبشرًا لا منفرًا، حينما يأتيك الرجل وتعلم أنه مقبل على ربه أحسِن استقباله وبشّره بالخير فإن لك في ذلك أجر.

فأحسن العالم استقباله، فعرض القاتل عليه حاله وبين له أمره، فقال العالم العارف: ومن يحول بينك وبين التوبة؟!

الله أكبر! هذا هو العلم، هذا هو الفقه، هذه هي الدراية، أن تعلم أنه وإن عظمت ذنوب العباد فإن رحمة الله أعظم.

فحثه هذا العالِم أن يفارق وأن يجانب تلك الديار التي سكنها وعاش فيها.

وهذا هو موضع الشاهد: أن العبد إذا أراد السلامة من المعاصي ومن الشرك ومن البدع ومن الأعمال التي قد يتنكّب الإنسان بسببها عن صراط الله المستقيم فعليه المجانبة ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، هذا الذي ينبغي أن يكون عليه الإنسان.

رجل يشتكي إلى غيره أنه يُكثر الوقوع في المحرمات ويكثر الوقوع في البدع ويكثر الوقوع في الاستغاثات الشركية وما شابه ذلك.. فإذا نظرت إلى حاله فإذا بك ترى أن هذا الرجل يخالط أناسًا هذا حالهم، فكيف بمرء يعيش بين ظهراني أولئك ثم يريد السلامة؟!

لذلك أدرك الخليل أن أعظم سبيل لصيانة التوحيد أن يجانب الإنسان الشرك وأهله، وأن يجانب السبل التي توصل إليه؛ لذلك أُمر العباد بالهجرة، أُمروا بمفارقة الشرك وأهله، لذلك أوجب الله على المكلفين أن يفارقوا ديار الشرك، لذلك النبي ﷺ يقول: ((أنا بريء من كل مسلم يُقيم بين أَظْهُرِ المشركين)). قالوا: يا رسول الله لم؟ قال: ((لا تَرَاءَى نَارَاهُما)).

ما معنى: (**لا تَرَاءَى نَارَاهُما**) ؟ كناية عن شدة المباعدة، أي أنك لو كنت في ظلمة الليل وأضرمتَ نارًا فإن المشركين لا يبصرون نارك، مع أن النار إذا أوقدت في الليل فإنها تُرى من بعيد، وهذا يدل على شدة المباعدة، لأن الأمر جد خطير.

فإن الإنسان في بادئ أمره قد ينكر الشرك ومظاهره، ولكن مع كثرة المخالطة تذوب الغيرة في قلبه، كثرة الإمساس تميت الإحساس، فيصبح الإنسان مع كثرة ما يرى من مظاهر الشرك لا ينكرها، وتصبح شيئًا عاديًا في حياته، لذلك أدرك الخليل ذلك فقال ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾.

وهنا وقفة: أنه على المرء ألا ينسى أبناءه من دعائه: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتقَبَلّ دُعَاءِ﴾.[ابراهيم]

بعض الناس لا يحسن إلا الدعاء على أولاده، ولم يدعُ لأبنائه بدعوة خير ولا في يوم من الأيام، وهذا لا شك أنه غاية في الجفاء، أبناؤك فلذات الكبد فلا تنسَهم من صالح دعائك، بل إن الصالحين كانوا يقدمون بين يدي الله أعمالًا ويقدمون طاعات رجاء أن يصلح الله سبحانه وتعالى بطاعاتهم أبناءَهم ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾[الكهف] قيل أن هذا الأب هو الجد السابع! انظروا كيف انتفع الأحفاد ببركة عبادة الجد السابع..

فكيف إذا كانت العبادة من الأب الذين خرجوا من صلبه! لذلك كان بعض التابعين يفعل بعض الطاعات ويكثر منها، فيسأله بنوه لماذا تكثر من هذه الطاعة فيقول: رجاءَ أن يصلحكم الله بها.

فحذارِ من الجفاء أيها الأب فإنه لا غنى لك عن أبنائك ولا غنى لأبنائك عنك، فصلاحهم خير لك وصلاحك خير لهم، وفسادك شر عليك وعليهم، وفسادهم شر عليهم وعليك.

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾: أن نعبد، أي: أن نذل ونخضع. وهذا هو جماع العبادة، الذل والخضوع، فإذا تذلل الإنسان وخضع لغير الله فقد عبد غيره.

﴿الْأَصْنَامَ﴾: الأصنام والأوثان هما لفظان إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، حالهما كحال الإسلام والإيمان.

فيقول أهل العلم: الأصنام هي ما عُبد من دون الله على هيئة الإنسان. والأوثان هي ما عُبد من دون الله عز وجل على أي هيئة.

أناس يعبدون الشجر، الشجر هنا اسمه: وثن.

أناس يعبدون صنمًا على صورة إنسان اسمه: (صنم).

هل يجوز أن يطلق على الشجر المعبودة صنمًا؟ يجوز لأنهما لفظان إذا اجتمعا افترقا.

وهل يجوز أن يطلق على الصنم الذي على هيئة إنسانٍ وثنًا؟ نعم.

لذلك قد يقول البعض وثن الديمقراطية أو وثن العلمانية.. يجوز.. ما هو وجه أن تكون هذه الأمور عبادة من دون الله؟ لماذا كانت العلمانية أو الديمقراطية أو الليبرالية أوثانًا تُعبد من دون الله؟

لأنك أثبتَّ لهذه الآلية أو لهذا النظام حقًّا من حقوق الله التي يختص بها سبحانه وتعالى، وكذلك الحاكمية وما شابه ذلك.

المحاكم الوضعية.. الأمم المتحدة أصنام أم أوثان؟

يجوز كلا الأمرين، فتقول أن الدول الطاغوتية قد اتخذت الأمم المتحدة وثنًا يُعبد من دون الله. ما وجه ذلك؟

لأنها تشرّع أحكامًا تضاهي بها أحكام الشرع، تضاهي بها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ما مناسبة هذه الآية ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ للباب؟

إذا كان خليل الله خاف على نفسه من الشرك وهو على هذا القدر العالي من الأوصاف والصفات فمَن دونه من باب أولى وأحرى.

إذا كان إبراهيم الذي وصفه الله بأنه أمة وبيّنا سبب وصف المولى سبحانه وتعالى له بأنه أمة، لئلا يستوحش السالك من قلة السالكين.. حينما يعلم الإنسان أنه أمة حتى ولو كان وحده يستأنس بذلك.. وعلمنا أن الحق لا يعرف بالكثرة ولا بالقلة، وإنما يعرف بموافقة الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وفي الحديث: (أخوفُ ما أخافُ عليكم: الشرك الأصغر، فسُئل عنه، فقال: الرياء).[١]

---

(١): هنا خاف النبي ﷺ على صحابته من الشرك، مع أن خوفه هنا ﷺ على صحابته من ذنبٍ لا يُخلّد صاحبه في النار إن مات عليه ولم يتب، فإذا خاف النبي ﷺ على صحابته من الشرك الأصغر فكيف بالشرك الأكبر؟!

خاف النبي ﷺ على صحابته من الشرك الأصغر، فسُئل عنه، فقال: الرياء.

والرياء: هو أن يُزينّ الإنسان أعماله لأجل أن يراها الناس فيمدحوه عليها.

وقد قال ابن رجب -رحمه الله تعالى- أن للعباد مع الرياء حالات:

الحالة الأولى: حالةٌ لا يُتصور صدورها من المؤمنين، وهي أن ينوي الإنسان بعبادته غير الله، يُنشِئ العبادة أصالةً لغير الله، لا يريد من هذه العبادة لا ثوابًا ولا قَبولاً من الله -نسأل الله السلامة والعافية-.

ودل على ذلك قول الله تعالى عن المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء]، فهذا الصنف من المنافقين ما هو الباعث من إتيانهم بالصلاة؟ أتوا بها لأجل الناس ولم يريدوا بتلك العبادات لا ثوابًا ولا قَبولًا من الله سبحانه وتعالى.

الحالة الثانية: أن يُنشِئ الإنسان العبادة من أصلها لله ولغير الله، أي لله وللناس، يعني يريد من الصلاة أو يريد من الصيام الثواب من الله ومدح الناس.. ساوى بين الله وبين الناس.. فهذه العبادة باطلة، وهي التي أرادها النبي ﷺ بهذا الحديث.

ويدل عليها كذلك ما جاء في الحديث القدسي: ((أنا أغْنَى الشُّركاء عن الشِّرك، مَن عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)). [رواه مسلم]

فهذه الأدلة تدل على بطلان هذه العبادة وعلى عدم إجزائها وعدم إسقاطها للطلب أي أنها لا تبرأ بها الذمة لأن العبادة لا تُقبل إلا إذا كانت خالصة لله عز وجل ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[البينة]، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر]، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.[الكهف]

الحالة الثالثة: أن يُنشِئ العبادة من أصلها لله وحده لا شريك له ثم يطرأ عليها الرياء.

الحالات الثلاثة التي أوردناها كلها تتحدث عن أصل النية، فإذا سلمَ أصلُ النية، سلمَ العمل، ولكن هناك حالات سنذكرها ونبين أن الأصل قد يفسد إذا طرأ عليه ما يفسده.

إذن هذه الحالة أن يُنشِئ العبادة من أصلها لله وحده لا شريك له ثم يطرأ عليها الرياء، فهذه الحالة قسَّمها أهل العلم إلى قسمين:

الأول: أن يطرأ عليه الرياء فيجاهد نفسه على دفعه فيدفعه.

الثاني: أن يطرأ الرياء على العمل فيسترسل معه إلى نهاية العبادة.

مثال: رجلٌ دخل إلى المسجد أو قام في جوف الليل لله وحده لا شريك له، وكان عنده ضيف أو صديق، فلما شرعَ في العبادة استيقظ صاحبه فبدأ الرياء يطرأ على القلب: (ها.. شافك فلان الآن وأنت تقوم وتتهجد والناس نيام..) فهو في هذه الحالة:

إما أن يزيّن عبادته لهذا المخلوق فيستمر على ذلك حتى نهاية العبادة.

أو أنه يطرأ عليه الرياء فيستعيذ بالله من الشيطان الرجيم حتى يطرد الرياء عنه. فهذه الحالة يقول أهل العلم أن العبادة في هذه الصورة عبادة مقبولة وصاحبها مأجور من وجهين: مأجور على عبادته، ومأجور على مجاهدته لنيته.

أما الحالة الأخرى أن يطرأ الرياء على الإنسان فيسترسل معه إلى نهاية العبادة. فهذا اتّفق أهل العلم على بطلان العبادة، لكنهم اختلفوا هل يؤجر على أصل النية أم لا؟

أصل النية كان سليمًا لكن طرأ عليه ما يفسده، والله سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي: ((أنا أغْنَى الشُّركاء عن الشِّرك، مَن عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)).

فالذي يظهر والله -تعالى أعلى وأعلم- أن العمل يبطل، وأن الرياء حينما طرأ على هذه العباده أبطلها. فهذا هو الصحيح أن العبادة باطلة ولا يؤجر كذلك على أصل النية. لماذا؟ لأنه دخل عليها ما يفسدها.

طيب لو أن إنسانًا توضأ ونوى العبادة لله عز وجل، فصلى ركعتين، فلما جاء إلى التشهد الأخير انتقضَ وضوءه أحْدَث، هل يؤجر على هذه العبادة أم لا؟

يؤجر الإنسان على ركوعه وعلى سجوده وعلى نيته، لكن عبادته لا تجْزِئ.

يعني مثلًا: هب أن إنسانًا صلى الظهر أو العصر أربع ركعات ركع فيها لله، وقرأ فيها القرآن لله، وسبّح فيها لله، وجاء بكل هذه الطاعات لله، لكنه في التشهد الأخير انتقضَ وضوءه. لا شك أننا نقول أن العبادة لا تُجزِئ ولا تُبرِئ الذمة ولا تسقط الطلب، ولكن يُؤجر على هذه العبادات التي فعلها.

فالناقض هنا للوضوء أفسد الثواب أم أفسد الإجزاء؟ أفسدَ الإجزاء. فهنا لم يُجزئ لأن العبادة ما تمت، فالناقض قطعها، ولكنه يؤجر.

لكن هنا (في حالة الاسترسال مع الرياء) دخلَ على العبادة أمرٌ يُفسد العبادة من أصلها، وكذلك على الأشياء التي طرأت عليها.

إذن هذه هي الصور التي ذكرها أهل العلم.

ما الفرق بين الرياء و السمعة؟ ((مَن يُسَمِّعْ يُسَمِّعِ اللَّهُ به، ومَن يرُائي يرُائي اللَّهُ بهِ)).[مسلم]

الرياء: أن يُزيّن الإنسان عبادته ليراه الناس وهو في أثناء العبادة.

السمعة: تكون العبادة قد انتهت.

مثلًا دخل علينا الآن رجل وقال: والله يا إخوة نسأل الله الإخلاص، رأيت فقيرًا معوزًا لا مال معه ولم يجد ما يأكل ويشرب، وثيابه ممزقة.. ووالله إني كنت محتاجًا ولكن أخرجت مالًا من جيبي وهو كل ما أملك نسأل الله الإخلاص.. هذا اسمه سمعة لأن العمل قد انتهى.

أما الرياء: يروى أن رجلًا كان يصلي فوقف خلفه اثنان فرأوا سمته وخشوعه في الصلاة، فأعجبوا بسمته فبدؤوا يتحدثون وهو يسمع.. يقولون: ما شاء الله صلاته صلاة طيبة وصلاة خاشع، فالتفت عليهم وقال: وصائم أيضًا.. فهذا إن لم يكن رياءً فما هو الرياء؟!

إذن هذا هو الفرق.

ما مناسبة هذا الحديث (أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) بالباب؟

إذا كان النبي ﷺ خاف على صحابته –على جلالة قدرهم وعلو مكانتهم– خاف عليهم من الشرك فمن دونهم من باب أولى وأحرى.

إذن هذه الأدلة التي يوردها المصنف –رحمه الله تعالى– بينها تناسب مع التبويب أم لا؟ نعم، بل بعض الأدلة التي يوردها تجد أنها توافق الترجمة، ألفاظها ومعانيها ومنطوق هذه الأدلة يوافق الترجمة.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وعن ابن مسعود ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: من ماتَ وهو يدعو من دون الله نِدًّا دخل النار.[(١)] رواه البخاري

---

(١): ما مناسبة هذا الخبر للباب؟

هنا بين النبي ﷺ أن الشرك عمل يوجب لصاحبه الدخول في النار، فإذا علمنا أن الشرك يوجب لصاحبه الدخول في النار، كان هذا العلم يوجب علينا أن نخاف من الشرك لأنه يوجب الدخول في النار.

(من مات): ما هو الموت؟ طبعًا نحب دائمًا أن نفصّل..

الموت موتان، قد يأتي التعبير في نصوص الشرع بالموت ويراد به معنى، وقد يأتي كذلك لفظ الموت في بعض السياقات الشرعية ويراد به معنى آخر.

الميتة ميتتان: حسية وميتة معنوية.

ميتة معنوية: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[الأنعام]، فهذه ميتة معنوية، كموت القلب الذي جاء ذكره في هذا السياق ((مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت)) [متفق عليه] فقد يوصف الغافل واللاهي عن ذكر الله بالميت.

والميتة الثانية ميتة حقيقية حسيّة: وهي مفارقة الروح للجسد، فإذا فارقت الروح الجسد سُمي ذلك الإنسان بميت.

النائم ماذا يسمى؟ ميت ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾.[الزمر]

لذلك قال أحدهم: أين فلان؟ فقيل له: عظم الله أجرك فإنه قد مات.. إنا لله وإنا إليه راجعون، وبعد ساعة رآه فقال: كيف؟! فكذّبَ القائل، فقال له والله ما كذبت، وقرأ عليه هذه الآية: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾.

فما المراد في الحديث (من ماتَ وهو يدعو من دون الله نِدًّا دخل النار) الحسية أم المعنوية؟

الجواب: الحسية. أي من فارقت روحه جسده وهو يدعو من دون الله أي يشرك بالله عز وجل.

(نِدًّا): أي مساويًا لله عز وجل.

طيب لو أن هناك من يدعو من رفعه حتى فوق منزلة الله، يدخل في هذا السياق أو لا؟ هذا من باب أولى أن يدخل في هذا السياق.

(دخل النار): وهنا نعلم أن الشرك موجبٌ للنار.

هل هذا يدل على الدخول أو الخلود؟

هذا شرك أكبر فهو يوجب الخلود في النار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: ولمسلم: عن جابر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال:

(من لقي الله لا يُشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يُشرك به شيئًا دخل النار).[1] [مسلم]

---

(١): ما مناسبة هذا الخبر للباب ؟

أننا إذا علمنا أن من لقي الله وهو يشرك به أوجب له ذلك الدخول في النار؛ تحتم علينا أن نخاف من الشرك ومن سبله.

إذن فهذه النصوص التي يوردها المصنف -رحمه الله تعالى- لا شك أنها نصوص تتوافق مع الترجمة، وفي نفس السياق أن الإنسان إذا علم أن وقوعه في شِراك الشرك يُحرم بسببه الدخول في الجنة، وينال بسببه الدخول في النار أوجب ذلك على العبد الخوف من الشرك ومن سبله، لأنه بالشرك يحرم الإنسان الجنة وكذلك يتبوأ مقعده في النار ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إذن فالخلاصة من هذا الباب أن الشرك ذنب عظيم خافه الصالحون والأنبياء، فإذا كان الأنبياء عليهم السلام خافوه على أنفسهم وخافوه على أمتهم أوجب ذلك على من دونهم أن يخافوا من الشرك. ولن يكون الإنسان محققًا لذلك حتى يجانب الشرك وسبله، فإذا جانبه فعند ذلك يصدق عليه أنه خاف من الشرك، لأن الإنسان إذا خاف من شيء ابتعد عنه.

أنت حينما تخاف من أن ترتطم بك سيارة في الطريق فأين تسير؟ في وسط الطريق أم على الرصيف؟ على الرصيف. بينما إذا قال أحدهم: أنا إنسان أخاف من الحوادث وأخاف من السيارات، ويسير في وسط الطريق!.. فهذا يقول قولًا ويفعل خلافه.

الدرس الخامس

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

قبل أن نشرع في درس هذا اليوم، لا يخفى على كريم علمكم معاشر الأحبة أننا بصدد استقبال أيام عظيمة، أقسم الله عز وجل بها في كتابه العزيز:﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[الفجر]، أقسم الله سبحانه وتعالى بليالي عشر ذي الحجة، وقد حث الله سبحانه وتعالى العباد على إيقاع الذكر والعبادة في أيام معلومات وفي أيام معدودات: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾[البقرة]، ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾[الحج].

يقول ابن عباس رضي الله عنه حَبر الأمة وترجمان القرآن: الأيام المعلومات هي أيام عشر ذي الحجة، والأيام المعدودات هي أيام التشريق.

فحري بنا معشر الأحباب أن نَجْهَدَ في عمارة ما نستقبله من أيام عشر ذي الحجة بطاعة الله وبذكره.

لذلك قرر أهل العلم أن أيام عشر ذي الحجة أفضل أيام العام، بينما ليالي العشر الأواخر من رمضان هي أفضل ليالي العام. فلذلك حريٌّ بنا أن نغتنم هذه الأيام.

وكما جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: ((ما من أيَّامٍ العملُ الصَّالحُ فيهنَّ أحبُّ إلى اللهِ من هذه الأيَّامِ العشرِ، قالوا: يا رسولَ اللهِ ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ إلَّا رجل خرج بنفسِه ومالِه فلم يرجِعْ من ذلك بشيءٍ)). [أخرجه البخاري]

أيام عظيمة، وأهل العلم قد بينوا أن البركة تنقسم إلى قسمين: بركة في الأماكن، وبركة في الأزمنة. ونحن بصدد استقبال بركة زمانية، حيث أن إيقاع العبادة في هذه الأيام له فضل عظيم، حتى جاء في

بعض الأخبار وفي بعض الآثار أن العبادة في هذه الأيام.. مثلًا صيام يوم فيها كصيام سنة، والصلاة فيها تعدل صلاة سنة، وغير ذلك من الأخبار التي تدل بعمومها على فضل هذه الأيام.

لذلك جاء في مسند أحمد بسند صحيح وعند أهل السنن عن بعض أزواج النبي ﷺ، أن النبي ﷺ صام التسعة من ذي الحجة أي صام العشرة الأوَل حاشا يوم العيد، صام الأول من ذي الحجة إلى اليوم التاسع، واليوم التاسع هو يوم عرفة الذي بين النبي ﷺ أن من صامه فإنه يحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله والسنة التى بعده، أي: أن الله سبحانه وتعالى يكفّر بصيامه سنتين، السنة الماضية والسنة القابلة، وهذا فضل عظيم.

قال أهل العلم: السنة الماضية معلومٌ التكفير فيها، يكون العبد قد وقع في معاصٍ وزلاتٍ مضت في العام الماضي -طبعًا حاشا الكبائر-، فإن الله سبحانه وتعالى يكفرّها بصيام هذا اليوم. أما في العام القادم، فكيف يكفّر الإنسان بصيام هذا اليوم ذنوبًا لم تقع منه بعد؟ قال أهل العلم: التكفير المراد بالسنة القادمة أن يهيّئ الله سبحانه وتعالى للعبد أعمالًا، ويشرح صدره لطاعاتٍ، ويهديه لصراطه المستقيم، حتى يتقي بفضل وبركة صيام ذلك اليوم ما حرّم الله سبحانه وتعالى، وهذا فضلٌ عظيم.

ويشرع في هذه الأيام كذلك الإكثار من التكبير والتهليل والتسبيح، ونُقِل عن صحابة رسول الله ﷺ كما روى ذلك البخاري في صحيحه معلقًا أن ابن عمر وأبا هريرة رضي الله عنهما كانا يدخلان في الأسواق فيكبّران حتى يكبّر الناس بتكبيرهما، وفي ذلك إظهار لشعيرة التكبير.

وورد في التكبير صفات شتى: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر كبيرا. وورد كذلك: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد. وكذلك ورد بتثنية التكبير: اللهُ أكبر اللهُ أكبر، لا إله إلا الله، اللهُ أكبر اللهُ أكبر، ولله الحمد.

الرجال يجهرون بالتكبير، أما النساء فلا يجهرن بالتكبير وإنما يُسررن بالتكبير حتى تُسمع المرأة نفسها، ولا يلزم أن تُسمع من حولها.

فإذن نهيب بالإخوة الكرام أن يجدّوا ويجتهدوا في هذه الأيام، فقد يكون أول أيام ذي الحجة هو الغد الخميس أو قد يكون يوم الجمعة والله أعلم، ولكن إن كان الغد فحريٌّ بنا أن نبادر هذه الأيام بالصيام والقيام وصالح الأعمال، فإن الأجور في هذه الأيام مضاعفة والكيّس من اغتنم هذه الأيام، لأن الإنسان في هذه الدنيا هو في دار يزرع فيها والحصاد يكون يوم القيامة، فحريٌّ بنا أن نغنم وأن نغتنم هذه الأيام لأن الله سبحانه وتعالى من رحمته وكرمه وجوده شرع لنا مواسم نتعرّض فيها إلى نفحاته فننال القرب منه سبحانه وتعالى.

أحببت أن أُقَدّم هذه المقدمة وأذكر بها نفسي وإخواني.

الجهر بالتكبير لا يكون على صفة جماعية وإنما يكون على صفة فردية، يعني ألا يكون هناك إمام للناس بالتكبير يكبر الناس بتكبيره، لا هذا غير مشروع، بل هو من البدع التي ذمّها السلف، وإنما يكبر الإنسان على حِدة (الله أكبر)، ثمّ يكبر الآخر (الله أكبر الله أكبر)، شريطةَ أن يكون التكبير كل واحد على حِدة، لا أن يكون على نسق جماعي، لا أن يكون لهم إمام يأتمون به في التكبير، فهذا من البدع المذمومة المنهي عنها.

فيحرص الإنسان أن لا يوافق أهل البدع في تكبيراته، وإنما يجد ويجتهد..

يعني مثلًا إذا توافق تكبيرك مع تكبير غيرك، فإذا فرغت فتوقف قليلًا حتى يتجاوزك أو تقدّم أنت عنه وهكذا.. حتى لا يكون في ذلك موافقة، خصوصًا أن الناس قد لا تدرك مثل هذا، فقد يمرّ مار فيرى أهل العلم أو من عُرِفوا بالعلم يكبرّون تكبيرًا جماعيًا، فيظن مشروعية ذلك، فيدخل إلى بيته أو مكان عام، فيدعو الناس إلى مثل هذا العمل، فلا شك أنه أمر لا يُقرُّ شرعًا.

وابن عمر وأبا هريرة رضي الله عنهما كانا يدخلان في الأسواق فيكبران حتى يكبر الناس بتكبيرهما: أي أنهم يتذكرون، فالمقصود به التذكّر وليس المراد أن يتابعه الناس ويكون إمامًا لهم بالتكبير، وإنما مذكّرًا لهم بالتكبير.. فأنا حينما أدخل عليكم فأذكّركم وأقول (الله أكبر الله أكبر)، فأنتم مباشرةً تتذكرون فتكبرون.

والتكبير يقسمه أهل العلم إلى قسمين: تكبير مطلق، وتكبير مقيّد.

التكبير المطلق يبدأ من أول ليلة من ليالي ذي الحجة.. يعني إذا أُعلن أن الغد هو اليوم الأول من أيام ذي الحجة شُرع التكبير من أول ليلة من ليالي ذي الحجة ويمتد التكبير المطلق إلى غروب شمس الثالث عشر من ذي الحجة، وأما التكبير المقيد فقد تعددت الرواية في ذلك، الرواية الأولى الواردة عن بعض الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- أنهم يبدؤون بالتكبير المطلق من فجر يوم عرفة، والرواية الثانية من فجر يوم النحر.

ومعنى التكبير المطلق أن يكبر في سائر الأوقات، لا أن يكون مقيدًا بموضع معين، وإنما يكون في كل الأوقات.. يكبر وهو يسير، يكبر وهو قاعد، يكبر وهو قائم، يكبر وهو في السوق، يكبر وهو في المسجد، يكبر قبل الصلاة وبعد الصلاة وهكذا.. هذا هو التكبير المطلق.

التكبير المقيد يكون في أدبار الصلوات، ويبدأ -والله تعالى أعلى وأعلم- صبيحة يوم النحر على رأي الأكثر، يكون بعدما يفرغ الإنسان من الصلاة ويقول أستغفر الله ثلاثًا، اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، ثم بعد ذلك يشرع بالتكبير المقيد.. يكبر حتى يُظهر هذه الشعيرة ثم بعد ذلك يعود لاستئناف أذكار الصلاة.. وهكذا..

وكذلك يسن ويستحب في حق من أراد أن يضحي أن يمسك عن أخذ الشعر وتقليم الأظافر، وكذلك يندب لمن كان عنده سَعة في المال أن يضحي في ذلك اليوم يوم النحر، لأنه يوم عظيم، وأعظم ما يتقرب العبد فيه إلى الله بإراقة الدم، أن يريق الدم تقربًا لله عز وجل.

ولعله يأتينا في موضع آخر الحديث عن أحكام الأضحية، إن أمدّ الله سبحانه وتعالى في العمر.[١]

١- أفرد الشيخ -تقبله الله- الدرس العاشر للحديث عن أحكام الأضحية.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.(١)

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.(٢) [يوسف]

إذن نستأنف وإيّاكم بإذن الله مدارسة كتاب التوحيد.

(١): بعدما بين المصنف -رحمه الله تعالى- وجوب التوحيد على العباد، وأن التوحيد عبادة لها فضائل ولها ولأهلها منزلة عظيمة عند الله، وأن من حقق التوحيد الخالص لله عز وجل وأتى بالتحقيق الواجب والمستحب؛ أدخله الله الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم بعد أن بين المصنف تلك المسائل شرع -رحمه الله تعالى- في بيان وجوب الدعوة إلى التوحيد.

وقد بين -رحمه الله تعالى- في مصنف مستقل في (ثلاثة أصول) قال -رحمه الله-: "اعلم رحمك الله أن هناك مسائل يجب علينا أن نتعلمها: معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمد ﷺ"، بعد أن يتعلم الإنسان هذه المسائل لا بد من العلم والعمل والدعوة ثم الصبر على الأذى، لأن الإنسان إذا بدأ في الدعوة أُوذي، وإذا أوذي ناسب أن يُذكَّر بالصبر والاحتساب.

فإذن سار المصنف على نفس التأصيل الذي بينه في (ثلاثة أصول)، وهو متنٌ معتمد عند أهل العلم يجعلونه درجة أولى في سلم الطلب، يليها كتاب التوحيد أو بعد القواعد الأربع يأتي كتاب التوحيد على تفاوت بين أهل العلم، منهم من قدّم كشف الشبهات على كتاب التوحيد، ومنهم من يقدّم كتاب التوحيد على كشف الشبهات وهذه لا حرج في التقديم والتأخير فيها.

(٢): **﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** ما مناسبة هذه الآية للباب (باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله)؟

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾؛ سبيل الأنبياء عليهم السلام وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ، هو الدعوة إلى الله مع إخلاص العبادة إليه.

يقول الإمام القيم –رحمه الله تعالى–: صلوات ربي وسلامه على أنبيائه، حيث أنهم نقلوا العبادة من دين الآباء والأجداد إلى دين الإسلام: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَام﴾[آل عمران]، فكل الأنبياء كانوا يدعون أقوامهم إلى الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله.

هذا أصل تشترك فيه كل الديانات، ويشترك فيه كل الأنبياء والرسل، وإنما اختلفوا في الشرعة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة]، أما في أصل الأمر فهم يتفقون ويشتركون في ذلك.

فإذا علم الإنسان أن الدعوة إلى التوحيد هي سبيل الأنبياء والرسل، تعين عليه أن يتأسى بالأنبياء والرسل عليهم السلام ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام]، لا شك أن الإنسان مأمور بالاقتداء والمتابعة للنبي ﷺ.

﴿**قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِيٓ**﴾: أي أن طريقي وطريقتي التي أسير عليها هي دعوة الناس إلى إفراد الله بالعبادة، دعوة الناس إلى أن يوحدوا الله وحده لا شريك له، فلا يعبدوا غيره، ولا يدعوا سواه، ولا يستغيثوا بغيره، ولا يتوكلوا على غيره سبحانه وتعالى، بل تكون عباداتهم القلبية والعملية والقولية كلها لله وحده لا شريك له.

﴿**أَدْعُوٓا إِلَى اللَّهِ**﴾: أي أدعو الناس إلى عبادة الله مخلصًا في ذلك لله وحده لا شريك له.

﴿**عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾: على بصيرة: أي أن الدعوة إلى الله لا بد أن تكون مستقاة من كتاب ربنا سبحانه وتعالى ومن سنة نبينا ﷺ ومن هدي السلف الصالح، لا أن تكون مخترعة من عند أنفسنا، أو مُختلَقة من عندنا، بل تكون مستقاة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لأن الدعوة إلى الله عبادةٌ لا يُشرع فيها إلا ما شَرع الله أو شرع نبيه ﷺ.

والعبادات الأصل فيها التوقيف؛ أي أن الإنسان لا يُقدم على شيء تعبُّدي إلا بنصٍ ثابتٍ شرعي، فلا يبدأ الإنسان باختلاق عبادات وإحداث طاعات لا أصل لها في الشرع، فهذا هو عين الابتداع، قال رسول الله ﷺ: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ)) [متفق عليه] ، أي مردود على صاحبه، لا يؤجر على عبادته، بل هي مردودة عليه ولا حول ولا قوه إلا بالله.

هنا مسألة: بين الله سبحانه وتعالى في هذا السياق أن الدعوة إلى الله لا تكون إلا على بصيرة – وقبل ذلك لا شك أن يكون العبد مخلصًا لله عز وجل في دعوته–، ولنا وقفتان:

الوقفة الأولى: مع الإخلاص في الدعوة إلى الله.

والوقفة الثانية: مع البصيرة التي يجب تحققها في العبد الداعية إلى الله.

الوقفة الأولى: على ترتيب الآية ﴿أدْعوُا إِلَى اللهِ﴾ الإخلاص لله.. من المنزلقات الخطيرة التي يقع فيها الداعية إلى الله من حيث لا يشعر أنه قد يدعو إلى نفسه أو ينتقم لنفسه متلبسًا بلباسِ الدعوة إلى الله.

مثال: رجل من الدعاة إلى الله ظاهره الاستقامة، لحية طويلة، وثوب قصير، يلبس القلنسوة، وظاهره ظاهر الدعاة، فجاء رجل متبلد أمامه فأخذ يدخن مثلًا أو يمارس معصيةً من المعاصي، فمن حيث لا يشعر هذا الإنسان قد يقول في نفسه: هذا لا يحترمني، لا يراني شيئًا، ما عبرّ هذه اللحية، أما علم أني أمام المسجد.. أما علم أني خطيب المسجد!! فأصبحت القضية لله أو لغير الله؟

لغير الله، وهذا منزلق خطير، لا شك أن المجاهرة بالمعصية أمام رجال الدين فيها وقاحة وكذلك فيها سوء أدب، ولكن على الإنسان أن يتفقد سويداء قلبه، وأن ينتبه، وأن يحذر من مزالق الشيطان.

صورة أخرى: رجل رأى رجلًا يعاقر معصية من المعاصي، فلما نصحه وذكّره كان في بداية أمره يدعو إلى الله مخلصًا في عبادة لله عز وجل.. فإذا بصاحب المنكر (مثلًا يدخن) يسيء الأدب.. فلما قال له: يا أخ الإسلام، اتقِ الله عز وجل، فقد تقرر من الناحية الطبية أن الدخان مضر بالصحة وأنه

سبب للموت والوفاة، وقرر ذلك الأطباء بناءً على هذه التقارير الطبية، والشرع ينهى عن كل ما يكون سبب لقتل النفس والله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[النساء]، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة].. فكان رد ذلك الرجل أن أخذ شفطة وردّ الدخان عليه.. فبدأ هذا الرجل يتميز من الغيظ، ويقول في نفسه هذا ما يحترمني، هذا يقل حياؤه علي..

هو لا شك أن صاحب المنكر يستحق التأديب، لكن احذر، فإن الشيطان سيدخل في هذا الموقف، وسيكون له تدخل سريع، فإذا رددت فاجعل ردة فعلك لله، وإذا أدّبت فاجعل تأديبك لله، لا انتصارًا للنفس، الدعاة إلى الله لا ينتصرون لأنفسهم وإنما ينتصرون لدين خالقهم سبحانه وتعالى، الثارات الشخصية ليس لها علاقة بالدعوة إلى الله، تصفية الحسابات لا يمكن أن نقحمها في غمار الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى. إذا رأيت الداعية إلى الله يخوض في هذه المستنقعات وفي هذه الأوحال فاعلم أن دعوته لن تكون لله عز وجل، حتى وإن طال به المسير وطال به المقام، فإذن يحذر الإنسان، وليتجرّد من ذلك.

يُروى أن أحد الصالحين كان يدخل الأسواق آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، فبينما هو كذلك دخلت قافلة إلى السوق فبدؤوا يُنزلون ما عليها من المتاع، فكان من جملة ما أُنزل عشر جرار من الخمر، فعلمَ هذا الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ما في هذه الجرار، وعلم أنها للسلطان، ولكن المؤمن لا يخاف في الله لومة لائم، يأمر الشريف والوضيع بالمعروف، وينهى عن المنكر إن كان مرتكبه هو الشريف أو الوضيع. لذلك قال ﷺ: ((إنمَّا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلكُمْ، أَنهُّمْ كَانوُا إذاَ سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوُهُ، وإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عليه الحَدَّ، وايمُ الله لو أَنَّ فَاطِمَةَ بنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لقَطَعْتُ يَدَهَا)).[البخاري]

انظروا إلى الدرس التربوي؛ أشرف الناس نسبًا.. من بيت محمد ﷺ.. من صلب رسول الله ﷺ.. لو أنها أصابت حدًّا من حدود الله لأقام النبي ﷺ عليها ما أوجب الله.

فلما رأى هذا الرجل تلك الجرار، ورأى الحرّاس حولها، انقض عليها فكسر الأولى حتى أراق ما فيها، ثم كسر الثانية حتى أراق ما فيها، ثم الثالثة ثم الرابعة، حتى وصل إلى التاسعة، فلما كسر التاسعة وأراق ما فيها، وقف عند العاشرة ثم تركها.. ثم أقبل عليه الحراس وعسكر السلطان، فأخذوه وجرّوه، حتى جاؤوا به إلى مجلس السلطان فَرَوَوْا عليه القصة، وأخبروه بما وقع، فبادر السلطان إلى سؤاله: ما الذي حملك على ذلك؟ لماذا فعلت ذلك؟ قال فعلتها لله، قال: إذن لماذا تركت العاشرة؟ قال فأما الأولى فكسرتها لله، والثانية لله، والثالثة والرابعة والخامسة إلى أن وصل إلى التاسعة يقول كسرتها لله، فلما هممتُ بكسر العاشرة دخل الشيطان إلى قلبي وقال لي: أنت البطل وأنت الشجاع.. فتغلب على نيتي، فوالله ما أردت أن أكسرها لغير الله، فتوقّفت، فقلت أتركها حتى أراجع نيتي وأصحح نيتي ثم يعينني المولى سبحانه وتعالى على أن أكسرها كما كسرت التسعة التي قبلها، فأعجب السلطان بصدقه، وأعجب بإخلاصه، فكتب له مكتوبًا وقال له: مُرْ بالمعروف وانهَ عن المنكر ولا تخف من أحد.

نحن بحاجة إلى الصدق مع الله، نحن لا ندعو إلى أنفسنا ولا إلى أشخاصنا وإنما ندعو إلى دين خالقنا سبحانه وتعالى، ونحن إن تحدثنا فإننا لا نمثل أنفسنا وإنما نمثل الدين، فحري بنا أن نراعي مثل ذلك وأن لا نتهاون في مثل ذلك، فإذا تحقق التهاون، وقع الخلل وحصل الزلل.

إذن هذه هي الوقفة الأولى .

الوقفة الثانية: على بصيرة..

ما هي البصيرة المرادة هنا؟ هل المراد بالبصيرة أن يكون الإنسان مُلمًا بمسائل الدين كلها حتى أننا نقول: لا يشرع للإنسان أن يدعو إلى الله حتى يلمَّ بأبواب الدين كلها؟

لا شك أننا لو قلنا مثل ذلك لتعطلت هذه الشعيرة لأننا ندرك ونعلم يقينًا أن هذه المنزلة لا يمكن إدراكها إلا من قلة قليلة من الناس.

ولكن المراد هنا بالبصيرة: أي أن يكون عندك بصيرة فيما تدعو إلى الله فيه، فمثلًا: تدعو الناس إلى الصلاة.. عليك أن تكون مُتبصِّرًا بأحكام الصلاة، بحكم تاركها وجاحدها، أن تكون متبصرًا بشروطها وأركانها وواجباتها.. بالأحكام المتعلقة بها.. تدعو الناس إلى إعفاء اللحى وبيان حُرمة حلقها، كف الإزار ورفعه عن الإسبال.. عليك أن تتفقه في هذه الأحكام حتى إذا دعوت الناس في هذه الأحكام علمتهم وفقهتهم لماذا حرّم الله ذلك ولماذا أوجب علينا خلاف ذلك.

إذن أن يكون عندك بصيرة فيما تدعو الناس إليه، فإذا حققت البصيرة جاز لك أن تدعو.

سؤال: رجل من العامة فقِهَ مسألة من المسائل، هل يجوز له وإن كان من العامة أن يدعو إلى الله في هذه المسألة التي فقهها؟

نعم، وهذا هو المراد بالبصيرة هنا، البصيرة أن يكون عندك علم في هذه المسألة التي تدعو إلى الله الناسَ إليها.

قال المصنف -رحمه الله تعالى:

عن ابن عباس ﷺ: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له: إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله، -وفي رواية-: "إلى أن يوحِّدوا الله"، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترُدّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإيّاك وكرائم أموالهم، واتَّقِ دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب.[أخرجاه] (١)

---

(١): (**عن ابن عباس ﷺ: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن**): هنا مسألة:

أنه يجب على إمام المسلمين أن يرسل إلى الناس من يفقههم في دينهم، وأن يعلمهم السبيل الذي يصلون به إلى الله.

والناس في ذلك على قسمين: أناس تحت سلطان الإمام وأناس ليسوا تحت سلطان الإمام.

لنأتي إلى الصورة الثانية (**الذين ليسوا تحت سلطان الإمام**): وهذا ما يسمى بجهاد الطلب، وهو أن يُنفذ الإمام جيشًا أو سريةً إلى الكفار في عقر دارهم، وهذا فرض كفاية، ويجب على إمام المسلمين أن ينفذ في العام مرة أو مرتين.

استدل أهل العلم على ذلك بالآية: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾[التوبة]، فهذا يدل على أنه يجب على الإمام أن يُنفذ جيشًا أو سريةً إلى الكفار في عقر دارهم، يدعونهم إلى الإسلام ابتداءً

كما جاء [في الصحيح] من حديث بريدة رضي الله عنه: ((أن النبي ﷺ كان إذا بعث أو أمّر أميرًا على جيش أو سرية أَوْصَاهُ في خَاصَّة نفسه بتقوَى اللهِ، وَمَن معهُ مِنَ المسْلِمِينَ خَيْرًا، ثمَّ قالَ له: إذاَ لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المشْرِكِينَ، فَادْعهُمْ إلى ثلَاثِ خِصَالٍ، فأيتَّهُنَّ ما أجَابوُكَ فَاقْبل منهمْ، وَكُفَّ عنْهمْ، ادْعهُمْ إلى الإسْلَامِ، فإنْ أجَابوُكَ، فَاقْبلَ منهمْ، وَكفَّ عنْهمْ، وَأخْبرِهُمْ أنَّ لهُمْ ما لِلْمُسلمينَ ، وَعليهم ما علَى المسلمينَ، فإنْ هُمْ أبَوْا فَسَلْهُمُ الجزْيَةَ، فإنْ هُمْ أجَابوُكَ فَاقْبلَ منهمْ، وَكفَّ عنْهمْ، فإنْ هُمْ أبَوَا فَاسْتعِنْ بالله وَقَاتلِهُمْ)).

هذا يسمى عند أهل العلم بجهاد الطلب، والغرض منه الدعوة ابتداءً.

والدعوة إلى الإسلام قبل ابتداء الكفار بالقتال في جهاد الطلب هي من حيث الحكم على قسمين:

الأول: تجب دعوتهم قبل ابتدائهم بالقتال.

الثاني: تستحب دعوتهم للإسلام قبل ابتدائهم بالقتال.

فقال أهل العلم إذا كان الكفار قد بلغتهم دعوة الإسلام، أصبحت دعوتهم إلى الإسلام قبل ابتدائهم بالقتال في جهاد الطلب مستحبة، وإذا لم تبلغهم كانت واجبة.

ويقول الإمام أحمد رحمه الله تعالى -في وقته وفي حينه-: "ولا أعلم أحدًا لم تبلغه الدعوة" انظروا.. في وقت الإمام أحمد لا يوجد إنترنت لا يوجد سكايب ولا يوجد فيسبوك، واتساب ولا يوجد وسائل تواصل، ومع ذلك يقول الإمام -رحمه الله-: "ولا أعلم أحدًا لم تبلغه الدعوة"، لأن الله أقام الحجة على العالمين بإرسال نبيه وبإنزال كتابه، فجعل بلوغ الكتاب حجة على العالمين، وكذلك وصول خبر النبي ﷺ والسماع به حجة على العالمين: ((والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يسَمَعُ بِي أحَدٌ مِنْ هذِهِ الأمَّةِ يهُودِيٌّ وَلاَ نصْرَانِيٌّ، ثمَّ يموتُ وَلَمْ يؤُمِنْ بالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إلاَّ كَانَ مِنْ أصْحَابِ النَّارِ)).[مسلم]

إذن هذه هي الدعوة المرادة، فبناءً على كلام الإمام أحمد لا تجب دعوة المشركين قبل ابتدائهم بالقتال في جهاد الطلب.

وأما في جهاد الدفع (وهو الجهاد الواجب المتعين)، فالواجب هنا الدفع، ولا يوجد هناك شيء اسمه دعوة، رجلٌ صال على حرمات المسلمين وصال على الدين، فالواجب دفعه، بل لا شيء بعد الإيمان أوجب من دفع العدو الصائل الذي يفسد الدنيا والدين كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-.

والذي يظهر اليوم -والله تعالى أعلى وأعلم- أن الدعوة قد بلغت الناس، فإذا ابتدأ المسلمون قتال المشركين في جهاد الطلب قبل دعوتهم فلا إثم ولا تثريب عليهم.

- أحد الإخوة: ما نحن عليه اليوم يتساءل كثير من الناس.. لماذا رجال الدولة الإسلامية لم يدعوا الناس قبل قتالهم؟

- الشيخ: نحن حديثنا بيّن الآن نحن نتحدث عن ابتداء القتال أو تقديم الدعوة قبل القتال.. أولًا نحن في جهاد دفع لسنا في جهاد طلب، وديار المسلمين محتلة، والحرمات منتهكة، وهو واجب على المسلمين وجوبًا عينيًا يأثم الإنسان على التقصير فيه.

وللأسف الشديد نرى كثيرًا من الناس انشغلوا بالزرع وانشغلوا بجمع حطام الدنيا الزائل، متغافلين متقاعسين عن الواجب المتعين: ((إذا تبايعتم بالعِينةِ وأخذتم أذنابَ البقرِ، ورضيتم بالزرعِ، وتركتم الجهادَ، سلَّطَ اللهُ عليكم ذُلاًّ لا ينزعُه حتى ترجعوا إلى دِينكِم)).[أبو داوود] في لفظ آخر: ((حتى تُراجعوا دينكم)).

لماذا ذلّت الشعوب المسلمة؟ لماذا تسلّط الطواغيت عليها؟ إلا حينما تركت هذا الواجب العيني الذي أوجبه الله -سبحانه وتعالى عليها-: ﴿قَٰتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيومِ الْآخِرِ﴾[التوبة]، كذلك ﴿مَا لكُمْ إِذَا قِيلَ لكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتمْ إِلى الْأَرْضِ﴾[التوبة]، ﴿فَإِذا انسَلخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذوُهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُ دُوا لَهُمْ كلَّ مَرْصَدٍ﴾[التوبة].

هذا هو الواجب الإلهي: ﴿فاقتلوهم﴾، أمرٌ من الله عز وجل بمقاتلة الكفار سواءً كان كفرهم أصليًا أو طارئًا، والمراد بالكفر الطارئ هم المرتدون، وقد أجمع أهل العلم على وجوب قتال طوائف الرِدّة،

وهذا الواجب متقرر عند أهل العلم في القديم والحديث، وما زالت الأمة تتناقل هذا الإجماع جيلًا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن، وزمانًا بعد زمان، على أن الطوائف التي تمتنع عن التزام الدين وعن التزام شرائع دين الإسلام الحنيف يجب قتالها ويجب مفاصلتها حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله، وهذا هو الواجب الذي كلفنا الله سبحانه وتعالى به.

إذن هذا من حيث القسم الأول الذي هو دعوة الكفار الذين هم خارج سلطان الإمام.

أما إذا كانوا تحت سلطان الإمام: فإنهم إن كانوا كفارًا أصليين فلا يخلو حالهم إما أن يكونوا يهودًا أو نصارى من أهل الكتاب أو مجوسًا أو يكونوا مشركين، أو يكونوا مرتدين.

فأما أهل الكتاب فالتعامل معهم: أن يُعرض عليهم الإسلام، فإن هم أبوا، يُدعون إلى دفع الجزية، فإن قبلوا فتُعقد لهم ما يسمى بعهد الذمة وفق الشروط العُمرية، فيعيشون بين المسلمين تحت حماية المسلمين ولا يُشرع لهم أن يُظهروا شرائعهم الكفرية ولا أن يُحدثوا كنائسًا ولا أن يُرمموا ما تهدم من كنائسهم التي كانت موجودة، ولا يتشبهون بالمسلمين في ظاهرهم بل يكون لهم زي خاص كما فرض ذلك أمير المؤمنين عمر -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، فلا يدقون الأجراس، ولا يُظهرون أي شعيرة من شعائرهم، ولا حرج أن يترافعوا إلى محاكم المسلمين.

وهذا هو الإسلام.. فقد ترافع يهودي عند القاضي شُريح الكندي وكان خصمه في ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- في قصة الدرع.. انظروا إلى عدل الإسلام، وانظروا إلى استقلال القضاء، يجلس فيه أمير المؤمنين علي، وخصمه في ذلك يهودي! وشُريح -رحمه الله- يقف أمام هذه القضية وهذه المسألة وهو مطمئن القلب، ساكن الفؤاد، لم يقل هذا أمير المؤمنين فكيف أفعل؟! ولم يُشر إليه أمير المؤمنين ولم يقل له واللهِ أقتلك أو أفعل لك..

فنظر شريح إلى القضية فرأى أن صاحب الحق هو اليهودي، فقضى شريح لليهودي وأعطاه حقه، مع أن الطرف الآخر هو أمير المؤمنين علي -رضي الله عنه وأرضاه-، هذا هو العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض.

وهنا يظهر لنا استقلال القضاء؛ أنه ليس هناك سلطة فوق القضاء إلا سلطان الشريعة، فالشريعة تقضي بالحق لصاحبه أيًّا كان، وتحكم على من يستحق أن يحكم عليه كائنًا من كان.. لذلك كان أمير المؤمنين عمر وكذلك أمير المؤمنين علي -رضي الله عنهم أجمعين- يقع أن يترافع عليهم شخص من الأشخاص ثم بعد ذلك يُقضى لهم بحكم الشرع. هذا هو العدل.. عند ذلك تعز الأمة وتعود إلى مجدها، وتعود إلى ريادتها.

إذن، فإذا كان الكفار القاطنين تحت سلطان الإمام من أهل الكتاب؛ يُدعَون إلى الإسلام ابتداءً، فإن هم أبوا؛ تُعرض عليهم الجزية وعهد الذمة، فإن هم قبلوا كانوا من أهل الذمة، لهم الأمان ويعيشون تحت أمان إمام المسلمين، فإن هم أبوا فإن للإمام أن يقتلهم وله أن يجليهم وله أن يسبي نساءهم، وله أن يغنم أموالهم، لأن هذا هو حكم الإسلام، لا يُقرَّون أبدًا..

فرأينا ولله الحمد عزة الإسلام، فإذا نظرنا إلى النصارى في ولاية البركة والرقة وحلب ولله الحمد والمنة، فقد قامت الدولة الإسلامية أعزها الله متمثلة بإمام المسلمين وأمير المؤمنين بدعوتهم إلى الإسلام، فأبوا، فتذكّرنا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[البقرة]، فدعوناهم إلى دفع الجزية وعقد الذمة، فقبلوا فعُقدت لهم الذمة، ودفعوا الجزية، وها هم يعيشون بين ظهراني المسلمين آمنين على أنفسهم، آمنين على أموالهم، آمنين على أعراضهم، بل إنهم ما زالوا إلى يومنا هذا يترافعون إلى محاكم الدولة، وتقضي الدولة بالحق لصاحبه، إذا كان الحق لهم أعطوا إياه، وإذا كان الحق عليهم حُكم عليهم بما يقتضيه الشرع.

أما إذا كان القاطن تحت سلطان المسلمين من غير أهل الكتاب كأن يكون من المشركين من أهل الكفر الأصلي، فهؤلاء يخيرهم الإمام بين أمرين: إما أن يسلموا أو يُقتلوا.

وهذا ما حصل، ففي منطقة سنجار في العراق، هجم أُسود الدولة على تلك المناطق وتلك الديار، وكان أهلها من عبدة الشيطان، من أهل الكفر الأصلي، ولكنهم ليسوا من أهل الكتاب.

وهذا الذي عليه رأي أكثر أهل العلم: أن قبول الجزية يكون من أهل الكتاب أو ممن له شبهة كتاب كما هو الحال في المجوس، لأن الرسول ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، فقال: ((سنُّوا بهم سنَّة أهل الكتاب)).[الموطأ]

فإذا كانوا من أهل الشرك الأصلي وليسوا من أهل الكتاب وليس لهم شبهة كتاب فإن الخيارات تضيق في حقهم، فهم بين قبول الإسلام أو القتل والتشريد.

وهذا ما حصل، فدعاهم إمام المسلمين إلى الإسلام، فأسلم بعضهم وعاش بين ظهراني المسلمين معزّزًا مكرّمًا، وأبى بعضهم فقاتلوا فقُتلوا، وبعضهم هرب من سيف أهل الحق، وسُبيت نساؤهم، وغُنمت أموالهم، وهذا هو حكم الشرع.

والقسم الثالث: أناس مرتدون (طائفة ردة) كانت تحت سلطان الإمام، فهنا لا يُقبل منهم إلا الإسلام قبل القدرة، فأما بعد القدرة فحتى إن أسلموا فكذلك يمضي عليهم السيف، لأن هذا هو حكم الشرع: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أنَ تَقدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾.[المائدة]

فإن تابوا قبل القدرة فلا يُطالبون بالحقوق الخاصة، لا يطالبون بضمان الدماء التي قتلوها، ولا يطالبون بضمان الممتلكات التي أتلفوها، ولا يطالبون بأي حق خاص، بل إذا جاؤوا تائبين فلهم الأمان، فإن ظهر لإمام المسلمين صدق توبتهم عاشوا بين ظهراني المسلمين، حالهم كحال المسلمين، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين.

أما إذا قُدر عليهم، فإن للإمام أن يُمضي عليهم ما رآه علماء المالكية: مِن أنّ المرتدين إذا قاتلوا وحاربوا فقُدِر عليهم فإنهم لا يستتابون، لأن حرابتهم حق عام للمسلمين لا يجوز لأحد أن يُسقطه حتى وإن كان الإمام.

فلذلك يتحتم القتل حينئذ، وتكون التوبة بينهم وبين الله، فإن التوبة هنا لا تُسقِط العقوبة الدنيوية أو لا تسقط الأحكام الدنيوية، وتكون توبتهم بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، هذا هو الرأي الأول.

هناك رأي ثانٍ: أنهم يستتابون، وهذا أمر راجع إلى الإمام إن رأى المصلحة في ذلك.

ومعنى يستتابون، أي يُعرض عليهم الإسلام، وإلا فلا يُقرُّ المرتد علي رِدّته البتة، وتحتم قتل المرتد أمر مجمعٌ عليه، نقل الإجماع على ذلك الإمام ابن قدامة المقدسي، والإمام ابن رشد المالكي، والإمام ابن المنذر وجمعٌ من أهل العلم، حكوا الإجماع على وجوب قتل المرتد، وأن المرتد لا يُقرُّ على ردته طرفة عين، بل إن قتله أمرٌ متحتم لا خلاف فيه.

فإذن هذه هي الأقسام الثلاثة كلها تتعلق بدعوة الكفار أو غير المسلمين.

أما دعوة المسلمين فهي واجبة، ويجب علينا أن ندعو الناس، وأول واجب يتوجب علينا هو إزالة المنكرات الظاهرة، وكلما كانت المنكرات ظاهرة كان وجوب التغيير آكد. وأما إذا كان الإنسان مستترًا.. لذلك يقول النبي ﷺ: ((كل أمتي معافى إلا المجاهرين)).[البخاري]

من صور المجاهرة أن الإنسان يعمل أعمالًا في الخفاء ووراء الستور، ثم بعد ذلك يُظهر هذه الأعمال.

إذن فيجب علينا كذلك، ومن أوجب ما يُدعى الناس إليه التوحيد كما سيأتي بيان ذلك في حديث معاذ.

– أحد الإخوة يسأل: الآية: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[المائدة] هل نزلت في من ارتد أم في أهل الحرابة؟

– الشيخ: الصحيح من أقوال أهل العلم أنها للحرابة، وإن كانت نزلت في الكفار أو في من ارتد في قضية العُرنيّون حينما جاؤوا إلى إبل الصدقة، فهنا أقام عليهم النبي ﷺ حد الحرابة لسعيهم في الأرض فسادًا.. وعلى العموم هذه الأحكام متعلقة على الصحيح من أقوال أهل العلم بالحرابة، إذا ثبتت الحرابة من أحد المسلمين أقيمت عليه هذه الأحكام، كقاطع الطريق أو المفسد في الأرض أو الذي يخيف

الناس، أو الذي يهدد الناس في أموالهم وأعراضهم، أما الكفار فهذه الأحكام التي سمعتموها قبل قليل على التفريق بين الكفر الطارئ والكفر الأصلي.

(عن ابن عباس ﷺ: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له: إنّك تأتي قومًا من أهل الكتاب): هنا مسألة أخرى: وهي بيان حال المدعو.. قد بيّنّا أنه يجب على الإمام أن يُنفذ أناسًا يدعون الناس إلى دين الله عز وجل، وكذلك ينبغي على الدعاة أن يفقهوا حال الفئة المدعوة، فإذا علمت أنهم من أهل الكتاب؛ تعرف ما هي المسائل التي تناظرهم فيها والشبه التي عندهم.

فليس من اللائق أن تأتي عند إنسان تدعوه في أمور هو يسلّم لك فيها، وتترك الأمور التي يخالفك فيها، فأنت حينما تدعو الناس لا بد أن يكون من أولوياتك دعوتهم إلى تصحيح ما هم عليه من الأمور التي خالفوا فيها أهل الحق، فهذا متوقف على معرفة حال المدعو، فإذا عرفت حال المدعو عرفت ما هو الأسلوب الذي تتخذه معه.

(إنّك تأتي قومًا من أهل الكتاب): يقسّم أهل العلم أهل الكتاب من الناحية التاريخية والزمنية إلى ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: مؤمنون، وهم الذين آمنوا بالنبي الذي أرسل إليهم، وآمنوا بالكتاب الذي أنزل إليهم، وماتوا قبل أن يُنسخ، فهؤلاء مؤمنون من أهل الجنة.

الصنف الثاني: أناس آمنوا بالكتاب المحرف بعد نسخه، هم يؤمنون بالكتاب المحرف ويعملون بما فيه من الأحكام، فهؤلاء كفار مشركون، لهم أحكام أهل الكتاب، تحلُّ ذبائحهم، ويحلُّ نكاح نسائهم، ويحلُّ عقد الذمة معهم وقبول الجزية منهم.

الصنف الثالث: ينتسبون إلى أهل الكتاب ولكنهم لا يؤمنون بالكتاب المحرف، يقولون نحن نصارى ولكنهم على النهج العلماني أو على النهج الليبرالي، أو على النهج الإلحادي، فهؤلاء كفار مشركون، لا يأخذون أحكام أهل الكتاب، فلا يحلُّ نكاح نسائهم ولو انتسبوا لأهل الكتاب وهكذا.

(فليكن أول ما تدعوهم إليه..): هذا ما يسمى بفقه الأولويات أو بترتيب الأولويات، أنك إذا أتيت إلى أناس لا يؤمنون بالله فلا تدعوهم إلى الصلاة وإلى وجوب الصلاة قبل أن تدعهُم إلى أن يوحّدوا الله! فهم عندهم خلل في العقيدة، يقولون أن الله ثالث ثلاثة، اللاهوت اتحدّ بالناسوت، وأن الله وعيسى روح القدس وجبريل عليه السلام اجتمعوا في ذات واحدة! وهذا أمر عظيم.. فهم يقولون أن الله ثالث ثلاثة.. نسأل الله السلامة والعافية.

(أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله. -وفي رواية-: "إلى أن يوحِّدوا الله"): نعلم من ذلك أن أعظم واجب وأول واجب يُدعى إليه الناس هو: إفراد الله بالعبادة وتوحيده سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، لا يُعبد إلا هو، لا يُذبح إلا له، لا يُستغاث إلا به، لا يُتحاكم إلا إليه وإلا إلى شرعه، لا يمكن أن يُقبل شريك معه سبحانه وتعالى، أن يفرد الله سبحانه وتعالى بالعبادة وحده لا شريك له، في ألوهيته وفي ربوبيته وفي أسمائه وصفاته.

(فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة): فإذا وحّدوا الله، تنتقل إلى المرحلة الأخرى، وهي دعوتهم إلى الركن الثاني من أركان الإسلام وهو الصلاة.

لماذا لم ندعهم إلى الصلاة قبل التوحيد -مع أن الصلاة توحيد، لا شكّ كل العبادات توحيد-..؟ لأن الإنسان وإن صام وصلى وحج البيت الحرام، وقد أخلَّ بالركن الأول من أركان الدين وهو التوحيد، فلا يُقبل منه صرفٌ ولا عدل، لا تُقبل منه عبادة ﴿عَامِلَة نَاصِبَة﴾[الغاشية]: أي تكدُّ وتكدح وتتعب، ولكن النتيجة: ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَة﴾[الغاشية]

إذن لأن العبادة لا تُقبل إلا بتوحيد، فإذا أخلَّ الإنسان به لن يقبل الله طاعته.

لذلك حكى الإمام الماوردي -رحمه الله تعالى- الإجماع على أن المرتد لا تُقبل منه العبادة؛ يعني إذا ارتدَّ أحدهم فقال لك الآخر: فلان يصلي، فقل: هذا صلاته غير مقبولة.. أو يقول لك: فلان يصوم، فقل له صيامه غير مقبول.. أو يقول لك فلان رجل طيب ويصوم ويصلي وهو بس عسكري دخل مع النظام في الجيش فقط عشان يأخذ شويّة مال وهو رجل مسكين عاجز، عليه ديون.. سبحان الله!

بئست الحجج، يبيعون الدين ويبيعون العقيدة بحفنة من الدراهم، والله لو أجلَّ هؤلاء الدين وعظّموا التوحيد؛ لما باعوه بأرخص الأثمان وأزهدها!! لأن الإنسان يعلم ما هي قيمة التوحيد..

الصحابة ﷺ كانوا يُساومون على توحيدهم، ليس في مقابل حفنة من دراهم، بل في مقابل حياتهم، فيرفضون، لا يقبلون إلا أن يعيشوا موحّدين ويموتوا موحدين.

(فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة): نعم هذه الصلوات الخمس التي جاء بيانها وتفصيلها كذلك في نصوص أخرى، وهي الصلاة المعروفة، وهذا دليل يستدلُّ به أهل العلم على عدم فرضية غير الصلاة، ومن ذلك أجابوا على من قال بوجوب الوتر..

لا شك أن الوتر سنة مؤكدة، لا يليق بالإنسان أن يتركه ولا أن يداوم على تركه، لذلك يقول الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-: إذا داوم الإنسان على ترك الوتر فهو رجل سوء لا ينبغي أن يُقبل له شهادة؛ يعني لا تُقبل شهادته في مجلس القضاء.. كانوا يعدّون ذلك قادحًا في عدالة المرء، فما بالك بالذين يضيعون الصلاة أصلًا! نسأل الله السلامة والعافية.

لذلك معيار الإيمان اختلف عند الناس، حينما يتقدم رجل يريد النكاح، لا يسألونه عن الدين ولا عن الصلاة، بل أول ما يُسأل عنه: كم عندك؟ هل عندك تجارة؟ تملك المال؟ عندك مصاري (مال) حياك الله، وعلى الرحب والسعة.. لو تريد الأولى والثانية والرابعة زوجناك.. أما أن تأتي صعلوك لا مال لك، فليس لك إلا الضرب بالنعال.. اخرج من غير مطرود..

الله المستعان! يُردُّ أهل الصلاح وأهل الجهاد وأهل الهجرة لصلاحهم وهجرتهم، وأما أرباب الدنيا الذين أعرضوا عن طاعة الله عز وجل يُرادون.. الله المستعان.

(فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترُدّ على فقرائهم): هنا كذلك الركن التالي وهو فرضية الزكاة، وهي ركن من الأركان تجب على من ملك مالًا

زكويًا بلغ نصابًا وحال عليه الحول، مع التفريق بين الأموال التي يشترط فيها مضي الحول والأموال التي تجب وقت الحصاد كالحبوب والثمار ﴿وَآتوُا حَقَّهُ يوَمَ حَصَادِهِ﴾.[الأنعام]

ولكن إذا كان الإنسان عنده من بهيمة الأنعام من الأغنام أو من البقر أو من الإبل فبلغت نصابًا، فالإبل مثلًا: في كل خمس من الإبل شاة، وفي كل عشر شاتين، إلى خمس وعشرين، ثم بعد ذلك ينتقل إلى مرحلة أخرى، وفي الغنم في كل أربعين شاة واحدة، والبقر في كل ثلاثين تبيع أو تبيعة.. وهكذا.. كل من ملك مالًا زكويًا بلغ نصابًا وحال عليه الحول وجبت عليه الزكاة، وكذلك إذا كانت عروض تجارة فحال عليها الحول فيجب أن يُخرِجَ ربع العشر، وهكذا.

(تؤخذ من أغنيائهم فتُردّ على فقرائهم): قال أهل العلم: وفيه مشروعية عدم إخراج الزكاة من البلد التي فيها صاحب المال، ولكن هذا قول في المسألة.. والشاهد من ذلك (تؤخذ من أغنيائهم فتُردّ على فقرائهم): أي من غني البلد إلى فقراء البلد، ولكن الصحيح من أقوال أهل العلم أنه لا حرج من إخراج الزكاة خارج بلد المزكي إذا كان في ذلك مصلحة راجحة كأن يكون هناك فقراء أحوج، أو يكون له هناك قريب أحوج، فيجمع بين الصدقة والصلة.

(فإن هم أطاعوك لذلك فإيّاك وكرائم أموالهم): أي على الإنسان أن يتقي الكرائم وإنما يقتصر على أخذ ما وجب على صاحب المال.

ثم قال: (فإيّاك وكرائم أموالهم): لأن جباية الزكاة مظنّة أن يقع الجابي في الظلم، فالنبي ﷺ نبَّه على ذلك، لأن الناس تتعلق بالأموال، بعض الناس ما عنده مشكلة خذ أولادي لكن لا تأخذ أموالي.. ما عنده استعداد، والله لو تذبحني ما أعطيك المال.. طبيعة الناس هكذا تتعلق نفوسهم بالمال، فلذلك حذرّ النبي ﷺ من ذلك فقال (إيّاكَ)، فالنفوس تتعلق بالمال، فهذه طبيعة البشر: ﴿وَتُحِبوُّنَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾.[الفجر]

(واتَّقِ دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب): لا إله إلا الله**!** اتَّقِ دعوة المظلوم.. النبي ﷺ هو إمام المسلمين، يرسل معاذًا وهو عالم من العلماء وتقي من الأتقياء، يوصيه بهذه الوصية..

الآن لو نوصي أحدهم ونقول له: اتَّقِ دعوة المظلوم.. ما جوابه؟ وش شايفني أنت.. شايفني مسوي شي.. أحد اشتكى لك؟!

الله أكبر! واللهِ ليس هذا تخوينًا من النبي ﷺ لمعاذ، حاشا معاذ -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- أن يظلم الناس في أموالهم، ولكنها التربية والتشريع، أن يُنبّه على ذلك لأن المقام مقام تعليم، ومقام إرشاد وتوجيه، فلما كان المقام كذلك تعين البيان وتعين الإيضاح.

(**واتَّقِ دعوة المظلوم**): هنا الخطاب اتجه إلى الدعوة، يقول له: اتَّقِ دعوة المظلوم.. لماذا لم يقل اتَّقِ المظلوم؟

لأنه إذا قال لك اتق دعوة المظلوم أشار بهذا السياق إلى المظلوم نفسه، لأنك أذا ظلمته دعا عليك، فلما قال لك اتق دعوة المظلوم، علمنا أنه أراد بهذا السياق المظلوم نفسه، لأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.

الدرس السادس

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: ولهما عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: لأعطينَّ الراية غدًا رجلًا يحبُّ اللهَ ورسوله، ويحبه اللهُ ورسوله، يفتحُ اللهُ على يديه، فباتَ الناس يدوكون ليلتهم أيُّهم يُعطاها، فلما أصبحوا غَدَوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟، فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسَلوا إليه، فَأُتي به، فبصقَ في عينيه؛ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاهُ الراية، وقال: "انفُذ على رِسلِكَ، حتى تنزِل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم".[١] يدوكون أي: يخوضون.

بسم الله، الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

نستأنف وإياكم معاشر الأحبة ما توقفنا عنده في الدرس الماضي، بقي عندنا حديثًا في (**باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله**).

(١): المسألة الأولى: فيه بيان مشروع عقد الرايات والألوية للجنود والجيوش والسرايا التي يُنفذها إمام المسلمين.

وقد فرّق أهل العلم بين الراية واللواء، فبعضهم قال أن الراية هي التي تكون مع قائد الجند، واللواء هو الذي يكون عند إمام المسلمين، لذلك تعددت الرواية في لون الراية واللواء، فبعضهم قال أن الراية تكون بيضاء، واللواء أسود، وبعضهم قال بخلاف ذلك، ولكن تلمّس أهل العلم في ذلك عدة أمور، منها أن الراية إذا كانت بيضاء فإنها تبين مع الغبار، وبعضهم قال بل إذا كانت سوداء فإنها تتضح مع

الغبار، الشاهد من ذلك أنه لا حرج في أن يكون اللواء أسودًا أو أبيضًا أو أن تكون الراية سوداء أو بيضاء.

(لأعطينَّ الرايةَ غدًا رجلًا يحب الله ورسوله): كذلك هنا مسألة : أن الأصل في الولايات، أن الذي يتصدر إليها الرجال لا النساء.

لذلك قال النبي ﷺ عن قوم سبأ، وبين خسارتهم حينما قدّموا امرأة تسوسهم وتقودهم، وبئس القوم الذين ولّوا أمرهم امرأة، فقد تحدث أهل العلم على أنه هل تنعقد للمرأة ولاية في بعض الولايات كولاية القضاء؟، والصحيح من أقوال أهل العلم أنها لا تنعقد، لأن المرأة بطبيعتها ضعيفة، وهذه الولايات تحتاج إلى قوة، والنساء ليسوا كذلك، فالمرأة بطبيعتها وجبلّتها خلقها الله سبحانه وتعالى ليّنة هيّنة لا تصلح لمثل ذلك.

(يحبُّ اللهَ ورسوله): فيه إثبات المحبة لله عز وجل، وأن أهل الإيمان لا يصح لهم إيمان حتى يحبوا ربهم وخالقهم سبحانه وتعالى ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لله﴾[البقرة].

وكذلك هنا يقول النبي ﷺ: (رجلًا يحبُّ اللهَ ورسوله): المحبة هنا صادرة من هذا الرجل، **(ويحبه اللهُ ورسوله)**: هذا كذلك فيه إثبات أن الله سبحانه وتعالى يُحب.. وهذه الصفة ذاتية أم فعلية؟

أولًا فلنعرف ما الفرق بين الصفات الذاتية والفعلية:

الصفات الذاتية: هي التي لا تنفك عن الله عز وجل، كالسمع والبصر والوجه واليد وغير ذلك من الصفات الثابتة لله عز وجل.

الصفات الفعلية: هي التي تحت المشيئة، أي أنه يفعلها سبحانه وتعالى متى شاء كيف شاء.

إذن الآن هذه الصفة التي معنا والتي أثبتناها في هذا الحديث، هل هي صفة ذاتية أم فعلية؟ أليس الله سبحانه وتعالى يغضب؟ إذن هي من الصفات الفعلية، أي أن الله سبحانه وتعالى يحب من شاء ويبغض من شاء سبحانه وتعالى.

طبعًا لا شك أن هذا إخبار من النبي ﷺ أن هذه الصفة ثابتة لله عز وجل، لا نشك في ثبوتها لله عز وجل، ولكن حينما نثبتها هل نثبتها على أنها من الصفات التي هي لازمة لله عز وجل لا تنفك عنه البتة؟ يعني للتوضيح: هل يُتصور أن الله سبحانه وتعالى يكون في موقف من المواقف وموضع من المواضع غير سميع؟! لا، أو غير بصير؟! لا..

لكن هل يُتصور في موقف من المواقف مثلًا أن لا يحب شخصًا من الأشخاص أو فئة من الفئات؟! نعم، كذلك الغضب، إذن فهي فعلية لأنه يُتصور أن تصدر المحبة من الله سبحانه وتعالى تجاه أشخاص، وأيضًا الغضب والرضا وغير ذلك.

(يفتحُ اللهُ على يديه): هذه اللفظة تدل على أن النصر والفتح والعز والظفر والتمكين إنما يكون من الله عز وجل ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾[آل عمران]، هذا درس تربوي أن نصر المؤمنين ونصر الموحدين لا يستمدونه من عدد أو عُدّة أو عتاد، أبدًا..

فالله عز وجل بيّن ذلك في مواضع شتى في كتابه: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾[التوبة]، ما نفعت الكثرة، لذلك روى بعض المفسرين في سبب نزول هذه الآية أن رجلًا تلفظ بكلمات معدودات، نال بها جميع الجيش ما نال، قال: لن نُغلَب اليوم من قِلة.

فحينما يُعزى النصر ويُعزى التمكين إلى غير الله عز وجل عند ذلك يوكل المرء إلى نفسه، وما من معركة خاضها المسلمون مع أعدائهم وُكِلوا فيها إلى قوتهم وإلى عدتهم وعتادهم، إلا هُزموا، وما من معركة يخوضها المسلمون مع أعدائهم فيبرؤون إلى الله من حولهم وقوتهم ويفتقرون إلى المولى إلا كان العزُّ والظفر حليفهم ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[آل عمران]، يقول بعض الصحابة الذين شهدوا بدرًا: واللهِ قد خرجنا وبعضنا ليس معه سلاح، بل بعضنا ليس معه إلا عصا فقط، ومع ذلك جعلها الله فتحًا عظيمًا..

افتقار.. لذلك يقول بعض العارفين لما افتقر الصحابة في بدر انتصروا، ولما أعُجبوا في حُنين انهزموا، وإن كانت الهزيمة في أول المعركة، ثم بعد ذلك استعاد المسلمون قوتهم وعزهم ومجدهم.

إذن فعلى الإنسان أن يوقن بأن الناصر هو الله وأن الممكِّن هو الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ﴾[الأنفال]، وأنه لا ينبغي للإنسان كائنًا من كان أن يعزو العز والنصر والظفر لغير الله عز وجل.

(فباتَ الناس يدوكون ليلتهم أيُّهم يُعطاها): انظروا إلى حرص الصحابة -رضوان الله عليهم-، والله ما حرصوا على الإمرة وإنما حرصوا على تلك المنزلة: **(يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله)**.. حينما يعلم المرء أن هناك منزلة من المنازل، صاحبها موصوف بهذه الصفات، فلا شك أن هذا يحدو بصاحب الهمة العالية أن يتمنى أن يكون ذلك الرجل.

(فباتَ الناس يدوكون ليلتهم أيُّهم يُعطاها) الكل يتمنى أن ينال هذه الدرجة، الكل يتمنى أن ينال هذه المنزلة، والكل يتمنى أن ينال تزكية النبي ﷺ بأنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، النبي هو الذي يخبر عنك بأنك صدقت في محبتك، يخبر عنك الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى، ولذلك يقول السلف: إذا أردت أن تعرف معيار محبّتك لله فانظر إلى قلبك حينما يأتيك أمره، وحينما يأتيك نهيه.

إذا كان القلب حال الأمر يُقبِل فاعلم أنك تحب الله، وإذا رأيته حينما يأتيك نهيه يُدبر عن هذا المنهي فاعلم أنك تحب الله، لكن إذا وجدت أن الميزان مختلٌّ عندك، فاعلم أن محبتك ضعيفة، فتدارك نفسك.

يأتيك الأمر من الله، تقول: ها مافي مخرج من هنا.. يا شيخ.. يا فلان.. لعلَّ وعسى.. تبدأ الأعذار والمعاذير.. إني كذا.. يتلمس الأعذار، يريد أن ينسل وأن يتهرب من هذا الأمر الرباني، عند ذلك فاعلم أنك على خطر عظيم، لكن إذا وجدت نفسك تبادر إلى أمر الله وتنتهي عن نهيه، وتبادر إلى رضوانه، فاعلم أنك على قدرٍ من الخير.

ولا شك أن الإيمان يتفاوت بين العباد، فهناك من يعرف ربه في حال رخائه وشدته، ومنهم من لا يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى ولا يمتثل لأوامره إلا في حال الضراء، فلا شك أن الإيمان متفاوت هنا، لكن لا يلزم من ذلك زوال أصل الإيمان، فإن أصل الإيمان لا يزول إلا بأمور معلومة، وأما كماله فهذا الذي يتفاوت فيه العباد، فبعضهم بلغ الكمال والذروة، وبعضهم لم يبلغ تلك الدرجة.

(فلما أصبحوا غَدَوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يُعطاها): الله أكبر! باتوا ليلتهم، فلما أصبحوا هبّوا سراعًا إلى النبي ﷺ كلهم على همة واحدة ورغبة واحدة، كلهم يتمنى أن يُعطاها، كلهم يتمنى أن ينال هذه الدرجة، أن يكون من الذين زكّاهم النبي ﷺ، فهم يحبون الله ورسوله ويحبهم الله ورسوله.. جاؤوا مسرعين، الكل يده على قلبه، من يُعطاها؟ يا رب!

تخيل أن هناك جائزة، فهب مثلًا أن هذا الهاتف الكبير رفعته وقلت لكم: أسماؤكم كلها عندي وسأضع قرعة، فمن تخرج عليه سينال هذا الهاتف.. لا شك أن الكل يترقب والكل يتمنى، من يعطاها؟ من سينال هذه الجائزة؟ وبدأت القلوب تسرع في النبض، وبدأت ترتفع حرارة الأجساد، وبدأ العرق يتصبب.. سبحان الله كل ذلك لهاتف..

فالشاهد من ذلك أن الناس يترقبون، الكل يتمنى، لا يتمنون منزلة دنيوية، لا وربِّ.. وليس حرص الصحابة هنا على الإمرة، وإنما حرصهم على تلك المنزلة التي تبوأها الذي سيُعطى الراية من الغد، كلهم يرجو أن يُعطاها..

(فقال النبي ﷺ: أين علي بن أبي طالب؟): أولًا هذه منقبة لعلي رضي الله عنه، أن عليًّا ثبت له بقول النبي ﷺ أنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، والعجيب أن عليًّا لم يسمع الخبر في البارحة ولم يدوك مع الناس في ليلتهم، ولم يأتِ مسرعًا إلى النبي ﷺ حينما أصبح لينظر من يُعطاها، بل كان مريضًا – رضي الله تعالى عنه وأرضاه–، انظروا كيف أن الله سبحانه وتعالى يسوقُ هذه الأرزاق وهذه المنازل إلى عباده وأوليائه.

(فقيل: هو يشتكي عينيه): مريض كان -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، ما علم بهذا الخبر، وما داك مع الناس في ليلتهم، وما احترق قلبه كما احترق قلب كثير من الناس، وإنما لما أصبح الناس وجاؤوا إلى النبي ﷺ، فإذ بالنبي ﷺ يتحدث عن شخص لم يحضر المجلس ولو يوضع اسمه كما يظن البعض في القرعة.. يعني تخيل أن هؤلاء قدّموا أسماءهم ثم بعد ذلك نقول الجائزة لفلان، وفلان أصلًا لم يحضر في الدرس!

وهنا سر عظيم! أن أولياء الله سبحانه وتعالى يكرمهم الله بواسع فضله وكريم منته سبحانه وتعالى.

(فأرسلوا إليه، فأُتي به، فبصقَ في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع): وهذا يدل على بركة أبعاض النبي ﷺ، فإنه حينما بصق في عينه ودعا له، ودعاؤه مبارك وبصاقه مبارك عليه الصلاة والسلام، فشفى الله سبحانه وتعالى عليًّا كأن لم يكن به وجع، وهذه من بركاته عليه الصلاة والسلام.

وهنا مسألة: مر معنا في الدرس الماضي أن سؤال الرقية يتنافى مع كمال التوكل، فهل ما وقع مع علي هنا يتنافى مع كمال التوكل أم لا؟

لا، لأننا بينّا أن الذي يتنافى مع كمال التوكل هو سؤال الرقية، لكن لو رُقيَ الإنسان من غير مسألة جاز ذلك ولا حرج، ولو طَلَبَ الإنسان الرقية من غيره جاز ولكنه يتنافى مع كمال التوكل.

يجوز للإنسان أن يطلب من غيره أن يرقيه، ولكن نقول الأفضل والأكمل أن يترك الإنسان ذلك توكلًا على الله سبحانه وتعالى واعتمادًا عليه.

(فأعطاهُ الراية): وهنا كذلك نعلم أن الذي يعيّن الأمراء وأن الذي يعقد الرايات هو إمام المسلمين أو من ينوب منابه أو يقوم مقامه، لأن هذه الولاية هي ولاية عامة لا بد أن تصدر من الأعلى إلى الأدنى.

لذلك قرر أهل العلم في كتب السياسة الشرعية ما يسمى بعقد التولية، لأن عقد التولية لا بد أن يكون صادرًا من الإمام أو ممن ينوب منابه أو يقوم مقامه.

ماذا نفهم من ذلك؟ أن الولاية لو صدرت مِن غير الإمام أو مِن غير مَن يقوم مقامه، فإن هذه الولاية لا تعد شرعية ولا تعد نافذة، منها ولاية القضاء، لو أن هناك رجلًا لم يفوَّض من الإمام ولم يأذن له الإمام، فعيّن شخصًا أميرًا على جيش، أو نصَّب قاضيًا -اجتهادًا من عنده-، فإن هذا الأمير لا ينفُذ سلطانه على من تحته، وهذا القاضي لا ينفذُ قضاؤه، ولا يعدُّ ملزمًا، لأنه ليس صادرًا من الإمام أو ممن يقوم مقامه، لأن هذه الولايات لا بد أن تكون صادرة ممن يُعنى بها، ممن هو أهل لها، وهذا ما يسمى بعقد التولية، أن يكون هناك تعاقد بين الإمام وبين المولّى، أو أن يُفوِّض الإمام جهة من الجهات.

فمثلًا: عندنا ديوان القضاء، فإن الذي يتولّى تنصيب القضاة هو أمير الديوان، لأنه مُخوَّل من قِبل الإمام، إلا إذا كان الإمام يقول: عليك أن تراجعني في كل تنصيب. فإذا كان هناك شيء مشروط أو مقيّد عند ذلك نقول لا ينفذُ حتى يأذن الإمام، لكن إذا أعطاه تفويضًا مطلقًا في هذا الباب فإنه هو الذي يتولى التنصيب، فإذا رأى من تتوفر فيه شروط القضاء عيّنه ونصّبه قاضيًا.

وهنا فائدة: يقول أهل العلم أن النظر في القضاء يكون على أقسام:

١. عموم النظر في عموم العمل.
٢. خصوص النظر في خصوص العمل.
٣. عموم النظر في خصوص العمل.
٤. خصوص النظر في عموم العمل.

وسيأتي شرح كل واحدة منها بأمثلة.

- عموم النظر في عموم العمل: أي في كل مسائل القضاء: الحدود، النكاح، الطلاق، الجنايات، البيوع، الخصومات التي تقع بين الناس، المظالم التي تكون بين عموم المسلمين مع جهات رسمية وما شابه ذلك، أي أن القاضي ينظر في كل القضايا هذا هو عموم النظر، أما عموم العمل: أي في كل ولايات الدولة، يعني أنت قاضي تقضي في كل القضايا في كل نطاق الدولة، هذا يسمى عموم النظر في عموم العمل.

- خصوص النظر في خصوص العمل: أن تنظر مثلًا في قضايا الطلاق فقط، في ولاية حلب فقط.
- عموم النظر في خصوص العمل: أن تنظر مثلًا في كل القضايا في ولاية الرقة فقط.
- خصوص النظر في عموم العمل: أن تنظر مثلًا في قضايا الطلاق فقط، في كل ولايات الدولة.

أمثلة أخرى:

- عموم النظر في عموم العمل: أن تنظر في كل القضايا في كل الولايات، أي في كل مناطق نفوذ الدولة.

- خصوص النظر في خصوص العمل: أن تنظر مثلًا في قضايا الطلاق فقط في ولاية حمص فقط.

- عموم النظر في خصوص العمل: أن تنظر في كل المسائل القضائية ولكن في ولاية واحدة فقط.. مثلًا ولاية الرقة.

- خصوص النظر في عموم العمل: أن تنظر مثلًا في قضايا البيوع فقط في كل ولايات الدولة.

(**انفذ على رِسلِك**): وهذه كذلك من الوصايا التي ينبغي على الإمام أن يوصي الأمراء والسرايا بها.. كن رفيقًا على نفسك، رفيقًا بمن معك، لا تسلك بهم واديًا فتشق عليهم، ولا تسلك بهم طريقًا فتشق عليهم، كن رفيقًا رحيمًا بهم..

وهذا من الواجبات التي تُناط بالأمراء، أن يكونوا رفقاء بمن دونهم، رفقاء بمن وُلّوا عليهم، لا أن يكونوا غير رحماء بهم، يسيرون بهم إلى المشاق، وإلى العنت بغير رحمة، وبغير شفقة، بل يتقصدون.. لا، هذا لا يشرع وهذا خلاف السنة، لذلك النبي ﷺ يقول: ((اللهُمَّ مَنْ وِلِي من أمْرِ أمَّتِي شيئًا فَشَقَّ عليهم فاشْقُقْ عليَهِ، ومَنْ ولِيَ من أمرِ أمَّتِي شيئًا فرَفَقَ بِهِمْ فارْفُقْ بِهِ)). [أخرجه مسلم]

(**حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام**): نحن بيَّنا في دروس مضت في قضية الدعوة، بيَّنا أن الجهاد يقسّمه الفقهاء إلى قسمين: جهاد طلب، وجهاد دفع، والطلب: أن تطلب العدو في عقر داره، والغرض منه في الأصل دعوة الناس، والسياق هنا يتحدث عن جهاد الطلب.

(**ادعهم إلى الإسلام**): أي ادعهم إلى أن يستسلموا لله عز وجل، طواعيةً لله، وانقيادًا لله عز وجل، فالإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، لا بد أن يكون هناك استسلام وانقياد تام لله عز وجل.. إذا لم يكن هناك استسلام لا يكون هناك إسلام، وإذا لم يكن هناك انقياد لا يكون هناك إسلام.

انظر إلى هذا المعنى (الإسلام هو الاستسلام) ما أعظمه.. انظروا إلى هذا المثال وستفهمون به الصورة:

أنت حينما يقول لك رجل: استسلم.. فأنت تمدُّ يدك مستسلمًا لهذا الرجل، إن ذهب بك إلى اليمين ذهبت معه إلى اليمين لا خيار لك، وإن ذهب بك إلى الشمال ذهبت معه إلى الشمال لا خيار لك..

فأنت لن تكون مسلمًا حتى تمتثل أمر الله بغير اختيار.. خلاص لا خيار لك ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَنَ يَكُوْنَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب]، لا خيار لك، يأمرك الله؛ ائتَمِرْ ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[البقرة]، ليس هناك جدال كما يحصل من البعض.. يقولون لماذا؟ نحن مرتاحين هكذا لماذا هذا الأمر؟ أقول له: قال الله، يقول لي: لماذا هذا التعنت! سبحان الله! هذا يتنافى مع الإسلام.

فالناس يتفاوتون في الاستسلام، انظروا إلى الصحابة ﷺ حينما يأتيهم الأمر الإلهي، مباشرةً استسلام ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، لذلك كما جاء في الصحيح حينما حُرِّمت الخمر.. والله موقف عجيب!

حينما بلغ بعض الصحابة أن الخمر قد حُرِّمت، أخذ بعضهم يسير في الطرقات يُنبه الناس، وكان بعض الصحابة قبل أن يبلغهم تحريم الخمر كانوا يعاقرونها في البيوت، وكان مباحًا لهم، لم تُحرَّم بعد، فلما سمعوا مناديًا ينادي: ألا إن الخمر قد حُرِّمت، ما قالوا هذا جاء خرّب علينا السهرة.. لا لا.. ما وقفوا يستفصلون.. ما قالوا انظر انظر من هذا لا يكون المنادي أحد الصِبية الذين يلعبون.. يا الله! قمّة في الاستسلام! قمّة في الانقياد!

تجد أن البعض يقع في الخطأ يذهب ويسأل أربعة أو خمسة شيوخ شرعيين مفتين لعله يجد عند هذا مخرج أو عند ذاك مخرج.. يقول: يا شيخ يا مطوع ما في مخرج من هنا أو من هنا؟ سبحان الله! شتّان بيننا وبينهم..

الصحابة مباشرة لما سمعوا المنادي -كما في خبر أنس- يقول: فمن كان في قدحه الخمر أراقه، ومن كان في فمه مجَّه.. ومن كان قد ابتلعه -وأصلًا هو دخل إلى جوفه بوجه شرعي يعني معذور فيه- ومع ذلك يريد أن يتقيّأ يخرج ما في بطنه.

لا إله إلا الله! ما هذا الإيمان الذي امتلكوه، وما هذه الهمّة التي تحلّوا بها رضي الله عنهم! ولكنها الاستجابة لأمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم..

لذلك كما ذكرت لكم قبل قليل بالميزان الشرعي إذا أردت أن تعرف محبتك إلى الله ومقدار محبتك لله، فالصحابة رضي الله عنهم في هذا الموقف.. حينما نأتي بالموازين، ما هو مقدار محبتهم لله عز وجل؟ عظيمة جدًا، لكن هل نحن معاشر الأحبة حينما يبلغنا أمر من أوامر الله أو نهي من نواهيه، هل استجابتنا لهذا الأمر وانتهاؤنا عن هذا النهي كحال الصحابة؟ أم لا؟ واللهِ يا إخوة فرق.

بعض الناس تجده مُبتلى بشرب الدخان أو بحلق لحية أو بمسألة من المسائل، فيبدأ يقول: والله يا شيخ كذا وكذا.. مثلًا مرة جيت عند شخص قلت له: غفر الله، لك لماذا لا تزين وجهك باللحية؟ قال: والله يا شيخ الحبوب والحساسية.. سبحان الله! كل من يحلق يقول الحبوب والحساسية، أنا الذي أعرفه أنه من كان لديه حبوب وحساسية فهو يترك لا يحلق، حتى بعض الأطباء يشيرون علينا يقولون المفروض

يترك، لا يقرب موس أو آلة أو ما شابه ذلك، لا أن يحلق! هذا يدل أن هناك حيل وتلاعب.. أسأل الله أن يهدي الجميع.

(وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمْر النَّعم): هذا الحديث عظيم، وفيه تحريض على الدعوة إلى الله، وفيه بشارة للدعاة إلى الله عز وجل أن هدايتهم لشخص واحد خير لهم من خيار الإبل عند العرب.

لذلك فأنفس الإبل عند العرب هي أغلى الأموال، فالإبل ليست على درجة واحدة، هناك أنواع من الإبل هي أنفس أنواع الإبل عند العرب، وهي من أغلى الأموال التي يمتلكها الناس، فلما كان الصحابة أهل إبل؛ ناسب أن يكون الترغيب على واقعهم.

فإذا كان في واقعنا الآن، نقول للدعاة لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من هذه العمائر أو ناطحات السحاب التي هي من أغلى وأنفس الأموال عند أهلها.

والنبي ﷺ هنا بيّن ذلك لأنه يعرف قيمة حُمْر النَّعم عند الصحابة وعند العرب عمومًا، فهذا ميزان تفاضل عظيم.. أرأيت هذه النوعية من الإبل التي يغليها الناس، وهي من أغلى أموالهم؟ هداية رجل واحد إلى الحق وإلى البصيرة على يديك خير لك من هذه الأموال، فلا شك أن هذا الترغيب عظيم من النبي ﷺ.

- سؤال من أحد الإخوة عن داعية كان سببًا في دخول أحدهم للإسلام لكنه لا يصلي.

- الشيخ: الداعية الذي لا يصلي هذا ليس بداعية ولا يأخذ الأجر حتى يُسلم، لأن تارك الصلاة كافر بالله عز وجل ولا حول ولا قوة إلا بالله، إذا عاد إلى فعل الصلاة وتدارك ذلك، فإنه يُؤجر على هداية هذا الرجل (أسلمتَ على ما أسلفتَ).

يقول المصنف -رحمه الله تعالى-: باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.(١)

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.(٢)

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾.(٣) [الزخرف]

---

(١): **(باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله)**: يريد المصنف –رحمه الله تعالى– أن يبين وأن يفسر التوحيد، والتفسير: هو الإيضاح والتبيين، أي أن المصنف يريد أن يبين وأن يوضح لك أيها القارئ معنى التوحيد، فبدأ المصنف –رحمه الله تعالى– يورد النصوص المفسِّرة لك.

(٢): **﴿أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾**[الإسراء] أي: هؤلاء الذين تعبدونهم من الصالحين وتتوسلون إليهم وتستغيثون بهم من دون الله عز وجل، هم بأنفسهم يتوسلون إلى الله، هم بأنفسهم يحتاجون إلى الله عز وجل، فلماذا أنتم تسألون أناسًا أشياءً ليست في أيديهم؟!

حينما يقال لك أن حاجتك عند فلان المدير، فهل تذهب وتسأل الموظف أم تسأل المدير؟ ولو سألت الموظف، الموظف ليس بيده هذا الشيء وليس من صلاحياته، وهو غير قادر على إعطائك سؤلك فلا بد أن تتجه مباشرة إلى من بيده نفعك، وهذا ليس من باب التشبيه ولا من باب التمثيل، وإنما أريد أن أوصل لكم معلومة، وهي أن الإنسان إذا اختار الطريق الصحيح وصل، وإذا اختار الطريق غير الصحيح لم يصل.. ولله المثل الأعلى.

﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي: أولئك الذين تعبدونهم من دون الله عز وجل هم بأنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة، هم يلجؤون إلى الله، ويستغيثون بالله، ويسألون الله حوائجهم.

فهنا أراد المصنف –رحمه الله تعالى– أن يبين الشرك الذي وقع فيه كثير من الناس: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر]، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَاءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ اللهِ﴾[يونس]، استغاثوا بهم من دون الله، صرفوا إليهم شيئًا من خصائص الله، فعُدُّوا بذلك مشركين بالله العظيم.

فإذن بين لك المصنف –رحمه الله تعالى– أن اتخاذ الوسائل واتخاذ الوسطاء بهذه الطريقة يتنافى مع التوحيد، وهو حقيقة الشرك التي حذّر الأنبياء والرسل منها، وأنزل الله سبحانه وتعالى في بيانها والتحذير منها كتبًا، وأرسل للتحذير منها رسلًا .

(٣): ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ**..﴾ أراد المصنف –رحمه الله تعالى– أن يبين حقيقة التوحيد، وأن التوحيد يقوم على النفي والإثبات، على الولاء والبراء، على إثبات العبادة لله وحده لا شريك له، ونفيها عن ضد ذلك، أي أنه لا يُشرع أن تُصرَف العبادة لغيره سبحانه وتعالى.

و(**لا إله إلا الله**) تقوم على الولاء والبراء، والولاء والبراء هما رُكنا التوحيد، وقد انعقد الإجماع على أنه لا يُجزئ أحدهما عن الآخر في التوحيد.

يقول الإمام ابن القيم –رحمه الله تعالى–: الإيمان المحض ليس بتوحيد، والكفر المحض ليس بتوحيد، بل التوحيد هو جماع الأمرين: إيمان بالله، وكفر بالطاغوت.

فلو أن إنسانًا آمن بالله عز وجل ولم يكفر بالطاغوت لا يُعدُّ موحدًا إجماعًا، ومن كفرَ بالطاغوت ولم يؤمن بالله لا يُعدُّ كذلك مؤمنًا إجماعًا.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾[الزخرف]: هذا هو البراء، ﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾: هذا هو الولاء. أن يكون الإنسان ولاؤه لله ولرسوله وللمؤمنين: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَٰلِبُونَ﴾.[المائدة]

فإذن تكلم أهل العلم على قضية الولاء والبراء، وقسّمَ أهل العلم الولاء والبراء إلى أقسام:

ولاء وبراء اعتقادي، وقولي وعملي.

البراءة الاعتقادية (القلبية): حكمها في الشرع: فرضٌ لازم لا يُتصور سقوطه البتة حتى في حال الإكراه، لأن من شروط صحة الإكراه أن يكون القلب مطمئنًا بالإيمان ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[النحل]، لذلك أهل العلم قالوا أن الإكراه لا يُتصور وقوعه في الاعتقاد، لأن الاعتقاد شيء خفي.

لذلك عمار بن ياسر رضي الله عنه حينما أُكره على أن يقع في النبي ﷺ، وجاء إلى النبي ﷺ مُستفتيًا، قال: يا رسول الله ما تركوني حتى وقعت فيك، قال كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان، قال: إن عادوا فعُد. وهذه القصة تكلم العلماء في صحة إسنادها، ولكن يوردها المفسرون دائمًا في تفسير قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

إذن هذه هي البراءة الاعتقادية القلبية، وحقيقتها: اعتقاد بطلان دين الكفار وضلاله، وتمني زواله وزوال أهله.. أن تعتقد بطلان هذه الملل الكفرية وهذه النِحل الكفرية، أن تعتقد بطلانها، وكفر من اعتنقها، وضلال من اعتقدها، وتبغضهم، وتتمنى زوالهم، عند ذلك يكون الإنسان قد حقق البراءة الاعتقادية.

البراءة القولية: هي أن تُفصح بلسانك جاهرًا بمعتقدك ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة]، أن تجهر بما تعتقده

تجاه الكفر وأهله، فأنت تعتقد بطلان دين الكفار وتعتقد ضلالهم وتتمنى زوالهم وهلاكهم، فلا تكون متبرئًا منهم براءة قولية حتى تُفصح بذلك، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[الكافرون]، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ، إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾[الزخرف].. براءة قولية.

وهذه البراءة صنّفها أهل العلم من حيث الحكم أنها واجبة على المكلّفين، إلا أنها تسقط عند الإكراه أو العجز، وهي داخلة في عموم قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة]، وداخلة في عموم قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن]، وداخلة في عموم قول النبي ﷺ: ((فإذا أمرتُكم بشيء فأْتُوا منه ما استطعتُم))[مسلم]، إذن فهي واجبة تسقط في الإكراه والعجز.

هنا مسألة: يتحدث كثير من الناس عن قول الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[آل عمران]، التقية هنا هل يجوز أن تكون في الأفعال أم أنها فقط في الأقوال؟

الآية: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَل ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ هنا يتحدث المولى سبحانه وتعالى عن رخصة للإنسان أن يتقي بها الكفار، والتقية هنا كما يفسر ذلك ابن عباس رضي الله عنه: هي اتّقاء الكفار بالقول لا بالعمل، وأن تكون تحت سلطانهم لا أن تكون خارج سلطانهم..

فمثلًا نحن الآن في دولتنا خارج سلطان الكفار، فهل يجوز لشخص أن يأتي الآن تحت سلطان دولة الإسلام دولة التوحيد ويتحدث بأسلوب هيّن ليّن تجاه بشار وجنده مستدلًا بقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾؟

أبدًا، هذا ليس رخصة له، بل إن قوله هذا يتنافى مع أصل الدين، لا يتنافى مع كماله، بل يتنافى مع أصله ولا حول ولا قوة إلا بالله. لأنه لم يحقق البراءة القولية مع القدرة عليها، ولا يوجد هناك عذر ومانع من أن يقول بخلافه.

لكن لو ابتُلي شخص بالأسر -لا قدر الله-، أو وقع في مكان هو خارج سلطان الموحدين، بل هو تحت سلطان الكفرة والمرتدين. مثل بعض العوام الذين يمرون على الطرقات عند بعض الحواجز، يقول: نحن ما بيننا وبينكم شيء.. يحاول يتّقي، لا أن يقول أنتم إخواننا.. لا لا، لا يُشرع له ذلك ، إلا إذا تحقّق فيه الإكراه الملجئ، أما الآن ما تحقق الإكراه الملجئ لكن هو خائف، يمشي.. فيقول مثلًا: إن شاء الله ما بيننا وبينكم شيء وهكذا.. ويقصد ما بيننا شيء يعني ما بيننا وبينكم حاجز.. نعم هذه التقية، أن تتقيهم بقولك تحت سلطانهم. وبناءً على ذلك لا يجوز أن تتقيهم بالقول خارج سلطانهم.

وهذه مسألة مهمة، بعض الناس الآن يتحدّث بحديث (وهو خارج سلطانهم) وقد يكون بذلك قد نافى أصل الإيمان ولا حول ولا قوة إلا بالله..كأن يثني على بشار أو أن يثني على جنده أو يثني على حكومته، فهذا لا شك أنه كفر وارتداد عن دين الله عز وجل ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إذن فهذه البراءة القولية.

البراءة العملية أو الفعلية، وتكون بأمرين:

البراءة العملية من الكفار: وتكون بمنابذتهم بالسيف ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُوْنَ فِتْنَةٌ وَيَكُوْنَ الدِّينُ كله لله﴾. [الأنفال]

البراءة العملية بمفارقة الشرك وأهله، كان النبي ﷺ يبايع الصحابة على أن يفارقوا الشرك وأهله.

مفارقة المشركين واضحة، لكن مفارقة الشرك كيف تكون؟

تكون بالابتعاد عن الوسائل والسبل المفضية إلى الوقوع في الشرك، لذلك الرسول ﷺ يقول: ((أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين)). لذلك مفارقة الشرك وأهله واجب مُتحتم على من يخاف على نفسه فتنة الدين وهو قادر على الهجرة.

إذن هذه هي البراءة بأنواعها، وعَلِمنا أحكامها.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقوله تعالى: ﴿اتخَذُوا أحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنهُمْ أرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾.(١) [التوبة]

---

(١): ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا**﴾ الربُّ هو المتصرّف. فلما اتّخَذَ الناسُ العبّاد والعلماء متصرفين في هذا الكون ومُشرِّعين فيه؛ عُدَّ ذلك مُنافيًا للتوحيد، فإذا علمت ذلك فقد اتضح لك معنى التوحيد، لأن التفسير هو الإيضاح والتبيين، فلما بين لك المصنف -رحمه الله تعالى- بهذه الآية حقيقة من حقائق الشرك؛ فإنك تعلم أن ما يضاد هذه الحقيقة هو التوحيد، أن اتخاذ الأحبار والرهبان مُشرّعين كما في خبر عدي بن حاتم حين جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إننا لا نعبدهم، لأن عدي فهم من العبادة أنها الركوع والسجود والصلاة والخضوع وما شابه ذلك، فقال له النبي ﷺ وبين أن مفهوم العبادة أوسع، فقال: ((أليسوا يُحلوّن ما حرّم الله فتُحلّونه، ويُحرّمون ما أحلّ الله فتُحرّمونه))، قال: بلى، قال: ((فتلك عبادتهم)). [عند الترمذي بخلاف يسير]

فكل من اتخذ مُشرِّعًا مع الله أو من دون الله فقد اتخذه إلهًا، لذلك نسمع الآن بالمجالس التشريعية! سبحان الله! مضاهاة صريحة! حتى أن الجاهل والغبي ومن لا عقل له يفهم من هذا الاسم أن هناك من يُشرّع مع الله أو من دون الله ومع ذلك تجده يذهب ينتخب! نسأل الله السلامة والعافية.

- سؤال من أحد الإخوة: بعضهم قال لا تقام الحدود ولا تطبق الأحكام إلا بوجود خليفة للمسلمين، ما صحة هذا القول؟

- الشيخ: خرجت بنا عن الموضوع، لكن أختصر الإجابة: رأى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن إذا وُجِدَ هناك طائفة لها شوكة ومنَعَة، قادرة على إنفاذ الحدود والتعزيرات ولم يترتب على ذلك مفسدة، جاز مثل ذلك، فهو لا شك أن إمام المسلمين تُضبطَ به المسألة..

لكن لا يعني ذلك أنه إذا فُقِدَ الإمام أو تعذر على الأمة تنصيب الإمام ألّا تُنفَذَ الحدود إذا وُجِدَ عندنا قدرة على إنفاذها، لا.. إذا وُجِدَ عندنا قدرة على إنفاذها وتطبيقها تُطبّق حتى ولو لم يكن في المسلمين إمامًا.

لذلك حتى هناك مسائل تحدث عنها أهل العلم.. طبعًا هناك الحمد لله الآن امتنّ الله سبحانه وتعالى على الأمة جمعاء بقيام إمام للمسلمين بين ظهرانيهم، إمام عقدت له بيعة شرعية، وهذه من نعم الله عز وجل على من أدرك هذا الزمن.

إذا كان هناك فئة أو طائفة لها شوكة ومنعة تستطيع أن تُنفِذ العقوبات الحديّة وأُمِنَ الضرر من إقامتها، فنعم لا حرج من ذلك، أما إذا لم تُوجد هناك قدرة فإنفاذ الحدود هو من جملة الواجبات التكليفية التي يكلف بها العباد وهو منوط بالقدرة والاستطاعة، أي أنه إذا وجدت القدرة اتجه خطاب الشرع للوجوب، وإذا لم توجد هناك قدرة فإن هناك مانع من نزول الوجوب والمؤاخذة.

إذن فالمجالس التشريعية تجد أنها تسمى بهذا الاسم، ولا شك أن حقيقتها ظاهرة من اسمها، فهي مجالس يُشرّع فيها من دون الله عز وجل، يُحلّ فيها الحرام، ويحرّم فيها الحلال، ويُضاهى فيها بأحكام الله عز وجل، فوتعرض أحكام الشرع على عقول البشر لأجل أن يُمضوها أو يردوها؛ وهذا هو عين المحادة لله عز وجل، وهذا يدخل في عموم قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة]، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لله أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[يوسف]، فجعل التحاكم إلى الله عبادة، وصرفها لغير الله عبادة لغير الله.

إذن فبين المصنف -رحمه الله تعالى- معنى الشرك هنا أنه اتخاذ أناس مُشرّعين ومتصرفين في هذا الكون، فتعلم أن التوحيد على الضد من ذلك، فالتوحيد يكون بأنه لا يكون هناك مُشرّع ولا يكون هناك مُتصرف إلا الله سبحانه وتعالى.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتخِّذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبوُّنهُم كَحُبِّ اللهِۖ وَالذِّينَ ءَامَنُوَا أَشَدُّ حُبًّا لله﴾.(١) [البقرة]

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: (مَنْ قاَلَ: لاَ إِلَهَ إلاّ الله، وَكَفرَ بما يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى الله عزوجل).(٢)

---

(١): ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتخِّذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا**﴾: ومن الناس: (مِن) هنا تبعيضية، أي أن من بعض الناس من يتخذ من دون الله أندادًا، أي: نظراء ومساوون.

﴿**يُحِبوُّنَهُم كَحُبِّ الله**﴾: أي أنهم يساوون محبة هذه المخلوقات (المحبة التعبدية) التي لا تكون إلا لله عز وجل، المحبة التي بها يقدّم الإنسان ما يحب الله على ما تحبه نفسه، أما إذا قدّم الإنسان ما تحبه نفسه على ما يحبه الله فقد قدم محبة نفسه على محبة الله، ويدخل في عموم هذه الاية، لأن النفس هنا أصبحت نِدًّا مساويًا لله، أو رفعها إلى منزلة الله عز وجل.

كذلك من يقدم ما تحبه الزوجة ويحبه الأولاد على ما يحبه الله.. تأمره الزوجة مثلًا بأن لا يترك العمل العسكري، لأنها تحب هذه الأجرة التي يتقاضاها، فنظرَ إلى ما يحبه الله وإلى ما تحبه زوجته، فقدّم ما تحبه زوجته، فأقرَّ ورضي بأن يبقى عسكريًا من عساكر الطاغوت مقدمًا في ذلك محبة زوجته على ما يحبه الله ويرضاه.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتخِّذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبوُّنَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ إذا كان تقديم محبة المخلوق على محبة الله في أمر واجب فوقع هنا في محرم، وإن كان في مكروه وقع في مكروه، وإذا كان في مباح وقع في مباح، وإذا كان في كفر وقع في كفر..

هذه الصورة الآن (الذي لا يترك العسكرية لأجل محبة زوجته) هي كفر.. قالت له: احلق لحيتك: محبة محرمة.. قالت له لا تترك الدخان: محبة محرمة.. وهكذا.. قالت له مثلًا: لا تصل رحمك: محبة محرمة.. قالت له مثلًا: اذهب بنا إلى بلاد الكفار لغير غرض شرعي، لا لعلاج، ولا لدعوة، ولا لتجارة.. إذا كان اللحاق بديار الكفر توليًا لهم: كفر.. نسأل الله السلامة والعافية.. لكن إذا كان لغرض السياحة وما شابه ذلك.. رايحة الست هانم تريد تتمشى: محبة محرمة.. فنسأل الله السلامة والعافية.

إذن هذا على قدر العمل، فإذا كان في محرم؛ كانت المحبة المقدمة هنا محرمة، وإذا كان في كفر؛ كانت المحبة كفر، وهكذا.

وإذا قالت لك اشرب شاي، فقدّمت محبتها.. مباحة، وقل مثل ذلك في الأب والابن والصديق وهكذا. بس أرجو أن تكونوا فهمتموها صح.. يعني لا يجيني بكرة الكل مكفّر زوجته :)

وكم من عائبٍ قولاً صحيحًا وآفته من الفهم السقيمِ

قد يأتي رجل ويفهم فهمًا آخر، وهذه حصلت، في مرة من المرات أخطأ أحدهم الفهم، فجاء بطامة من الطامات، فيحذر الإنسان.. أرجو أن تكون المعلومة وصلت.

(٢): **(مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاّ الله)** هل المراد هنا القول فحسب؟ لأن هناك فرق ضلّت في هذا الباب، فالكرّامية مثلًا حصروا الإيمان على القول، قالوا: من قال لا إله إلا الله عُدَّ مُوحِّدًا ومؤمنًا حتى وإن لم يقرّ بذلك في قلبه، ولم يأتِ بما تقتضيه هذه الكلمة بعمله وفعله، عُدَّ بذلك موحدًا.. هذا لا شك أنه قول معلوم البطلان. وكذلك هناك من قال بأنه يكفي في الإيمان اعتقاد القلب وقول اللسان، وهذا قال به المرجئة، قالوا: ولا يضرُّ مع إيمان القلب ذنب. وهذه لا شك أنها أقوال باطلة.

وأهل العلم يقررون أن الإيمان يقوم على أركان ثلاثة: قول، وعمل، واعتقاد. لا يجزئ أحدها عن الآخر، وانعقد إجماع أهل العلم على ذلك.

وإن كان بعض السلف ترِد عنه بعض الألفاظ، ولكن تجد أنهم يتفقون في المعنى.

(مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إلا الله): قد يعبر بالقول في الشرع ويراد به العمل، فإذن من قال لا إله إلا الله عاملًا بمقتضاها، قائمًا بلوازمها وشروطها، محققًا لذلك في قلبه فهو المراد بهذا السياق، لأنه قد يأتي التعبير في الشرع بالقول ويراد به العمل، كما جاء [في الصحيحين] من حديث النبي ﷺ: ((أن عمار بن ياسر حينما كان جُنبًا ولم يجد الماء، فقاسَ الماء على التراب، فكما أن الحدث الأكبر يجب تعميم الماء فيه، فقال التيمم بدل والبدل يأخذ حكم المبدل منه حتى في الصفة، فتمرَّغ في التراب كما تتمرغ الدابة، فجاء إلى النبي ﷺ، وقصّ عليه الخبر، فقال له النبي ﷺ: إنما كان يكفيك أن تقول بيديك هكذا.. وعلمه صفة التيمم))، فهو قال [يكفيك أن تقول] لكن هذا ماذا؟ هذا فعل، فعبّر بالقول وأراد به الفعل، مما يدل على أن خطاب الشرع قد يأتي بلفظ القول ويكون المراد منه الفعل والعمل.

فما المراد هنا (من قال)؟ أي جماع هذه الأمور: قول وعمل واعتقاد.

(**مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاّ الله، وَكَفرَ بما يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله**): هذه هي حقيقة التوحيد، وهذا الحديث يفسر به التوحيد تفسيرًا واضحًا مطابقًا لحقيقته.

(**مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاّ الله، وَكَفرَ بما يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى الله عز وجل**): إذن لا تتحقق الحرمة للعبد في النفس والمالحتى يحقّق لا إله إلا الله قولًا وعملًا واعتقادًا، ويكفر بالطاغوت قولًا وعملًا واعتقادًا، فمن حقق هذين الأمرين حرم دمه وماله، ومن أَخَلّ بهما؛ لا حرمة لنفسه ولا لماله ((لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثَّيِّبُ الزاني، والنفسُ بالنفس، والتاركُ لدينه المفارقُ للجماعة)).[البخاري]

فمن أَخَلّ بأحد هذين الأمرين عُدَّ تاركًا لدينه، يحل دمه بناءً على ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله. إذن الحرمة لا تثبت للمرء في النفس والمال حتى يحقق رُكني التوحيد.

الدرس السابع

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

باب من الشرك لبس الحلْقَة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه.(١)

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.(٢) [الزمر]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

نستأنف وإياكم معاشر الأحبة مدارسة كتاب التوحيد.

(١): بين المصنف –رحمه الله تعالى– في هذا التبويب حكم لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه، فصدّر التبويب بقوله **(مِن الشرك)** أي أنه حكم على لابس الخيط والحلقة لرفع البلاء أو دفعه أن هذا الفعل من قبيل الشرك، وسيأتي معنا إن شاء الله تعالى بيان هل هو من الشرك الأكبر أو من الشرك الأصغر.

هنا قال المصنف رحمه الله تعالى **(لرفع البلاء أو دفعه)**، هل هناك فرق بين الرفع والدفع؟

الرفع يكون للبلاء بعد حصوله.. رجل مُبتلى فهو يدعو الله أن يرفع عنه البلاء.

أما الدفع: رجل لم يُبتلى بعد فهو يسأل الله سبحانه وتعالى أن يدفع عنه البلاء. إذن الفرق بين الدفع والرفع: الرفع يكون بعد حصول البلاء والدفع يكون قبل حصوله.

(٢): ﴿**قُلْ أفَرَءَيْتمُ مَّا تدْعوُنَ مِن دُونِ اللهِ إنْ أرَادَنِىَ اللهُ بُضِرٍّ هَلْ هَنُّ كٰشِفٰتُ ضُرّهِ**..﴾ هنا حينما أورد المصنف –رحمه الله تعالى– هذه الآية بين أن التعلق بهذه الخيوط وهذه التمائم هو ضرب من أضرب العبادة لذلك استدل بهذه الآية.

﴿**قُلْ أفَرَءَيْتمُ مَّا تدْعوُنَ مِن دُونِ اللهِ**﴾: أي أفرأيتم ما تعبدون، لأن الذي يرفع الضر ويدفعه هو الله سبحانه تعالى، فحينما يظن الظان أن هناك من يدفع أو يرفع مع الله حين نزول البلاء، فهذا قد أشرك بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿قُل أفرَءَيتمُ مَّا تَدْعوُنَ مِن دُونِ اللهِ﴾: هؤلاء الذين يظنون أنهم يدفعون أو يرفعون عنكم الضر هم بأنفسهم ما حقيقتهم؟ ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كٰشِفٰتُ ضُرِّهِ﴾ أي: أن هذه الأمور التي تعلقت بها نفوس البشر ظنًا منهم أنها تجلب النفع أو تدفع الضر، لا تملك أن تدفع ما قدّره الله عليها من الضر، وهذا يدل على أن هذه الأمور هي بأنفسها عاجزة، والله عز وجل بين ذلك.

﴿**قُل أفرَءَيتمُ مَّا تَدْعوُنَ مِن دُونِ الله إنْ أرَادَنِىَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كٰشِفٰتُ ضُرّهِ**﴾: لأن المشركين في قديم الزمان كانوا يظنون أن آلهتهم تدفع عنهم الضر وتجلب لهم النفع، فهنا هذا السياق القرآني فيه محاورة، أي أن لو أن الله سبحانه وتعالى قدّر على أحدنا البلاء، هل ستقف هذه الآلهة حائلًا بيني وبين ما قدّره الله عليّ من البلاء؟! لا شك أن الجواب لا.

وهذا أمر يمكن إدراكه بالحس، حيث أن كثيرًا من عبدة الأصنام ومن عبدة الأوثان كانوا يظنون هذا الظن، وقد رأيت بعضهم يظن أن الولي فلان يستطيع أن يدفع الضر عن العباد، وهذا لا شك أنه عين ما وقع فيه الأولون وهو الشرك الذي نهانا الله سبحانه وتعالى عنه.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: عن عمران بن حصين ﷺ (أن النبي ﷺ رأى رجلًا في يده حَلْقَةٌ من صُفْرٍ، فقال: ما هذا؟ قال من الوَاهِنَةِ، فقال: انزعها، فإنها لا تزَيدك إلا وَهْنًا؛ فإنك لو مُتَّ وهي عليك ما أفلحت أبدًا).[١]

وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ مَرْفُوعًا: (مَنْ تَعَلقَّ تَمِيمَةً؛ فلَا أتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تعلَّقَ وَدَعَةً؛ فلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ).[٢] وفي رواية: (من تعلّق تميمة فقد أشرك).[٣]

ولابن أبي حاتم عن حذيفة ﷺ: أنه رأى رجلًا في يده خيط من الحُمَّى، فقطعه وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.[٤]

= إن النافع هو الله، وإن الذي يُقدّر الضر هو الله، وليس هناك أحد من المخلوقين يستطيع أن يقوم بذلك، فهذا أمر تفرّد الله به، فمن اعتقد أن هناك من يدفع أو يرفع الضر مع الله أو من دون الله فقد أشرك في باب الربوبية، فهذه أفعاله سبحانه وتعالى، وبيّنا أن الإنسان لا يكون موحدًا في باب الربوبية حتى يُفرد الله بأفعاله سبحانه، فالدفع والرفع وما شابهها إنما هي من أفعال الله عز وجل التي يختص بها.

(١): **(أن النبي ﷺ رأى رجلًا في يده حَلْقَةٌ من صُفْرٍ..)**: الحلقة هو الشيء المحلّق كالسوارة، أو ما يضعه البعض الآن قطعة من حديد أو ما شابه ذلك.. صُفر يعني من النحاس.

(فقال ما هذا؟): هنا لا شك أن النبي ﷺ أراد أن يستفصل، لأن الإنسان قد يعلق ما يعتقد به، وقد يعلق ما لا يعتقد به شيئًا، وهنا المقام هل يستحق الاستفصال أم لا؟ نعم، فمثلًا هذه الساعة هي حلقة (مُحلّقة)، ولكن ليس كل ما يُلبس ويكون محلقًا يكون داخلًا في هذا الباب، ولكن هذا يعرف بحسب ما يقتضيه حال الشخص.

(قال من الوَاهِنَةِ): الواهنة هذا مرض إذا ألمّ بالإنسان أضعفه، والوهن هو الضعف، فإذا أصيب الإنسان بهذا المرض تجد أن جسده ينحل، يكون نحيلًا ضعيف البنية، فهو مرض كانت العرب تخافه.

فقال: (**انزعها**): هذا أمر من النبي ﷺ، هل هذا الأمر يقتضي الوجوب أم الاستحباب؟ يقتضي الوجوب، لأنه يتعلق بصيانة وحماية جناب التوحيد.

(**انزعها، فإنها لا تزَيدك إلا وَهْنًا**): الله أكبر، لا يمكن أن يُفلح صاحب البدعة ولا صاحب الشرك، مهما كان ومهما بلغ، فالنبي ﷺ بين لنا أن هذا الرجل فعلها اتقاء المرض، فبين النبي ﷺ أن هذا المعلّق لا يزيدك إلا مرضًا، مرضًا حسيًا ومرضًا معنويًا، لأنه سيأتي معنا أن من تعلّق شيئًا وُكِلَ إليه، فلك أن تتصور أن الإنسان يُوكل إلى حلقة من صفر! ما ظنك بهذه الحلقة؟!

ماذا ستنفع وماذا ستجلب لصاحبها؟! حينما أقول لك حسبك بهذه الحلقة، فخذها تنفعك، لا شك أنك ستحتقر هذا الشيء.. (ما هذا الشيء!! ليس بشيء!!) فانظر إلى عظيم خطاب النبي ﷺ ((من تعلّق شيئا وُكِلَ إليه)).[الترمذي]

(**فإنك لو مُتَّ وهي عليك ما أفلحت أبدًا**): لا شك أن هذا قمّة في الوعيد، وقمّة في التحذير والتهديد، أن الإنسان حينما يتعلّق بهذه الحلق وبهذه التمائم فإنه لو مات عليها وهو يعتقد بها ما أفلح أبدًا، ولا شك أن الإنسان إذا علم أن التعلق بهذه الأشياء يتنافى مع الفلاح، تعين عليه أن ينزعها وأن يتجنب لبسها، وما شابه ذلك.

(٢): (**مَنْ تَعَلقَّ تَمِيمَةً؛ فلَا أتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تعَلَّقَ وَدَعَةً؛ فلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ**) التعلق هنا لا يخلو من حالين: إما أن يكون تعلقًا حقيقيًا حسيًا، أو تعلقًا معنويًا.

التعلق قد يكون حقيقة: على الجسد أو على السيارة أو على البيت وما شابه ذلك.

لكن قد يتعلق قلب الإنسان بأمور قد لا تكون على جسده، وهذا داخل في هذا السياق.

(**مَنْ تعَلَّقَ تَمِيمَةً**): سميت تميمة لأنهم يظنون أنها تُتمُّ الشفاء وهي خلاف ذلك.

فانظروا إلى سياق النص: (**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَه**): فلا أتمَّ الله له ما يقصد ويرمو إليه، فلا أتم الله له الشفاء.

إذن سبحان الله: (**انزعها، فإنها لا تزَيدك إلا وَهْنًا**)، (**مَنْ تعَلَّقَ تمِيمَةً؛ فَلَا أتَمَّ اللهُ لَهُ**).

يا ليت قومي يعلمون! يبين النبي ﷺ أن تعلق الإنسان بمثل هذه الأمور يتنافى مع ما يريدون، فالذي علق التميمة رجاء الشفاء، فلن ينال الشفاء بنص الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.. ومن لبس حلقة أو ما شابه ذلك لرفع المرض عن جسده فإنه لا يزداد إلا مرضًا (انزعها، فإنها لا تزَيدك إلا وَهْنًا).

فالعلاج الناجع والمفيد هو أن يتتبع الإنسان هدي النبي ﷺ في التداوي والتشافي، لا أن يعمد الإنسان إلى خرافات وإلى خزعبلات ورثها الناس من الجهلة ومن الضُلَّال.

(**وَمَنْ تعَلَّقَ وَدَعَةً**): الودعة هي الأصداف أو ما يسمى بالقواقع التي تستخرج من قعر البحر، وكان الناس يتعلقون بها ويعلقونها على صبيانهم ظنًا منهم أن لها أثر في جلب النفع أو دفع الضر أو رفعه.. والنبي ﷺ يقول هنا: (فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ)..

يقطع النبي ﷺ الخط ويقطع الأماني على كل من تأمل في هذه الأمور خيرًا، كل من ظن أو تأمل خيرًا في هذه الأمور التي تتعلق بها قلوب الناس، فإن النبي ﷺ يقطع هذه الأماني ويقول: فلا أتمّ الله له، فلا ودع الله له، ليعيد الناس إلى خالقها، ليكون التعلق بالله عز وجل، لا أن يكون التعلق بغيره سبحانه وتعالى.

وقد بين أهل العلم أن تعليق هذه التمائم من حيث الحكم على قسمين:

- تعلق يعد من قبيل الكفر الأكبر.
- وتعلق يعد من قبيل الكفر الأصغر.

فأما الأول: أن يتعلق الإنسان بهذه التمائم أو ما في حكمها، معتقدًا أنها بنفسها وذاتها تدفع الضر أو تجلب النفع، فهذا يعد شركًا أكبر، لماذا؟ لأنه ضاهى بذلك اللهَ سبحانه وتعالى، فجعل هناك ندًا مساويًا لله عز وجل، يدفع ويرفع وينفع ويضر، والله سبحانه وتعالى هو المتفرّد بهذه الأفعال.

القسم الآخر: أن يتعلق بهذه الأمور على أنها سبب للدفع أو أنها سبب للرفع أو أنها سبب لجلب النفع أو ما شابه ذلك، مع اعتقاده الجازم بأن النافع والضارَّ هو الله.

بينهما فرق، وهو أنه في الأولى عزا التأثير إلى ذات التميمة التي تعلق بها. أما في الحالة الثانية فعزا النفع والضر إلى الله، ولكنه جعل من هذه الأمور التي تعلق بها سببًا في ذلك.

وأهل العلم يقولون: أن من اعتقد ما ليس بسببٍ سببًا، فقد وقع في الشرك الأصغر. يعني أن تعتقد في الشيء الفلاني أنه يجلب البركة (والله لم يجعل ذلك فيه)، فما حكمه؟ شرك أصغر.

أيضًا لو اعتقد إنسان أن أمر من الأمور سبب لدفع الضر (ولم يجعله الله فيه)، فهذا شرك أصغر، وهكذا..

(٣): **(من تعلَّقَ تميمةً فقد أشرك)**: النص هنا عام يشمل كل أنواع التمائم، فكل من تعلق تميمة فقد أشرك، وظاهر السياق أنه يدل على أنها من القرآن أو من غير القرآن، وإن كان هناك من أهل العلم ومن السلف من أجاز أو أباح تعليق التمائم من القرآن، ولكن هذا قول مرجوح، وينقلونه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵁، ولكن أُجيب عن ذلك بجواب عظيم، وهو أن عبدالله كان يُعلِّم الصبية القرآن، وكان يكتب لهم القرآن على الألواح، وكان يعلق الألواح على صدورهم رجاءَ أن يحفظوها لا أن تحفظهم، فظنَّ البعض أن فعل عبد الله ﵁ أنه علق عليهم آيات القرآن لتحفظهم، وهو ما علقها عليهم إلا ليحفظوها، فهناك فرق.

وكان ابن مسعود ﵁ وكان السلف يرون حرمة التمائم من القرآن ومن غيره، وظاهر السياق هنا: (من تعلّق تميمة) تام، يدخل فيه القرآن وغير القرآن، إلا أن هناك من قال بأن ما عُلِّق من القرآن يكون

محرمًا، ولكن –والله تعالى أعلى وأعلم– أنه لم يوجد هناك مخصص، فيبقى الأمر على عمومه، وهذا الذي يظهر –والله تعالى أعلى وأعلم– بالصواب.

ثم بعد ذلك أهل العلم منعوا التمائم من القرآن لأمور عدة:

أولها أن إباحة تعليق التمائم من القرآن يُفضي إلى تعليق ما هو من غير القرآن، فلذلك لا بد من سد الذريعة.. فقد تأتي إلى رجل تعلق تميمة وأنت لا تدري ماذا بها، فقد يقول لك أنها من القرآن، وهي في حقيقتها استغاثات شركية.

وأذكرُ أني كنتُ في بلدٍ من البلدان، وقد انتشر في ذلك البلد تعليق التمائم، فرأيت العجب العجاب، وما أكثر ما تعلق على الأطفال، فما رأيت طفلًا إلا وقطعتها منه، فقد كنت أسال وليه وأباه: ما هذه التميمة؟ فيقول: من القرآن فإن أهل العلم أجازوا ما هو من القرآن .. فكنتُ أفتحها أمام عينيه فأجد فيها: يا بدوح.. يا فلان.. ويا فلان.. استغاثات شركية، كفر بالله العظيم! يستغيثون بالجان يستعيذون بالجان..

فإذن تحريمها من القرآن ومن غير القرآن متّجه، لأن إباحتها من القرآن يُفضي إلى تجويز رؤية التمائم معلقة على الرقاب، وهي في حقيقتها قد تكون مخفيّة عن الناس فقد يعيش أهل الشرك بين ظهرانينا وهم يتسترون بهذه التمائم على أنها من القرآن.

العلة الأخرى من المنع: أن تعليق التمائم من القرآن يُفضي إلى امتهان كتاب الله، حيث أن كتابة التمائم وموضع التمائم غالبًا يكون على جسد الإنسان، وهو مظنة العرق والنتن وصدور الروائح، ورأيت ذلك، فقد كنت أحلُّ بعض التمائم فوجدت أن عرق جسد الإنسان قد وصل إليها حتى سال وذاب الحبر، ونحن مطالبون بتعظيم كتاب الله لا بامتهانه.

الأمر الثالث: أن تعليق التمائم من القرآن يُفضي إلى إدخالها في أماكن قضاء الحاجة، وقد أُمرنا بتنزيه ذكر الله وكلام الله سبحانه وتعالى من إدخالها إلى أماكن قضاء الحاجة.

فنفهم من ذلك: أن التمائم محرّمة مطلقًا من القرآن ومن غيره.

(٤): (ولابن أبي حاتم عن حذيفة ﵁: أنه رأى رجلًا في يده خيط من الحُمَّى، فقطعه..)

انظروا إلى فعل حذيفة، وإلى فعل النبي ﷺ، فالنبي ﷺ رأى رجلًا في يده حلقة من صفر، فقال ما هذا؟ قال من الواهنة، قال: انزعها، ثم حذيفة هنا ماذا فعل؟ قطعها.. كيف نجمع بين الخبرين؟ هل هناك مجال لأن نوفق بين الواقعتين على أن بينهما فرق؟

أنا أريد حقيقة أن يكون هناك إعمال للذهن، وأن نفهم كيف يتعامل أهل العلم في حال التعارض الظاهري..

ألا يُقال أن النبي ﷺ ما دام بين ظهراني الصحابة ما زالت الشريعة تتنزل؟ ولكن هنا في فعل حُذيفة تمّ الشرع، وانتهى، فهناك (في فعل الرسول ﷺ) قد يُتصوّر عدم تمام الشريعة، فناسب أن يعلم وينبه، وفي موقف حذيفة تم الأمر وتحقق فهنا ليس فيه إلا الإنكار..

وقد يقال كذلك بأن النبي ﷺ علم من حال الرجل الامتثال وسرعة الاستجابة فقال له انزعها، وعلم حذيفة من حال الرجل أنه ليس عنده امتثال وليس عنده مسارعة للاستجابة فلذلك لم ينتظر ذلك منها فباشر ونزعها.

على العموم الغرض يا إخوة من هذا الأمر هو أن يكون عندنا إعمال للذهن ولا يكون عندنا جمود وتقليد مطلق، بعض الناس خلاص إيش يقول فلان.. يقرأ بس، ما عنده معلومة.. لا، لا بد أن يكون عندك كذلك إعمال ونظر، خصوصًا بعدما يكون الإنسان مؤهلًا أو مهيّأً أو تحت رعاية وإشراف.. يعني أن يكون هناك من يشرف على رأيك في هذه المسألة ويقوّم ويصوّب وهكذا..

هنا حذيفة ﵁ رأى رجلًا في يده خيط من الحمّى لم يسأله ولا شيء، هذا يدل على أن الناس قد تعارفوا أن هذا الخيط للحمّى، لهذا فهو لم يتكلم معه، وإنما: تعال.. بسم الله.. قطعه.. فسبب التعليق واضح هنا، لذلك فعل حذيفة ذلك.

ولكن هناك لم يتضح سبب التعليق، فحصل الاستفصال، ثم بعد ذلك علم النبي ﷺ من حال الرجل سرعة الاستجابة، فأمره، فقال له: انزعها، فهنا تحقق المراد، ولكن قد لا يكون تحقق في خبر حذيفة فأراد حذيفة رضي الله عنه أن يفعل ذلك.

يعني أنت مثلًا رأيت رجلًا الآن على منكر، وأنت تعلم أنه يسمع ويطيع لك، هب مثلًا رجل مدخن -الله يحفظنا وإياكم من هذا الأمر- وأنت تعلم أن هذا الرجل يجلك ويقدرك ويحترمك، لو قلت له أطفئ السيجارة وأتلف ما معك من باكيت الدخان، مباشرة يستجيب.. هل هناك داع لأن أدخل يدي في جيبه وأُخرج الدخان وأحطمه...إلخ؟! تحقق المراد بغير ذلك، ولكن قد لا يكون تحقق في خبر حذيفة فأراد حذيفة رضي الله عنه عنه أن يفعل ذلك.

وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾: كيف هنا يثبت لهم الإيمان ثم ينفيه ويجزم بأنهم مشركون؟ لأن المشركين كان عندهم جزء كبير من توحيد الربوبية يثبتونه لله وحده لا شريك له ﴿وَلَئِنِ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[الزمر]، وغير ذلك من الآيات التي يثبتون فيها الوحدانية لله وحده لا شريك له..

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[يوسف] أي: أنك لا تجد أكثرهم يؤمن بتوحيد الربوبية إلا وتجد أنه يشرك في الألوهية، لأنه حينما دعاهم النبي ﷺ إلى توحيد الألوهية أنكروا عليه ذلك ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلٰهًا وٰحِدًا إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.[ص]

نكون بذلك أنهينا هذا الباب.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: باب ما جاء في الرقى والتمائم.[١]

وفي الصحيح عن أبي بشير الأنصاري ﷺ: أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولًا أن: (لا يبقينَّ في رقبة بعيرٍ قلادةٌ من وتر). أو (قلادةٌ، إلا قُطِعت).[٢]

---

(١): هنا يريد المصنف -رحمه الله تعالى- أن يبين ما ورد في الرقى والتمائم، وما يباح من الرقى وما يحرم، لأن النبي ﷺ قال: ((اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأسَ، بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ)). [سنن أبي داوود]

(٢): هنا فيه حكم عظيم، أن النبي ﷺ أرسل رسولًا، إذن فيجب على إمام المسلمين أو من يقوم مقامه أن ينتدب فئة من الناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأن تسد هذا الباب وأن تقوم بهذا الواجب الذي تقاعس عنه الكثير، أن تقوم هذه الفئة بتقويم الناس وبمحاربة الفساد الظاهري وأن لا تقرّ المنكرات الظاهرة ولا مظاهر الفسق والفجور.

ومن أعظم ما يُنكر في الظاهر هو مظاهر الشرك، ثم بعد ذلك البدع، ثم بعد ذلك الذنوب والمعاصي بأنواعها المختلفة.

فأرسل رسولًا أن: (**لا يبقينَّ في رقبة بعيرٍ قلادةٌ من وتر**). أو (**قلادةٌ، إلا قُطِعت**): هنا كذلك ما جاء الاستفصال، لأنه هنا تقرر الحكم وعُلِمَ الحال، أن هذه الحلق وهذه الأوتار التي تُعلق على الدواب إنما عُلقّت عليها لغرض ولأمر يتنافى مع التوحيد، كمن يعلق ذلك على الدابة أو السيارة بغرض دفع العين أو ما شابه ذلك.

- أحد الإخوة: ما حكم ما يُعلَّق لغرض الزينة؟

- الشيخ: على العموم إذا كان ذلك ذريعة، أو كان الناس إذا فُتح المجال إلى تعليق هذه الأمور يُفضي إلى تعليق غيرها؛ سُدَّ الباب، ولكن إذا كانت الزينة تختص بهيئة معينة، والأوتار تختص بهيئة معينة،

فهنا يأتي الاستفصال لأنه وُجِدَ الاحتمال، وإذا وُجِدَ الاحتمال وجد الاستفصال، لكن إذا علمنا من واقع الناس وحالهم أنهم يعلقون هذه الحلق وهذه الأوتار هذا الغرض، عند ذلك لا نتردد في أن نقطعها وأن ننزعها، لكن إذا علمنا من واقع الناس أنهم لا يعلقون مثل ذلك وإنما يعلقون ما يسمى بالدناديش الحمراء والصفراء، فبعضهم أرى -في نظري- أنه يشوه الدابة لا يزينها، ولكن سبحان الله لولا اختلاف الأذواق لبارت السلع. فسبحان الله.. بعض الناس يراها شيء طيب وممدوح وزينة وبعضهم ممكن يضحك منها.

الشاهد من ذلك: أننا إذا علمنا من واقع الناس وحالهم أن إباحة ذلك الأمر يُفضي إلى تعليق المحذور فلا بد من المنع. وهذا أمر من النبي ﷺ.

وكذلك قد يكون من مهام الحسبة تفقّد الناس لأنه هنا أرسل يتفقد يفتش وينظر، فإن خالف الشرع صحح، فلا يأتي بعضهم يقول إيش دخلك هذه من خصوصياتي!.. لا يا أخي، هناك شيء من خصوصياتك نحن لا نتدخل فيها، لكن إذا تجرأت وتجاوزت حدود الشرع ليس لك خصوصية، الشرع فوق الجميع.

لكن مثلًا لو أن رجلًا كان على معصية ولكنه استتر، لا شك أن هذا معافى، لكن لو أن رجلًا أمام الناس يجاهر بمعصيته، بل بعضهم يدعو إلى المعصية، ثم بعد ذلك إذا أُخِذَ وتمت معاقبته بدأ يقول: حرية شخصية.. وإلى آخره من هذه الكلمات التي لا تجدها حتى في الدول الأوروبية.. فالآن نسمع بحرية الرأي وحرية التعبير وما شابه ذلك.. كذب ودجل، اترك أحدهم يتحدث عن رئيس من الرؤساء، أو يتحدث عن اليهود أو يعادي السامية، هنا تنتهي الحريات.. تضيق بهم الحريات عن ذلك.. فهذا كله دجل وكذب، فنحن نترك للناس حريةً فيما جعله الشرع لهم مباحًا، أما ما حدّه الشرع بحدود، وقيّده بقيود، عند ذلك لا مجال للحريات ولا لغير ذلك.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وعن ابن مسعود ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (إنَّ الرُّقَى، والتمَّائمَ، والتِّوَلَةَ شِرِكٌ).[١] رواه أحمد، وأبو داود

---

(١): الرقى كما مر معنا تنقسم إلى قسمين: رقى شرعية، ورقى غير شرعية.

والرقى هي الأذكار والأدعية التي تكون من القرآن والسنة، والتي تُقرأ على المريض.

وصفة الرقية يقسمها أهل العلم إلى أقسام:

- القراءة مع النفث.

- القراءة بدون النفث ولكن مع مسك العضو المصاب.

- قراءة مع النفث على الماء، أو على ما في حكم المائعات كالزيت والدهان والكريمات وما شابه ذلك.

- صورة أخرى: كتابة القرآن بالزعفران وتنقيعه في الماء وشربه، فقد ثبت ذلك عن بعض الصحابة والسلف.

- وكذلك الرقية في الماء والاغتسال به أو غسل الموضع الذي فيه الأذى.

والرقية مع النفث قد تناسب أشخاصًا، والرقية مع المسك قد تناسب أشخاصًا، يعني مثلًا حينما تقرأ على غير محرم (امرأة) فهل يجوز لك أن تمسّها؟ لا ما يجوز.

وقد يتساهل بعض القراء في هذا، فتجد أنه يمس المرأة وهي لا تحلّ له وليست من محارمه! بل سمعنا أن بعضهم يضعها في أماكن لا يمكن حتى للمحرم أن يضع يده عليها! فهذا تجرؤ على المحارم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لكن هناك صفة وحالة: أن يأتي الراقي فيرقي فينفث مثلًا على كفي زوجها، ويقوم الزوج بمسح زوجته، أو يمسك الزوج أو المحرم كفي المريضة، ثم ينفث الراقي في كفي المريضة، ثم تقوم هي تباشر مسح جسدها.. يعني الحلول كثيرة، لكن بعض الناس كأن لا يوجد حلول مباشرة يدخل في العميق! فهذا لا شك أنه تجاوز حقيقةً.

إذن هذه هي الصفات والحالات التي يذكرها أهل العلم.

ما حكم أخذ الأجرة على الرقية؟ هل هو يجوز، أو مستحب؟ وأيهما أفضل؟

النبي ﷺ يقول: ((إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله))[البخاري]، فقد أقرّ ﷺ ما فعله النفر من الصحابة الذين شارطوا أولئك الذين منعوهم ولم يضيّفوهم، فبقوا بطرف القرية، فلُدغ سيد القوم -القصة طويلة معروفة-، فجاؤوهم فقالوا أفيكم راقٍ؟ فقالوا نعم، ولكن لا نرقي سيدكم حتى تعطونا كذا .. هنا اشترطوا، لكن قد يقول قائل: قد يكون هذا الاشتراط ليس المراد منه عين المال، وإنما المراد الزجر والتأديب؟ ثم بعد ذلك قرر أهل العلم قالوا: أن الضيف له حق حتى في مال المضيف.

الشاهد من ذلك: أنه يباح، ولكن لا يليق بالإنسان أن يشترط شروطًا غير معقولة! نجد بعضهم يكتب رقية خاصة ورقية عامة! مفعولها قوي! يعني شيء مركز وشيء مو مركز! وأسعار مختلفة!

سبحان الله هناك موقف وقفت عليه أنا، وجدته يقول هناك رقية عامة يجمع المرضى ثم (تف تف) هكذا.. ورقية خاصة كل شخص على حدة تكون النفثة مركزة!

فيعني خير الناس أنفعهم للناس، إذا الله سبحانه وتعالى بارك في رقية المرء، فينفع إخوانه وله الأجر من الله سبحانه وتعالى، وإن كان متفرغًا لذلك الشيء فلا حرج أن يقبل المال، إذا كان قد تفرغ لذلك

الشيء، يعني ترك حتى أهله ولم يذهب للتجارة لسد حاجته وحاجة عياله، وإنما تفرغ لحاجة المرضى، لا شك إن كان هناك رزق من بيت المال فهو المتّجه، لكن إن لم يكن هناك رزق له ولمن في حكمه نقول اترك المجال من طابت نفسه أعطاك، ومن لم تطب نفسه احتسب الأجر عند الله، لأن الأصل أن هذه عبادة، والعبادات لا يُتقاضى عليها عوضًا، إنما العوض من الله سبحانه وتعالى.

عندنا الرقاة ثلاثة: رجل يشترط، ورجل يقبل المال، ورجل يقرأ بدون مقابل ولا يقبل المال.

يستوون أو لا يستوون عند الله؟ لا شك أن من لا يقبل هو أعظمهم أجرًا، ثم الذي إذا جاءه أحدهم فما رده وقبل المال فهذا أقل من الأول وأعظم من الأخير، لكن الذي يشترط فإن شاء الله له أجر لكن ليس كالذين سبقوه.. حتى أنه جاء في الخبر ((ما من غازية أو سرية تغزو فتغنم وتسلم إلا كانوا قد تعجلوا ثلثي أجورهم وما من غازية أو سرية تخفق وتصاب إلا تم أجورهم)).[مسلم]

مسألة مهمة: أن هناك شروط يجب توفرها في الراقي والمرقي لأجل أن يتم الشفاء:

أن يعتقد كلا الطرفين (الراقي والمرقي) أن الشافي هو الله، وأن القرآن سبب، وأنه لا أثر للراقي في الشفاء لأن الشفاء بيد الله عز وجل.

حصل موقف –نسأل الله السلامة والعافية–.. انظروا كيف يقع الناس في الشرك بالله سبحانه وتعالى من حيث لا يشعرون: يقول أحد الرقاة –وسمعت هذا منه، وهو رجل بارك الله في دعائه وفي رقيته–، يقول كان من عادته أن يحتسب الأجر فيزور المستشفيات محتسبًا الأجر، لا يريد عَرَضًا من الدنيا، فزار بعض المرضى في العناية المركزة فقدّر الله سبحانه وتعالى أن كان سببًا لشفاء أحدهم بأمر الله عز وجل، رقاه فبارك الله في تلك الرقية، فكأنما نشط ذلك المريض وقام.. عافاه الله.. سبحان الله دارت الأيام وإذ بامرأة تتصل عليه وقالت يا شيخ نريدك بسرعة، عندي حالة مرضية وكذا، وأنت سبق أن رقيت ابني فشفيته!.. يعني انظروا إلى خطورة هذا اللفظ! انظروا كيف أن الناس تميل قلوبهم! وقد مر معنا درس عظيم: (لا يسترقون)، أرأيتم كيف يكون التعلق بالآخرين؟! إذا بدأ الإنسان يطلب الرقية من غيره؛ بدأ القلب يتعلق، وبدأ يميل القلب.

وكذلك من صور التوكل: التعلق بالأطباء. فتجد بعض الناس يقول هذا الطبيب ما شاء الله، إذا كان الطبيب الفلاني هو الذي يقوم بالعملية، بس ادخل وأنت مغمض عينيك! تعلق..

مع أن المؤمن كيف يكون متوكلًا على الله؟ التوكل ما هو؟

التوكل هو اعتماد القلب على الله مع فعل السبب، فإذا كان هناك فعل للسبب مع عدم صدق الاعتماد على الله، لا يكون هناك توكل حقيقي.

أنت تعلم أنه سبب، ومن اتّخاذ الأسباب أن تأتي عند الطبيب الحاذق ليس مشكلة، أما نجاح العملية وشفاء المريض فهذا كله بيد الله سبحانه وتعالى.

(**التِّوَلَةَ**): هذه أمور تحبب الزوج إلى زوجته والزوجة إلى زوجها، وهذا يسمى بسحر العطف. فالسحر منه ما هو صرف، ومنه ما هو عطف، والصرف هو التفريق نسأل الله السلامة والعافية.. ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[البقرة] صرف.

فالتولة: هو أمر يقوم السحرة بفعله، الغرض منه تحبيب الزوج إلى زوجته أو العكس.. الغالب استخدامه بين الزوجين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: وعن عبد الله بن عُكيم مرفوعًا: (من تَعَلَّقَ شيئًا وُكِلَ إليه).[١] رواه أحمد والترمذي

التمائم: شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين. لكن إذا كان المعلقَّ من القرآن فرخّص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود ﷺ.[٢]

والرُّقى: هي التي تسمى العزائم، وخصّ منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة.[٣]

التولة: هي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.[٤]

---

(١): هذا لا شك أنه عظيم، تَعلَّق سواء كان تعلقًا حسيًا أو تعلّقًا معنويًا..

(**وُكِلَ إليه**) أي: أنه تُرِكَ إليه.. خلّه ينفعك.. إن كنت تظن أنه يدفع، اتركه نتركه معك ليدفع عنك!

ثم هنا المصنف –رحمه الله– يبين حقيقة الألفاظ التي مرت في النصوص الشرعية فقال:

(٢): لماذا ذكر الأولاد رغم أنها قد تعلق على المرأة والرجل؟ لأن الأكثر أنها تستخدم في حق الصبية الصغار..

(**لكن إذا كان المعلقَّ من القرآن فرخّص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود ﷺ**): مر معنا الحديث وما يُنسب إلى عبد الله بن عمرو بن العاص ولماذا بعضهم ظن أنه يرى مشروعية ذلك، وبينّا أن عبد الله ﷺ كان يعلم الصبية القرآن وكان يعلق على صدورهم ألواحًا كتب فيها القرآن ليحفظوها لا لتحفظهم.

(٣): (والرُّقى: هي التي تسمى العزائم، وخصّ منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة):

الرقى هي العزائم، وتكون بآيات الله والأذكار والأدعية المشروعة الثابتة عن النبي ﷺ، أو أدعية من جملة الأدعية التي يدعو الإنسان بها ربه سبحانه وتعالى.

أهل العلم كذلك اشترطوا أن تكون الرقية بلسان العرب، فنفهم من ذلك أنها لا تجوز بغير اللغة العربية، لماذا؟ سدًّا للباب، لكي لا يأتي رجل يقول هذه رقية ثم إذا بها استغاثات شركية، فيشترطون أن تكون باللسان العربي، وأن يعتقد أن الشفاء من الله وأن القرآن سبب، وأن لا يتعلق لا بالقرآن ولا بالراقي وإنما يتعلق بالله عز وجل.

(٤): (التولة: هي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته):

مر معنا وبينّا حقيقتها وهذا من قبيل سحر العطف.. كثير من البيوت وكثير من الأسر قد وقت في شراك السحر، ففسدت الحياة وشاع وذاع الخلاف والفرقة، كل ذلك بسبب دخول الشياطين ولا حول و لا قوة إلا بالله. قد وجدنا في بعض المجتمعات التساهل في قضية الإتيان إلى السحرة، للأسف الشديد بعضهم حينما تتزوج المرأة مباشرةً تأتي إليها شياطين الإنس من النساء وتقول لها افعلي كذا يكون خاتم بأصبعك.. ثم بعد ذلك يوبقون دنياها وآخرتها، نسأل الله السلامة والعافية، فتجد أنها سبحان الله حينما لجأت إلى الشياطين وإلى السحرة ضاع دينها وضاعت حياتها نسأل الله السلامة والعافية، فخسرت الدنيا والآخرة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وروى أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ: (يا رويفعُ لعلَّ الحياةَ ستطولُ بِكَ ، فأخبرِ النَّاسَ أنَّ من عقدَ لحيتَهُ أو تقلَّدَ وَترًا أوِ استنجى برجيعِ دابّةٍ أو عظمٍ فإنَّ محمَّدًا ﷺ بريءٌ منْهُ).[١]

وعن سعيد بن جبير قال: من قطع تميمة من إنسان كان كعدل عتق رقبة.[٢]

وله عن إبراهيم: قال: كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن.[٣]

---

(١): هنا النبي ﷺ قال: (**يا رويفعُ لعلَّ الحياةَ ستطولُ بِكَ**): هذا لا شك أنه عَلَم من أعلام نبوته ﷺ، وهذا يفيد أن رويفع سيعيش بعد موت النبي ﷺ، فأمره ببلاغ هذا الأمر وبيانه للناس.

(**أنَّ من عقدَ لحيتَهُ**): العقد هنا هو التشويه، أن يشوه نفسه معتقدًا أن التشويه يدفع العين.

طبعًا الأسباب تنقسم إلى: سبب شرعي وسبب قدري.

الشرعي: ما جاء الشرع بتقريره. والقدري: هو ما عُلِمَ بالتجربة.

لكن يشترط في السبب الشرعي ألّا يأتي في الشرع ما ينهى عنه.. يعني مثلًا نحن علمنا بالتجربة أن من أكل مثلًا نوعًا معينًا من الأطعمة، أو مزيجًا من الأدوية أن هذا مثلًا دواء للقرحة، بالتجربة عرفناه، هذا يسمى سبب تجريبي لأننا بالتجربة عرفنا أنه نافع..

طيب لو جاء شخص قال أنا بالتجربة أن التميمة تنفع.. نقول هذا جاء نهي الشرع عنه.. لكن يقول لك رجل مثلًا تخرج في الصباح الباكر تتعرض لنفحات الشمس من الساعة الثامنة إلى الساعة

التاسعة فإن هذا يقوي المفاصل مثلًا وهكذا.. فهذا سبب تجريبي، عُلِمَ بالتجربة أنه نافع فهذا لا حرج منه، لكن شريطة أن يكون هذا السبب غير ممنوع أو منهي عنه شرعًا.

إذن هنا (من عقد لحيته): المراد التشويه.

عندنا تشويه وترك للزينة، بينهما فرق:

التشويه: أن تغير شكلك كأن تضع مثلًا فحمًا على وجهك.

ترك الزينة: كأن لا تتعمد لبس الجديد والظهور بمظهر أنيق أمام الناس خشية العين وما شابه ذلك.

لكن على العموم الحديث هنا نهى عن عقد اللحية وهو التشويه، ولم يتطرق إلى ترك الزينة، لكن لا ينبغي للإنسان أن يتكلف بترك الزينة لأجل العين، لكن الإنسان يحتاط، لأن العين حق، لكن لا يبالغ في الزينة ولا يبالغ في الترك.

وحقيقة بعضهم عنده صاروخ حراري ما يحتاج.. معه صاروخ كونكوس.. يعني لا إله إلا الله.. حقيقة يوجد أناس شيء عجيب.. حتى أن أهل العلم تكلموا في كتاب القصاص: هل يُقتصُّ من العائن؟ لأن هناك أناس يتعمدون القتل بالنظر.. هذا قتل عمد أو غير عمد؟

انظروا إلى تعريف الفقهاء للقتل العمد، قتل العمد: أن تقصد الجناية على معصوم بآلة تقتل غالبًا. والعين آلة أو غير آلة؟ هي في حكم الآلة، وهي تقتل.

فتكلم أهل العلم على هذه المسألة، وقالوا: يقتص.. إذا علمنا أن هذا الرجل أصلًا معروف بأنه يصيب بالعين، بل بعضهم يأخذها وراثة نسأل الله السلامة والعافية، وكما يقول الإمام ابن القيم –رحمه الله– أن الحاسد لا يصدر منه الحسد إلا عن خبث في طوية وسواد قلب. نسأل الله السلامة والعافية.

والحسد هو تمني زوال النعمة عن الآخرين ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَٰهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[النساء]، ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾[القلم]، ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾[يوسف] وهكذا..

فالشاهد من ذلك أن هناك أناس قد يقتلون بالعين، وإن ثبت ذلك قضاءً فقد يُقاد من هذا القاتل إذا طالب الأولياء بالقصاص يقتص منه..

وطبعًا العلماء اختلفوا، والحديث ((لا قود إلا بالسيف)) أعلّه الحفاظ، والذي عليه رأي أكثر أهل العلم –وهو المرجح– أن القتل يكون بنفس الآلة وبنفس الطريقة التي قتل بها، إلا أن تكون الطريقة أو الآلة محرّمة.. يعني يكون قتل بطريقة محرّمة، كأن قتلَ بأن وضع الخمر في فمه وظلّ يضعه حتى مات، فهذه طريقة محرّمة، فلا نقتص منه بهذه الطريقة، فإذا تعذر استيفاء القصاص بنفس الطريقة فإنه في مثل هذه الحالة يُسار إلى الأمر الآخر.. وحديث (لا قود إلا بالسيف)، وإن كان فيه مقال لكن معناه صحيح، وهي آلة القتل حقيقة، والنبي ﷺ يقول: ((إذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته))[صحيح الترمذي]. إذن نفهم أنه لا يُشرع التشويه لأجل دفع العين.

(أو تقلد وترا): مر معنا..

– أحد الإخوة: شيخ، بعضهم يكتب عليها يا حسين.

– الشيخ: نسأل الله السلامة والعافية، يا حسين هذه من شعائر الشيعة، وهذه الأصل فيها عند الشيعة استغاثة شركية، لأنهم يستغيثون بعلي ويستغيثون بالحسين رضي الله عنهما ويستغيثون بهما من دول الله عز وجل.

– أخ: يا شيخ، عبد الحميد المهاجر بالحرف الواحد قال: إذا أخذت أن تأخذ أمرًا بسيطًا فقل يا الله، وإذا أردت أن تأخذ أمرًا صعبًا فقل يا حسين ويا علي.

– الشيخ: هذا نسأل الله السلامة والعافية كافرٌ بالله العظيم. نسأل الله السلامة والعافية.

(أوِ استنجى برجيعِ دابَّةٍ أو بعظمٍ): طبعًا النهي عن الاستنجاء بها جاء مُصرّحًا ومبينًا السبب في ذلك، أنها طعام إخواننا من الجن، لذلك استخدامها في إنقاء السبيلين تأذية وأذية لإخواننا من الجن.

ورجيع الدابة: هو روث الدابة، طبعًا روث وبول مأكول اللحم على الصحيح من أقوال أهل العلم أنه ليس بنجس وهو طاهر، وكذلك أضاف أهل العلم: بول وروث ومنيّ مأكول اللحم طاهر، فنفهم من ذلك أن غير مأكول اللحم نجس مثل السباع وما شابه ذلك.

قضية الطوّافة لما سُئل النبي ﷺ عن الهرة قال: ((إنَّها ليْسَتْ بنَجَسٍ؛ إنَّمَا هِيَ مِنَ الطَّوَّافِينَ عليكُم والطَّوَّافاتِ))[أبو داوود] فقيست عليها الحيوانات الطوّافة.

(فإنَّ محمَّدًا ﷺ بريءٌ منْهُ): هل البراءة كاملة أو غير كاملة؟ أي يكفر بالله أم ماذا؟

هذا طبعًا من نصوص الوعيد، والبراءة إما أن تكون براءة كلية أو براءة جزئية، وهنا قد تطلق البراءة ويراد بها البراءة من الفعل وفاعله حال الفعل .. ((إني أبرأ إليك مما صنع خالد)).[صحيح البخاري]

على العموم فإن محمَّدًا ﷺ بريءٌ منْهُ إذا اعتقد في هذه الأمور مثلًا أن هذا الوتر يضر وينفع بنفسه، فالبراءة هنا مرتبطة بطبيعة الفعل وبمعتقد المرء في هذه المسألة، لأن هنا الاعتقاد مؤثر، لكن لا يشترط الاعتقاد في الأفعال والأقوال الكفرية الأخرى .. من سبّ النبي ﷺ كفر وإن لم يعتقد، من حكم بغير ما أنزل الله كفر وإن لم يعتقد، من امتهن القرآن كفر وإن لم يعتقد، لأن الكفر كما أنه يكون بالقول يكون بالفعل ويكون بالاعتقاد ويكون بالشك ويكون بالجحود وهكذا.

(٢): **(من قطع تميمة من إنسان)**: هل هذا الفضل مختص بالإنسان؟ طيب النبي ﷺ أرسل رجالًا لتقطع ما على البعير وما على الدواب؟ أو أن الذكر هنا ذكر للغالب وغيره يأخذ الحكم؟ هو الأصل أن من قطع تميمة سواء كانت على إنسان أو غير الإنسان، هذا الذي يظهر والله تعالى أعلى وأعلم.

(كَعِدل عتق رقبة): هنا قال أهل العلم: كان كعدل رقبة في الجزاء لا في الإجزاء، أي أنك تثاب كما يثاب من أعتق رقبة.. ما الفائدة من هذا الكلام؟

تخيل أن رجلًا عليه عتق رقبة، فقال أنا سمعت خبر سعيد بن جبير (من قطع تميمة من إنسان كان كعدل عتق رقبة) خلاص أنا أقطع عشرة إذا تريد، فجاء وأخذ يقطع.. نقول هنا لا.. هذا لا يُجزِئ.

مثل الآن النبي ﷺ قال أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، لو نذر إنسان لله نذرًا، لو شُفيَ مريضي أن أقرأ ثلث القرآن، فقرأ سورة الإخلاص، هل أوفى بنذره أم لا؟ لا، لأن سورة الإخلاص تعدل في الجزاء لا في الإجزاء، وقل مثل ذلك في هذه المسألة.

هنا لماذا من قطع تميمة من إنسان كان كعتق رقبة؟ أجر عظيم! لأنه أنقذه من الشرك، فكأنه أعتق وأنقذ رقبته من النار. وهذا يدل على عظم شأن التوحيد، وعظم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في باب التوحيد، أعظم أمر يؤمر به هو الأمر بالتوحيد، وأعظم أمر يُنهى عنه هو النهي عن الشرك بالله.

(٣): **(وله عن إبراهيم: قال: كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن)** وهذه مرت معنا وبينّا الصحيح من أقوال أهل العلم في قضية التمائم التي تكون من القرآن.

الدرس الثامن

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: باب من تبرّك بشجرة أو حجر ونحوهما.(١)

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتمُ اللاَّتَ وَالْعزَّى﴾.(٢)

بسم الله، الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله أزكى الصلاة وأفضل التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

أحبابي الكرام، نستأنف وإياكم بإذن الله تعالى مدارسة كتاب التوحيد..

(١): يريد المصنف -رحمه الله تعالى- أن يبين في هذا الباب حكم التبرك بالأحجار والأشجار ونحوها وما في حكمهما، لأن كثيرًا من بلاد المسلمين قد شاع فيها التبرك بالأحجار والأشجار ونحوهما.

وقد عانت الأمة من قديم الزمان بفشوّ هذه الظاهرة ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا شك أن السبب الرئيسي في ظهور ذلك هو البعد عن التوحيد والبعد عما أحقّه الله سبحانه وتعالى على العبيد.

حينما يكون الانسان بضاعته مزجاة في هذا الباب لا شك أنه سيأتي بالعجائب والغرائب، فلذلك ما زالت الأمة إلى يومنا هذا تعاني من ضعف في هذا الباب، لذلك يكثر الخلل ويقع الخطأ كثيرًا في هذا الباب، فكان لزامًا علينا أن نتفقه وأن نفقه غيرنا بما يتعلق بهذه المسائل العقدية.

(٢):﴿أَفَرَءَيْتمُ اللاَّتَ وَالْعزَّى﴾[النجم]، هذا استفهام أراد الله سبحانه وتعالى به أن يبين أمرًا هامًا، وهو أن هذه الآلهة وهذه المعبودات ليست بشيء، وأنها لا تملك لها ولا لغيرها نفعًا ولا ضرًا.

اللات: هو صنم أو حجارة بيضاء منقوش عليها بُني عليها بيتًا وكان هذا الصنم يعبده أهل الطائف. واللات هو رجل صالح كان يلتُّ السويق للحجيج.

والسويق: هو دقيق الشعير أو الحنطة إذا لُتَّ أو خُلِطَ بالماء أو السمن. فدقيق الشعير أو الحنطة حينما يُخلط بالماء أو السمن يسمى سويقًا.

فكان هذا الرجل يلتّ السويق للحجيج، فلما مات نُحتت هذه الحجارة على قبره، ثم عُظِّمَ فبُني عليه بيتًا حتى آل الأمر إلى أن عُبِدَ من دون الله عز وجل.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية بالتشديد، ونحن نقرأها بالفتح (أفرأيتم اللاتَ) قُرِأت كذلك (أفرأيتم اللاتَّ) أي الذي كان يلتُّ السويق فَعُبِدَ من دون الله.

العزى: هي شجرة كان يعظمها أهل مكة، وكان هناك ثلاث أشجار من السدر يعظمها العرب، وكانوا يتبركون بها، بعث النبي ﷺ إليها خالدًا، فأمره أن يجتث هذه الأشجار وأن يقتلعها من جذورها، فامتثل الأمر رضي الله عنه، فهبّ مسرعًا إلى تلك الأشجار فقطعها وخرّبها، ليظهر جليًا لعابديها ولمعظميها أنها لا تضر ولا تنفع، فلما فرغ خالد رضي الله عنه من مهمته عاد إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ ماذا فعلت؟ قال قطعت الأشجار. قال لم تفعل شيئًا، ارجع. فرجع فرأى امرأةً عجوزًا حاسرةً عن رأسها، متعريةً ناثرةً شعرها، تستغيث بالجن وتتكهن على الناس، وكانت هي التي تقوم على هذه المشاهد وتدعو الناس إلى تعظيمها من دون الله، فاعتلاها خالد رضي الله عنه فقتلها، ورجع إلى رسول الله ﷺ وأخبره بذلك، فقال رسول الله ﷺ: نعم تلك العزى. إذن هذه هي العزى.

ومناة الثالثة الأخرى: مناة هي حجارة كان يعبدها المشركون في المدينة.

ومر معنا الفرق بين الصنم والوثن، اللات صنم لأنه على صورة إنسان، العزى وثن لأنها شجرة.

طبعًا المصنف -رحمه الله تعالى- أراد أن يبين أحكام التبرك، التبرك لا يخلو إما أن يكون:

- تبركًا بدعيًّا.
- أو تبركًا شركيًّا.
- أو تبركًا مشروعًا.

التبرك المشروع: أي شرعه الله سبحانه وتعالى أو نبيه ﷺ، وهو ينقسم إلى أقسام: تبرك بالأقوال، وتبرك بالأفعال، وتبرك بالأبعاض، وتبرك بالأزمنة والأمكنة.

التبرك بالأقوال: مثلًا ثبت عندنا فضل آية الكرسي، فالإنسان إذا قرأها قبل نومه لم يزل عليه من الله حافظ حتى يصبح، إذن يقرأها الإنسان رجاء بركة هذه الآية، فهو يقرأ هذه الآية ويسأل الله سبحانه وتعالى هذه البركة التي وضعها الله في هذه الآية، فهذا يسمى تبرك قولي مشروع. والأذكار أيضًا، وهكذا.

التبرك العملي (بالأفعال): القتال في سبيل الله، ترجو به إعزاز هذا الدين، وترجو به كذلك الشهادة في سبيل الله.. زهد الناس في هذا الفضل وإلى الله المشتكى! نسأل الله أن يختم لنا ولكم بالشهادة في سبيله.

التبرك بالأبعاض: وهذا يشمل ما قرره أهل العلم بالتبرك بأبعاض النبي ﷺ في حياته. لذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يتبركون ببصاقه ويتبركون بفضل وضوئه، وهكذا.

- لماذا قيّده أهل العلم بحال حياته؟ سدًّا للذرائع، فقد يأتي آتٍ بزمن من الأزمنة فيدعي أن شيئًا ما للنبي ﷺ، وخصوصًا تباعد الزمن قد يُضعف قضية الصدق في ذلك.

لذلك كان عند أم سلمة -رضي الله عنها وأرضاها- شعرات للنبي ﷺ، وكان عندها جلجل من فضة (يشبه القارورة يحفظ به ما يراد صيانته) كانت تضع فيه هذه الشعرات، وكانت إذا جاءها مريض أو ما شابه ذلك وضعتها في ماء فأراقت على هذا المريض من هذا الماء فشُفي بأمر الله عز وجل. هذا لا شك يدل على أن النبي ﷺ مبارك بذاته وكذلك أبعاضه مباركة، عليه الصلاة والسلام..

التبرك بالأزمنة والأمكنة: مثل الآن نحن في أيام عشر ذي الحجة، فإيقاع العبادة في هذه الأيام مبارك والأجر فيها مضاعف، فالإنسان حينما يكثر من الطاعة في هذه الأيام فإن هذا يسمى تبركًا بالأفعال بالأزمنة، فهذا زمن مبارك علمنا بركته بنص النبي ﷺ.. طبعًا مثل ذلك شهر رمضان، ووقت السَحر، ليلة القدر، وحين التحام الصفوف، كذلك زمن مبارك.

التبرك بالأمكنة: مثلًا المسجد الحرام، الروضة، المسجد النبوي، المسجد الأقصى، فالإنسان حينما يصلي في تلك البقاع لا شك أن الصلاة فيها مضاعفة.

وقد يقال أيضًا التبرك بالهيئات: كهيئة السجود (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد).

التبرك البدعي: هو أن يتبرك الإنسان بشيء مبارك ولكن بطريقة غير مشروعة .. [افهموا هذا الضابط] أن يتبرك الإنسان بشيء فيه بركة ثابتة ولكن بطريقة غير مشروعة. كإحياء ليلة القدر بشيء غير مشروع.. ومثلًا العسل مبارك والحبة السوداء مباركة وماء زمزم مبارك.. ثبت ذلك بالنص، فالبركة فيه وكونه شفاء حال التداوي به، لكن إن أراد إنسان أن يتداوى به بطريقة بدعية كأن يضعه مثلًا في علبة ويقول نم عليه ففيه الشفاء، فهذا لا يجوز (شيء مبارك والطريقة بدعية)..

كذلك القرآن الكريم فيه تفصيل، وضع القرآن على الوجه أو تقبيل القرآن لأجل التبرك هذا بدعة، القرآن لا شك أنه مبارك، لكن الطريقة غير مشروعة، ولكن هناك من أهل العلم من يجوّز التقبيل للتعظيم لا للتبرك، ولهم في ذلك سلف، حيث أن عكرمة بن أبي جهل -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- كان يفتح القرآن ويضعه على وجهه ويقول كتاب ربي، كلام ربي.. هذا من قبيل التعظيم لا من قبيل التبرك.. لا شك أن القرآن مبارك وأنزله الله سبحانه وتعالى بركة للعالمين.. ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾.[ص]

أيضًا الحجر الأسود مثلًا، النبي ﷺ مسح عالحجر الأسود وقبله، فبعضهم يأتي بخرقة ويمسح على الحجر الأسود ثم يمسح بها وجهه وأبناءه.. عمر رضي الله عنه حينما وقف أمام الحجر قال: ((واللهِ أعلم أنك حجر لا تضرّ ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك)).[عند مسلم بخلاف يسير]

فهو من باب التعظيم لا التبرك. فهنا في قضية الحجر الأسود بيّن عمر ﷺ أن البركة هي في التأسي بالنبي ﷺ، فلولا أن النبي ﷺ فعل ذلك لما كان ذلك الفعل مشروعًا ولا مندوبًا.

مثال آخر: المطر حينما ينزل هو مبارك، فلو أن إنسانًا بدأ يتعامل مع هذا المطر بطريقة غير مشروعة كأن يتعرى ويمسح على جسده أو ما شابه ذلك.. النبي ﷺ حين نزول المطر كان يحسر عن ثوبه ويقول ((حديث عهد بربه)) [سنن أبي داوود]، والحسر هنا إما أن يكون حسر ما يغطي الإنسان على رأسه أو شيء من ثوبه، وكان ابن عباس ﷺ إذا نزل المطر أمر جاريته بأن تخرج المتاع ليصيبه الماء رجاء أن ينال المتاع شيء من البركة.

التبرك الشركي: وإذا قلنا شركي فهو يشمل الشرك بنوعيه، هناك من التبرك ما يكون شركًا أصغر، وتبرك كون شركًا أكبر.

من ذبح لله عند قبر: يكون شركًا أصغرًا إن ذبح لله لكن عند قبر.

العبادة هنا صرفها إلى الله ولكن تبرك بالمكان، فالعبادة في أصلها مشروعة، لكن الطريقة أو المكان غير مشروع.

مثال آخر: من دعا الله عند القبور، الدعاء لله في أصله مشروع بل هو من صلب العبادة، لكنه قال أوقع هذا الدعاء عند هذه المقبرة لأجل أن يكون مباركًا، فهذا شرك أصغر.

الشرك الأكبر: أن يأتي ويذبح للقبر.. وطبعًا الذبح للأولياء والصالحين هو شرك سواءً كان في القبور أو خارج القبور، وسؤال الأولياء والصالحين من دون الله شرك سواءً كان في المقابر أو خارج المقابر.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

عن أبي و اقد الليّْثِيّ قالَ: خرجْنَا مَعَ رسول الله ﷺ إلى حُنَينٍ، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سِدْرَةٍ يعْكُفوُنَ عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها ذاتُ أنْواطٍ فمرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فقُلنا: يا رسول الله، اجْعلَ لنا ذاتَ أنْواطٍ كَما لهم ذاتُ أنْواطٍ، فقال رسول الله ﷺ: (الله أكْبر! إنها السن! قلتم والذي نفسي بيده كَمَا قَالتْ بنَوُ إسْرائيلَ لموسى): ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةً قَالَ إِنَّكُم قَومٌ تَجهَلُونَ﴾ الآية (لترْكَبنٌ سَنَنَ منْ كَانَ قبْلِكُمْ).[١] رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح

= **إذن** نفهم أنه بالنسبة للتبرك الشركي، فهو ينقسم إلى قسمين: شرك أكبر وشرك أصغر.. متى يكون شركًا أكبرًا، ومتى يكون شركًا أصغرًا؟

الأكبر: أن يقصد هذا المكان لذات الشخص أو المكان أو الحجر أنه هو بذاته مبارك.

الأصغر: أن يعتقد أن المبارِك هو الله وأن هذا سبب للبركة.

يعني مثلًا من يتبرك بأبواب المسجد الحرام التي لم يثبت فيها شيء، هي مجرد أبواب متى خرب أحدها يؤُخذ ويُرمى، فمن اعتقد أن هذه الأبواب وهذه الجدران هي سبب للبركة فهو تبرك شركي شرك أصغر، وإذا اعتقد أنها بذاتها تضر وتنفع، فهو تبرك شركي شرك أكبر، وقل بمثل ذلك.

(١): **(ونحن حدثاء عهد بكفر)**: هنا يريد الراوي أن يبين العذر، أي أنه سيذكر خطأ من الأخطاء، ولكن قدّم لذلك بمبرر أو بعذر.. يعني مثلًا أنت تريد أن تروي حدثًا حصل لك، وقع لك حادث بالسيارة مثلًا، فتقول ركبت السيارة (وأنا لا أحسن القيادة)، فلما خرجت إلى الطريق العام حصل لي حادث، لأجل أن لا يقول لك شخص أنت غشيم ما تعرف تقود السيارة.. أو هكذا.. على أساس يستدرك عليه..

إذن لأنه سيذكر أمرًا عظيمًا هنا، فناسب أن يقدم العذر، فقال: (ونحن حدثاء عهد بكفر).

(وللمشركين سِدْرَةٍ يعْكُفوُنَ عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها ذاتُ أنْواطٍ فمرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فقُلنا: يا رسول الله، اجْعلَ لنا ذاتَ أنْواطٍ كما لهم ذاتُ أنْواطٍ، فقال رسول الله ﷺ: الله أكْبر! إنها السنن! قلتم والذي نفسي بيده كَمَا قَالتْ بنَوُ إسْرائيلَ لموسى) : ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُم قَومٌ تَجهَلُونَ﴾ الآية. (لترَكَبنُّ سَنَنَ منْ كان قبْلِكُمْ) :

هنا عدة مسائل: أولها أن الصحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم- قد قال بعضهم قولًا استنكره النبي ﷺ، وأهل العلم تحدثوا عن هذا القول: (اجْعلَ لنا ذاتَ أنْواطٍ كما لهم ذاتُ أنْواطٍ) :

كان المشركون لهم سدرة (شجرة) يعظونها ويعلقون عليها أسلحتهم رجاء البركة، وكانوا يعتقدون أنها مباركة وأن الذي يعلق عليها سوف يُبارك ويتبارك، وهذا كله من قبيل الشرك الأكبر، وقال أهل العلم أن تبركهم بهذه الشجرة تبرك حولي (أي في العام) يأتون إليها ويعلقون عليها أسلحتهم رجاءَ أن يستمدوا القوة وأن تكون البركة في السلاح وفي حامل السلاح.

هذه القصة كانت في حُنين، وتعرفون أن الطلقاء الذين خرجوا مع النبي ﷺ الذين أطلق النبي ﷺ سراحهم يوم فتح مكة (اذهبوا فأنتم الطلقاء)، كان كثير منهم حديث عهد بكفر فخرجوا مع النبي ﷺ إلى حُنين.. وأنت الآن حينما أسلم رجل قبل سويعات أو قبل أيام؛ تجد أن الأخطاء تصدر منه كثيرًا..

مثلًا رجل يعرف أن الشعائر مربوطة بالأولياء والصالحين وما شابه ذلك، فترك هذا الشرك ثم أسلم، وبقيت رواسب الجاهلية في ذهنه، فعلم جهة القبلة وسمع أن هناك مثلًا قبور أو ما شابه ذلك.. هو أمس ترك عبادة القبور، فقد يُتصوَّر منه أن يقع في ذلك الشيء.. أو مثلًا رجل أسلم، فبعد إسلامه جاء قال: والله الرأس مصدع شوي، ما في خمر قريب هكذا.. ممكن.. أو يقول والله جائع ما في دكان يبيع خنزير؟ قد يُتصوّر.. نصراني أسلم ولا يعرف بعد هذه الأحكام والشعائر، فقد يتصور منه أن يُخطئ هذا الخطأ.

لماذا لم يُحكم على من قال بهذا القول من الصحابة بالكفر؟ أهل العلم أجابوا على ذلك بعدة أجوبة:

الجواب الأول: أنهم حدثاء عهد بكفر، وقالوا أن هذا مانع من موانع التكفير، مع أن النبي ﷺ ما راعى ذلك، فقال: (**قلتم والذي نفسي بيده كَمَا قَالَتْ بَنُوُ إِسْرائيلَ لموسى**)، ولكن أهل العلم أجابوا بجواب عظيم: أن النبي ﷺ شبّه القول بالقول، ولم يشبه القوم بالقوم..

لذلك هنا تأتي معنا مسألة: وهي قضية ثبوت الشروط وانتفاء الموانع، فأهل العلم لا يترددون في إثبات حكم على الأوصاف، ولكنهم يوقفون قضية الأعيان على ثبوت الشروط وانتفاء الموانع، فقد يقال بمثل ذلك. إذن الاعتذار الأول: أنهم قالوا قولًا وهم حدثاء عهد بكفر.

الجواب الثاني: أنهم قالوا ذلك ولم يفعلوه، وهذا ما مالَ إليه المصنف، أنهم قالوا هذا القول ولكنهم لم يفعلوه ولم يعملوه.

الجواب الثالث: أنهم استفسروا ولم يطلبوا.. اجعل: أي هل يجوز أن تجعل لنا سدرة نعلق عليها أسلحتنا كم هو الحال عند أولئك؟ فجاء الجواب بهذا السياق الشديد لأجل أن يكون فيه زجر وفيه ردع كذلك.

الجواب الرابع: قد يقال بأنهم أرادوا سدرة تكون سببًا للبركة، لا أن تكون بذاتها مباركة أو تعطي البركة بذاتها كما هو الحال عند المشركين، وإ نما أرادوها أن تكون سببًا (اجعل)، الجعل هنا شرعي، فأرادوا أن تكون لهم سدرة لجلب البركة، فكان هذا من قبيل الشرك الأصغر الذي لا يخرج الإنسان من الملة.

هذه أجوبة أجاب بها أهل العلم اعتذارًا لمن قال بهذا القول.

(**فقال رسول الله ﷺ: الله أكْبر!**): لا شك أن هذا فيه تعظيم لله عز وجل، ويؤخذ منه أنه إذا صدر من أحد قولًا أو فعلًا فيه تعدٍ لحدود الله أو إخلال بالإيمان بالله أو إخلال بالتوحيد أو تنقُّص من الله، فإنه لا بد من التعظيم (الله أكبر!).

- أحد الإخوة: يا شيخ لو سمحت، عندي طفل صغير عمره سنتين ثلاثة، إذا تعجب من الشيء يقول "يا محمد!" يقولها من باب التعجب وليس من باب التعظيم..

- الشيخ: لا، لا.. من أين تلقاها هو؟ سنتين..!

- الأخ: تلقاها من الشارع، من الحارة، يعني يقولها من باب التعجب..

- الشيخ: هو على العموم لا بد من التنبيه على مثل هذه الألفاظ لأن هذه الياء ياء النداء هي في حقيقتها ياء استغاثة، فلا يجوز أن تصرف لغير الله عز وجل، والاستغاثة بالإنسان الحاضر فيما يقدر عليه جائزة.. يعنل مثل الولد الصغير يبكي في البيت يقول (يا يمه، يا يمه) مثلًا، ويناديها، لكن رجل مات، ثم بعد ذلك إذا نزلت بالرجل نازلة يستغيث بالولي الفلاني والولي الفلاني، هذا هو عين الشرك ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لا لا يُنبّه، لا لا يُنبه يُنبّه، يُنبّه.. تعظيم النبي ﷺ لا يكون بمثل ذلك، تعظيم النبي ﷺ يكون بمتابعة سنته وهديه لا باستخدام مثل هذه الألفاظ.. فما الذي يجعلك تفرق بين من يستغيث وبين من يتعجب؟! فهذه ألفاظ شركية يجب نبذها من المجتمع ويجب البعد عنها تمام البعد.

(قلتم والذي نفسي بيده): هنا النبي ﷺ أقسم، وفيه جواز مشروعية القسم للتعظيم وللتنبيه على عظم الأمر وشناعته.

(كَمَا قَالتْ بنَوُ إسْرائيلَ لموسى): هنا مر معنا أن التشبيه هو تشبيه القول بالقول، لا تشبيه القوم بالقوم، لذلك الراوي قدّم في أول الخبر (حدثاء عهد بكفر)، وحديث العهد بالكفر مظنة أن يقع منه الخطأ وما شابه ذلك خصوصًا أنه قد ألِفوا الشرك ومظاهره قبل ليالٍ وأيام، ثم بعد ذلك بين عشية وضحاها ينتقلون من دين إلى دين، فلا شك أن مظنة الخطأ واردة.

﴿**اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُم قَومٌ تَجهَلُونَ**﴾[الأعراف]: انظروا إلى سياق الآية، هذا يدل على أن الجهل ليس بمانع من موانع التكفير في مسائل الشرك الظاهرة، وهذه مسألة حُكي عليها

الإجماع، نقل الإجماع القرافي –رحمه الله– والإمام القيم والإمام ابن جرير الطبري وجمع من أئمة السلف، فكذلك هنا (حدثاء عهد بكفر) هذا مظنة الجهل.

وهنا مسألة: هنا المصنف –رحمه الله– أورد في صدر الباب الآية: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى﴾ فهذه نزلت في حق من؟ في حق المشركين الذين أشركوا شركًا أكبرًا، قال أهل العلم: كان السلف يستدلون بآيات نزلت في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر. لذلك أهل العلم في مسائل الشرك الأكبر بينوا أنه لا إعذار في مسائل الشرك الأكبر.

والناس في هذا الباب على ثلاث:

منهم من يعذر بالجهل مطلقًا، ومنهم من لا يعذر بالجهل مطلقًا، منهم من يُفصّل.

وأهل العلم وأهل التحقيق يبينون أن مسائل الشرك الأكبر تنقسم إلى قسمين: مسائل ظاهرة، ومسائل خفية. وضبطها أهل العلم بضوابط:

المسائل الظاهرة: هي المعلومة لدى العامة والخاصة (من أبجديات الدين)، من جهلها أصلًا لم يعرف الإسلام ولم يدخل في الإسلام.

أول ما يعرفه الداخل في الإسلام ما هو؟ وحدانية الله، فمن أخل بوحدانية الله هل فهم الإسلام أصلًا؟ هل دخل في الإسلام؟ لا.. إذن أن يكون الأمر معلومًا لدى الخاصة والعامة، وأن يكون الدليل فيه قطعي، وأن تكون المسألة إجماعية.

يقابلها المسائل الخفية: أن تكون معلومة لدى الخاصة دون العامة، وأن لا يكون الخبر فيها قطعي (ظني مثلًا)، وأن لا يكون فيها إجماع.

فالصحيح هو التفريق بين المسائل الظاهرة والخفية، فإذا تأملنا في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–، وفي كلام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله–، نجد أنهم عذروا بالجهل في مواضع ولم يعذروا

في مواضع، فأهل العلم يُخرّجون هذا التقسيم على هذا التفريق، فما ينقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– بأنه عذر، فإنه عذر في مسألة خفية، وكذلك الإمام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله–.

ثم بعد ذلك السلف قد أجمعوا على عدم الإعذار في مسائل الشرك الأكبر الظاهرة، ومن ينقل من المعاصرين ويحكي الخلاف في ذلك لا يوجد له نقل واحد من ما قبل زمن شيخ الإسلام ابن تيمية، كل ما ينقل عنه أو منه هو من زمن شيخ الإسلام ابن تيمية وما بعد، فالصحابة والسلف أجمعوا على عدم الإعذار بالجهل في مسائل الشرك الظاهرة، بل حكى الإجماع الإمام ابن القيم –رحمه الله– على أهل الفترة..

تعرفون من هم أهل الفترة؟ هم أناس عاشوا بين نبيين، فلم تبلغهم دعوة النبي الأول ولم يدركوا النبي الثاني، فعاشوا بين الفترتين وبين النبيين، لم تبلغهم دعوة المتقدّم، ولم يدركوا دعوة المتأخر، فعاشوا لا يعرفون شيئًا عن الله وعن الدين، أجمع أهل العلم على تسميتهم بالمشركين واختلفوا في مآلهم بالآخرة، فإذا كان أهل العلم أجمعوا على من هذا حاله، فكيف بمن عاش بين ظهراني الناس وكانت آلة العلم عنده متوفرة، والوصول إلى العلم متهيئ..؟

لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– يقول: وبلوغ الحجة يكون بأمرين: القدرة على العلم، والقدرة على العمل.. يعني الإنسان إذا كان قادرًا على التعلم، وكان العلم موجودًا، والعلماء موجودين فقد قامت عليه الحجة.

القدرة على العمل: أن لا يكون هناك موانع في الأهلية، ما يكون مجنون، لا يكون مثلًا مغمى عليه أو ما شابه ذلك.. يعني ليس عنده عوارض في الأهلية، فلا بد أن تفهم هذه المسألة.

فإذا كان الإنسان يعيش بين ظهراني المسلمين، ودعوة التوحيد قائمة، وعنده قدرة على العلم، فقد قامت الحجة عليه..

يعني الآن لو جاء رجل في مدينة الرقة ودروس التوحيد تُعقد في المساجد، ثم وقع في ناقض من نواقض الإسلام في مسألة ظاهرة من مسائل الشرك الأكبر، ثم يقول أنا جاهل، يعذر أو لا يعذر؟ لا يعذر، الحجة قامت عليه أو غير قائمة؟ قامت عليه، كيف قامت عليه؟ عنده قدرة على التعلم، ولكنه أعرض، فهذا كذلك وقع في ناقض آخر وهو الإعراض عن تعلم أصل الدين، فمن أعرض عن تعلم أصل الدين -وهو الذي يتوقف على هذا العلم صحة إيمان المرء وتوحيده- فهذا قد أعرض عن تعلم أصل الدين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾.[الأحقاف]

فيتفطن الناس إلى مثل ذلك، فلا يجب على الدعاة أن يأتوا عند كل فرد على حدة كما فهم البعض، فلا يكفر الإنسان حتى تأتيه وتقيم عليه الحجة الرسالية أنت بنفسك! لا هذا لم يقل به أحد من سلف الأمة، بل لم يقم بذلك الأنبياء عليهم السلام الذين جعلهم الله سبحانه و تعالى حجة على العالمين ﴿لِئَلَّا يَكُوْنَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء]، فلا بد أن يفهم الناس ذلك، والنبي ﷺ جعل مجرد السماع حجة، وجعل الله مجرد بلوغ القرآن حجة، وأن النذارة قد وصلت إلى من سمع القرآن ﴿وَأُوْحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنْذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[الأنعام]، وكذلك كما [في صحيح مسلم] من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ((والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بي أحَدٌ مِن هذِه الأُمَّةِ يهُودِيٌّ ، ولا نصْرانِيٌّ، ثم يمُوتُ ولَمْ يُؤمِنْ بالَّذِي أرْسِلْتُ به، إلا كانَ مِن أصْحابِ النَّارِ)).. (لا يسمع بي) علّق الحجة بالسماع به سواءً قبل أم لم يقبل، شريطة أن يبلغه الخطاب وهو يفهمه.. يعني يعرف عربي جاءه الخطاب عربي.. لذلك في مسائل الشرك الظاهرة لا يشترط فهم الحجة وإنما يشترط بلوغ الحجة، لكن شريطة أن يبلغها وهو يفهم الخطاب.. يعني مثلًا لو رجل أعجمي بلغه الخطاب عربيًّا؟ لا، يجب أن يبلغه مترجمًا.. ولكن إذا كان في مسألة ظاهرة لا يتوقف على ذلك الفهم، لا يُشترط الفهم، وإنما يُشترط الفهم في المسائل الخفية.

الدرس التاسع

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: باب ما جاء في الذبح لغير الله.(١)

بسم الله، الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزِدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

نستأنف وإياكم معاشر الأحبة مدارسة كتاب التوحيد.

(١): يريد المصنف –رحمه الله تعالى– أن يسرد أدلةً يبين فيها حكم الذبح لغير الله عز وجل، ولا شك أن الذبح يعد عبادة من العبادات، فصرفها لله عز وجل يعد توحيدًا، وصرفها لغيره يعد إشراكًا بالله عز وجل، فلذلك صرف العبادة لله وحده لا شريك له هذا هو محض التوحيد، وصرفها لغيره سبحانه وتعالى هذا هو عين الشرك.

لذلك يخل كثير من الناس بهذا المفهوم، فرأينا في مجتمعات المسلمين من يذبح للجن، ومن يقرّب للشياطين بذرائع شتى، وما علم هذا المسكين أن الذبح عبادة لله عز وجل لا يجوز صرفها لغيره، فأراد المصنف –رحمه الله تعالى– أن يسرد أدلة يظهر للقارئ بعدها حكم الذبح.

والذبح يقسمه أهل العلم إلى قسمين: ذبح عبادة، وذبح عادة.

ذبح العبادة: هو التقرب إلى الله بإنهار الدم، وهذا لا يكون إلا في موضع خاص وهو في يوم الأضحية في عيد الأضحى، يتقرب المؤمن إلى الله عز وجل بإراقة الدم، لذلك قال أهل العلم:

لا يجوز التعبد لله عز وجل بإراقة الدم إلا في عيد الأضحى، أما ما عدا ذلك فإنه يتقرب إلى الله عز وجل بالتصدق باللحم أو ما شابه ذلك. إذن هذا هو ذبح العبادة.

– أحد الإخوة يسأل: والعقيقة؟

– الشيخ: كذلك العقيقة، العقيقة من صور ذبح العبادة.

إنهار الدم لا يشرع التقرب فيه إلى الله عز وجل إلا في الأضحية، أما ما عدا ذلك فلا حرج في أن يذبح الإنسان إكرامًا للضيف، أن يذبح الإنسان ليتصدق.. لكن هنا إكرام الضيف بالدم أو باللحم؟ باللحم.. التصدق بالدم أو باللحم؟ باللحم.. إطعام الأهل والنفقة على الأهل والأولاد يكون باللحم.. لكن أنت الآن لو تقربت إلى الله عز وجل بإنهار الدم تحقق المراد حتى وإن لم تنتفع باللحم، يعني حتى وإن أخرجت هذا اللحم كله صدقة.

– أخ: هنا الأضحية إراقة الدم، السبب هو التقرب إلى الله، بينما العقيقة لها سبب مثلًا..

– الشيخ: نعم هذه لها سبب وهو كذلك ورد النص فيه ((كل غلام مُرتَهَن بعقيقته، تُذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه ويسمى))[صحيح ابن ماجة]، فهنا لا بد أن يفهم، فيما عدا ذلك تجد أن التقرب إلى الله مثلًا باللحم مثلًا أن تتصدق باللحم أو أن تُكرم ضيفك باللحم وما شابه ذلك..

– أخ: والنذر؟

– الشيخ: كذلك النذر، أنت تنذر إلى الله سبحانه وتعالى، تتقرب إلى الله (لله عليّ إن شُفي مريضي أن أذبح ذبيحة) لماذا تذبحها؟ المشروعية فيها أصلًا إراقة الدم.

إذن الذبح يقسمه أهل العلم إلى قسمين، ذبح عبادة وذبح عادة..

ذبح العادة: تجري عليه الأحكام التكليفية الخمس: الواجب، والمستحب، والمباح، والمكروه والمحرم.

كيف تجري على ذبح العادة؟

– أخ: مثلًا من ذبح لضيف: مستحب. إن ذبح ليقال عنه أنه جواد فهذا مكروه. إن ذبح لغير الله فهذا حرام. إن ذبح ليأكل هو فهذا مباح.. وهكذا.

– الشيخ: نعم أحسنت.. إذا كان يطعم من تجب عليه النفقة فهذا واجب.. وهكذا..

ويشترط الفقهاء لحِلَ الذبيحة شروطًا:

الشرط الأول –وهو أهم الشروط–: أهلية المذكّي، أي أن يكون المذكي مسلمًا أو من أهل الكتاب، فيخرج من ذلك المشرك والمرتد، فإنهم لو ذبحوا وحققوا سائر الشروط فإن الذبيحة لا تحل، لأنهم أخلوا بأول الشروط وهو أهلية المذكي.

بينّا في أحد الدروس أقسام أهل الكتاب: المؤمنون الذين آمنوا وهؤلاء لا وجود لهم الآن، والذين ينتسبون إلى النصرانية أو اليهودية ولكنهم لا يعملون بالكتاب المحرف هؤلاء لا تحلّ ذبائحهم، حكمهم حكم المشركين، أما الذي تحل ذبيحته هو اليهودي أو النصراني الذي يؤمن بالكتاب الذي بين يديه حتى وإن كان محرفًا، هؤلاء هم الذين تثبت لهم أحكام أهل الكتاب.

الشرط الثاني: قطع الحلقوم والمريء وأحد الودجين.

الحلقوم هو مجرى الهواء. والمريء هو مجرى الطعام، وأحد الودجين: الودجان هما الشرايين أو العروق التي تكون على صفحتي العنق (تكون في الجانب)، فلو قطع كلا الودجين فقد جاء بزيادة على القدر وهذا أتم وأنقى للذبيحة.

الشرط الثالث: أن تكون الذكاة بآلة حادة فلا يقتل بمُثَقَّل ولا يرميه من شاهق أو ما شابه ذلك، فلو تحقق إزهاق الروح بهذه الصورة فإن الذبيحة لا تحل، إنما تحل إذا كان بآلة حادة يقطع بها الحلقوم والمريء وأحد الودجين على الصحيح. طبعًا ما دام أن الحيوان أهلي مقدور عليه فلا بد من الذكاة، أما

إذا أصبح وحشيًا أو هرب ولا سبيل لإمساكه إلا بإطلاق عيار ناري عليه جاز ذلك، ودليل ذلك أن بعيرًا من إبل الصدقة ندّ -أي هرب-، فرماه أحد الصحابة بسهم فحبسه.

فإذا هربت.. وهذا ممكن يحصل في عيد الأضحى.. يعني يكون هناك تمرد جماعي.. تجمع كبش أو مجموعة من الخراف ثم بعد ذلك يحصل هناك شغب، فقد يحصل هذا، ممكن أحدهم يكون أقرنًا فينطحك، والآخر يهرب، والكل يغطي على الآخر.. يحصل هذا، فهب أن كبشًا هرب وعجز صاحبه على إمساكه وأخذ يجري خلفه في الطرقات وهو يهرب من هنا ومن هنا، وقد يترتب على اللحاق به بالسيارة أو بطريقة أو بأخرى حوادث مرورية ووإلخ، فتسنى له أن يرميه بعيار ناري مثلًا أو بسلاح، فإذا رماه وأدركه حيًا ذكّاه، وإذا أدركه حيًا ولم يذكّه وكان عنده وقت للذكاة فبقي ينزف هذا الكبش حتى مات فإنه ميتة، لكن إذا رماه فأصابه فمات من حينه فهذا الكبش يحل أكله إن شاء الله.

أما ما عدا ذلك فلا يجوز، أنك تأتي عنده وتعطيه طلقتين في الرأس مثلًا.. إيش اغتيالات هي!! بعض الناس متأثر بصليل الصوارم :) لا.. فلا بد من الذكاة.

- أخ يسأل: ذكاة المرأة جائزة؟

- الشيخ: نعم تصح، وقد جاء [في الصحيح] أن جارية لكعب بن مالك كانت ترعى غنمًا بسلع، فأصيبت شاة منها، فخافت عليها فأدركتها فذبحتها بحجر، فسُئل النبي ﷺ فأمرهم بأكلها. أقرّها على ذلك. وهذا يدل على أن ذكاة المرأة جائز.

وليس هناك ما يدل على عدم حل الذبيحة إذا ذكتها امرأة، بل من شروط الذبيحة الإسلام. والذكورية ليست شرطًا، والذي يقول باشتراط الذكورية فعليه الدليل.. بل الدليل يدل على خلافه.

الشرط الرابع: أن يكون المذكّى من بهيمة الأنعام أو مما يحل في الذكاة، طبعًا أما في الأضحية فلا بد أن تكون من بهيمة الأنعام (الإبل والبقر والغنم)، أما حِلُّ الذكاة يجوز أن تذكي مثلًا غزال.. لكن في

الأضحية فلا يجزئ الغزال، وإنما فقط بهيمة الأنعام، أما لو جاء إنسان بثلاثة آلاف أرنب وقال سأضحي بها عني وعن أهل بيتي فهذه تجزئ صدقة ولكن لا تجزئ أضحية.

إذن هذه هي شروط حِلّ التذكية.

بقيت قضية التسمية، وهي محل خلاف بين أهل العلم، واشتراط وجوبها هو الصحيح من أقوال أهل العلم، وإن كان جماهير العلماء يرون أن التسمية واجبة عند الذكر؛ تسقط عند السهو والنسيان، ولكن الإشكال أن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾[الأنعام] ، فلو جاء الرجل وذكّى الذبيحة ذكاة كاملة وتكون صادرة ممن هو أهل للذكاة ولكنه لم يُسمِّ، فإذا تعمد ترك التسمية فهي لا تُجزِئ، أما إذا نسي التسمية فاختلف أهل العلم في ذلك، ولكن والذي يظهر -والله تعالى أعلى وأعلم- أنها لا تحل لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾، وهنا لم يذكر اسم الله على الذبيحة فهذا الذي يظهر -والله تعالى أعلى وأعلم بالصواب- والأقوى من حيث الدليل، وهذا هو الراجح حقيقةً، وهذا ما رجّحه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: أن الذبيحة إذا لم يذكر اسم الله عليها فإنها لا تحل، والدليل فيها قويّ حقيقةً، وكل من استدل على سقوطها حال النسيان أو السهو استدل بعمومات، ولكن نقول نعم هذه العمومات قد تكون مؤثرة ولكنها مخصوصة بهذه المسألة وهذه الصورة.. هي دلالتها عامة ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ هذه دلالتها في نفس المسألة، تخرج من عموم فخرجت من هذا العموم: ((إن الله تجاوزَ عن أمَّتِيَ الخطأَ والنِّسيانَ ومَا استكرِهوُا عليه)).[أخرجه ابن ماجة]

عندنا نص ثابت ثبوته قطعي ودلالته كذلك قطعية ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾، فلا يُعارض هذا النص الثابت المحكم بغيره مما يكون في طرق ثبوته مقال وكذلك لايكون فصلًا في المسألة. وإذا أردنا أن نوازن بين الأدلة في الشرع فإننا نظر إلى الأقوى والأثبت وما يكون دلالته على المسألة دلالة ظاهرة وبيّنة وقطعية.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلهِ رَبِّ الْعٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.[الأنعام](١) وقولِهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.(٢)

عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: (لعنَ الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثًا، لعن الله من غيَّرَ منار الأرض).(٣) رواه مسلم

= أخ يسأل: ما أدرانا أن القصّاب أو غيره ذكر اسم الله عند الذبح..؟

– الشيخ:هذه مسألة أخرى، لأنه لا يجب عليك أنت أن تسأل في مثل هذا، إذا كانت التذكية صادرة من مسلم وفي بلاد المسلمين فالأصل والمعهود دائمًا أنهم يذكرون اسم الله عليه.

(١): ﴿**إِنَّ صَلَاتِى**﴾: هي الصلاة معروفة.

﴿**وَنُسُكِى**﴾: النسك المراد به الذبيحة ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[البقرة]، هذه في فدية الحج، فتدل هذه الآية على أن عبادة الإنسان لا تُصرف إلا لله عز وجل.

﴿**ومَحْيَاىَ**﴾: أي أعمالي في الحياة وطاعاتي الصادرة مني حال حياتي.

﴿**ومَمَاتِى**﴾: أي مماتي على الإيمان، كلها ﴿لِلهِ رَبِّ الْعٰلَمِينَ﴾.

هذه الآية دليل على وجوب الإخلاص في العبادة لله، فإذا تقرر عندنا أن الذبح عبادة، فإنها لا تُقبل ولا يكون الإنسان موحدًا حتى يصرفها لله وحده لا شريك له، فأما الذبح لغير الله كالذبح للجن مثلًا، وقد يتعجب البعض ويقول من يذبح للجن؟ نعم هناك من يذبح للجن خوفًا ورهبةً واتقاء شرهم،

وهذا قد شاع وذاع في بعض المجتمعات، تجد أن رجلًا يسكن بيتًا جديدًا فقبل أن يلج في هذا البيت يذبح ذبيحة ثم يأخذ من دمها ويلطخ بها الجدران..

والغرض من هذه الذبيحة أنه يتقرب إلى الجان لأجل ألّا يضروه، وهذا للأسف الشديد هو عين الشرك، حيث أن الدم هنا أُريق تعظيمًا لغير الله، وأُريق كذلك في سؤال أمرٍ لا يقدر عليه إلا الله، وقد مر معنا أن النافع والضار هو الله وما عدا ذلك فطلب مثل هذه الأمور التي اختص الله سبحانه وتعالى بها أو اعتقاد أن هناك من المخلوقات من يستطيع على ذلك فهذا كفر بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إذن أراد المصنف -رحمه الله- بإيراده لهذه الآية أن يبين لك أيها السامع أن الذبح عبادة كما أن الصلاة عبادة، وكما أن الإنسان حينما يحيا في هذه الدنيا مُطيعًا لله عز وجل فإن طاعته لا تُقبل حتى تكون لله، وموت الإنسان على الإيمان لا يكون مقبولًا ولا يكون صحيحًا حتى يكون لله، وكذلك عبادة الذبح لا تصح ولا تُقبل حتى تكون لله وحده لا شريك له.

(٢): وقوله تعالى: ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾، أراد المصنف -رحمه الله- أن يبين أن الله كما أمر بالصلاة وأمر بإقامتها لله عز وجل فكذلك النحر والذبح، فإن العبد مأمور بالقيام به لله عز وجل، وما عدا ذلك فهو خارج عن الأمر الإلهي.

(٣): اللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

واللعن يقسمه أهل العلم إلى قسمين: لعن أكبر، ولعن أصغر.

أما اللعن الأكبر فهو الطرد عن رحمة الله، وأما اللعن الأصغر فهو الطرد عن كمال رحمة الله. والملعون لعنًا أكبرًا كافرٌ بالله عز وجل، والملعون لعنًا أصغرًا قد اقترف ذنبًا أو معصيةً ولكنها تستوجب اللعنة ولا تستوجب الخروج من الإسلام.

فهنا (**لعن الله من ذبح لغير الله**): لعنٌ أكبر، لأن الفعل الذي وقع فيه شرك بالله عز وجل.

(لعن الله من لعن والديه): لعن أصغر. ولعن الوالدين يقول أهل العلم يكون بصورتين: بالمباشرة، وبالتسبب.

اللعن بالمباشرة: كأن يأتي الرجل إلى أبيه فيلعنه مباشرة، أو يلعن أمه.

أما بالتسبب: أن يتخاصم مثلًا مع رجل فيلعن أبا الرجل فيرد عليه الخصم بمثل ما قال ويلعن والده.

وجاء في الحديث: ((ليس المؤمن بالطَّعَّانِ ولا اللعَّانِ ولا الفاحشِ ولا البَذيءِ))[أخرج الترمذي] ، واللعنة إذا صدرت من رجل رُفعت، فإما أن تكون في محل يستحق صاحبه اللعن فتُرفع، أو أنها تُغلق دونها أبواب السماوات فتعود على قائلها أي تعود عليه بالإثم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

بعض الناس ديدنه اللعن وديدنه الطعن، فاحش اللسان بذيء القول، فهذا لا شك أنه نذير شر للإنسان لا نذير خير، وعلى الإنسان أن يترفع عن هذه الألفاظ وألّا يجعل نفسه تألفها، لذلك نجد البعض دائمًا يلعن أبناءه ويلعن زوجته ويلعن قرابته بل حتى يلعن نفسه، يعني أصبح عنده هوس اللعان وجنون اللعان، يلعن سيارته يلعن دابته، وهذا كله ليس بديدن المؤمنين، لذلك النبي ﷺ لما سمع امرأة تلعن دابتها وكانوا في سفر، فقال النبي ﷺ: ((أنزلي ما عليها، فأنزلت ما عليها، فقال: أرسليها، لا تصحبنا ناقة ملعونة))[أخرجه أبو داوود بخلاف يسير]. فهذا يدل على عظم شأن اللعان الذي تساهل فيه كثير من الناس.

طبعًا لعن الوصف جائز ولا حرج فيه، كأن يقول لعن الله الكفار، لعن الله اليهود، لعن الله آكل الربا، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من ذبح لغير الله، هذه كلها أوصاف.

وأما لعن الأعيان فاختلفَ فيه أهل العلم، فلعن المعين وقع الخلاف فيه بين أهل العلم بين مانع ومجيز..

فالذين منعوا قالوا: اللعن هو الطرد والإبعاد، أما إذا كان مسلمًا فتقول أنه ملعون بلعنة الله له أو بلعنة النبي ﷺ له، مثلًا الواصلة والواشمة والنامصة، فكل هؤلاء أوصاف لعنهم النبي ﷺ، فتقول هنا أنه

ملعون بلعنة رسول الله ﷺ له أو ملعون بلعنة الله له، فالذي قال بالمنع قال أن اللعن هو الطرد والإبعاد، فما دام أن الملعون حيّ فهذا مظنة التوبة والعودة إلى الله، وهذا يتنافى مع معنى اللعن، أما من مات على الكفر فإنه يستحق اللعنة، لكن مثلًا لعن أوباما.. فالصحيح –والله تعالى أعلى وأعلم– أن لعن أعيان الكفار يجوز، وهم مستحقّون للعن والطرد والإبعاد..

ولا شك أن من يقول بأن اللعن الآن يتنافى مع حال الرجل إذا تاب، فإن الملعون مطرود، والتائب مُقرّب، فنحن نقول كذلك مرتكب الشرك مطرود ومحروم من رحمة الله، ولكنه إذا تاب؛ تاب الله عليه، فنقول اللعن كذلك هو دعاء بالطرد، وهذا الدعاء يقبل إذا تحققت فيه الشروط وانتفت الموانع، فإذا تحققت الشروط وقع اللعن، وإذا لم تتحقق لم يقع اللعن وهكذا .. فلا إشكال أن يقال أنه قد يلعن الإنسان وقد يتوب.

– أخ يسأل عن اللعن في الحديث: ((نساؤُهُم كاسِياتٌ عارياتٌ، على رُؤُوسِهِنَّ كأسْنِمَةِ البُخْتِ العِجافِ، الْعنَوهنُّ؛ فإنهُّنَّ مَلعوناتٌ..)). [أخرجه أحمد وابن حبان]

– الشيخ: نعم ولذلك قال أهل العلم أنك تقول بأنها ملعونة بلعن رسول الله لها، فعلى العموم لا شك أن اللعن دعاء وقبوله ووقوعه متوقف على قبول الله لذلك وثبوت الشروط في حق الملعون، وانتفاء الموانع في حقه كذلك.

– أخ يسأل: قول (لعنة الله على الشيطان)..؟

– الشيخ: طبعًا لا شك أن الشيطان ملعون بلعنة الله له ﴿لَّعَنَهُ اللهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[النساء] ، فلا شك أن اللعنة حلت عليه، ولكن أهل العلم قالوا أنه يقيدها بذلك (ملعون بلعنة الله أو ملعون بلعنة رسول الله) وهكذا..

– أخ: ورد أن الرسول ﷺ لعن سبعة من قريش بالاسم..؟

– الشيخ: نعم، قيل أن هذا نُسِخَ ﴿لَيْسَ لكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ قيل أن هذا كان في أول الأمر ثم نُسخ..

– أخ يسأل: حديث ((ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالِمًا ومُتعلِّمًا)).[الترمذي]؟

– الشيخ: نعم، لكن هنا كذلك ورد ((لا تسَبُوُّا الدَّهْرَ))[رواه مسلم].. الإنسان قد يلعن الدنيا لمصاب نزل به، أو مثلًا احترقت سيارته أو احترق بيته أو سُرق متاعه، ثم بعد ذلك أخذ يسب الساعة أو يسب الدهر، وهذا لا شك أنه هو عين ما ورد النهي في (لا تسَبُوُّا الدَّهْرَ).. وهكذا.

– أخ يسأل: طيب ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام]؟

– الشيخ: سبّ آلهة الكفار هو في أصله مشروع لا شك، لذلك كانت العرب تنفر من دعوة النبي ﷺ وكانت تقول سبّ آلهتنا وسفّه أحلامنا، فالأصل في ذلك المشروعية ولكن إذا اقترن به أمر غير مشروع فيُمنع سدًا للذريعة ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فكان سب آلهة الكفار مشروعًا، ولكن إذا كان المآل أن يُسب الله سبحانه وتعالى فتعظيمًا لجناب الله سبحانه وتعالى يتوقف الإنسان عن الإفصاح بذلك لأجل ألّا يستثير الكفار حتى يسبوا الله سبحانه وتعالى.

(لعن الله من آوى محدثًا): الإحداث هنا المراد به من ثبتت عليه عقوبة شرعية سواءً كانت من حقوق الله أو من حقوق الآدميين، فإذا آوى الإنسان من ثبت عليه حكم شرعي أو حق شرعي لله أو للآخرين فإنه مستحق للعن بفعله هذا، لأن الواجب أن من ثبتت عليه العقوبة الشرعية بعد القضاء عليه؛ إنفاذ الحكم عليه لا التستر عليه، لذلك كان الذي يؤوي مستحقًا للعن، إذن عرفنا معنى الإحداث أنه يكون من عموم المسلمين.

أما من آوى مرتدًا كافرًا: فهذا يدخل في صور الموالاة ولا حول ولا قوة إلا بالله، لأنك نصرته وتوليته وهذا يتنافى مع أصل الإيمان، والواجب عليك أن تتبرأ منه وأن تظهر عداوتك له لا أن تظهر خلاف ذلك.

– أخ يسأل: بعض الناس يقول أن هذا من مكارم الأخلاق؟

– الشيخ: أي أخلاق!! هذولا يغالهم دوّار النعيم :) .. عشان يعرف ما هي الأخلاق.. إذا رأى قرابته رأسه في دوار النعيم علموا عند ذلك حُسن الأخلاق.. حسن الأخلاق أن تذُبَّ عن أعراض المسلمين، هؤلاء هم من انتهك أعراض المسلمين، فأي خُلُقٍ يتحدث عنه البعض؟! هؤلاء الذين تجرّؤوا على أعراض الحرائر من المسلمات ودنّسوا الحرمات، واستباحوا الحِمى، وآذوا عباد الله وأزهقوا نفوسًا معصومة قُتلت بغير الحق، وبعد ذلك يقول لك مكارم الأخلاق!!.. دوّار النعيم نعيم للمؤمنين وجحيم للكافرين.

– أخ يسأل: الأحكام القضائية تحكم بالظاهر، ولكن لعلم الأم بأن ولدها لم يفعل هذه الفعلة آوته وأخفته.

– الشيخ: غالبًا الأم تدفعها العاطفة، لا يدفعها الحكم الشرعي، يعني كل الأمهات ترى أن ابنها على صواب وأنه لم يخطئ.. والله إذا كانت هذه الأم صاحبة عقيدة وصاحبة منهج تعرف الحق من الباطل، نقول ممكن.. لكن امرأة مسكينة أصلًا لا تعرف الكوع من الكرسوع، ثم بعد ذلك تخرج علينا إمامة أو قدوة في التوحيد وتعلمنا ما هو الحق وما هو الباطل وهي مسكينة ما تفقه في ذلك شيء.. إذا كانت المرأة لا تعرف معنى ذلك، ووُجد من يعرف معنى ذلك بضوابط الشرع فالواجب التسليم لشرع الله عز وجل.. الإسلام هو اللاستسلام لله..

ولذلك الصحابة ﭬ لم توقفهم العواطف حينما وُضعوا على المحك، فالتقى الأب بابنه، والتقى الابن بأبيه، والتقى القريب بقريبه، ولكنها كانت مفاصلة بين أهل الحق وأهل الباطل، فثبت أهل الايمان فانتصروا، وتزعزع أهل الكفر فزاغوا وانتكسوا.. فإذا كانت الأم صاحبة عقيدة وتعرف نعم.. ممكن نقول

ذلك، لكن للأسف الشديد أن البعض.. وقد تكون المرأة صاحبة عقيدة لكن تأخذها العاطفة وتغلبها العاطفة فتتغيّر، وليس هذا بمبرر أصلًا شرعي يدفعها إلى أن تتستر على من عُلِمَت ردته وعلم كفره، فهذا يعد تولٍ للمرتدين إذا تحققت هذه الصورة، أما ما نحن بصدد التحدث عنه هم أناس من المسلمين ثبتت عليهم أحكام شرعية إما بحق الله أو بحق الناس، ثم بعد ذلك تستّر عليهم البعض لأجل أن يفروا من العقوبة المرصدة لهم شرعًا..

(لعن الله من غَيَّرَ منار الأرض): منار الأرض: أي مراسيم الأرض، حدود الأرض، الأملاك الخاصة.

كأن يأتي رجل إلى أرض عليها مراسيم، عليها علامات، يحددون الأراضي والأملاك في الغالب، هذا ملك لفلان.. وهذا ملك لفلان.. هنا تنتهي حد الأرض وهناك تنتهي القطعة الفلانية، فلو جاء إنسان يتلاعب فيُقدّم المراسيم أو يؤخرها فهذا لا شك أنه مستحق للعن، وهذا تعدٍ على أملاك الآخرين، على مُلك الغير.. ولا شك أن فاعل ذلك يستحق بموجبه اللعن والطرد ولا حول ولا قوة إلا بالله، لأنه قد يتصرف تصرفًا بسيطًا ثم بعد ذلك تعلق الفتن، وهذا أمر مُلاحظ الوجود فجلّ الخصومات الآن وجلّ المشاكل التي تكون في القضاء عند القضاة نجد أنها حول حدود الأراضي، فبعضهم يقول الحد ينتهي هنا، والآخر يقول لا هناك وأنت اقتطعت من أرضي بغير حق، والآخر يقول لا.. أنت ظلمتني.. فلا شك أن هذا يُفضي إلى التنازع، بل في بعض الأحيان قد يصل الأمر إلى أن تُهدر الدماء ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فلذلك عَظَّمَ الشرع من هذا الأمر وبيّن أن من يسير في هذا الطريق هو مستحق للعن والطرد من رحمة الله عز وجل لما ترتب على فعله من المفاسد العظيمة التي قد تصل في بعض الأحيان إلى إراقة وإزهاق الدماء.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وعن طارق بن شهاب: أن رسول الله ﷺ قال: دخل الجنة رجل في ذُباب، ودخل النار رجل في ذُباب. قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: مرَّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرّب له شيئًا، فقالوا لأحدهما: قرّب، قال: ليس عندي شيء أقرّب. قالوا له: قرّب ولو ذبابًا، فقرّب ذبابًا، فخلّوا سبيله؛ فدخل النار. وقالوا للآخر: قرّب، فقال: ما كنت لأقرّب لأحد شيئًا دون الله عز وجل، فضربوا عنقه؛ فدخل الجنة.[1] رواه أحمد

---

(١): النبي ﷺ أراد أن يروي للصحابة -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- خبرًا، فأراد أن يشوّقهم، وهذا أسلوب من أساليب التشويق.. حينما تريد أن تذكر قصة فإنك تعنون لها بعنوان، فهذا العنوان لا بد أن يحكي مضمون القصة، وكذلك فيه تشويق وفيه جلب للانتباه ولفت للأنظار، فحينما أقول لك دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب! شيء عجيب!! مباشرة ستقول وكيف حصل ذلك؟! انظر.. الآن الصحابة ماذا قالوا مباشرة: وكيف ذلك يا رسول الله؟!

أنا مثلًا أقول لك ربح رجل مليون وخسر رجل مليون، أنت تقول: كيف!! ثم أسرد لك القصة.

قال: (**مرَّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرّب له شيئًا**): النبي ﷺ بيّن صورة المسألة، أن هناك قوم لهم صنم يعظمونه وآلهة يعظمونها، هذه الآلهة من صور تعظيمهم لها أنهم لا يسمحون لأحد أن يمر من عندها حتى يقرّب لها قربانًا، أيًا كان هذا القربان، حتى وإن كان ذُبابًا.

وهنا آية عظيمة: أن التقريب عبادة لا يجوز صرفها إلا إلى الله، فلما قرّب هؤلاء -حتى وإن كان الشيء المقرّب ممتهنًا لا قيمة له-، ولكن التقرّيب لما صُرِفَ لغير الله عز وجل؛ عُدَّ ذلك كفرًا وخروجًا من الإسلام، حتى وإن كان الشيء المقرّب محتقرًا ولا قيمة له، لكن لا يعني ذلك أن يقول أنه يُشرع أن يقرّب الإنسان لله ذبابة، لا، نحن نتحدث عن التقريب، فالتقريب والقربان الذي يقرّبه الإنسان ويتقرّب به الإنسان لا ينبغي أن يُصرف لغير الله عز وجل.

هنا.. لما صُرِفَ لغير الله عز وجل ننظر ماذا ذكر النبي ﷺ في حق من فعل ذلك:

(**قال**: **ليس عندي شيء أقرّب**): يعني هو ليس لديه مانع أن يقرّب، لكن الذي منعه أنه ليس لديه شيء.

(قالوا له: قرّب ولو ذبابًا، فقرّب ذبابًا، فخلّوا سبيله؛ فدخل النار. وقالوا للآخر: قرّب، فقال: ما كنت لأقرّب لأحد شيئًا دون الله عز وجل، فضربوا عنقه؛ فدخل الجنة):

لماذا قال النبي ﷺ دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب، مع أنه هنا قال: ما كنت لأقرب..؟ نحن نفهم أن الرجلين اشتركا في صفة أنهما لا يملكان شيئًا، أما الأول، فكان لا يملك شيئًا، فقالوا له قرّب ولو ذباب، ولو أنه يملك؛ لقرّب أعظم من ذلك، وأما الآخر فقال ما كنت لأقرّب لا ذباب ولا غير ذباب حتى لو ملكت مال قارون لن أقرّب إلا لله عز وجل.

(وقالوا للآخر: قرّب، فقال: ما كنت لأقرّب لأحد شيئًا دون الله عز وجل، فضربوا عنقه؛ فدخل الجنة): لا شك أن هذا الخبر يدل على عِظَم شأن التوحيد وأن أعظم منزلة أن يموت الإنسان من أجل توحيده، انظروا إلى دناءة الشرك.. باع توحيده بذباب، والآخر اشترى الجنة وما فيها بصبره وثباته على توحيده حتى أن الله سبحانه وتعالى كرامةً للموحد وازدراءً لهذا المشرك أبقى وخلّد ذِكرهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ليكون الموحّد قدوةً للموحدين، وليكون هذا المشرك مذمةً وعارًا وشنارًا على الكفرة والمشركين.

وهنا تحدث أهل العلم: قالوا أن الصورة صورة إكراه، ومع ذلك دخل الذي قرّب الذباب إلى النار، فأجاب أهل العلم على ذلك بعدة أجوبة:

- الأول: أن هذه القصة كانت في شريعة من قبلنا، فلم يثبت في شريعة من قبلنا أن الإكراه مانع من موانع التكفير، وإنما كان الواجب عليهم أن يأخذوا بالعزيمة وليس هناك رخصة.

- والجواب الثاني: قالوا أن الصورة صورة إكراه، ولكن من شروط الإكراه أن يكون المكره ممتنعًا عن الوقوع فيما أُكره عليه قبل الإكراه، فقالوا أن هذا أصلًا ليس لديه مانع حتى لو لم يوجد الإكراه لقرّب، ولم يكن هو ممتنعًا من التقريب لغير الله حتى قبل الإكراه. أو أنه أُكرِه وقلبه مطمئنٌ بالكفر، ومن شروط صحة الإعذار بالإكراه أن يكون القلب مطمئنًا بالإيمان. فهذا مجمل ما قال به أهل العلم في هذه القضية.

إذن فخلاصة الباب: أن الذبح عبادة لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل، صرفُها لله توحيد، وصرفُها لغيره شرك بالله العزيز، فإذا فقِه الإنسان هذه المسألة استطاع أن يتعبد إلى الله سبحانه وتعالى بهذه العبادة فلا يصرفها إلا لله عز وجل، والحذر الحذر من أن ينجرّ البعض ويستدرجه الشيطان إلى الوقوع في شراك الشرك، فقد يُبتلى المرء ببلاء أو يُصاب بمصيبة فيأتيه بعض ضِعاف النفوس فيدلوه على ساحر أو ما شابه ذلك، ومن عادة السحرة أن يطلبوا من الشخص الذي يأتيهم أن يقرّب إلى الشيطان قربانًا، فاعلم عند ذلك بأنك لو قرّبت للشياطين ولو ذُبابًا فقد أشركت بالله عز وجل.. فالحذر الحذر، ولنعلم أن التوحيد بركة على صاحبه في الدنيا والآخرة وأن التوحيد نجاة وأن الشرك هلاك، فلذلك يحذر الإنسان.

الدرس العاشر

(أحكام الأضحية)

أقول مستعينًا بالله:

حكم الأضحية: اختلف أهل العلم في حكمها، فذهب جماهير العلماء إلى أنها سنة مؤكدة، وخالف في ذلك أبو حنيفة وأحمد في رواية، واستدل القائلون بالوجوب بعموم قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[الكوثر]، وهنا سياق الآية يدل على الأمر، والأمر يقتضي الوجوب، وكذلك استدلوا بخبر آخر ولكنه موقوفٌ على أبي هريرة، وفيه: ((من وجد سَعَةً فلم يُضحِ فلا يَقربنَّ مصلانا هذا)).[أخرجه ابن ماجة]

إذن قال أبو حنيفة وأحمد في رواية أن الأضحية واجبة، واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، واستدلوا بما روي موقفًا على أبي هريرة: ((من وجد سَعَةً فلم يُضحِ فلا يقربنَّ مصلانا هذا)).

وقال جماهير العلماء بأنها سنة مؤكدة، وقال بذلك مالك والشافعي وأحمد في رواية، واستدلوا لذلك ما ثبت عنه ﷺ من أنه قال: ((إذا دخلت العشر وأراد أحدكم أن يضحي..))[أخرجه مسلم]، فهنا علق الأمر بالإرادة، فعلمنا حينئذٍ أن الأضحية ليست بواجبة.

ثم بعد ذلك هذا الخبر قرينةٌ تَصرِف الأمر في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ من الوجوب إلى الاستحباب وهذا الذي يظهر -والله تعالى أعلى وأعلم بالصواب-، خصوصًا أن أبا بكر وعمر كانا في بعض الأعوام لا يضحيان لأجل ألّا يظن الناس وجوب الأضحية.

ولكن لا شك أن من كان عنده قدرة مالية على الأضحية فإنها سنة في حقه، ويُكره في حقه أن يتقاعس عنها، خصوصًا أن من أعظم القربات التي يتقرب بها العبد إلى الله سبحانه وتعالى في يوم النحر هو إراقة الدم، لذلك سُمي هذا اليوم بيوم النحر تعظيمًا لعبادة النحر فيه، وكذلك يسمى بعيد الأضحى لأن الإنسان يقدم هذه الأضحية قربانًا إلى الله سبحانه وتعالى.

وأفضل بهيمة الأنعام على الصحيح من أقوال أهل العلم: هي الإبل ثم البقر ثم الغنم، دليل ذلك: قول النبي ﷺ: ((مَنِ اغْتسَلَ يوَمَ الجُمُعَةِ غُسْلَ الجَنَابَةِ ثم رَاحَ، فكَأَنَّمَا قرَّبَ بَدَنَةً، ومَن رَاحَ في السَّاعَةِ الثَّانِيةِ، فَكَأَنَّمَا قرَّبَ بقَرَةً، ومَن رَاحَ في السَّاعَةِ الثَّالِثةِ، فكَأَنَّمَا قرَّبَ كَبْشًا أقْرَنَ..))[أخرجه البخاري]. فهذا يدل على أن الإبل أفضل من البقر وأن البقر أفضل من الغنم.

لكن أهل العلم قالوا أن الإنسان إذا أراد أن يضحي عن نفسه وعن أهل بيته، فالأفضل له أن يضحي بالكبش، أفضل من أن يكون شريكًا في بدنة، ولكن لو ضحى ببدنة لوحده وعن أهل بيته فهي أفضل بكثير لأنها تجزئ عن سبعة، وكذلك البقرة تجزئ سبعة.

هذه المسألة سألني أحد الإخوة قال: هل يجوز الاشتراك في الأضحية الواحدة؟ يعني مثلًا عندنا شاة قيمتها مثلًا عشرين ألف ليرة، هل يجوز الاشتراك في أضحية واحدة.. وكان عندنا خمسة إخوة كل واحد دفع أربعة آلاف، فأيهما أعظم أن يشتركوا في شاة أو يشتركوا في ناقة أو في بقرة؟

– أخ: بداية يجوز لأهل البيت كلهم أن يشتركوا في شاة واحدة، ولكن الأفضل لو بدنة لأن البدنة أغلى..

– الشيخ: نعم أحسنت.

ولا شك دائمًا في أي جنس من أجناس بهيمة الأنعام، الأعظم أجرًا أنفسها عند أهلها وأكثرها قيمة.

لو اشترك سبعة أشخاص في شاة واحدة كل واحد منهم يقول أريدها أن تجزئ عني وعن أهل بيتي فإنها لا تجزئ.. يشتركون في الثواب لكن لا تجزئ.. لكن لو اشتركوا في بقرة وكان عددهم سبعة فنعم أجزأت عن سبع بيوت، لكن أن يشتركوا في شاة واحدة فإنهم يُجزون لكن لا تجزئ عن أحدهم.

وعلى العموم إذا أُطلِقَ (البيت) فتكون عن صاحب البيت وأهله، والنبي ﷺ ضحى عنه وعن أهل بيته وكذلك ضحى عن فقراء أمته.

– أخ: شيخ ضحّى النبي ﷺ بكبشين أملحين أقرنين أحدهما عنه وعن أهل بيته، والثاني عمن وحد الله من أمته.. دل على أنه يجوز أن يكون الكبش عن أكثر من شخص..

– الشيخ: إي نعم في الثواب، لكن ليس في الإجزاء.

– أخ: في حديث عند الترمذي: (أُمرت بالنحر وهو سنة لكم)..

– الشيخ: هو على العموم نحن قررنا أن الصحيح من أقوال أهل العلم أنها سنة مؤكدة، والقول بالوجوب فيه ما يدل من دلالة الشرع على صرف ما جاء الأمر فيه في عموم قول الله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[الكوثر] أنه اقترن به قرينة تصرفه من الوجوب إلى الاستحباب.

وورد عن النبي ﷺ أنه ذبح كذلك عن بعض نسائه لأنهن كُنَّ في الحج، فضحى عن نسائه.

كذلك من المسائل والأحكام المتعلقة بالأضحية:

قضية التعيين: أنه إذا عيّن الأضحية لزمت، ولا يجوز بيعها ولا يُشرع هبتها، لأنها انتقلت من ملكه إلى ملك الله سبحانه وتعالى والمال كله ملك لله، لكنها بالتعيين خرجت عن ملكه.

لكن استثنى العلماء بعض الاستثناءات:

أن يستبدلها بخير منها، مثلًا اشترى أضحية وعيّنها، وإذ بجاره جاء ما شاء الله بأضاحي سِمَان أعظم حجمًا من هذه وأنفس عند أهلها وأكثر قيمة، فقال هل تبيعني من هذه؟ قال نعم، فاشترى منه وعيّن تلك أضحية، وباع تلك أو أهداها أو ما شابه ذلك، جاز، هذه حالة استثناها أهل العلم في قضية التعيين.

كذلك إذا تعيّنت الأضحية ثم أُصيبت، يعني مثلًا يسألني واحد يقول في شاة أصابتها شظية.. فقلت الله أكبر أصبحت حتى الشاة تصاب.. الله أكبر.. فممكن يعني –لا قدر الله– ينفجر غاز أو ما

شابه ذلك أو تأتي شظية في الشاة ثم بعد ذلك تصبح عرجاء -هذا وارد- فإذا وقعت الإصابة عليها بعد التعيين فإنها تجزئ عنه حتى وإن أصيبت..

وإذا ماتت وكان سبب الموت بغير تفريط فلا ضمان، فلا ضمان من ناحية الوجوب، لأن الإنسان ما تطيب نفسه أن يمر عليه العيد ولا يقرب بين يدي الله عز وجل في هذه الأيام بقربان، من حيث الوجوب نقول لا ما يجب، لكن يستحب في حقه إذا ماتت من غير تفريط أن يأتي بشاة أخرى أو بكبش آخر يُستحب له ويُندب له أن يأتي بكبش آخر، لأن إيقاع عبادة النحر والتقرب إلى الله بإراقة الدم في هذا اليوم أمر عظيم وفيه أجر جزيل.

أما من أصيبت قبل التعيين فلا تجزئ.. إذا مثلًا كان هناك شاة ولم تُعيّن بعد وأصيبت ما تجزئ، لأن النبي ﷺ -كما سيأتي معنا- ذكر أوصافًا أربعة أنها لا تجزئ في الأضحية: العوراء البيّن عورها، والمريضة البيّن مرضها، والعرجاء البيّن ضلعها والعجفاء -أي الهزيلة- التي لا تنقي.. أو الكسيرة كما جاء في بعض الروايات.

- أخ: بعد التعيين تصبح واجبة؟

- الشيخ: نعم تجب عليه خلاص.

- أخ: يُقال فيها ما يقال في النذر في التعيين إن استبدلها بخير منها..؟

- الشيخ: نعم نعم، لأنه أراد أن يقرب ما هو أفضل فلذلك جاز، لكن إذا أراد أن يستبدلها بما دونها لا يجوز.

هنا مسألة أخرى كذلك:

إذا تلفت الأضحية بعد التعيين: فالتلف هنا لا يخلو من حالين: أن يكون بتفريط، أو بغير تفريط.

إذا كان لتفريط فعلى مُعيِّن الأضحية الضمان، يذهب ويشتري بدلًا منها.. فمثلًا رجل ربط الكبش في الشارع في الليل، فلما أصبح وجد الكبش قد دهسته سيارة.. مفرط فعليه الضمان.

رجل ربطها داخل البيت، ووضع عندها أكل وماء وهيّأ لها أسباب العيش وما قصّر، ومدلعها وحاط لها فراش وكنبة.. ما شاء الله يعني قمة في الرفاهية، خمس نجوم لاستقبال السكين.. فجاءتها قذيفة أو ماتت حتف أنفها بغير سبب.. فهنا ليس عليه ضمان.

كذلك من المسائل التي يذكرها أهل العلم في قضية الأضحية، أنه يشرع تسمينها، وأن ذلك داخل في عموم قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[الحج]، فكان الصحابة يستسمنون الأضاحي.. ومعناه أنك تشتريها قبل وقتها وتهتم برعايتها وتعليفها وما شابه ذلك، حتى يكبر حجمها ويكثر شحمها ولحمها.

كذلك من المسائل قضية الذبح والنحر:

فإن بهيمة الأنعام إما أن تكون مذبوحة أو منحورة، والأصل في الإبل النحر، وبيّن الفقهاء صفة النحر وهو أن يطعنها في الوهدة وهي ملتقى الرقبة بالبدن، أن يطعنها طعنة واحدة، طبعًا تنحر الإبل قائمة معقولة اليد اليسرى، ولو ما عقل اليسرى عقل اليمنى جاز وخالف الأولى والسنة، فتُنحر قائمة.

والبقر والغنم تُذبح، والذبح كما مر معنا صفته هو إمرار السكين أو الآلة الحادة حتى يُبين المريء والحلقوم والودجين هذا على التمام والكمال، وبعض أهل العلم قال لو قطع الودجين دون الحلقوم والمريء فأنهر الدم أجزأ ذلك، لعموم قول النبي ﷺ: ((ما أنهرَ الدَّمَ ، وذُكِرَ اسمُ اللهِ علَيهِ فكُلْ)).[البخاري]

وقال أهل العلم: ويجوز ذبح المنحور، ونحر المذبوح، لكن شريطة أن يتحقق إنهار الدم، لكن السنة نحر الإبل وذبح البقر والغنم، ولو نحر البقر والغنم وذبح الإبل جاز وأجزأ ذلك..

لأن سبحان الله الّي ما ألف ذبح البقر يتعجب خصوصًا إذا كان حجمها كبير أو جاموس.. يعني شي عجيب سبحان الله.. لكن ما شاء الله الكبش والشاة شي مألوف صغير هكذا تستطيع، لكن سبحان الله لله آيات في مخلوقاته.

ويشرع للإنسان إذا ذبح الأضحية أن يقسمها إلى أثلاث، يأكل ثلث ويُهدي ثلث ويتصدّق بثلث..

قال أهل العلم أنه لا حرج إن أكلها كلها أو أهداها كلها أو تصدّق بها كلها، إلا أن أهل العلم قالوا أنه إذا أكلها كلها أو أهداها كلها، لا بد أن يُخرج منها ولو قدر يسير يَصْدُق عليه أنه تصدّق، لأن النبي ﷺ قال: ((كُل وتصدّق))، ولكن أجاب أهل العلم على أن الأمر هنا للاستحباب.

– أخ: هناك أسباب أيضًا ((كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث فأمسكوا ما بدا لكم)) [رواه مسلم]، ولحديث عائشة مرفوعا ((إنما نهيتكم للدافة التي دفت فكلوا وتزودوا وتصدقوا وادخروا)).. يعني لوجود سبب.. الدافة كانوا وافدين على المدينة، في المصطلح المعاصر الآن اللاجئين أو أصحاب الحاجة..

– الشيخ: نعم، أولًا هذا الحكم نُسخ، وكان هذا الأمر معلقًا بسبب وهو أنه مرت بهم فاقة وحاجة، فكان الادخار قد يزداد به الضرر وكذلك يقل به النفع، فحث النبي ﷺ على إخراج اللحم بين صدقة وهدية أو أكله، فإنه إذا أكله سيدعو الجار والقريب وهكذا.. فيعم النفع.

هناك واجبات في الذبح وهناك سنن:

ومن الواجبات –كما مر معنا–:

التسمية. وهناك موقف طريف ذكره بعض أهل العلم، قالوا أن هناك معلم أخذ يعلم الناس أحكام الأضحية، فقال لهم تمسكون الأضحية، ثم تقولون (بسم الله وجوبًا، والله أكبر استحبابًا) هو يبين لهم

الحكم، ففهم بعضهم أن يمسكوا الأضحية ويقولوا –حرفيًا– بسم الله وجوبًا والله أكبر استحبابًا، ثم يقطعون..!

فهو قد أخطأ، المفروض أن يقول: نقول بسم الله والله أكبر، فأما التسمية فواجبة، وأما التكبير فمستحب.. فهؤلاء تلقوا المعلومة كما هي، وقد أحسن من انتهى إلى ما سمع.. فقالوا بسم الله وجوبًا والله أكبر استحبابًا فنحروا.. فسبحان الله قد يطرأ هذا الخطأ في بعض الأحيان.

إذن فالتسمية على الأضحية واجبة ومر معنا الإشارة إلى خلاف أهل العلم في ذلك، فرأى جماهير العلماء أنها واجبة عند الذكر تسقط عند النسيان، ورأى بعض الحنفية وكذلك الشافعية سقوط وجوب التسمية إن نسي، حتى وإن تعمد قالها بعض الأحناف، ولا شك أن هذا قول مرجوح، والله تعالى أعلى وأعلم بالصواب.

وهناك من يورد دليلًا أن النبي ﷺ حينما سأله بعض الصحابة أن هناك لحوم تأتيهم من قِبل أناس حدثاء عهد بكفر، فهؤلاء مظنة أن ينسوا التسمية، فماذا قال النبي ﷺ؟ قال: ((سمّوا وكلوا))[جاء عند البخاري بهذا المعنى]..

ففرق أهل العلم بين التسمية على الأكل وبين التسمية على الذبح، بينهما فرق ولا شك أن اللحم إذا جاء من شخص أهل للتذكية فالأصل أنه سمى والأصل أن الذمة بريئة في مثل ذلك، إلا أن الصحيح من أقوال أهل العلم أن قول الله تعالى فصلٌ في هذه المسألة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾[الأنعام].

هذا إيراد قوي مال إليه شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تعالى–، وبيّن أن التسمية واجبة ولا تسقط حتى عند النسيان.

لماذا قال أنها لا تسقط حتى عند النسيان؟

لنأتي الآن لبعض الشروط: الوضوء في الصلاة شرط، ولو صلى الإنسان بدون طهور ناسيًا فحكم صلاته باطلة، أي أنها لا تجزئ، والتسمية في الذبح هي شرط لصحة التذكية فلا تسقط حتى عند

النسيان.. هنا قسنا الشرط على الشرط ما قسنا الوضوء على التذكية، فكما أن هنا تعاملنا مع الشرط بهذا الحكم على أنه شرط فكذلك نتعامل مع الشرط هنا بهذا الحكم على أنه شرط..

- أخ: فماذا يفعل إن نسي التسمية؟

- الشيخ: بس راحت عليه..

ومن السنن كذلك: أن يضعها على جنبها الأيسر ويوجهها إلى القبلة، ولا حرج أن يضعها على الجنب الأيمن إذا كان أيسرًا (يعني يذبح بيده اليسرى) ولكن الأفضل والأولى والأكمل أن يضعها على جنبها الأيسر ثم يضع رجله على صفحة عنقها كما فعل النبي ﷺ، لأن هذا أسهل في التذكية.

وكذلك من السنن: أن يُحد شفرته لعموم قول النبي ﷺ: ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته)).[صحيح الترمذي]

من السنن كذلك: أن لا يُري الذبيحة السكين، ووردت في ذلك أخبار بعضها لا يخلو من مقال، ولا شك أن هذا داخل في الإحسان، لأنها إذا رأت السكين خافت وفزعت وثارت، ولا شك أن الإحسان الوارد في هذا الخبر يدخل فيه كذلك عدم إظهار السكين للذبيحة قبل ذبحها.

كذلك من المسائل قول: (اللهم هذا منك ولك)، ذكرها أهل العلم، ولو نسيه الإنسان وما قاله فلا حرج في مثل ذلك، لأن أهل العلم قالوا أن هناك موضعين يشرع فيهما الجهر في النية: حينما يهل الإنسان بالنسك في الحج، وكذلك حينما ينحر أضحيته.

فيقول اللهم هذا منك ولك. ولا شك أنه يجب على الإنسان أن يخلص العبادة فيها لله عز وجل.

كذلك من المسائل العيوب:

النبي ﷺ بين عيوبًا أربعة مؤثرة في إجزاء الأضحية، فقال: ((أربعٌ لا تجوزُ في الأضاحي فقالَ العوراءُ بيّنٌ عورُها والمريضةُ بيّنٌ مرضُها والعرجاءُ بيّنٌ ظلعهُا والكسيرُ التَّي لا تنَقى)).[أخرجه أبو داوود]

فبين ﷺ العوراء البيّن عورها، يعني لأنها قد تكون عوراء بين عورها وقد تكون عوراء العور فيها غير بين، فلو جاء الإنسان بأضحية فيها عور ولكنه غير بينّ فإنها تجزئ، لا شك أن أجرها أقل نحن بينّا أن أجر الأضحية يعظم إذا أتى بأنفس الأضاحي وأغلاها قيمة.

إذن المراد هنا العور البيّن فلو كان هناك عور يسير فإنه لا يخل بالإجزاء.

وقل مثل ذلك في المرض، فقد يكون هناك مرض يسير مثلًا نزل المطر ثم تعرضت للهواء البارد فأصيبت بالزكام أو بالرشح فأصبحت طوال الليل تعطس وهي بحاجة إلى طبيب وإلى مضاد حيوي وهكذا.. لذلك لا بد من التفقه في مثل هذه الأحكام.

كذلك بيّن النبي ﷺ أن المرض المؤثر في الإجزاء في الأضحية هو المرض البيّن، فقد تكون الأضحية مصابة بمرض ولكنه غير بيّن أو غير مؤثر.. مثل هذه لفحة برد فأصيبت بالزكام أو ما شابه ذلك..

قطع جزء من الأذن أو جزء القرن فهذا لا يؤثر في الإجزاء، ولكنه ينقص من الأجر، فكلما كانت الأضحية أكمل في كل الوجوه كلما كان الأجر فيها أعظم.

وكذلك يوجد بعض الأضاحي لا يوجد لها قرن في أصل الخلقة فهذه كذلك تجزئ.

كذلك تحدث أيضًا أهل العلم عن قضية الأسنان (أي من سقطت أسنانها)، اختلفوا في ذلك هل تجزئ أو لا تجزئ فمال شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أنها تجزئ، ولكن إذا كان سقوط الأسنان من أصله يؤثر على أكلها ويضعف من بدنها فلا شك أن هذا مؤثر، أما إذا كان لا يؤثر وما شاء الله تأكل وترعى وتسمن وما شابه ذلك.. فهذا لا يؤثر على الصحيح من أقوال أهل العلم.

– أخ: يا شيخ، الوسم بعض الناس يسمون بقطع الأذن أو شيء من الأذن، فهذا يؤثل ولّا ما يؤثر..؟

– الشيخ: لا والله والله الإنسان يحاول أن يعتاض أو يتخذ بدائل عن مثل هذا.. مثلًا بعض الناس قد يحتاج إلى وضع علامة على ماله وعلى حلاله، فإذا استطاع بدون القطع وما شابه ذلك فهذا هو المتعين. وهذا على العموم من ناحية الإجزاء تُجزئ ولكنها تُنقص من الأجر. لذلك كلما كانت الأضحية كاملة وتامة كان ذلك أعظم أجرًا عند الله.

– أخ: شيخ يدفع كفارة..؟

– الشيخ: لا لا، إذا كان هذا هو الموجود فقط واتخذ الإنسان الأسباب فكانت كل الأضاحي كذلك فإن شاء الله هذا يؤجر عليه الإنسان بإذن الله.

– أخ: قلتم إذا نسي أن يسمي حال التذكية ثم انتقلتم..

– الشيخ: طبعًا إذا نسي حال تذكية لا تجزئ الذبيحة، يكون حكمها حكم الميتة هذا على الصحيح من أقوال أهل العلم، لا تؤكل ولا توزع تُرمى للكلاب..

– الأخ: علمًا بأنه نسيان وليس تعمدًا..

– الشيخ: نعم علمًا بأنه نسيان، وهذا ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية..

لكن الآن لو علمنا هذا الحكم واشتراها هو بثلاثين ألف، من الليل وهو يقول بسم الله بسم الله بسم الله ههههه.. خلاص ما ينسى..

الآن بعض الناس يقول كيف؟!! ستذهب الأضحية ويذهب المال!!

طيب نحن قلنا يسمي وتنتهي القضية.. أنتم جعلتم كل الناس ينسون التسمية، مع أنه إذا علم أنه إذا نسي التسمية لن تُقبل الأضحية ولن يحل اللحم والله ليُسمي من قبل ما يشتريها، حتى سيكتب على الأوراق التي سيدفعها بسم الله بسم الله.. سيصاب بهوس.. خلاص وبعد ذلك لا ينسى..

– أخ: شيخ درست على المذهب الشافعي قال إذا عيّن الاضحية أصبح حكمها حكم المنذور، فلا يصح أن يأكل منها لا هو ولا من يعرف.. فماذا تقولون؟

– الشيخ: لا هذا خلاف ما ورد عن النبي ﷺ، النبي ﷺ قال: ((كُل وتصدَّق))، وكذلك قرر جماهير أهل العلم أنه يشرع له أن يأكل منها وأن يُهدي منها وأن يتصدق منها، فهذا من الأمور المتقررة.

من نذر أن يذبح لله، وكذلك الفداء في الحج، وكذلك الكفارات وما شابه ذلك هذه لا يؤكل منها.. ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾[المائدة] مثلًا في كفارة الأذى أو ما شابه ذلك في الحج فإنه يكون للفقراء فلا يطعم منه شيئًا.

– أخ: شيخ، يجوز إشراك النية مع الأضحية؟ يريد أن يجعلها أضحية وعقيقة..

– الشيخ: والله الذي يظهر والله تعالى أعلى وأعلم أنه لا يشرع، فالأضحية حُدت بوقت ومناسبة، والعقيقة حُدت بوقت ومناسبة، فإذا قال كيف أجمع بين أضحية وهذا وتكاليف المال..؟ نقول شق عليك، فلا يجب عليك ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة]، وإن شاء الله إذا كان الإنسان ينوي أنه لو كان عنده قدرة مالية لضحى، فإنه يؤجر إن شاء الله على نيته.

– أخ: شيخ، مسألة أخرى، إذا كان هناك رجل يريد أن يعق لولده (عقيقة) وجاءه أضياف فذبح هذه الذبيحة وأطعمها لضيوفه بنية إكرام الضيوف، وهو ينويها عقيقة، فتجزئ عقيقة؟

– الشيخ: نعم، الذبح هنا عقيقة، لكن اللحم يجوز له أن يتصدق به، ويؤجر على أنه صدقة، أن يطعم به عياله ويكون هذا من إطعام من تجب عليه نفقته، أو أكرم به ضيفه يكون إكرام وعملًا يؤجر عليه وهكذا..

– أخ: من وصّى على أضحية يا شيخ؟

– الشيخ: نعم، من أوصى على أضحية هذه قضية يذكرها كثير من الناس، وهي أن كثيرًا من الناس دائمًا يعتقد أن الأضحية هي عن الأموات، أنا لا تُشرع إلا عن الأموات، هذا لا شك أنه مفهوم خاطئ، بل إن الأحياء هم أولى بأن يتقربوا إلى الله عز وجل بالأضحية، ولكن لو أوصى الميت ورثته بأن يضحوا عنه لله عز وجل في كل عام أو في كل سنة أو في سنة أو في سنتين أو ما شابه ذلك، نعم تُنفذ هذه الوصية ولا حرج، فيكون حكمها كحكم الأضحية، يؤكل منها ويُهدى ويُتصدق وهكذا..

– أخ: إذا أراد التطوع بأن يذبح عن أبيه؟

– الشيخ: إي نعم إذا أراد التطوع لا حرج، لكن الحي أولى من الميت في مثل ذلك.

ثم بعد ذلك قال أهل العلم أنه لو قال أن هذا عني وعن أهل بيتي فقد يدخل فيه أبو الميت وأم الميت وهكذا..

– أخ: بعض الناس يا شيخ يقول في الوصية بالأضحية لا يأكل منها لأن الرسول ﷺ يقول: ((لا وصية لوارث))[أخرجه أحمد]..

– الشيخ: لا هنا إذا هو أوصى بوصية من التركة، فإذا أُخرجت هذه من التركة، لكنه أوصى قرابته أن يُنفذوا هذه الوصية، فإنفاذ الوصية هنا استحبابًا، أما إذا كانت في التركة فإنها لا تنفذ إلا في الثلث على الصحيح من أقوال أهل العلم، وبناءً على ذلك إذا تعاطى الورثة على أنها أضحية أُخذت من ثلث التركة نعم، فهنا يُقال بمثل هذا القول..

– أخ: تحتاج إلى إجازة من الورثة؟

– الشيخ: لا، ما دام أنها في الثلث لا تفتقر إلى إجازة، إذا كانت زائدة على الثلث هذه الّتي تحتاج وتفتقر إلى إجازة.

أما إذا كانت فقط وصية فإنفاذها استحبابًا.. مثلًا قال يا أولادي إذا أنا مت لا تتركوني ضحّوا عني، أريد ثواب الأضحية.. فتطوع الأبناء من أموالهم الخاصة عن أبيهم فهذه لا تدخل في هذه المسألة (قضية أن هذه وصية والوصية لا تكون لورثة).

- أخ: إذا كان اللحّام القصّاب (الجزّار) لا يصلي؟

- لا يصلي هذه مصيبة.. أنت الآن فتحت علينا مسألة ما كنت أظن أنها ستُفتح لأني أظن أنها من أوضح الواضحات..

هذه المسألة لا بد أن نعلم أننا بينّا في الدرس الماضي شروط التذكية، وذكرنا أول شرط: أهلية المذكِّي.. فلو أن المذكي ليس أهلًا.. ومن هو الذي ليس أهلًا؟ الكافر من غير أهل الكتاب المجوس وما شابه ذلك، المشركين وما في حكمهم، المرتد كذلك لا تحل ذبيحته حتى وإن ذكر اسم الله عليها ألف مرة، لأنه أخل بالشرط الأول من شروط التذكية وهو الأهلية.

وكذلك تكلم أهل العلم عن المجنون، قالوا أن المجنون كذلك ليس أهلًا للتذكية، وإنما الذي هو أهل للتذكية هو العاقل.

فنعم، إذا كان المذكي هنا لا يصلي فهذا -نسأل الله السلامة والعافية- على الصحيح من أقوال أهل العلم أنه كافر بالله العظيم، أما إذا كان يجحد وجوبها فهذا كافر اتفاقًا، الإجماع منعقد على ذلك، وأما إذا تركها أحيانًا أو يصليها أحيانًا فهذه محل خلاف بين أهل العلم، والصحيح هو ما ذهب إليه أحمد وهذا ما استظهره جمع من أهل العلم كما نقل ذلك الإمام ابن رجب -رحمه الله-، أن من تعمد ترك صلاة واحدة حتى يخرج وقتها فهذا كفر بالله العظيم، واستدلوا بعمومات النصوص الواردة في ذلك ((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر))[أخرجه الترمذي]، و ((بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة))[أخرجه مسلم]، وكذلك ما حُكي من إجماع الصحابة حيث أنهم كانوا لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة.. وهكذا.

فلذلك حذارِ معاشر الأحبة من أن تضيعوا أجوركم بأن تُسلموا ضحاياكم إلى من ليس أهلًا للتذكية.

وهنا من السنن: أن يباشر المضحّي تذكية أضحيته هو بنفسه، هذا هو المشروع وهذه هي السنة، حيث أن النبي ﷺ باشر تذكية الهدي بنفسه عليه السلام، بل إنه ذبح بيده قرابة ثلاثة وستين أضحية.. يعني عدد كبير جدًا.. فلنا في رسول الله أسوة حسنة، وذلك أيضًا من تعظيم شعائر الله.

بعضهم يقول لك أخاف، ما أعرف.. طيّب تعلم يا أخي، إلى متى ونحن هكذا؟ هذه شعيرة من شعائر الله، فلا بد من تعظيمها ولا بد من إظهارها.

وأذكر لما كنا صغارًا كان أبونا هو الذي يقول تعال امسك اذبح.. فكنا نخاف ونحن صغار، ولكن تعلمنا.. حتى ما شاء الله يعني الآن ممكن حتى نذبح الحجر والشجر هههههه.. نذبح البشر ها؟ هههههه صليل الصوارم هنا ها.. ما شاء الله.

- أخ: العام الماضي أحدهم ضحى بشاة وأعطاها لصاحب المطعم وقال له اجعله لحم عجين ووزعها نيابة عني على الفقراء..

- الشيخ: ما في مشكلة، خير إن شاء الله وفيه أجر وثواب..

- أخ: إن كنت أضحي عن عمتي مثلًا.. لازم أقولها قبل ما أذبح؟

- الشيخ: هو على العموم إذا قالها لا حرج، لكن إذا لم يقلها تجزئ بذلك النية، أن تنوي مثلًا بهذه الأضحية أنها تكون لك وعن أهل بيتك.. ولو أراد أن يتلفظ بها فهذا من جملة المشروع، يقول اللهم هذا عني وعن عمتي وعن أهل بيتي مثلًا.. فهذا مما لا حرك فيه.

مسألة أخرى: وهي وقت الأضحية:

اختلف العلماء، فبعضهم قال من انتهاء وقت صلاة العيد أو من الفراغ من صلاة العيد.. هل بينهما فرق؟

إذا علمنا أن وقت الأضحية يبدأ بعد الصلاة، فإن الخطيب لو أخّر الصلاة مثلًا تطلع الشمس ٦:٢٠ بعدها احسب ١٥ دقيقة، ٦:٣٥ مثلًا.. أخّر ما جاء إلا الساعة السابعة والنصف.. إذا قلنا أنها بعد الصلاة، فمن ذبح قبل هذا الوقت ما تجزئ، وإنما تكون ذبيحة لحم ينتفع بلحمها.

والقول الآخر الذي يقول أنه بمضي وقت الصلاة.. يعني نحن مثلًا علمنا أن الصلاة تبدأ الساعة ٦:٣٥ مثلًا.. بعد ارتفاع الشمس قيد رمح، فقدر الصلاة عشر دقائق اثنا عشر دقيقة، فلو ذبح بعد هذا الوقت أجزأ حتى وإن أخّر الصلاة..

طبعًا وهذا يُعمل به إذا كان صاحب الأضحية في مكان يُصلى فيه العيد، أما إذا كان في مكان لا يُصلى فيه العيد، كالذين يعيشون مثلًا في الأرياف، فإنهم يُقدِّرون، فمثلًا قلنا أن طلوع الشمس وارتفاعها قيد رمح -تقديرًا يعني- الساعة ٦:٣٥ دقيقة، نقول مثلًا ٧، ٦:٥٥ ، ٦:٥٠ لو ذبح في هذا الوقت أجزأت ووقعت أضحية.

يمتد وقت الذبح إلى مغيب شمس اليوم الثالث عشر على الصحيح من أقوال أهل العلم، أي أن أيام الذبح اليوم العاشر والحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر إلى غروب الشمس، كل هذا وقت للأضحية.

لا شك أن أفضل الأوقات هو أولها، ولا شك أن عموم النصوص تدل على أفضلية المسارعة والمبادرة، فكل ما كان الإنسان مبادرًا بطاعة الله عز وجل كان ذلك أعظم أجرًا له.

تكلم أهل العلم على حِلّ الذبيحة في الليل، هل يُشرع ذبح الأضحية ليلًا؟

الصحيح من أقوال أهل العلم أنها تجزئ، وأنها محل للأضحية، ولكن يقال في ذلك أن النهار هو الأولى، لأننا مر معنا ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾[البقرة] واليوم دائمًا يطلق على النهار.

يعني هذه ممكن أبرز المسائل..

بقي السِنُّ وَالعُمر للأضحية.. النبي ﷺ في أسنان الأضحية بيّن أنه يذبح الجذع من الضأن وهو ما تم له ستة أشهر ودخل في السابع، والثنيّ من المعز ما تم له سنة ودخل في السنة الثانية (وكذلك الثنيّ من البقر والإبل)، والبقر ما تم سنتين ودخل في الثالثة، والإبل ما تم له خمس سنوات ودخل في السادس. فهذه هي الأسنان المجزئة في الأضحية.

قال أهل العلم أن الجذع من الضأن يبلغ هذا الوصف إذا نام شعر ظهر.. ما قبل الستة أشهر دائمًا تجد أن الضأن شعره هكذا منتصب.. فإذا نام على ظهره (يعني بدأ يميل) فإنه يكون قد بلغ هذا السن.

كذلك ورد خبر عن النبي ﷺ: ((لا تذبحوا إلا مُسِنَّة، إلا أن يعسر عليكم، فتذبحوا جذعة من الضأن))[سنن أبي داوود] وقال أهل العلم هنا أن الأمر هنا (لا تذبحوا إلا مسنة) هذا على وجه الاستحباب وليس على وجه الوجوب.

نعم هذه ممكن أبرز المسائل..

- أخ: شيخ، بالنسبة للذكورية، كذلك الحال في البقر والإبل، مستحبة كالكبش يعني مثلًا؟

- الشيخ: نعم، هو من ناحية الأفضلية النبي ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين، فهذا يدل على أفضلية الكبش على الشاة.. هو على العموم الأفضلية لا شك أنها وردت في الكبش، أما ما عدا ذلك فيبقى الأمر سيان ما لم يدل دليل على تفضيل أحد الجنسين.

كذلك ذبح الأضحية أفضل وأعظم أجرًا عند الله من إخراج قيمتها، وهذا أمر قد يقع فيه البعض.

لماذا قلنا أفضل؟ فيه إحياء شعيرة من شعائر الله عز وجل، أننا نحيي هذه الشعيرة ونظهرها، حتى أن أبناءنا ينظرون وأن كذلك الإنسان يجمع أهله وقرابته أمه وأخواته وأهل بيته، ثم بعد ذلك يعلمهم الأحكام هكذا تذبح، والنبي ﷺ ماذا فعل في يوم العيد وهكذا.. لأجل أن يكون هناك شعيرة ظاهرة، ثم بعد ذلك يأخذون الكبد، ثم بعد ذلك ما شاء الله يكون يوم ماتع وحافل للذكر..

- أخ: سؤال يا شيخ، يُقال أن الجزار لا يُعطى..

- الشيخ: نعم أحسنت، إنما تكون نفقة الجزار خارجة عن الأضحية.

- الأخ: طيب بالنسبة للجلد، الناس لا تنتفع به عادة، فيستطيع الإنسان أن يبيعه ويوزع ثمنه؟

- الشيخ: لكن لا يبيعه على الجزار نفسه..

لكن الذي يظهر والله تعالى أعلم أن الجزار لا يأخذ ثمنًا على جزارته من الأضحية.. يأخذ ثمن لكن لا يكون الثمن من الأضحية..

- أخ: ولو أعطاه حصة بعدما أعطاه الثمن.. كان من الفقراء؟

- الشيخ: نعم لا حرج. حتى لو لم يكن من الفقراء أهداه هدية، لكنه لا يكون على وجه العِوض في مقابل جزارته؛

ونتصح الإخوة، دائمًا يا إخوة أن يباشروا الذبح بأنفسهم، يعني ليست لغز يا أخي، يعني موضع الذبح معلوم.. والسلخ سهل يا أخي.. وأن تذبح أنت وتستأجر من يسلخ لك أعظم أجرًا لك من أن تجعل غيرك يذبح عنك.. مع أن السلخ يعني المفروض أن الإنسان يكون يعرفه.. في سلخ بالسكين وفي سلخ باليد لها طرق عدة..

- أخ: ما بيّنت لنا في الجلد يا شيخ..

– الشيخ: لا لا يُباع، لا يُباع لا تبيعه، بس خلاص يعطيه هدية مثلًا، يعطي الجزار قيمته، ويعطيه هدية الجلد.. لكن لا يكون الجلد في مقابل قيمة الجزارة..

لا يُشرع البيع في مثل هذه.. أنت يُشرع لك الأكل والهبة والصدقة..

هنا سائل يقول: أخي رجل لديه مال، وماله ليس ملك يده في الوقت الحاضر، أي في السوق له دين مع التجار مفرق، وقال إن وسّع الله علي وجمع لي مالي من التجار لأذبح أضحية عني وعن زوجتي وأولادي، هل هذه الأضحية أصبحت منذورة ويجوز أن يأكل منها؟

نعم هذا نذر، ويسمى هذا النذر نذر المجازاة، سمي بنذر المجازاة لأنه في مقابل، إن رددت لي هذا المال فإن علي نذر..

سيأتي معنا إن شاء الله في درس نفصل فيه أحكام النذر، لا شك أن الصحيح من أقوال أهل العلم أن ابتداء النذر مكروه، لعموم قوله ﷺ: ((إن النذر لا يأتي بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل))[متفق عليه]، أردت أن تطيع الله أطِعه بدون أن تلزم نفسك بمثل هذا الشيء، وكم من إنسان ألزم نفسه بطاعة غير واجبة عليه في أصل الشرع تقربًا إلى الله، ثم بعد ذلك عجز عن القيام بها.

– أخ: امتدح الله عز وجل الموفين بالنذر..

– الشيخ: هذا بعد ما ينعقد، لكن نحن قلنا ابتداءً، لكن إذا انعقد، قلنا على حسب نوع النذر هل يجب عليه الوفاء يستحب له الوفاء وهكذا..

بعضهم يسأل يقول: هل يشرع أن يقترض الإنسان قرضًا لأجل أن يضحي؟

نقول هذا فيه التفصيل: إذا كان يقدر على الأداء والسداد.. يعني مثلًا رجل عنده راتب وعنده تجارة، بحيث أنه لو تحصّل على هذه التجارة فإنه يستطيع أن يسدد الدين.. نقول نعم لا حرج، تقترض وتدرك هذه الشعيرة ومنزلة هذه العبادة ولك الأجر من الله سبحانه وتعالى.

لكن أن يقترض الإنسان وهو عاجز أصلًا عن السداد ويعلم أنه عاجز، هذا لا يُقال له، ولا يُشرع له أن يقترض.

– أخ: لو كان عليه دين كثير ويريد أن يضحي، وما يستطيع أن يوفي الدين بسنة واحدة..؟

– الشيخ: طيب هذا ينظر هل هو الدين حال أو مؤجل.. يعني مثلًا إذا كان دينه مليون، وما يستطيع أن يسدد مليون الآن، لكن هذا المليون ماهو حال.. مثلًا مُقسَّط، كل شهر يدفع قسط، فننظر إلى قسطه الشهري، إذا كان يستطيع أن يتحمل زيادة على هذا القسط قيمة الأضحية يكون في مثل الحالة الأولى التي ذكرناها (رجل يستطيع عنده الوفاء عنده السداد)، أما إذا كان يعجز عن ذلك فنقول لا، يا أخي لا تكلف نفسك، والله عز وجل جعل لك سعة في مثل هذا الأمر.

– أخ: شيخ، أنثى الغنم، تُجزئ ولّا ما تجزئ؟

– الشيخ: نعم تجزئ، لكن الأفضل أن يكون كبشًا.

– أخ: شيخ، لو باع الجلد للجزار، هل يُنقص من أجره أم أن الأضحية أصبحت باطلة غير مقبولة؟

– الشيخ: لا لا يؤثر هذا في قبول الأضحية، لكن لا ينفذ هذا البيع أصلًا، لأن تصرفه هذا غير مشروع، لأن قلنا أن الأضحية بالتعيين خرجت عن ملك صاحبها إلى ملك الله، فأُذِن له من المالك أن يأكل ويتصدق ويُهدي، ولم يؤذن له بالبيع، والجلد من الأضحية ومن أجزائها، فلذلك لا ينفذ هذا البيع، لك أن تُهدي، لك أن تتصدق به.

– الأخ: إن أخطأ وباعه للجزار؟

– الشيخ: الأضحية تقع إن شاء الله ويُثاب عليها إن شاء الله، لكنه يُعلّم.

– أخ: شيخ، ثلث الهدية أقول هذا هدية مني؟

– الشيخ: لا ما يلزمك، بس أنت تعرف تُقسِّمه، فلو أُكلت كلها أو أُهديت كلها أو تُصدق بها كلها لا حرج..

– الأخ: ممكن ما يقبل أن يأخذ صدقة أو من الأضحية، فأقول له هذه هدية، أتلفظ بالكلام يعني..

– الشيخ: الغني يُهدى له والفقير يُتصدق عليه، فحتى لو تُصدق على الغني تجزئ، لا شك أن الفقير أولى بالصدقة..

– الأخ: له حق أن يهدي ثلث ويأكل ثلث ويتصدق بثلث..

– الشيخ: نعم هذا التحديد على الأفضلية، لو مثلًا أهدى الثلثين وأكل الثلث، أو تصدق بالثلثين وأهدى الثلث ما أهدى منها شيء، ما في حرج..

– أخ: نذرت، زوجتي وأولادي يأكلون من هذا النذر؟

– الشيخ: الذي يظهر والله تعالى أعلى وأعلم أنه يُخرج إلى المستحقين، لا ينتفع قرابتك بهذا ولا من تلزمك نفقتهم بهذا النذر، وإنما يُخرج إلى المستحقين.

– سؤال من أخ..

– الشيخ: إذا استقل أهل البيت بالنفقة فإنهم يستقلون بالأضحية، وإذا اجتمعوا في بيت واحد ونفقة واحدة وكانوا قرابة من أهل بيت واحد لا حرج من أن يشتركوا بالأضحية وتجزئ عنهم أضحية واحدة، أما إذا استقل كل واحد ببيت ونفقة مستقلة فإنها لا تجزئ عن هذه البيوت مجتمعة..

– أخ: شيخ، إذا واحد من العائلة عنده قدرة، وآخر معه أمه وأخته المتزوجة وأخوه الآخر المتزوج، هل يجزئ ذلك؟

– الشيخ: هو على العموم إذا خرجت الزوجة مع زوجها أصبحت تبعًا لزوجها، ولكن إذا كانت أرملة أو مطلقة أو بنتًا لا شك أنها تبع لأبيها أو تبع لمن تجب عليه نفقتها، فإذا كان هناك أخ موسر وعنده أخوات معسرات، فضحى عنه وعن أهل بيته وعنهم نعم تجزئ ذلك.

– أخ: أب لديه خمس أولاد متزوجين في نفس البيت وهو الذي ينفق عليهم، فإن جاء بالكبش وضحى وقال هذا عني وعن أهل بيتي أُعتبرت أضحية لكل ولد؟

– الشيخ: هو على العموم إذا كانوا معه في مسكن واحد يشتركون في النفقة نعم الذي يظهر والله تعالى أعلى وأعلم أهل بيت واحد، ولكن إذا استقل كل واحد منهم بمسكن ونفقة فلا، لا تجزئ.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم.

– سألني أحد الأخوة قبل قليل فقال: يوم الجمعة يوافق يوم عرفة، فهل يشرع صيام يوم عرفة حتى وإن وافق يوم الجمعة مع أن هناك نهي؟[١]

هنا إيقاع الصيام كان القصد منه الزمان الذي وافق يوم عرفة، فهنا الصيام لم يكن ليوم الجمعة، بل كان ليوم عرفة بدليل أن يوم عرفة لو كان يوم الخميس أو يوم السبت لصامه الإنسان، فإذن هنا الجمعة جاء موافقةً لا تقصّدًا، فحمل أهل العلم النهي عن صيام يوم الجمعة هو أن يتقصّد الإنسان صيام يوم الجمعة لفضلٍ فيه، أما ما عدا ذلك فلا حرج.

مثلًا: إنسان يصوم يوم ويفطر يوم، فوافق في يوم صيامه يوم الجمعة، فهو سيكون يوم الخميس مفطر، ويوم السبت مفطر، فلا شك أن هذا مشروع، ولم يرد الاستثناء في قضية صيام يوم وإفطار يوم، بل بقي الأمر عل أصله.

١- لم نجد شرح هذا الباب في الدروس الصوتية المنشورة للشيخ -تقبله الله- ولكن وجدنا هذا الشرح في تفريغ الأخت (أم آدم الموحدة) المنشور في الإنترنت.

فنعلم إذن أن النهي الوارد في هذا الشأن هو تخصيص يوم الجمعة بفضلٍ فيه في الصيام، وقال أيضًا أهل العلم أن يوم الجمعة هو عيد المسلمين..إلخ.

كذلك لو أن إنسانًا عليه قضاء أو نذر نذرًا قال لله عليّ نذر أن أصوم يومًا.. فما تمكن إلا يوم الجمعة، فهو رجل يعمل وإجازته يوم الجمعة، فما تهيّأ له الصيام إلا يوم الجمعة، فهل عليه حرج أو تثريب إن صام يوم الجمعة؟

نقول: لا، لأن إيقاع الصيام لم يكن لتخصيص يوم الجمعة لفضلٍ فيه أو لتعظيمٍ لذلك اليوم، وإنما جاء موافقةً لا عن تقصّد، فهذا الجواب إذن.

إذن علمنا أنه لا حرج من صيام يوم عرفة حتى وإن وافق يوم الجمعة، وعلمنا العلّة في ذلك وأن النهي الوارد هو نهي عن تخصيص صيام يوم الجمعة بفضلٍ أو مزيّةٍ فيه.

الدرس الحادي عشر

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: باب لا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله.(١)

وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ الآية.(٢)[التوبة]

بسم الله، الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزِدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

نستأنف وإياكم معاشر الأحبة مدارسة كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا.

(١): يريد المصنف –رحمه الله تعالى– أن يبين حكم الذبح لله عز وجل في مكانٍ يُذبح فيه لغير الله، لأن هذا يتنافى مع التوحيد الخالص، لأن العبادة لا بد أن تكون خالصةً لله عز وجل لا يشوبها أي شيء من شوائب الشرك، فلما كانت بعض الأمكنة يُذبح فيها لغير الله، كان لزامًا على الموحد أن يتقي تلك الأماكن، لأجل ألّا تختلط العبادة الخالصة لله عز وجل بغيرها.

فسيوُرد المصنف –رحمه الله تعالى– ما يدل على هذا التبويب، فيقول –رحمه الله–: وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾.

(٢): ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ جاء هذا الأمر الإلهي لنبيه ﷺ، حينما قام المنافقون ببناء مسجد الضِرار.. صحيحٌ أنهم بنوا مسجد، وأعلوا منارته، لكن أرادوا في باطن هذا الأمر أن يصدّوا الصحابة عن الاجتماع عند رسول الله ﷺ، وهذه خطط المنافقين وخطط العلمانيين من قديم الزمان، يريدون أن يصدّوا الناس عن الاجتماع على الحق، لأن الناس إذا اجتمعوا على الحق كانوا أقوياء، وإذا تفرّقوا ضعفوا واستطاع العِدا أن يتسلطوا عليهم. سبحان الله!.. ما أشبه اليوم بالأمس!.. هاهم أعداء الملة يريدون أن يفرّقوا جمع المسلمين وجماعة المؤمنين، لأجل أن يتمكّنوا من القضاء على أهل التوحيد.

إذن يُخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ، وينهاه عن القيام في مسجد الضرار، لأن هذا البيت ما بُني لله، ولم يُؤسس على التقوى من أول يوم بُنيَ فيه، وإنما أُسس على الباطل، وأُسس على التفرقة، لذلك نُهي النبي ﷺ عن القيام فيه، مع أنه لو صلى فيه فإن صلاته تكون لله عز وجل، ولكن الأصل والأساس في البناء كان للصدِ عن الله وعن سبيل الله وعن الاجتماع على الحق الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى.

فتحدث أهل العلم عن مشروعية القيام والصلاة في أماكن حالها كحالِ مسجد الضرار.. من يضرب لنا مثالًا على ذلك؟

مسجد بُني على ضريح أو بُني عليه الضريح (القبر)، تعرفون الحكم الشرعي في ذلك، إذا كان المسجد هو السابق فإن القبر يزُال، وإذا كان القبر هو السابق فإن هذا يأخذ حكم المقبرة، والأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام، فهنا في مثل هذا الحال يُزال المسجد وهكذا.. وهناك تفصيل لعلها تأتينا إن شاء الله.

أيضًا الحسينيات: لأن هذه الحسينيات في الأصل يُصلى فيها لغير الله عز وجل، فإنهم يستغيثون بعليّ وبالحسين رضي الله عنهم، وشأنهم أعظم من أن يُقرّوا مثل ذلك، ولكن هذا هو ديدن الروافض، يريدون أن يجعلوا لأفعالهم الشركية صبغةً شرعية، فيدّعون محبتهم لأهل بيت رسول الله ﷺ، وأهل بيت رسول الله ﷺ منهم براء.

فتحدث أهل العلم عن مواضع معاصرة جعلوها في حكم مسجد الضرار من ذلك: الأندية والملاهي الليلية، أقيمت في أصلها للصد عن طاعة الله، وللصد عن سبيل الله، وتجد أن بعض البلدان في طريق المسلمين إلى المساجد تعترضهم الملاهي، وتجد أن هناك دعاةٌ على أبواب هذه الملاهي، يعرضون على المسلمين البغي، يعرضون على المسلمين الخنا والزنا وشرب الخمور، فلا شك أن الأصل في قيام هذه الأندية والملاهي هو الصد عن سبيل الله، وكل مكان اتصف بهذا الوصف فالواجب علينا معشر المسلمين إزالة هذه المحاكم وإزالة هذه النوادي وما كان في حكمها، كما أن النبي ﷺ أزال مسجد الضِرار مع أنه في ظاهره مسجد، فإذا كان النادي الليلي الذي هو حتى في ظاهره ليس مسجد فهو من باب أولى وأحرى.

وهنا مسألة يوردها أهل العلم يستشهدون بها في قضية عدم القيام في مساجد الضِرار وما في حكمها، قالوا أن صحابة رسول الله ﷺ ومنهم عمر الفاروق -رضي الله عنهم أجمعين-، قد صلوا في الكنائس، فاختلف أهل العلم في حكم الصلاة في الكنيسة بين مانعٍ ومجيز.

ويُروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: لا تدخلوا على المشركين في دور عبادتهم فإن السخط ينزل عليهم.

والذي يظهر -والله تعالى أعلى وأعلم- أنه لا يُصلى فيها إلا إذا أُزيلت مظاهر الكفر منها، يعني مثلًا الغالب في الصوامع والبِيع والكنائس وما في حكم دور أهل الكتاب تجد أن فيها شعائرهم الدينية كالصليب وما شابه ذلك.. لكن أجاب أهل العلم بجواب عظيم، قالوا أن هناك فرق بين منع الصلاة في مسجد الضرار والصلاة في الكنائس.. ما هو الفرق؟

نقول كيف يصلي بعض الصحابة أو يُجوِّز بعض الصحابة الصلاة في الكنائس ويمنع الله سبحانه وتعالى القيام في مسجد الضرار؟

طبعًا أهل العلم أجابوا بجواب عظيم قالوا: لما أخبر الله سبحانه وتعالى عن مسجد الضِرار بأنه لم يؤسس على التقوى، ولم يؤسس على الخير من أول يوم شُيِّد فيه بناؤه، ولكن قالوا أن هيئة عبادة المؤمن مع هيئة عبادة المنافق في مسجد الضِرار واحدة، بينما في الكنيسة عبادة المسلم هيئتها مختلفة عن هيئة

عبادة النصراني، فنحن نعلم أن المسلم إذا صلى في الكنيسة أن صلاته لله عز وجل، ولكن في الضِرار اتحدت الهيئة واختلف المقصد، فعلمتم الفرق.. ولكن الصحيح -والله تعالى أعلى وأعلم- أنه لا يُجاز الصلاة في الكنائس إلا إذا أُزيلت مظاهر الشرك الصلبان وما شابه ذلك.

كذلك نأتي إلى قضية الذبح لله -كما سيأتي معنا - في مكان يُذبح فيه لغير الله، الهيئة واحدة بين الذي يذبح لله وبين الذي يذبح لغير الله، ولكن المقصد والنية مختلفة.

لذلك كنت أتحدث قبل قليل أنا وأحد الإخوة الأفاضل فقلت: النية مطيّة، فإن صحّت؛ سارت المطيّة، وإن اختلّت؛ عقرت وسقطت المطيّة.

فما دام أن الهيئة واحدة والقصد غير ظاهر، عند ذلك حُسم هذا الأمر: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾

وكما سيأتي معنا في قصة ذلك الذي نذر.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

عن ثابت بن الضحاك ﷺ قال: (نذر رجلٌ أن ينحر إبلًا ببوانة، فسأل النبي ﷺ فقال: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟ قالوا: لا. قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: أوفِ بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم).[1] رواه أبو داود وإسناده على شرطهما

---

(١): **(نذر رجلٌ أن ينحر إبلًا ببوانة، فسأل النبي ﷺ فقال: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعُبد؟)**: وهنا لما وُجِد الاحتمال لزِم الاستفصال، وهذا سمتٌ ينبغي أن يتحلى به المفتون، أنه في حال الاحتمال والالتباس لا بد من الاستفصال، والاستفصال إما أن يكون عن حال المسألة المسؤول عنها، أو عن حال المستفتي، لذلك فإن اختلاف حال المستفتي له أثر في الحكم.. مثلًا قد يكون هنا معذور أو عاجز أو قد يكون المستفتي الآخر على خلاف ذلك، وقد تكون الحالة المقترِنة بحال المفتي أو بحال المستفتي مختلفة عن الحالة الأخرى، فهذه الأمور تؤثر على الحكم.

والحكم يتأثر بالقرائن والأمور المحتَفّة به، فلذلك لما طرأ الاحتمال لزِم الاستفصال، لأن القضية قضية نحر، والمكان محدد، فهذه تُوهِم.. (لماذا تخصيص هذا المكان، مع أنه ليس معروفًا..؟!)، ليس كما الحج فالنحر هنا معلوم والموضع كذلك والوقت معلوم، فهنا أُمِن اللبس.. لكن نذرٌ وعبادة نحر والموضع محدد.. قرائن يقوي بعضها بعض فقوي الاحتمال، فعندئذ لزم الاستفصال.

فاستفصل النبي ﷺ هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟ لأن وجود مكان حاله أن يأتي المشركون إليه وينحرون ذبائحهم تقربًا لهذه الأوثان، لا بد أن يُمنع الموحد من أن ينحر ذبيحته في موضع هذا حاله، لأن الواجب على المسلم أن يتباعد عن الشرك وأهله حقيقةً ومعنى، فإن مشابهة المشركين وذبح الذبائح في مواضعهم أمرٌ يُجرئ الناس على مظاهر الجاهلية، والواجب علينا نحن كموحدين أن نطمس مظاهر الجاهلية، لا أن نسعى في تعظيمها وإظهارها ودعوة الناس إليها من حيث لا نشعر،

لذلك تجد أن أهل العلم يشددون في النكير والمنع من المبالغة في زيارة بعض مواضع الآثار، لأنها في المستقبل مظنة الشرك، أن تُعبد من غير الله أو أن يُعتقد بها اعتقاد شركي.. مثل بيعة الرضوان التي كانت تحت الشجرة، البيعة مباركة، ممدوحة في كتاب الله: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[الفتح]، وفي وقت عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ماذا فعل الناس؟ بدؤوا يُعظّمون الشجرة، فطال بهم المقام إلى أن تظهر عليهم علامات الشرك! فماذا فعل عمر؟ مباشرة أزال معالمها، وهذا لا شك أنه مُشكل، لذلك لا بد من المنع، يعني لا يوجد إلا النبي ﷺ زار شهداء أُحد وذهب إلى مسجد قباء وهذا ورد فيه النص وما عدا ذلك فلا.

انظروا الآن ماذا يحصل عند غار حراء وعند غار ثور وعند بعض المواضع التي جاء الناس يتبركون بها، وصل بهم المقام في بداية الأمر إلى التبرك البدعي، ثم بعد ذلك إلى التبرك الشركي والعياذ بالله، والله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[البقرة] وهذا هو الشيطان يبدأ مع الإنسان درجة درجة وخطوة خطوة حتى يوقع الإنسان في الشرك، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وتذكرون قصة ذلك العابد من بني إسرائيل حينما كان منعزلًا عن قومه يتفرغ للعبادة، هي قصة طويلة لا نريد أن نسترسل فيها، لكن الشاهد أنه جاءه بعض الناس فوضعوا عنده أختهم، ثم بعد ذلك سافروا، ثم استدرجه الشيطان حتى شرب الخمر ثم زنى بها ثم بعد ذلك قتلها ووقع في المحذور، ثم بعد ذلك لما طال به المقام وكُشِف أمره حتى حُكم عليه بالقتل فجاءه الشيطان فقال اسجد لي، قال كيف أسجد والقيود في يدي، فقال له: اسجد ولو أن تومئ برأسك، فأومأ برأسه فإذا بسيف السياف كلمح البصر يضرب عنقه حتى انفصل رأسه عن جسده، فخرج من هذه الدنيا بماذا؟.. فقد بدأ الشيطان معه خطوة خطوة، فإذن إذا وُجِد الاحتمال لا بد من الاستفصال.

ثم يقول: **(هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد)**: هذا يدل على أن الذبح لغير الله هو عبادة شركية، وأن الذبح عبادة خاصة لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل، وصرفها لغير الله يُعد شركًا أكبر مخرج من الملة ولا حول ولا قوة إلا بالله. لذلك قال النبي ﷺ: (هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد). يقرر النبي ﷺ أن الذبح للأوثان يُعد عبادة لها.

(قالوا لا، قال فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟): العيد إما أن يكون من الأعياد الزمانية أو المكانية، الأعياد المكانية هي المواضع التي يعظمها أهلها ويعودون إليها في الحول مرة أو مرتين أو ثلاث أو ماشابه ذلك.

العيد من العَوْد أي أنهم يعودون إليها، لذلك قال النبي ﷺ: ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد))[البخاري]، وكذلك جاء: ((أن لا يكون عيدًا))[أخرجه أبو داوود واللفظ له]، أي: يعتاد الناس المجيء إليه على طريقة غير مشروعة، كل ذلك صيانةً لجناب التوحيد.

إذن (**هل كان فيها عيد من أعيادهم**): هذا بالنسبة للعيد المكاني.

كذلك الأعياد الزمانية، قد تكون هناك أوقات وأزمنة تُقرن بها بعض العبادات أو بعض الطاعات القولية أو العملية، كما يحصل عند بعض المشركين في بعض المواسم.

ومن صور الأعياد الزمانية عند المسلمين: عيد الفطر وعيد الأضحى. وكذلك من الأعياد المكانية التي يعتاد الناس المجيء إليها: مثل الحج وما شابه ذلك.

(قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: أوفِ بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم): إذن هذا الذي ينبغي على المفتي، أن يستفصل من حال المفتي ومن الحالة المسؤول عنها، فإذا اكتمل التصوّر، صدر الجواب، والقاعدة الأصولية تقول: الحكم على الشيء فرعٌ من تصوّره، فنفهم من ذلك أن التصوّر إذا كان صحيحًا كان الحكم صحيحًا، وإذا كان التصور خاطئًا كان الحكم خاطئًا، لذلك لا يجوز للمفتي أن يفتي أو يجيب المستفتي مع قصور في التصوّر، لأنه إذا حصل القصور فبقدر ذلك القصور يكون كذلك القصور في الإجابة، فلذلك لا يجوز للإنسان أن يتسرّع في إصدار الأجوبة الفقهية وما في حكمها بدون تصوّرٍ وافٍ للمسألة، وعن حال السائل.

فقال رسول الله ﷺ: (**أوفِ بنذرك**): أصبح هنا النذر طاعةً لله عز وجل. وسيأتي معنا في الباب الثاني أقسام النذر، نُرجئ الحديث إلى ذلك الباب.

فقال: (**فإنه لا وفاء لنذرٍ في معصية الله**): نفهم من ذلك أن من نذر أن يذبح لله في مكان يُذبح فيه لغير الله أن هذا نذر معصيةٍ وليس نذر طاعة. وسيأتي معنا حكم نذر المعصية، وسنبين خلاف العلماء فيه.

إذن فلا يحل للمسلم أن يلتزم على نفسه طاعةً يؤديها في مكان يُعبد فيه غير الله، وإن هذا من جملة ما نهى الشرع عنه، فإنه لا وفاء في نذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم، لأن الإنسان إذا نذر نذرًا لا يملكه لا يجوز له الوفاء، كمن قال لله علي نذرٌ إن شُفي مريضي أن أُعتِق جارية فلان، أو أن أتصدق بسيارة فلان أو أبيع بيت فلان.. لا يجوز.. ولا ينفذ النذر، لأنه لا يملك هذا الشيء..

وقصة ذلك ما جاء في خبر تلك المرأة التي كانت أسيرةً عند المشركين فهيّأ الله سبحانه وتعالى لها أسباب الهروب، فأخذت تأتي عند النوق فتتحسس النوق فكلما جاءت عند ناقةٍ جفلت الناقة، حتى جاءت عند ناقةٍ فتحسستها فلم تنفر منها فركبت عليها، ثم هربت منهم حتى أوصلها الله سبحانه وتعالى إلى ديار المسلمين، فقالت وهي في طريقها: لله علي نذر إن وصلت أن أنحر هذه الناقة، فكان عندها ورع، فقالت لن أفعل حتى أستفتي رسول الله ﷺ، فماذا قال لها النبي ﷺ؟ ((بئسَ ماجازيتِها به))[أخرجه مسلم]، هي كانت سبب لأن تنجو من قبضة المشركين، فقال النبي ﷺ: بئس ماجازيتها به، فإنه لا وفاء لنذر فيما لا يملك ابن آدم.. أو كما قال النبي ﷺ.

إذن فلا يُشرع للإنسان أن يلتزم على نفسه شيئًا هو لا يملكه، ولا يكون ذلك طاعةً لله، لكن من نذر ذلك هل ينعقد نذره أم لا؟ هنا قال النبي ﷺ: ((لا وفاء لنذرٍ في معصية الله ولا في ما لا يملك ابن آدم)).[أخرجه مسلم]، هنا تحدث النبي ﷺ عن الوفاء ولم يتحدث عن الانعقاد، ما الفرق؟ نحن إذا قلنا انعقد ولا يجوز له الوفاء: عليه الكفارة، وكفارة النذر كفارة اليمين، طبعًا هذه مسألة سنفصل فيها أكثر في الباب الآخر في نذر المعصية.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: باب من الشرك النذر لغير الله.(١)

وقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾.(٢) [الإنسان]

---

(١): هنا قال (**مِنْ الشرك**)، و(مِنْ) هنا تبعيضية، أي: أن من بعض الشرك أو من صور الشرك النذر لغير الله.

النذر في اللغة هو: الالتزام أو الإلزام أو الوجوب أو الإيجاب أو اللزوم، هذا من الناحية اللغوية.

وأما من الناحية الشرعية: أن يلتزم الإنسان على نفسه طاعة غير واجبة عليه في أصل الشرع تعظيمًا للمنذور له.

وقسمه أهل العلم إلى أقسام:

القسم الأول: نذر الطاعة وهو ينقسم إلى قسمين: نذر الطاعة المطلقة. ونذر الطاعة بمعنى المجازاة.

الأول مثاله: أن يقول بدون سبب: لله عليّ أن أصوم ثلاثة أيام، أو لله عليّ أن أذبح شاة وأتصدّق بلحمها، أو لله عليّ أن أُعتِق جاريتي في سبيل الله، أو لله عليّ أن أتصدّق من مالي بألف، وهكذا.. هذا يسمى نذر طاعة مطلقة أي أنه ليس مقيد بشيء أو بسبب.

الثاني يسمى نذر المجازاة: يعني أن يكون النذر في مقابل نعمة أو ما شابه ذلك.. كأن يقول لله عليّ إن شُفي مريضي أن أصوم يومين مثلًا، أو إن عاد المسافر أن أعتق جاريتي في سبيل الله، وهكذا، هذا يسمى نذر المجازاة.

القسم الثاني: نذر اللجاج، وهو في حال الغضب، والمراد به الحث أو المنع.. كأن يقول لشخص إن حفظتَ القرآن فلله عليّ أن أتصدق بألفين من مالي.. إن قاتلتَ في سبيل الله لله عليّ أن أصوم، وهكذا.. فهذا المراد به الحث أو المنع.

القسم الثالث: النذر المباح: كأن يقول لله عليّ أن ألبس ثوبي الأبيض في يوم الجمعة. وهكذا.

وكذلك هناك نذر المعصية: كأن يقول لله عليّ أن أشرب الخمر أو لله عليّ ألا أصلي، وهكذا.. هذا يسمى نذر المعصية.

حكم نذر الطاعة: واجب، لعموم قوله عليه الصلاة والسلام: ((ومن نذر أن يطيع الله فليُطعه))[صحيح ابن حبان].

السياق سياق أمر، ولا يوجد صارف، إذن يبقى الأمر على أصله وهو الوجوب.

كذلك نذر المجازاة حكمه حكم نذر الطاعة، ولكن إذا نذر طاعةً يشق عليه الوفاء بها، كمن قال لله عليّ أن أصوم ستة أشهر متتابعة فشقّ عليه ذلك، فما الحل؟ والنبي ﷺ قال: ((من نذر أن يطيع الله فليطعه))؟

هنا خرج عن وسع الإنسان وطاقته فيرد معنا نصوص عامة ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ((إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم))، هنا يكفّر كفّارة يمين لكن شريطة أن يتعذر عليه الوفاء.

النذر المباح يباح له فعل هذا الشيء وتركه، وكذلك نذر اللجاج يباح له فعل الشيء وتركه، أما نذر المعصية: اتفق أهل العلم على حرمة الوفاء، لأن النبي ﷺ يقول: ((ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه))، فالعلماء متفقون على أن من نَذَرَ نَذْرَ معصية يحرم عليه الوفاء..

لكن هل ينعقد نذر المعصية أم لا؟

جماهير العلماء (مالك والشافعي وأبو حنيفة) يرون أن نذر المعصية لا ينعقد، ويرى الإمام أحمد أن نذر المعصية ينعقد.. ما الفرق بين القولين؟

من يقول بالانعقاد (وهو من أفراد أحمد)، فعليه الكفارة. ومن لا يرى بالانعقاد فلا شيء عليه، وحقيقة كلا القولين فيه قوة، نحن مر معنا التعريف المختار للنذر: هو أن يلتزم الإنسان على نفسه طاعة غير واجبة عليه في أصل الشرع، وهنا في نذر المعصية هو التزم غير طاعة، فكيف ينعقد النذر؟

ولكن نقول يُكفِّر احتياطًا وإبراءً للذمة وخروجًا من الخلاف ولا نوجب عليه إيجابًا.

هنا مسألة فاتتنا نذكرها وهي **حكم النذر**:

اختلف العلماء في حكم النذر، منهم من قال أنه مكروه وهذا ما عليه أكثر أهل العلم، ومنهم من قال بحرمته كشيخ الإسلام ابن تيمية، ومنهم من قال بجوازه لأن الله أثنى على الموفين الذين يوفون بالنذر.

تجد أن كل النصوص التي جاء فيها الثناء جاء فيها يوفون بالنذر.

وكما قال النبي ﷺ: ((إن النذر لا يأتي بخير، وإنما يُستخرج من البخيل))[رواه مسلم بخلاف يسير]، ومن أهل العلم من خص هذا النص في نذر المجازاة، لذلك حمله أكثر أهل العلم على الكراهية جمعًا بين النصوص، لأن هنا نهي وهناك مدح، ولكن نحن ننظر إلى المدح هو ليس مدحًا للنذر ابتداءً وإنما مدحًا لمن يفي بالنذر.

ومن أهل العلم من جعل نذر الطاعة المطلق لا يدخل في قول النبي ﷺ: ((إن النذر لا يأتي بخير)) وإنما خص أهل العلم هذا النص بنذر المجازاة.. وهذا لا شك أن فيه سوء أدب مع الله، يعني كأن الله لن يعطيك هذا الشي حتى تجازيه، كأن معناها: أشترط عليك إن حققت لي كذا أن.. يعني كأن الله سبحانه وتعالى يريد منك شيئًا مقابل هذه الأعطية التي أعطاك الله سبحانه وتعالى إياها!.. لذلك كرهه أهل العلم وجعلوا هذا النص يتجه ابتداءً إلى هذا النوع من أنواع النذر.

(٢): ﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ**﴾[الإنسان]: هذا مدح للموفين. وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَو نَذَرتُم مِّن نَّذْرٍ فإنَّ الله يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة] هذه الآية ما الشاهد منها؟.. هنا قرن الله سبحانه وتعالى النفقة بالنذر، والنفقة ممدوحة، وجاء الحث في نصوص كثيرة عليها، فاقترانها بالنذر يدل على أنها عبادة..

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (من نذر أن يطيع الله فليُطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصِه).(١)

=كما أن النذر عبادة وأنه مُرغّبٌ فيها، فكذلك النذر مرغبٌ فيه.. هذا ممكن يتلمسه بعض أهل العلم على مشروعية النذر، لكن نقول أن نذر اللجاج هو الذي –حقيقةً–يتجه إليه الكراهة أصالةً وابتداءً، لكن لا شك أن نذر المعصية ورد النص بمنعه وحرمته.

(١): هذا كذلك يدل على وجوب الوفاء بالنذر إذا كان طاعةً لله عز وجل، ولا يسقط هذا الوجوب إلا في حالة العجز، يعني إنسان قال: لله عليَّ نذر أن أصوم شهر وهو قادر، لكنه من باب الكسل قال أريد أن أُكفّر، لا يجوز ذلك.

وإذا كفّر هل يجزئه هذا التكفير أم تبقى ذمته مشغولة؟ لا يجزئه، هذا الذي يظهر –والله تعالى أعلى وأعلم–، لماذا ؟ لأنه قادر، ولا يُعدَل عن ظاهر النص: ((من نذر أن يطيع الله فليُطعه)) إلا في حق من تعذّر عليه الوفاء، ولكن من كان قادر هل يتعذر عليه أم لا؟ لا يتعذر، إذن فيتجه إليه خطاب الشرع: (فليطعه).

أما إذا وُجِد العجز، وشقَّ عليه، يسقط هذا الأمر تخفيفًا من الله ورحمةً من الله بعباده ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج]، فإذا لحق الإنسان حرج جازَ التخفيف.

وهنا قاعدة: يقول أهل العلم: المشقّة تجلب التيسير، والأمر إذا ضاقَ اتسع، وإذا اتسع ضاق.. وهكذا.. فمثلًا: رجل كان صحيحًا معافى فنذر نذرًا فأصيب بعدما نذر بمرض لا يُرجى برؤه، أو أنه مرض مرضًا ثبت في حقه من الناحية الطبية أنه يعتذر عليه الوفاء، مثلًا نذر أن يصوم، وكان الصيام في حقه من الناحية الطبية شاق وقد أوصاه الأطباء بأن لا يصوم وما شابه ذلك،

بل كانت طبيعة المرض تفرض عليه مثلًا نوعًا معينًا من الأغذية أو من السوائل، فهذا يتعذر عليه الصيام.. كأن يقول: لله علي نذر أن أصوم الاثنين القادم، فلما جاء الاثنين قُدّر عليه أن يمرض ففات الوقت وتعذر عليه الصوم.

وهناك نذر أصلًا لا ينعقد، كأن يقول: لله علي نذر أن أصوم أمس، لذلك يشترط أهل العلم شروطًا: أن يكون النذر صادر من مُكلف عاقل بالغ.

أما أن يكون مسلمًا: فلا، فقد ينعقد النذر على غير مسلم شريطة أن يكون النذر خالصًا لله عز وجل، ولكن لا يؤديه في كفره ولكن يؤديه إذا أسلم، كما في قصة عمر ﷺ: نذرت أن اعتكف في المسجد الحرام، فقال له النبي ﷺ: أوفِ بنذرك.

والنذر انعقد لعمر في شركه في جاهليته ﷺ، ولكن كان الوفاء في إسلامه، لكن لو أدّاه وقت الشرك ما صحَّ منه.

وكفارة النذر كفارة يمين: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾[المائدة]. فهنا للتخيير بالثلاثة الأُوَل، ولا يُصار إلى الصيام إلا بعد أن يتعذر عليه الإطعام والكسوة والعتق.

وهنا خطأ يحصل عند البعض يجعل الكفارة دائمًا هي الصيام وتجد أن عنده قدرة مثلًا على العتق أو قدرة على الإطعام أو قدرة على الكسوة. فهنا لا تجزئه مع قدرته على الإطعام أو الكسوة أو العتق.

والعتق هنا يكون لرقبة مؤمنة وهذا ما عليه جماهير العلماء مالك والشافعي وأحمد، خِلافًا لأبي حنيفة الذي رأى أن إعتاق الرقبة غير المؤمنة مُجزئ في الإعتاق، ولكن الذي يظهر –والله تعالى أعلى وأعلم– صحة مذهب جماهير العلماء، لأن الله سبحانه تعالى قال في كفارة القتل: ﴿فتحريرُ رقبةٍ مؤمنة﴾.. وفي الظِّهار: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾[المجادلة].

والقاعدة الأصولية تنص على أن المطلَق يُحمل على المقيّد، فيقول أهل العلم: إذا اتحد السبب واختلف الحكم؛ حمل المطلق على المقيّد على رأي الجمهور، وإذا اتحد الحكم واتحد السبب حُمِل المطلق على المقيّد اتفاقًا.

والمسألة معنا اتحد فيها الحكم، الحكم هو الإعتاق، والسبب في الآية الأولى القتل والآية الأخرى الظِهار، اختلف السبب ولكن الحكم واحد، وهنا على رأي جماهير العلماء يُحمل المطلق على المقيد، إذن نقول رقبة مؤمنة، ثم بعد ذلك أن النبي ﷺ علق الإعتاق بالإيمان، عندما رأى النبي ﷺ تلك الجارية فسألها: أين الله، فقالت في السماء، فقال: من أنا، قالت: أنت رسول الله، فقال النبي ﷺ لسيدها: ((أعَتِقها فإنها مؤمنة))[صحيح أبي داوود]، فجعل الباعث من العتق هو الإيمان، فدل أن محل العتق هو الإيمان، هذا الذي يظهر -والله تعالى أعلى وأعلم-، وبناءً على هذا الترجيح فمن أعتق رقبة غير مؤمنة فالحكم أنها لا تجزئه في كفارة قتل أو ظهار أو ماشابه ذلك.

وبالنسبة للإطعام فظاهر اللفظ يدل على الإطعام، أن تملكّهم طعامًا يطعمونه، أما إذا أعطيتهم المال فقد يشترون به الطعام وقد يشترون به غير الطعام.. تكفي وجبة واحدة إذا كانت لأشخاص عشرة مجتمعين، لكن إذا كانت لشخص فكل يوم وجبة واحدة لمدة عشرة أيام.. ويكون الطعام من أوسط ما تطعمون به أهليكم، لا أنه يطعمهم طعام الأثرياء ولا طعام الفقراء.. وإنما الطعام المتوسط.

- سؤال من أحد الإخوة..

- الشيخ: ورد في حديث عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قال: ((من مات وعليه صوم صام عنه وليّه)). [أخرجه البخاري]، قال أهل العلم هذا في حق من مات وعليه نذر.

والمسألة هذه في محل خلاف بين أهل العلم هل هذا يُؤدّى عن الميت مطلقًا، أو أنه خاص بالعبادة التي التزمها على نفسه وهي غير واجبة عليه بأصل الشرع، المسألة فيها خلاف بين أهل العلم، ولعلها تأتي في موضع آخر.

- سؤال من أحد الإخوة..

- الشيخ: لا شك أن طُعمة الصغار تختلف عن طعمة الكبار، بعضهم يأتيك ممكن يطعم عشرة أطفال بوجبة كبير فيوفر على نفسه!

على العموم دائمًا تجد أن خطاب الشرع يتّجه إلى المسكين، المسكين هو الذي يجد أقل من كفايته، وهذا دائمًا يكون في حق الكبار ليس في حق الصغار، فالصغير أولًا هو ليس معني بنفقة نفسه أصلًا، فتجد أن أباه هو المتكفل بنفقته وما شابه ذلك، فالذي يظهر -والله تعالى أعلى وأعلم- أنه يكون في حق الكبير.

المسكين هو الذي يجد أقل من الكفاية، يعني يجد أكثر من نصف الكفاية، أما الفقير فيجد أقل من نصف الكفاية هذا على رأي بعض الفقهاء. وكذلك دل القرآن على أن المسكين قد يكون عنده مال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فكَانَتْ لِمَسٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾[الكهف] هم مساكين وعندهم سفينة، لكن هذه السفينة لا تغطي كفايتهم وإنما تؤمن لهم أقل من الكفاية، والفقير يجد أقل من نصف الكفاية.

أما بالنسبة للكسوة فقد تكلم أهل العلم: فمنهم من قال: أن الكسوة المجزئة ما يستر العورة في الصلاة، فبالنسبة للرجل القميص الذي يستر منكبيه والسرة إلى ما دون الركبة. وبالنسبة للمرأة الخمار الذي يستر رأسها وكتفيها حتى آخر الجسد. ومنهم من قال أن مرد ذلك إلى العرف.

مثلًا إذا كان في عرف الناس يلبسون الثوب الطويل أو ما شابه ذلك فتكون الكسوة بمثل ذلك، أي مرد ذلك إلى العرف في اللباس.

وكذلك إذا تعذر عليه العتق أو الإطعام أو الكسوة يعدل بعد ذلك إلى الصيام.

واختلف أهل العلم هل يشترط التتابع أم لا: ورد عن ابن مسعود ﵁ قراءة: (**صيام ثلاثة أيام متتابعات**)، ولكن الصحيح -والله تعالى أعلى وأعلم- أن الأولى أن تكون متتابعة ولو فرّقها فلا حرج، ويُجزِئ الصيام حتى وإن فرّقه في هذه الكفارة.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- باب من الشرك الاستعاذة بغير الله.[١]

وقول الله تعالى: ﴿وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يعَوُذوُنَ برِجَالٍ مِّنَ الْجِنّ فزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.[٢]

وعن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من نزل منْزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شرّما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منْزله ذلك).[٣] رواه مسلم

---

(٢): فقد كان بعض أهل الجاهلية إذا نزلوا بالوادي قالوا نعوذ بعزيز هذا الوادي من سفهاء قومه، فأنزل الله جل وعلا في ذلك ما أنزل من الذم والعيب وأن الواجب الاستعاذة بالله، فالإنسان في أي مكان يستعيذ بالله، أعوذ بالله من كذا، أعوذ بالله من شر هذا الوادي، أعوذ بالله من شر هذا المكان وأهله، أعوذ بالله من شر فلان وما شابه ذلك.

(٣): وهذا من الدلائل على أن كلمات الله غير مخلوقة؛ وأنه كلامه سبحانه، فكلام الله غير مخلوق وهو القرآن، وهكذا كلامه مع الرسل ومع الأنبياء كله كلام الله صفة من صفاته، كغضبه ورضاه ورحمته ومحبته وغير هذا كلها صفات تليق بالله جل وعلا، لا يشابه خلقه سبحانه وتعالى، وهو جل وعلا بصفاته هو الخلاق ومن سواه مخلوق.

١- لم نجد شرح هذا الباب في الدروس الصوتية المنشورة للشيخ -تقبله الله- ولكن وجدنا هذا الشرح في تفريغ الأخت (أم آدم الموحدة) المنشور في الإنترنت.

الدرس الثاني عشر

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: باب من الشرك أن يستغيث بغير الله تعالى أو يدعو غيره.(١)

بسم الله، الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

نستأنف وإياكم معاشر الأحبة مدارسة كتاب التوحيد، وأخذنا وإياكم في الدرس الماضي أحكام الاستعاذة بغير الله، وعرجنا بشيء من الإجمال على أحكام الاستغاثة، وبينّا الفرق بين الاستغاثة والاستعاذة..

(١): فالاستغاثة: هي طلب رفع الضر أو الشر بعد وقوعه.

أما الاستعاذة: هي طلب دفع الشر قبل وقوعه.

وهناك أقسام للاستغاثة، منها ما هو مشروع ومنها ما هو غير مشروع.

فالاستغاثة في أمر لا يقدر عليه إلا الله هي شرك أكبر مخرج من الملة.

وعلى العموم فالاستغاثة بغير الله في أمرٍ لا يقدر عليه إلا الله فإن جميع صورها شرك، سواءً كان المستغاث به حاضرًا أو غائبًا، حيًا أو ميتًا.

أما الاستغاثة بغير الله في أمرٍ يقدر عليه بني الإنسان فتكون مشروعة بشرطين: أن يكون حاضرًا. وأن يكون قادرًا على ذلك.

والحضور قسمين: حضور حقيقي، وحضور حُكمي.

- الحضور الحقيقي معروف وهو حضوره بشخصه أمامك الآن.

- الحضور الحكمي أي بطرق الاتصال الحديثة، كأن تمسك الهاتف فتطلب منه أو ترسل له رسالة، أو يشابه ذلك من الصور التي يمكن أن يُنزَّل المستغاث به منزلةَ الموجود.

فلا بد من توفر هذه الشروط، وإذا اختلّ أحدها عُدّت هذه الاستغاثة شركًا بالله عز وجل.

وهنا مسألة شرعية نسينا أن نذكرها بالأمس:

هناك ضابط ذكره أهل العلم من صور الاستغاثة الشركية: قالوا أن يستغيث المرء بإنسان لا يقدر على ما طُلِب منه.

لكن هذا الضابط فيه خلل، فكيف نُقوّم ونصحح هذا الضابط؟

نحن يجب أن نحدد القدرة في عموم الناس، كإنقاذ الغريق مثلًا، هو في وسع الناس، لكن إحياء الموتى أو شفاء المرضى أن يكونوا قادرين على إنجاب الأبناء مثلًا.. هذا ليس في وسع بني الإنسان مجتمعين.

لذلك يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله- كلامًا فيما معناه: لو وُضعت نطفة في طبق، فاجتمع عليها عقلاء الأرض، ما استطاعوا أن يُنشئوا خلقًا كخلق الله عز وجل.

إذن نقول أن الضابط الصحيح في قضية الاستغاثة الشركية هو أن يستغيث المرء بغير الله عز وجل في أمر لا يقدر عليه إلا الله، هنا قضية القدرة خاصة بالله عز وجل، لكن إذا أنطناها بالفرد فالأفراد يتفاوتون، فضربنا مثالًا على قضية الغريق:

رجل غريق يستنجد ويستغيث بإنسان أمامه، وهذا الإنسان لا يُحسن السباحة، فهنا استغاث بإنسان حاضر لا يقدر على إغاثة المستغيث، فهي ليست شركًا.

فإذا عرفنا الضابط استطعنا أن نميّز بين الصور الشركية والصور غير الشركية.

فإذن يكون الضابط: هو الاستغاثة بغير الله في أمرٍ لا يقدر عليه إلا الله. لكن إذا كان بوسع بني الإنسان مجتمعين، أو أحد منهم أن يُنقذوه، أو كان بوسع بني الإنسان عمومًا إنقاذ الغرقى؛ عُدّت الاستغاثة جائزة.

وإذا وقعت الاستغاثة على رجل لا يُحسن إنقاذ الغريق فحكم هذه الاستغاثة جائزة ولا تقع موقع الشرك.

﴿فَاسْتَغَٰثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[القصص] استغاث بحاضر، على أمرٍ يقدر عليه الإنسان، فتحققت شروط الاستغاثة المباحة أو المشروعة.. موسى عليه السلام كان حاضرًا، قادرًا، والأمر يقدر عليه بني الإنسان، فأغاثه موسى عليه السلام.

إذا اعتقد الإنسان أن السبب قد ينفع ويضر بذاته، فهذا قد جعل ندًّا مع الله سبحانه وتعالى.

(**بابٌ من الشرك أن يستغيث بغير الله**..) : هنا (مِن) للتبعيض، أي أن مِن أنواع الشرك التي يقع فيها الناس الاستغاثة بغير الله عز وجل.

– أخ يسأل: لو قال قائل: أين أنت يا أمير المؤمنين تُخلّصنا من هؤلاء النصيرية..؟

– الشيخ: هنا هذه مسألة تحدث عنها أهل العلم، قالوا إذا كان المراد من هذا الكلام هو شحذ الهمم وتحريض الناس ولم يرد الاستغاثة: أُبيح، والأولى تركه. لماذا؟ لأن هذه العبارات قد تسوق الناس إلى الوقوع في المحذور، فإذا كان المراد منها الاستغاثة وقع المحذور فهذه استغاثة بغائب وهذا هو عين الشرك.

كمن يقول: أين أنت يا رسول الله ترى ما فعلت أمتك من بعدك، أو وا معتصماه، أو ما شابه ذلك.. وهذه تسمى حتى في اللغة النُّدبَة.. ((يا أبَتَاهُ، أجَابَ ربًّا دَعاهُ، يا أبَتَاهُ، إلى جِبْرِيلَ نَنْعاهُ))[صحيح ابن ماجة].. وغير ذلك، ولكن يُقال في مثل هذه الألفاظ التي تحدثنا عنها مثلًا يقول: يا أمير المؤمنين لو رأيت ماذا فعل الناس..! أو ما شابه ذلك: إذا كان المراد هنا الاستغاثة وقع المحذور.. الاستغاثة بغائب.. فهذا هو عين الشرك، ولكن إذا لم يكن المراد هنا الاستغاثة وإنما أُريد بذلك تحريض الناس وحثهم على النجدة والإغاثة أو ما شابه ذلك..

ولكن يُقال أن الأولى ترك مثل هذه الألفاظ حمايةً لجناب التوحيد، ولأن الأمر إذا فُتح على مصراعيه وقع الناس في المحذور، والله عز وجل أمرنا كما في سنة النبي ﷺ باتقاء الشبهات وباتقاء مواضع الريبة، كما قال النبي ﷺ [في الصحيحين] من حديث النعمان بن بشير: ((كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه)).

فإذا كان الإنسان حول مواطن الريبة والخلل والضلال يُدندن، فإنه مظنة أن يقع في المحذور، فلذلك لا بد من صيانة جناب التوحيد وإغلاق الباب على مثل هذه الألفاظ.

أذكر أن أحد الإخوة سألني، وقال أنه ذاع وشاع في بعض المجتمعات أن يقول الصبية والأطفال والنساء: يا محمد..!

لا شك أن هذه العبارة في حقيقتها شركية، ظاهر الأمر، الياء هنا ياء النداء والأصل فيها أنها نداء استغاثة وفي حق غائب ليس حاضرًا.. لذلك سيأتي معنا في درس هذا اليوم إن شاء الله بيان لمزيد ما يتعلق بهذه المسألة.

البعض يقول أنها تقال من باب التعجب أو ما شابه ذاك، ولكن لا شك أن الأمور بمقاصدها، والعبارة هنا عبارة ظاهر لفظها شركي، فهنا نقول على الناس أن يتقوا الله عز وجل وأن يوطِّنوا أنفسهم على اجتناب مثل هذه الألفاظ، وإن للتعجب ألفاظًا غير هذه الألفاظ،

فعلى عموم المسلمين أن يتقوا الله عز وجل، وعلى أئمة المساجد والخطباء أن ينبّهوا عامة المسلمين على هذه القضية، لأنها قضية خطيرة جدًا حقيقةً، والأصل أن الإنسان يتعامل مع مثل هذه الألفاظ بالظاهر، وإن كان عامة المجتمع يتعاطى مثل هذه الألفاظ على أنها تعجّب.

والألفاظ عندنا الصادرة من المكلفين تنقسم إلى قسمين: ألفاظ صريحة، وألفاظ كنائية.

الألفاظ الصريحة: لا تفتقر إلى نية وقصد القائل.

والألفاظ الكنائية: نحتاج فيها للاستفصال من القائل، إلا أن يكون هناك لفظٌ الاحتمال فيه قائم وقوي باعتبار الحال أو ما شابه ذلك.

لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ذكر مثالًا عظيمًا، وبين فيه حقيقة الألفاظ الكنائية التي تحتاج للاستفصال من القائل.. مثلًا رجل جاء عند كلب فقال له قم يا محمد، ما رأيكم في هذه العبارة؟ كفر أم لا؟

- الإخوة: كفر.

- الشيخ (مازحًا): كفر قولًا واحدًا، لا يوجد خلاف؟.. إذن المسألة محل إجماع، أجمع فقهاء جامع النووي على أن هذه اللفظة لفظة كفرية..

طيب، جيء بالقائل إلى مجلس القضاء، فكان القاضي فقيهًا، فتأمل في القول، فاستفسر واستفصل عن حال القائل، فوجد أن عنده جار اسمه محمد بينه وبينه خصومة..

ها صارت كفرًا الآن؟ ها يا جماعة النووي (يقصد جامع النووي) نكبر عليكم أربع..؟

انظروا اللفظ.. هو لو قال قم يا رسول الله لعُد ذلك كفرًا بالإجماع، لكن اسم محمد هو اسم يشترك فيه النبي ﷺ مع غيره من الناس، فلذلك لما كان الاسم ليس من الأسماء المختصّة بالنبي ﷺ كان في

ذلك احتمال قوي أنه يُحتمل أن المراد بهذا الاسم هو شخص آخر، فلما قوي الاحتمال لا بد من الاستفصال.

وهنا تظهر رزانة المفتي وعدم تسرّعه في إصدار الأحكام، تخيل أن القاضي قال يا خبيث.. واذبح! وقال أنه سبّ النبي ﷺ.. كيف سيلقى الله سبحانه وتعالى بدمه؟!

لكنه لو قال: قم يا رسول الله مثلًا.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. اللهم صل وسلم على نبينا محمد.. فلا شك أن هذا كفر ولا يستتاب هذا الرجل، وتوبته لا تسقط العقوبة الدنيوية، وإنما تكون بينه وبين الله، فمباشرةً لا بد من إنفاذ الحد، وسب ﷺ كفر بإجماع أهل العلم، نقل الإجماع على ذلك الحُميدي وإسحاق بن راهويه وكذلك أبو بكر الشافعي، وجمع من أئمة الهدى ومصابيح الدجى.

الشاهد من ذلك: هنا ظهر أن هناك ألفاظ مُحتمِلة، فإذا صدر من المكلف لفظ محتمل فإنه حينئذ يفتقر هذا اللفظ إلى مقصود القائل من هذا اللفظ.. معنى أن اللفظ مُحتمِل أي أنه يحتمل أحد معنيين، أما اللفظ الصريح فلا يحتمل إلا معنى واحدًا.

فهذه اللفظة: يا رسول الله، لا تحتمل معنى آخر.

نحن عرب، نستخدم الياء في النداء.. ولكن هنا مسألة: إنسان دخل البيت يبحث عن ابنه أو عن زوجته أو عن قريبه، فإنه سيستخدم الياء، يا محمد مثلًا.. هنا هل هو دعاء أو غير دعاء؟

نداء، فهنا لا بد أن يُفرَّق بين الياء التي يمكن أن تكون نداء أو الياء التي تُستخدم على أنها دعاء أو استغاثة أو ما شابه ذلك.. لا بد أن يُراعى مثل ذلك..

الشاهد من الحديث: أن هذه عبارة (يا محمد) يجب على عموم المسلمين أن يتّقوها وأنها من الألفاظ التي ينبغي على المسلمين أن يتقّوها بقدر ما في وسعهم خصوصًا أنها شاعت وذاعت في أوساط الناس، وقضية أنهم يريدون التعظيم فهناك ألفاظ أخرى مثل: لا إله إلا الله، الله أكبر، سبحان الله.. لذلك حتى أن النبي ﷺ تجد أنه في السنة دائمًا يُسبّح عليه السلام من باب التعظيم وما شابه ذلك..

إذن فلزامًا على المسلمين أن يتقوا مثل هذه الألفاظ.

– أخ يسأل: يا شيخ، (قُم يا محمد) إذا كان هناك قرائن تدل على أن الرجل قال هذا الكلام يقصد النبي ﷺ لكن إذا جيء به في القضاء قال لا أنا أقصد..

– الشيخ: الذي يفصل في القرائن القاضي، لأن لا شك أن القرائن كما قرّ ذلك الإمام ابن القيم –رحمه الله تعالى– في كتابه المعروف الطرق الحكمية، أن القاضي قد يفتي بالقرائن في بعض الأحيان إذا قويت وأصبحت ظاهرة عنده، ولكن هنا في قضايا قد يكون هناك شبهة قد يُدرأ بها الحد، النبي ﷺ يقول: ((ادرؤوا الحدود بالشبهات))[أخرجه الترمذي]، فقضية القرينة وقوة القرينة وضعف القرينة هذا مرده إلى القاضي، لأنه لا بد من أن يعرف الواقع والحال الذي صدر فيه مثل هذا اللفظ..

فإذا كانت الاستغاثة لرفع مكروبٍ لا يقدر على رفعه إلا الله عُدت استغاثة شركية، أما إذا كانت الاستغاثة لطلب رفع مكروه أو ضر يقدر عليه بني الإنسان، وكان المستغاث به حاضرًا، فهي جائزة.

وإذا قلنا يقدر عليه بني الإنسان أي بعموم بني الإنسان، يعني في وسع بني الإنسان أن يغيثوا مثل هذا المستغيث، لكن بحسب الأفراد فقد يوجد هناك من لا يقدر..

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّلِمِينَ ۝ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلاَّ هوَ﴾.(١)[يونس]

---

(١): في الآية: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلاَّ هوَ﴾ الله أكبر! الخطاب هنا للنبي ﷺ، أكرم الخلق على الله وأعزّ الخلق على الله، يخاطبه الله سبحانه وتعالى بهذا السياق، وحاشا محمد ﷺ أن يقع في الشرك، حاشاه فداه أبي وأمي ونفسي.. ولكن انظروا إلى التقريع، أصحاب الألباب تقرّعهم مثل هذه الآية، أصحاب التقى والإيمان تقطّع أفئدتهم هذه الآية! إذا كان الله سبحانه وتعالى يُخاطب أتقى البرية وخير البشرية بهذا السياق، فما بالك بمن هو دونه!

انظروا إلى هذه الآية، لنتأمل فيها، لا أقول كلمةً كلمة بل حرفًا حرفًا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلُوُبهُمْ﴾[الأنفال] أين الوجل؟! أين التدبر؟! ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد]، ﴿ثُمَّ قَسَتْ قلُوُبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[البقرة] إذا كانت الجمادات تأثرت بكلام رب العالمين، فكيف بهذه المضغة! التي لن تنفع صاحبها إلا إذا جاءت ولقيت المولى سبحانه وتعالى يوم القيامة سالمة ﴿يَوْمَ لَا يَنفعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.[الشعراء]

ولا تدع يا محمد من دون الله، يقول أهل العلم: هنا ليس المراد فقط من دون الله يعني أنه يشرع أن يدعو مع الله، فالنهي هنا نهي أن يدعو الإنسان من دون الله أو أن يدعو مع الله، إذن نُهينا عن المساواة وما دونها وما فوقها كذلك من باب أولى وأحرى.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا ينفعُكَ وَلَا يضَرُّكَ﴾: ماذا نستفيد من هذا السياق؟

نستفيد أنه لا يوجد على ظهر البسيطة من ينفع ويضر مع الله أو من دون الله، وإن من أخل بهذا المفهوم فقد اقترف ما يقدح في أصل معتقده، ومن اعتقد أن هناك من يضر أو ينفع مع الله أو من دون الله فقد أشرك في باب الربوبية، لأن توحيد الربوبية هو إفراد الله بأفعاله سبحانه.

لا إله إلا الله! يبين الله سبحانه وتعالى في هذا السياق القرآني العظيم أنه لا نافع ولا ضار إلا الله، والضر هنا الذي يُقدِّره الله سبحانه وتعالى هو ضرٌّ بحسب نظَرِ العباد، وإلا في باطن الأمر هو خير، لذلك النبي ﷺ كان يقول في دعائه: ((والشرُّ ليس إليك))[صحيح ابن حبان]. فالله عز وجل قد يُقدِّر أمورًا قد يكون في ظاهرها ضر وفي باطنها خير.

كرجل لم يرزق بالذرية، وهذا باعتبار المخلوق ضر، ولكن لو أعلمه الله سبحانه وتعالى وأطلعه على أن الذرية ستكون حسرة ووبالًا عليك، أصبح خير، ولكن يُقدِّر الله سبحانه وتعالى أن يخفي ذلك عن عباده ليمتحن رضاهم وصبرهم واحتسابهم، لأن هناك درجات، هناك صبر وهناك رضا، فإذا قدّر الله الضر على العبد وجب عليه أن يصبر، واسْتُحِبَ له أن يرضى، فمن صبر وأضاف إلى صبره الرضا نال العلا، ومن اقتصر على الصبر ولم يحقق الرضا أدّى الواجب وقلّ الثواب، ومن جزع واعترض وتبرّم فله الإثم ولا حول ولا قوة إلا بالله.. (اللهم إني أسالك الرضا بعد القضاء) هذه أعلى رتبة من الاقتصار على الصبر.

وتكلم شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تعالى– على أن المصاب إذا نزل بالعبد، هل يتم له الجزاء بالصبر أو بالرضا؟ على العموم هناك كلام لأهل العلم، ولكن لا شك أن من صبر واحتسب فإنه أدى الواجب وله ثواب، ولكنه لا يستوي مع من صبر صبر جميلًا ثم رضي.

كيف يكون الرضا؟

من صور الرضا أن الإنسان يرضى ويُسلّم وأن هذا من قضاء الله وقدره، ويعلم أنه ما يحل بالمرء من خير أو شر باعتبار نظرته لهذا الأمر إلا وهو يُسلِّم أمره إلى الله سبحانه وتعالى.. هناك مثلًا مسائل فرعية ذكرها الفقهاء، مثلًا إنسان أصيب بمرض، الواجب عليه الصبر، ويستحب في حقه الرضا.

وإذا كان الإنسان صابرًا ثم بدأ يتأوه؟ فما حكم هذا التأوه؟

ما ذكره أهل العلم أنه إذا كان التأوه صادر من الإنسان عن غير إرداة ولكن قلبه صابر وثابت، ويشكر الله بين فينة وأخرى، ويحمد سبحانه وتعالى على ما قدّر عليه.. ولكن إذا كان التأوه صادرًا عن اختيار وتبرّم وجزع؛ عُدَّ ذلك منافيًا للصبر.

لكن لو أن رجلًا عندما أصيب بالمرض بدأ يقول: لماذا؟ أنا أصلي في المسجد أنا أتصدق بمالي.. هذا اعتراض -نسأل الله السلامة والعافية-، لذلك الإنسان عليه دائمًا أن يصبر.

وقد عرّف أهل العلم الصبر بأنه حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكّي، والجوارح عن لطم الخدود وشقِّ الجيوب.

سألك رجل كيف حالك؟ فقلت الحمد لله ولكن عندي ألم هنا، فإذا كان هذا الكلام إخبارًا عن الحال جاز ذلك، وإذا كان من قبيل الشكوى فهو يتنافى مع الصبر.

يا الله يا إخوة..! لنفتش في أحوالنا! ما أكثر شكوانا للخلق..! والله الحرمة ما شفت منها خير يبو فلان.. والله مادري كيف.. دائمًا نتشكى.. والله يا رجّال أنا من يوم أن ولدت على الدنيا وأنا أمراض أمراض.. يا الله، والله يا إخوة نحن بحاجة لأن نجدد إيماننا!

أذكر موقفًا، أني زرتُ أحد القرابة أصيب -عافانا الله وإياكم- بمرض السرطان، وتعرفون هذا المرض هو مرض يبدأ بالانتشار في بدن الإنسان فيقتل الخلايا، وطريقة العلاج صعبة جدًا، يتعاطى أدوية كيمائية تقتل الخلايا ويتساقط الشعر وآلام.. والله زرت هذا الشاب، كان رجل كبير ولكنه كان يبكي كما يبكي الطفل، والله قال كلمة ارتعدت حينما سمعتها، قال ماذا فعلتُ أنا يا رب! ليش يقع لي كذا! فذكّرته بالله، قلت له اتقِ الله عز وجل لا يجوز لك أن تتلفظ بهذه العبارات، وهذه تتنافى مع الصبر الواجب الذي أوجبه الله سبحانه وتعالى عليك وهذا اعتراض على قضاء الله وقدره، فبكى وقال والله ما قصدت ولكن الألم..! من شدة الألم.. رجل ظهره يؤلمه.. جسده يؤلمه.. ولكن جاءتني رسالة كالصاعقة، قلتُ أنا أواسيه! هبْ أني في مكانه، هل ستصدر مني هذه العبارة أو أني سأكون صابرًا محتسبًا..! فعلمتُ أني بحاجة إلى إيمان وعلمت أني ضعيف وأني لست بشيء.

فلذلك أحبابي الكرام من دروس العقيدة ومن دروس التوحيد يقوى إيماننا ويقوى توكّلنا على الله واعتمادنا عليه سبحانه وتعالى، ووالله الذي لا إله غيره ولا ربّ سواه ما عرفت حقيقة التوكل وما عرفت حقيقة الصبر إلا من دروس العقيدة، العقيدة من العقد فينعقد قلبك على هذا التوجّه، لا يمكن أن تتغير رغم عظم النوازل ورغم شدة القوارع، اقرأ في سير السلف وفي واقع الرعيل الأول سترى العجب العجاب، ترى من يُوقفَ ويُسلخ جلده ثم يقول ولست أبالي حين أُقتل مسلمًا، أي عقيدة هذه ..! يُطعن أحدهم حتى تسيل الدماء من جسده فيأخذ من دمائه وهو يعلم أنها ما أُريقت إلا في سبيل الله، ثم يمسح بها وجهه ويقول: فزتُ وربّ الكعبة..! من أين جاؤوا بهذه المبادئ وهذه العقيدة..!

جاؤوا بها مِن مِثل هذه الدروس التي ننهلُ بها من سنة رسول الله ﷺ، ومن مَعين كتاب الله ومَعين سنة رسول الله، ذلك المعين الصافي الذي لا كدر فيه، أصفى نبع ينهل منه بني الإنسان هو نبع الكتاب والسنة؛ لذلك لما كان الصحابة ينهلون من ذلك النبع كانوا أئمةً في الصبر، أئمة في التوكل، أئمة في الإقدام، أئمة في كل أبواب الدين، ولما كنا لا ننهل من هذا النبع أو نقصّر في النهل منه، بل ننهل من ينبوع الدنيا الذي شابه الكدر، ضعف إيماننا وخارت قوانا ودبَّ الوهن فينا.

أحد الشباب يقول اتّصلت على والدي -تعرفون كبار السن- ووالده كبير في السن، فقال: يا ولدي وين ذهبت يا ولدي؟ فقال: نقاتل أمريكا، فقال: أنت خبل -يعني فيك خَبَل-؟ أنت مجنون؟ تناطح أمريكا؟ سبحان الله، فانظروا إلى جواب هذا الرجل، قال: نعم هذه سنّة التدافع بين الحق والباطل، حتى لو لم يبقَ على ظهر الأرض إلا موحدًا واحدًا ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلفُّ إِلاَّ نَفْسَكَ﴾[النساء]، ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾[البقرة]، ﴿إِنَّ اللهَ يُدٰفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾[الحج]، ﴿أُذِن للذين يُقاتلَون بأنهم ظُلموا﴾[الحج]، وغير ذلك من الآيات.

فلذلك نحن لن نرتقي بالأمة ولن نكون أمةً يُعتمد عليها حتى نكون من أهل العقيدة الصافية، أما أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، تجد عندنا تخليط في بعض الأبواب، العقيدة صافية وفي بعض الأبواب الله المستعان! حدّث ولا حرج..! لا..!

يقول الإمام ابن حزم -رحمه الله-: وليس بعض الإيمان إيمانًا.

بعض الناس يظن بس فقط صلِّ جزام الله خير في المسجد، وتزكي، انتهت القضية وحجيت خلاص! الّي حج هذا خلاص.. يعني انتهى كلامه -رحمه الله- ضع ا.هـ خلاص هذا الرجل كتبَ على بيته حج مبرور وسعي مشكور..!

أذكر كنت في أحد البلاد، فأول ما دخلت أحد الأحياء فوجدت سهم طويل حج مبرور.. طول الحي وأنا أمشي على أسهم حتى وصلتُ عند بيت، فلما وصل السهم إلى البيت ارتفع فوق على الدور الثاني ثم مكث ثم نزل على الباب ثم مكتوب حج مبرور وسعي مشكور! قلت في نفسي أسأل الله أن يتقبل منك بس..!

فسبحان الله، يعني بعض الناس يحصر الدين كله في بعض العبادات، وقد قرر أهل العلم أنه بعض الإيمان ليس هو الإيمان.. فالمرتدين الذين ارتدوا في خلافة أبي بكر رضي الله عنه كانوا يصلون وكان يحجون وكان عندهم طاعات وكانوا يقولون لا إله إلا الله، ولكنهم أتوا بما يناقضها، فلذلك هذه الكلمة لا تنفع قائلها حتى يأتي بمقتضاها وبما تستلزمه هذه الكلمة من الشروط والأركان.

لذلك انعقد الإجماع، وقد حكى الإجماع غير واحد من أهل العلم أن من حقق الإثبات ولم يحقق النفي فهو ليس بموحد، ومن جاء بالنفي ولم يأتِ بالإثبات ليس بموحد.

يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله-: والنفي المحض ليس بتوحيد، والإثبات المحض ليس بتوحيد.

إذن كيف يكون التوحيد؟

يكون بمجموع الأمرين الإثبات والنفي، وهو حقيقة قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[البقرة]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل]، ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾.[الزخرف]

- أخ يسأل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾[هود] هل المقصود التأوّه الجائز..؟

- الشيخ: الله أعلم، لكن هل المراد به التأوه هذا..؟! الله أعلم، لكن لا يُتصور من الخليل ﷺ أن يُحمل على هذا اللفظ، أنه كانت تصدر منه هذه الألفاظ تبرمًا وجزعًا، لا أبدًا لا يُظن هذا الظن، وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على خليله وزكّاه في آيات كثيرة في كتاب الله عز وجل..

- أخ يسأل: هل الاعتراض على قضاء الله من مرض وكذا يعد كفرًا..؟

- الشيخ: هو لاشك أن من اعترض على قضاء الله، على أن هذا الذي قُدِّر منافٍ للحكمة أو ينافي الصواب أو أن هذا ظلم، هذا كله -نسأل الله السلامة والعافية- كفر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لكن الإنسان الذي يعلم أن هذا من الله وأن الله قدّره وأنه حكمة لكن جزع ما طاقت نفسه، هذا ظلم وإثم وسوء أدب مع الله سبحانه وتعالى، لكن الاعتراض أن يقول هذا ليس حِكمة، كمن يقول الآن إيش هذه الأحكام التعسفية..! تقطعون يد السارق..! ما هذا الحكم!

هذا -نسأل الله السلامة والعافية- لا يشك في كفره إلا كافر، لأنه اعترض على حُكمٍ حَكَمَ الله به، وقال أنه يخالف الحكمة والصواب وأن الصواب في خلافه.

سبحان الله، أي جرأة تُقوِّم وتصحح حكمًا حكم الله به؟! ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الملك] إن الله سبحانه وتعالى علِم ويعلم سبحانه وتعالى ما به صلاح العباد، وما به فلاحهم، أما العباد فهم قاصرون على معرفة ما به صلاحهم وما به فسادهم، لذلك إذا وُكِل الإنسان إلى عقله أُصيبت مقاتِلُه وزلَّ وضلَّ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ ثم يقول الله تعالى: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾[يونس]، انظر (ولا تدع) ، (فإن فعلت) خطاب لمن؟ ولو قيل لأحدنا أو تحدّث أحد مع رجل بهذا السياق لقال أما تعلم أني كنت على المنهج من قبل كذا وكذا! سبحانك يا الله!

فالنبي ﷺ يخاطبه ربه جل في علاه بهذا الخطاب، فوالله الذي لا إله غيره إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. آية عظيمة، يُخاطِب الله سبحانه وتعالى فيها نبيه، فأين أصحاب الألباب!

ثم يقول الله عز وجل: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾، ونتذكر ونستحضر قول الله عز وجل: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر]، وهذا لا شك أنه تفريع لعموم العباد، وقد مر معنا في قاعدة أصّلناها في دروس عدة أن خطاب الشرع إلى النبي ﷺ هو خطاب لأمته ما لم يدل الدليل على تخصيص النبي ﷺ بذلك.. ومن صور التخصيص: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾[الأحزاب]. هذه خاصة بالنبي ﷺ. أما في هذا الخطاب وفي أشباه هذا الخطاب فهو عام للنبي ﷺ ولعموم الأمة.

﴿**فَإِنِ فعَلْتَ فَإِنكَ إذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ**﴾: الظلم هنا المراد به الظلم الأكبر أي الشرك، ويفسر ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان]، وهذه في نصائح لقمان وفي وصايا لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

أعظم وصية وأعظم نهج تربوي يربي فيه الأب ابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾..

﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾: مهما تعظ أبناءك، ومهما تسعى لتقويمهم، وتصحيح توجهاتهم وتحسين أخلاقهم، ولو تجمع نصائحك لأبنائك كلها لن تعدل هذه النصيحة: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.. أعظم نصيحة.

ومن علو شأن هذه النصيحة أن جعلها الله نصيحة خالدة في كتابه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، نبراسًا للآباء وتذكرةً للمربين أن أعظم ما يُقوِّم عليه الأبناء ويُنشّأ عليه الأبناء ويُنشّأ عليه الجيل هذه الوصية. وهي كمال الشفقة.. فيها كمال الشفقة على الابن.

ثم الله عز وجل يقول: ﴿وَإِنِ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هو﴾[الأنعام]، إذن نعيد ونقرر المعنى الأول أنه لا يوجد أحد يضر وينفع إلا الله.

﴿وَإِنِ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هو﴾: ماذا نستفيد من هذه الآية..؟

أنه كل من استغاث بغير الله ماذا يريد؟ يريد دفع الضر، نحن قلنا أن الاستغاثة هي طلب دفع المكروه بعد وقوعه، كل من استغاث بغير الله في هذه الدنيا في أمر لا يقدر عليه إلا الله، ومن صوره دفع الضر وجلب النفع .. فالله عز وجل يبين للعباد أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يقدّر الضر على العباد ولا يكشف الضر عنهم إلا هو، فمهما تستغيث ومهما تلتجئ ومهما تطلب الغوث من غير الله فلن يكشف ما بك إلا الله، الله أكبر..!

تعجب حينما تُقلب بصرك في أنحاء المعمورة فترى أن التي تسمى ببلاد المسلمين فيها أضرحة ومزارات يُحج إليها، وكأنهم ماقرؤوا قول الله عز وجل: ﴿وَإِنِ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هو﴾.. يذبحون للجن ويذبحون لغير الله يريدون أن يتّقوا أو يرفعوا بالتقرب إلى غير الله عز وجل ضرًا خافوا منه أو ضرًا حل بهم، وكأنهم ماقرؤوا قول الله عز وجل: ﴿وَإِنِ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هو﴾.

حينما يغفل الإنسان عن كتاب الله وعن هدي سنة رسول الله يقع في مثل ذلك، وهناك من يقرأ القرآن ويُحرم من أن يستنير بنوره، وهذا يُخشى عليه أن يكون حاله كحالِ الحمار يحمل أسفارا، أو كحال

ذلك الذي وصف النبي ﷺ قلبه: ((كالكوز مُجخِّيًا لا يعرف معروفا ولا يُنكر مُنكرًا))[مسلم].. لا حول ولا قوة إلا بالله.. يعني هب أن هذا الكأس قد قلبناه على رأسه وأرقنا عليه مياه البحار لن يمتلئ ولا بقطرة واحدة!

فالإنسان الذي يقرأ القرآن ويقرأ مثل هذه الآيات، ثم بعد ذلك يستغيث بغير الله أو يتقرّب إلى غير الله رجاء دفع ضر أو جلب نفع، فحاله كحال الكوز مُجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فالله عز وجل يبيّن للعباد أنه وحده لا شريك له الذي يُقدّر الضر على العباد ولا يكشف الضر إلا هو.. خلاص! اختصار.. قطع الطريق.. هذه الآية تقطع الطريق على كل من يظن أن هناك من ينفع أو يضر مع الله أو من دون الله..

أول الآية قال الله عز وجل فيها لنبيه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[يونس]: لا: للنهي. تدع: جاءت مُنكّرة، نكرة في سياق النهي فتفيد العموم، فتشمل جميع صور المسألة..

والدعاء في الشرع يقسّمه أهل العلم إلى قسمين: دعاء عبادة ودعاء مسألة.

دعاء العبادة أن تصلي وتأتي بعبادات، وهذه العبادة تستلزم الدعاء، لأنك تصلي وتسأل الله القبول، وتسأل الله بعبادتك هذه أن يدخلك الجنة.

لذلك قال أهل العلم: دعاء المسألة متضمن للعبادة ودعاء العبادة مستلزم للمسألة.. لأن كل من يصلي يسأل الله القبول، ويسأل الله بعبادته هذه أن يدخله الجنة فتجد أنها مستلزمة للدعاء.

لكن دعاء المسألة متضمن للعبادة، فحقيقة الدعاء عبادة، إذن فأهل العلم يقولون: دعاء المسألة متضمن للعبادة ودعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقوله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَه إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.[العنكبوت](١)

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَه إِلَى يوْمِ الْقِيٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غٰفِلُونَ﴾.[الأحقاف](٢)

وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذاَ دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾.[النمل](٣)

= إذن فهنا السياق يشمل الدعاء بنوعيه، يعني: لا تدع من دون الله أو لا تدع مع الله، لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة، وإن وقع منك أحد هذين النوعين أو كلا هذين النوعين عُدَّ ذلك الفعل شرك بالله عز وجل.

وكذلك تكلمنا عن ﴿لا ينفعك ولا يضرك﴾، أي أن هذه الآلهة التي تُدعى من دون الله سواءً كانت أحجارًا أو أصنامًا أو كان المدعو ميتًا أو كان المدعو حيًا فإن هؤلاء لا ينفعونك ولا يضرونك.

(١): ﴿**فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَه إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾: دائمًا تجد أن الذين يستغيثون وأن الذين يدعون غير الله تجد أن مسائلهم تدور حول جلب نفع، ودفع ضر وسؤال رزق.. رجل فقير يظن أن الغنى سيناله من هذا الولي أو ما شابه ذلك، مع أنه قد دفع على هذا الولي ما لو جمعه لأولاده لأغناهم، فسبحان الله! الحمدلله على نعمة التوحيد!

يعني الذي يرى حقيقة الذين يأتون إلى الأضرحة ويطوفون عليها يرى العجب العجاب، ولكن الإنسان يتذكر نعمة الله عز وجل عليه، وأعظم نعمة ينعم الله بها على عبده هي نعمة التوحيد، أن يحييك موحدًا وأن يميتك موحدًا.

﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ﴾: يعني: أي يا من تدعون غير الله تسألونه الرزق، فالرزق عند الله ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ﴾[الذاريات]، ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.[هود]

(٢): **﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَه إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَفِلُونَ﴾**: أي أن من يدعو غير الله لا أضلّ منه، أي لو جمعت ضلال أهل الأرض لن يبلغ ضلال أهل الأرض مجتمعين ضلال من يدعو غير الله، هذا هو المعنى.

لو جمعت ضلال الصغار والكبار والذكور والإناث منذ أن خلق الله آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لن يوجد أحد أضل ممن يدعو غير الله، وممن يعبد غير الله؛ لتعلموا شناعة الشرك بالله، وشناعة الإعراض عن توحيد الله عز وجل، وعظم منزلة الموحد عند الله، وخطورة الشرك ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُۥ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾: يعني مهما يدعو الإنسان غير الله سواءً كان المدعو حيًا أو ميتًا، كان المدعو صنمًا أو شجرًا أو حيوانًا أو فأرًا –لأن هناك من يعبد الفأر–، أو فرجًا –لأن هناك من يعبد الفرج–، أو نبيًا أو رسولًا أو ملكًا، فإنه لن يستجيب له إلى يوم القيامة.

آيات عِظام.. انظروا.. ثلاث آيات أو أربع آيات لو وقف الإنسان معها وقفة جادة لاستمطر بتلك الوقفات الرحمات من الله.. واللهِ ليخرج من مجلسنا هذا وقد عمّر الله في فؤاده إيمانًا وتقوى.

عرفتَ أنه لا يوجد أحد على ظهر الأرض ينفع ويضر إلا الله، وأن هذه المدعوات من دون الله لا تملك لا لأنفسها ولا لغيرها لا نفعًا ولا ضرًا، وأنه لا يوجد على ظهر البسيطة أحد يقدر على هذه الأمور إلا الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يوجد ضلال على ظهر الأرض أعظم من دعاء غير الله عز وجل.

تقريع.. إلى يوم القيامة.. لن يستجيبوا لك ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر]..

يعني حتى جدلاً ولو سمعوا ما استجابوا لكم، انظر: ﴿وَيَوْمَ الْقِيمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾، وانظر ما أعظم ختام الآية: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.. ما أعظم كلام الله! الله عز وجل يقول عن نفسه: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾..

يعني هذه الأصنام وهذه الآلهة وهؤلاء الأولياء وهذه الأضرحة التي تُدعى من دون الله عز وجل لن تستجيب لسائليها إلى يوم القيامة، وحتى لو سمعوا (وهنا السماع المراد به سماع الإجابة)، لأن النبي ﷺ جاء عند قتلى بدر فتكلم معهم فقال عمر: أتكلّم أناسًا قد جيفوا؟ فقال النبي ﷺ: ((ما أنتم بأسمعَ لِمَا أقولُ منهم ولكنَّهم لا يستطيعونَ أنْ يجيبوا))[البخاري بخلاف يسير]. فهنا يدل على أنهم يسمعون، ولكن ليس المراد سماع الإجابة وإنما السماع الحقيقي، وهذا فيه تقريع وزجر وردع..

وهذه الطريقة وردت حتى عن بعض السلف، ولكن أهل العلم قالوا لا، تمنع لأن في ذلك ذريعة ليقع الناس في المحذور، فلذلك تُتقى..

(٣): ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ**﴾ كذلك كثير ممن يدعو غير الله الغرض من دعائه أن يكشف الضر الذي نزل به وأن يكشف كذلك السوء الذي حلّ به، والله عز وجل يقول أنه لا يدفع الضر ولا يكشف السوء إلا الله سبحانه وتعالى.

لا شك مما يدل على أن سؤال غير الله في كشف الضر أو جلب النفع أو دفع السوء أنه شرك بالله عز وجل.

وروى [الطبراني] بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: ((إنه لا يُستغاث بي وإنما يُستغاث بالله)).

أولًا هذا الحديث تكلم العلماء على صحة إسناده فأعلّوه، فقد كان من رواته ابن لهيعة وهو متفق على ضعفه، وبناء على ذلك فالحديث من الناحية الحديثية غير صحيح، وهذا حديث في مسألة اعتقاد، فلا شك أن مثل هذه الأحاديث لا يؤخذ بها.

ولو سلّمنا جدلًا صحة الحديث، بعض الناس يقول يدل هذا الحديث جواز الاستغاثة بالنبي ﷺ، لا، فيُجاب على من يستدل بهذا الخبر (على فرض صحته) بمشروعية الاستغاثة بالنبي ﷺ بجوابين:

أولهما: أن النبي ﷺ هنا نفى الاستغاثة به، وقال الاستغاثة إنما تكون بالله.

ثانيًا: أن الصحابة جاؤوا إلى النبي ﷺ وسألوه أن يُغيثهم، طلبوا الغوث منه في أمرٍ يقدر عليه النبي ﷺ (حاضر وقادر.. استغاثة شرعية) إذن سقط استدلالهم.

دائمًا أهل البدع وأهل الزيغ والضلال عندهم فقط الأدلة الضعيفة، يتّبعون المتشابه ويتركون المحكم -نسأل الله والسلامة والعافية- في ضلال يعيشون.

هذا ما تسنى ذكره وإيراده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الدرس الثالث عشر

باب قول الله تعالى: ﴿أيُشْرِكوُنَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْأً وَهُمْ يُخْلَقوُنَ ۝ وَلَا يَسْتطِيعوُنَ لَهُم نَصْرًا وَلَآ أنَفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.(١)[الأعراف]

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعوُنَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكوُنَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعوُهُمْ لَا يَسْمَعوُا دُعَاءَكُمْ وَلوْ سَمِعوُا مَا اسْتجَابوُا لكُمْ وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَكْفروُنَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.(٢)[فاطر]

---

(١): أراد المصنف -رحمه الله تعالى- أن يبين في هذا التبويب أن هناك أُناس أشركوا في عبادتهم بالله عز وجل، فلذلك عنونَ المصنف -رحمه الله تعالى- لبابه هذا بقول الله تعالى: **﴿أَيُشْرِكوُنَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْأً وَهُمْ يُخْلَقوُنَ ۝ وَلَا يَسْتَطِيعوُنَ لَهُمْ نصْرًا وَلَآ أنفسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾**.

لقد بين المصنف -رحمه الله تعالى- بإيراده لهذه الآية أن المستحق للعبادة ينبغي أن يكون متصفًا بالكمال، ومن صفات الكمال أن يكون الإله خالقًا ورازقًا، فبين المصنف هنا بإيراده لهذه الآية أن من صُرفت العبادة إليهم هم لا يخلقون شيئًا، بل هم من جملة ما خلق الله.. كيف يكون الإله مستحقًا للعبادة وهو مخلوق..؟! وهذا لا شك أنه من صفات النقص لا من صفات الكمال.. فهذه الآية ونظائرها ردٌ على من اتخذ مع الله إلهًا.

لذلك انظروا إلى عظيم معاني هذه الآية ﴿أَيُشْرِكوُنَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْأً وَهُمْ يُخْلَقوُنَ﴾.. هذه الآلهة التي صُرفت العبادة لها لا تستطيع أن تُوجد شيئًا من العدم، ولكن الله سبحانه وتعالى خلق الخلائق من العدم، وهذه قدرةٌ إلهية وقدرةٌ ربانية، وبموجبها لا يستحق العبادة إلا من كان على هذا القدر من القدرة.

ويقول: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾: آلهة عاجزةٌ عن نصر عُبّادِها، عاجزة عن أن تدفع الشر عن نفسها، فهي غير مستحقة للعبادة.

فأراد المصنف –رحمه الله تعالى– أن يُبين أن المستحق للعبادة هو الله الواحد الأحد المتصف بالكمال المطلق، أما هذه الآلهة التي تُعبد من دون الله، ففيها من صفات النقص ما يُسقط مشروعية اتخاذها إلهًا من دون الله.

وقد أراد المصنف –رحمه الله تعالى– بهذا الباب أصالةً أن يرد على من اتخذ النبي ﷺ إلهًا يُعبد من دون الله، لأن هناك أناس أعطوا النبي ﷺ منزلة الألوهية، ولا شك أن هذا لا يدل على محبة النبي ﷺ، ليس من علامات المحبة الغلو فيه، ومجاوزة الحد المشروع، بل إن من علامات محبة النبي ﷺ إنزاله المنزلة التي أنزله الله سبحانه وتعالى. أما الذين ينزلون النبي ﷺ منزلة الإله الذي يستحق أن يُعبد من دون الله فهذا لم يحقق المحبة الخالصة والصادقة للنبي ﷺ، بل إنه أساء بتصرفه هذا.

(٢): **﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾**: ما زال المصنف –رحمه الله تعالى– يبين أن هذه الآلهة التي تُعبد من دون الله فيها صفات نقص لا يحصيها إلا الله، فهنا انظروا إلى هذا السياق القرآني:

﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾: قمة في التحقير، القطمير هي القشرة التي تكون على نواة التمر، ليست بشيء، شيء لا يُذكر، لا قيمة له ولا وزن له، ومع ذلك يقلل الله سبحانه وتعالى من شأن هذه الآلهة التي تُعبد من دون الله حتى أنها ما تملك حتى هذا الشيء التافه، فآلهة هذا حالها لا تستحق العبادة وبلا شك!

آلهة لا تستطيع نصر نفسها، ولا نصر عابديها، ولا إغاثة نفسها، ولا إغاثة عابديها، لا تخلق بل هي مخلوقة، لا شك أن هذه أدلة قطعية قوية يدركها أصحاب العقول والألباب ويستدلون بها على أن ما عدا الله من المعبودات باطل ولا غ، بل إن الذي يستحق العبادة هو الله وحده لا شريك له.

لذلك تكلم أهل العلم على ما يسمى بدليل التمانع: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء] وهذا دليل من الناحية العقلية قوي جدًا، لا يمكن أن يوجد في هذا الكون إلهان، لأنه لا بد من وجود التصادم والتضاد في أمر من الأمور أو في زمن من الأزمنة، ولن يوجد، فعلمنا أن الإله المدبر هو الله وحده لا شريك له..

لذلك لنقرّب هذا بالمثال، لو كان هناك بيت أو غرفة أو حجرة أو معسكر فيه أميران أو قائدان، لا شك أن هذا لا يمكن أن يستقيم، فأحدهما يقول لفلان لا تخرج والآخر يقول له اخرج، تضاد أم ليس بتضاد؟ تضاد.. الأول يقول له اجلس والآخر يقول له اخرج.. الأول يقول له افعل والآخر يقول له لا تفعل.. فهب أن هناك إله مع الله في هذا الكون، إله يريد أن تغرب الشمس وإله يريد ألا تغرب الشمس.. لا يمكن..

فهذا سماه أهل العلم دليل التمانع ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، لحصل هناك فساد في الكون واضطراب في الكون، ولكن نحن نشهد ونرى خلاف ذلك، نرى اتزان ونرى كيف يقلب الله الليل والنهار وكيف يُجري الله سبحانه وتعالى الأفلاك، فنعلم علمًا جازمًا ونوقن يقينًا لا يشوبه شك بأن المدبر في هذا الكون واحد.. حينما يُعمل الإنسان صاحب الفطرة السليمة عقله يدرك ذلك إدراكًا بينًا ظاهرًا.

فهذه آيات عظام يستدل بها الإنسان على وحدانية الله سبحانه وتعالى، وعلى نبذ عبادة من سواه

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ﴾: أي أيها المشركون، يا من ارتضيتم أن يكون مع الله ندًا مساو له.

﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾: إله هذا حاله، بل لربما يكون العبد أفضل حالًا من إلهه هذا! فكيف هذا الإله يستحق العبادة..؟! لا إله إلا الله..

ولكن يحمد الإنسان ربه وخالقه أنه هداه إلى هذا الأمر العظيم..

لذلك تجد الإنسان فيعجبك مظهره وقد يكون حسن المنطق حسن التصرف، ولكن إذا نظرت إلى معتقده وإلى حقيقة عبادته، تراه من أسفه الخلق! أناس تحصّلوا على الشهادات العليا، لعلكم تسمعون عنهم بروفيسور فلان، ثم بعد ذلك لا يُهدى إلى هذه العقيدة!

فإذا رأيته تجد أنه –أكرمكم الله– يعبد البقر أو يعبد الشجر أو يعبد الحجارة أو يأتي بعقيدة لا يمكن للعقول السوية أن تتلقاها بالقبول.. كأن يقول أن الله ثالث ثلاثة.. يعني رجل يأتيك يقول لك ثلاثة زائد واحد يساوي واحد! ماذا ستقول له؟ فيك خلل! ولكنهم يريدون أن يطوّعوا الناس إلى هذه العقيدة المنحرفة.

﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾: وهذه قد يُستدل بها على ما سبق وما قررناه وبيناه في الباب السابق أنه إذا كانت هذه الآلهة التي يستغيث بها عابدوها هي أصلا لا تملك هذا الشيء الحقير! قطمير! قشر النوى! شيء تافه! لو جُمعت منه الأطنان لما تشرفت النفوس لها.. ليست بشيء! فانظروا إلى غاية التحقير التي نعتت بها هذه الآلهة التي تعبد من دون الله..

ولكن حينما تنظر إلى المستحق للعبادة وحده لا شريك له، يملك هذا الكون بما فيه، ((يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر))..[مسلم]

أنا لن أقول لك بحر.. هذا الكأس، ادخل فيه مخيط، ثم أخرجه، ما هو القدر الذي خرج مع هذا الخيط من هذا الكأس..؟! ليس بشيء، فكيف والموصوف هنا بحار.. لا إله إلا الله!

عظيم اتصف بالعظمة المطلقة، فغناه لازمٌ لا ينفك عنه، وفقر العباد لازمٌ لا ينفك عنهم ﴿يَآأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللهِۖ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[فاطر].. حينما يطلب الإنسان الرزق فإن طلبه من الله وجد، وإن طلبه من غير الله لم يجد، حتى وإن قدّر الله له رزقًا في هذه الدنيا.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وفي الصحيح عن أنس بن مالك قال: شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد، وكسرت رباعيته، فقال: كيف يُفلح قومٌ شجّوا نبيهم، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران].

الجِراح يقسّمها الفقهاء إلى قسمين: شَجّ وجُرح.

فرّق أهل العلم بين الشجة والجرح، فقال بعضهم الشج هو جرح الرأس، والجرح هو ما يكون في الوجه وسائر البدن.

طيب حينما قال الله عز وجل: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[المائدة]، هل يخرج الشج فيُقال أن شج الرأس لا يدخلُ في القصاص؟ نقول أن كل جرح شجّ وليس شجّة جرح، فنقول بينهما عموم وخصوص..

(**وكسرت رَبَاعيته**): الرَبَاعية هي الأسنان التي تأتي بعد الثنايا أو الثنيّة.

فقال ﷺ: (**كيف يُفلح قومٌ شَجّوا نبيهم**)، فنزلت: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾.. الله أكبر!

اللهم صلِّ على محمد وآله وأصحابه ومن اقتفى أثره واستنّ بسنته إلى يوم الدين.. إن هذا الخبر يدل على أن النبي ﷺ تلقى بلاءً عظيمًا، وقدّر الله سبحانه وتعالى عليه أن يُمتحن وأن ينال جزءًا عظيمًا من البلاء والشدة، لقد أُوذي عليه الصلاة والسلام، ونال شخصه الكريم جراح في جسده، وكذلك أوذي في عرضه عليه الصلاة والسلام ومع ذلك صبر واحتسب ورضي بما قدّر الله سبحانه وتعالى عليه.

(كيف يفلح قوم شجّوا نبيهم): بين الله سبحانه وتعالى أن النبي ﷺ أُرسل رحمة للعالمين، ولكن المشركين يقابلون هذه الرحمة ويجازونها بهذا الجزاء، فيُشجّ رأسه وتُكسر رباعيته عليه الصلاة والسلام، وهذا الأمر القدري الذي قدّره الله سبحانه وتعالى على نبيه يدل على أن النبي ﷺ مخلوق لا يستحق العبادة، عاجزٌ عن أن يدفع الضر عن نفسه..

ثم بعد ذلك لما قال هذا الكلام أنزل الله سبحانه وتعالى عليه ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وهذه حُجّة وهذا دليل وردٌّ على من يُنزل النبي ﷺ منزلة الخالق أو المعبود، فإن النبي ﷺ لا يملك من الأمر شيء لا لنفسه ولا لغيره وإن من الصفات التي يتصّف بها الإله المعبود أنه يملك من الأمر شيء، بل هو المدبر بل هو الذي يأمر وينهى ويحيي ويميت ويوجد من العدم، الإله المستحق للعبادة هو المتصف بصفات الكمال والجلال والعظمة، فالنبي ﷺ من جملة البشر الذين ينالهم الأذى ولا يملكون من الأمر شيء، لا يملكون من الأمور الكونية شيء.. لذلك النبي ﷺ حينما أشار على بعض الصحابة في قضية تلقيح النخل فقال لهم (تركتموه) يعني إن شاء الله لا يضر، فلما تركوه ماذا حصل؟ خرجت الثمرة فاسدة وغير صالحة للأكل فلما أخبروه قال: (أنتم أعلم بأمور دنياكم)، فهذا دليل على أن النبي ﷺ لا يملك من الأمر شيئا.

وأراد المصنف -رحمه الله تعالى- بإيراد هذه النصوص أن يبين أن من غلا في النبي ﷺ وأنزله منزلة الألوهية فهذه تدلة كفيلة بالرد عليه.. وأن النبي ﷺ شج وجُرح وكسرت رباعيته فهو عاجز عن أن يدفع ما قدّر الله سبحانه وتعالى عليه، فهو من جملة المخلوقات، ولكن لا يعني ذلك أن يُنتقص من النبي ﷺ وأن يُنزل تحت المنزلة التي أنزلها الله إياها.. لا؛ فإن من علامات محبة النبي ﷺ وإجلاله؛ إنزاله المنزلة التي أنزله الله إياها، فمن تعامل في هذه القضية على أنه عليه الصلاة والسلام نبي مرسل من ربه وأنه نبي للعالمين وأنه مرسل إلى العرب والعجم وأنه لا يصح إيمان للمرء حتى يحب النبي ﷺ، بل تكون محبته مقدمة وأعلى من محبة النفس والأهل والولد والناس أجمعين، إلا أن ذلك بعد محبة الله سبحانه، فهذا يكون مُحبًّا للنبي ﷺ.

أما من يظن أن من علامات محبته الاستغاثة به أو مخالفة هديه أو المبالغة في محبته فهذا إعراض عن سنته وهديه، والإعراض عن سنته وهديه يتنافى مع محبته عليه الصلاة والسلام.

لذلك يقول المفسرون عند قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران]، هذه الآية امتحن الله سبحانه وتعالى بها صدق الناس، فهناك أناس أصحاب دعوى لا حقيقة لها،

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وعن ابن عمر ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد: اللهم العن فلانًا وفلانًا، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية.(١)

= وما زالت الأمة إلى يومنا هذا تعاني من الأدعياء.. أناس يدّعون أمورًا لا حقيقة لها وهم من أبعد الناس عنها، فامتحن الله العباد بهذه الآية ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ..﴾.

إذن فهذا النص يدل على أن النبي ﷺ لا يملك من الأمر شيء، فإذا كان ﷺ لا يملك من الأمر شيء فهل يستحق العبادة أم لا؟ لا يستحق العبادة.

(١): سمع ابن عمر رضي الله عنه النبي ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع.. وهذا يسمى بقنوت النوازل، وقد تكلم أهل العلم على قنوت النوازل، فمن جملة ما تكلم عنه الفقهاء عدة مسائل منها:

القنوت مَنوطٌ بمن؟

اختلف العلماء في ذلك على أقوال، القول الأول: أنه منوطٌ بإمام المسلمين، ومعنى ذلك أنه إذا نزل بالأمة نازلة فإن الذي يباشر بالقنوت هو إمام المسلمين، وما عداه يكون في موضع التأمين.

والقول الآخر -وهو الصحيح من أقوال أهل العلم-: أن القنوت منوطٌ بكل إمام جماعة، يعني كل إمام مسجد يشرع له حال نزول نازلة بالمسلمين أو نزول مصيبة عامة بالمسلمين أن يقنت كل إمام..

القول الثالث وهو ما مال إليه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: وهو أن على كل مسلم أن يقنت.

إذن ثلاثة أقوال لأهل العلم، والصحيح منها -والله تعالى وأعلم بالصواب-: هو أن القنوت في حال نزول النازلة منوطٌ بكل إمام جماعة، والمراد هنا الإمامة الصغرى التي هي إمامة الصلاة، فإذا نزل بالمسلمين نازلة شُرِع لكل إمام جماعة أن يقنت بالمصلين.

وهنا مسألة: قنوت النازلة لا يأخذ أحكام قنوت الوتر، فبعضهم مثلًا يقول في قنوت النازلة: (اللهم اهدنا فيمن هديت)، لا هذا غير مشروع، بل المشروع في قنوت النازلة أن تكون على قدر النازلة، فمثلًا هجم العدو على ديار المسلمين، ففي مثل هذا الحال يشرع لكل إمام جماعة -والمقصود هنا بإمام جماعة أي إمام جماعة الصلاة وليس المقصود الجماعات هذه اليوم وليس هنا دعوة للفرقة بل دعوة للاجتماع- فالمقصود إمامة الصلاة، فيشرع لكل إمام مسجد أن يقنت لمصليه، فلا يشرع في مثل هذا الحال أن يزيد عن النازلة بأن يقول مثلًا: اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، وإنما يقول مثلًا: اللهم اكفناهم بما شئت وأنت السميع العليم، اللهم إنّا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم.. وكلما كان الدعاء مأثورًا عن النبي ﷺ أو عن صحابته فهو الأولى، وبه يعظم الأجر والثواب، كأن يدعو: اللهم اجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف، اللهم منزل الكتاب سريع الحساب.. احصهم عددًا واقتلهم بددًا، اللهم اشدد وطأتك عليهم.. فيدعو الإنسان بالمأثور، ولا حرج أن يزيد على ذلك ولكن شريطة أن يكون الدعاء كله حول النازلة..

بعض الناس يختم دعاء القنوت بالصلاة على النبي ﷺ، هذا غير مشروع، ولم يثبت عنه ﷺ أنه كان يختم دعاء القنوت بالصلاة على النبي ﷺ.

اختلف أهل العلم في موضع القنوت هل هو قبل الركوع أو بعد الركوع، روايتان عند أحمد، وخالفه في ذلك جمع من الفقهاء، ولكن الذي يظهر -والله تعالى أعلى وأعلم بالصواب- مشروعية الأمرين، أنه يجوز أن يوقع القنوت قبل الركوع أو بعده، ولكن الذي عليه أكثر النصوص الواردة، هو أن يكون بعد الركوع، ولا حرج على الإنسان في مثل هذا الحال أن يعمل بهذا تارة ويعمل بذلك تارة أخرى، وهذا ما يسمى عند الفقهاء بسنن التنوع، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- يقول أنه ينبغي على المسلم

في السنن التنوع أن يأتي ببعضها تارة وبالأخرى تارة أخرى.. يعني مثلًا ثبت عن النبي ﷺ عبادة من العبادات على عدة صور فالمستحب أن يأتي بهذه تارة وبالأخرى تارة أخرى وهكذا.

رفع اليدين في القنوت محل خلاف بين أهل العلم، والذين يقولون لا تُرفع الأيدي في القنوت يستدلون بخبر ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يرفع يديه في التكبير ثم لا يعود لرفعها بعد ذلك، هذا الحديث تحدث عليه الحفاظ فأعلوه، وقدحوا في إسناده، ولكن الذي يظهر أنه ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم كعمر وأبي هريرة وابن عمر أنهم رفعوا أيديهم في القنوت، ولنا كذلك في صحابة رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فلا حرج من الرفع، ولو ترك الإنسان الرفع واقتصر على التأمين كذلك فلا حرج عليه، فمن رفع فله مستنده الشرعي، وهو الذي تميل إليه النفس -والله تعالى أعلى وأعلم بالصواب- ما دام أن الصحابة رضي الله عنهم وهم أهل فقه وعلم رفعوا أيديهم في مثل ذلك، ولو كان حديث ابن عباس صحيح لكان حجة في المسألة، ولكن لما كان فيه قوادح وتحدّث أهل العلم على إسناده؛ قلنا بمشروعية الرفع.

وعلى العموم من آداب الدعاء رفع اليدين، لكن يبقى أنه في قضية الصلاة، فأنت الآن في داخل عبادة فنقتصر على مورد النص، أما في خارج العبادة نعم لا حرج، إلا أن هناك مواضع مثل في صلاة الجمعة، فهذه عبادة والأصل في العبادة التوقيف، فلا نقدم على عبادة من العبادات إلا بنصٍ ثابت.

- أخ يسأل: دعاء الوسيلة..؟

- الشيخ: بالنسبة لدعاء الوسيلة الذي بعد الأذان فهذا ذكر فلا يرفع يديه، يُتفطَّن لمثل ذلك ويُفرَّق بين الأذكار والأدعية.

وإدامة القنوت بعد الرفع من الركعة الأخيرة في صلاة الفجر كان يراه الشافعي، ويستدل على ذلك بخبر أنس أن النبي ﷺ كان يقنت في الفجر، فحمل أهل العلم القنوت على طول القيام ولم يحملوه على قضية قنوت النازلة، وهناك من أهل العلم من كان يرى مثل ذلك كأصحاب الشافعي -رحمه الله تعالى،

ولكن الذي يظهر -والله تعالى أعلى وأعلم بالصوات- أنه إذا نزل بالمسلمين نازلة شُرِع لهم أن يقنتوا في الصلوات الخمس كلها، وقد ثبت عن ابن عمر وعن أبي هريرة رضي الله عنهم أنهم قنتوا في الصلوات الخمس، فيشرع في مثل ذلك أن يقنت إمام الجماعة في الصلوات السرية والجهرية.

ومدة القنوت على حسب النازلة، فالنبي ﷺ حينما قنت شهرًا كان هذا بقدر النازلة، والأصل أن النازلة إذا انتهت ينتهي القنوت بانتهائها، ولكن الآن الأمة تعاني من نوازل، فيشرع في مثل هذا الحال أن يقنت المسلمون في صلاتهم، فلو لم يكن هناك جماعة تقام؛ لا حرج أن يقنت النصلي وإن كان فردًا.

طبعًا هنا التنصيص على صلاة الفجر (الركعة الأخيرة من الفجر) لا يعني أن المشروعية مقتصرة فقط على صلاة الفجر، بل ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا يقنتون في الصلوات الخمس كلها، إلا أن هناك من مال إلى القنوت في الفجر والمغرب لأن الفجر هو أول النهار وقريب من السحر وكذلك المغرب أول الليل، فمال بعض أهل العلم إلى هاتين الصلاتين.

ويراعي الإنسان إذا كان يقنت في كل صلاة فإن ذلك يشقُّ على المصلين، ولأن الإكثار منها في بعض الأحيان حقيقةً قد يُذيب التدبر والمعنى الأساسي والغرض الأساسي لمشروعية مثل ذلك، فإن الناس إذا نزلت بهم نازلة تجد أن النفوس مُقبلة، الكل يتضرع والكل يدعو من أعماق قلبه، ويسألون الله سبحانه وتعالى أن يرفع عنهم ما حل بهم، فيُراعى مثل ذلك، فإذا كان ذلك مُتأتٍ قنت في الصلوات الخمس، كأن يكون معه طلبة علم وأناس فُضلاء محبين للخير.. ولا يطيل الإنسان في القنوت.. بعضهم يمكث في قنوت النازلة نصف ساعة.. أطول من الصلاة بعض الأحيان.. يعني تجد أن الصلاة عشر دقائق والقنوت خمس وعشرين دقيقة.. يعني صار الإمام بحد ذاته نازلة ههههه.. ممكن في أثنائه يقول البعض اللهم خلّصنا منه :)

فحقيقة هذا أمر ينبغي أن يتفطّن له الأمر أئمة المساجد، ويراعون ذلك، وأن يكون القنوت على قدر النازلة، وأن يستخدم الألفاظ الجامعة، ولو مثلًا عيَّنَ كأن يدعو: اللهم العن أوباما اللهم عليك به وجنده، اللهم العن بشار اللهم أهلكه.. ودعا على رؤوس الكفر والردّة، نعم لا حرج من ذلك.

– سائل: شيخ، هل يجوز للمأموم أن يقول غير آمين، كأن يقول يا الله..؟

– الشيخ: الأصل أن يقول آمين يعني اللهم استجب..

في بعض الأحيان قد يقول الإمام: (يا قوي يا قهّار يا جبّار).. فيقول المأموم: (سبحان الله) لا شك أن التسبيح هو تنزيه لله عن النقائص، لكن الإمام هنا يقول ثناء على الله سبحانه وتعالى، فإذن التسبيح غير مناسب هنا حقيقةً.. فانظر مواضع التسبيح: ﴿سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾.. فتجد أن التسبيح دائمًا يكون في تنزيه لله سبحانه وتعالى عن النقائص، لكن إذا كان الإمام يعظّم ويُثني على الله ويسأل الله سبحانه وتعالى بما هو أهله وهو أهل الثناء والمجد، ففي مثل هذه الحالة يختار عبارة مناسبة أو يسكت، كأن يقول يا الله أو لا إله إلا الله.. ولكن الذي يظهر –والله تعالى أعلى وأعلم بالصواب– أنه في حال الثناء يسمع وفي حال الدعاء يؤمّن.

– أخ يسأل: شيخنا الله يبارك فيك، كثير من أحبابنا إذا وعظَنا وجلت القلوب، فتقول ما شاء الله، فإذا ما صلى بنا بدأنا ندرك معه نصف الفاتحة في الصلاة السرية، فاقتران القول بالعمل الله يبارك فيك هذا من لزوميات الإمام.. خاصة وأن هذا الجمع المبارك كلهم أئمة..

– الشيخ: لا شك، هذا مما لا شك فيه.. نعم.. بارك الله فيك، يعني هذه رسالة إلى أئمة المساجد، هذا أحد المأمومين يُعاني.. هذه معاناة نُقلت إلينا في هذا الدرس.. لعلها إن شاء الله تصل إلى قلوب واعية..

نعم، الفقهاء قرروا أنه يجب على الإمام وجوبًا أن يُمكّن للمأموم أن يأتي بالقدر الواجب، فإن لم يتمكن المأموم من الإتيان بالقدر الواجب في صلاته؛ شُرِع للمأموم أن ينفصل عن إمامه، ينوي الانفصال وينفصل ويتمّ صلاته لوحده.

ويحرم على الإمام أن يصلي بالناس صلاةً لا يمكّنهم فيها من الإتيان بالقدر الواجب، فتجد بعضهم لا يترك لهم مجال ليقولوا تسبيحة واحدة، ما تقول الله أكبر ما تنطق الراء فيها إلا وهو يقول سمع الله لمن حمده!

يعني لا يمكن أن يكون ذلك، يعني إذا عُلِم أن الإنسان فعلًا يُخل بهذا الأمر فلا بد من التنبيه عليه فإن تنبّه وإلا مُنع من الإمامة.

ويستحب له أن يُمكّن المصلي من الإتيان من القدر الواجب والمستحب.

ولا شك هي خمس صلوات -ولكنها في الأجر خمسين-، فكيف لو كانت خمسين؟! الله أكبر، اللهم صلِّ على محمد الذي ما زال يراجع ربه حتى خفف عنا هذا التخفيف..

- أخ يسأل عن إطالة الإمام في الصلاة..

- الشيخ: إذا كانت الإطالة فعلًا لا تطيقها النفوس السوية المعتدلة.. خير الهدي هدي نبينا محمد ﷺ، يعني الإطالة هنا يُنظر إليها.. يعني مثلًا بعض الناس هنا تقرأ بوجه واحد.. يقولون كسّرت رجلينا يا مطوّع! أطلت علينا وهكذا.. لا يعني حقيقة هذه ليست إطالة، لكن الإنسان يتتبع السنة.. فالإطالة تكون في الفجر، والتوسّط في الظهر والعصر على أن تكون العصر أقل من الظهر، وكذلك المغرب يقرأ من قصار السور، والعشاء يقرأ كذلك من قصار السور كالشمس وضحاها، والليل إذا يغشى.. وما شابه ذلك.. وكما قسم في قضية أنه يقرأ من طوال المفصل ومن قصار المفصل ومن أواسط المفصل وهكذا على ما ثبت عن النبي ﷺ.. فنعم، فهذا ما يتعلق بقضية القنوت.. بقي عندنا قضية اللعن..

(بعد ما يقول سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد): هذا يدل على أن القنوت بعد الركوع، وهو الذي عليه أكثر النصوص الواردة عنه، ولا حرج من إيقاع القنوت قبل الركوع وهو قول لأهل العلم ويوجد هناك آثار تدل عليه، ولكن إذا أراد الإنسان أن يختار فالذي عليه أكثر النصوص الواردة والأقرب -والله تعالى أعلى وأعلم- بأن يكون بعد الركوع، ولا حرج من إيقاعه قبل الركوع خصوصًا إذا كان المقام

مقام تعليم، فتأتي مرة من المرات فتقنت قبل الركوع، لأجل أن يتعلم الناس، فيبدأ المرء يسأل لماذا هكذا ثم يتفقهون في هذه المسألة.

(فقال ﷺ اللهم العن فلانًا وفلانًا): هذا يُسمى لعن المعيّن، ومر معنا أقسام اللعن، وأن أهل العلم يقسمه إلى قسمين: لعن أكبر وهو الطرد عن رحمة الله، واللعن الأصغر هو الطرد عن كمال رحمة الله، واللعن الأول للكافر لمن خرج من الملّة، وأما اللعن الأصغر: للفسّاق ولعصاةِ المسلمين كما لعن لنبي ﷺ الواشمة والواصلة والنائحة، وكل هذه أعمال مُفسّقات وليست أعمال مُكفرّة، وكذلك آكل الربا وموكله وشاهديه.. وكل من جاء النص باستحقاقه للعن.

تكلم أهل العلم على قضية لعن المعيّن، المعين لا يخلو من أمرين: إما أن يكون كافر وإما أن يكون مسلم ارتكب موجبًا للعن.

لعن الكافر المعين: الذي يراه المصنف -رحمه الله تعالى- ويدل إيراده لهذا النص أنه يميل إلى مشروعية لعن المعيّن، فهذا الذي يظهر -والله تعالى أعلى وأعلم -كما رجحناه في الدروس التي مضت، فقلنا أن اللعن دعاء، والدعاء إما أن يُجاب أو لا يُجاب، أو يُقبلَ أو يُرَد، ولكن شريطة أن يكون اللعن واقعٌ على نفسٍ مستحقة له، لكن إذا لعن الإنسان من لا يستحق اللعن فلا شك أن إثم اللعن يعود عليه، وتكلمنا على هذه المسألة، والصحيح -والله تعالى أعلى وأعلم- أن أهل العلم أولًا اتفقوا على اللعن بالعموم كعموم الكفار، لعن الله اليهود والنصارى، لعن الله آكلي الربا.. لعن الله الواشمات.. لعن الله زوّارات القبور.. هذه أوصاف عامة لا حرج من النطق بها، ولكن لعن المعين من فسّاق المسلمين فعليه أن يقول: هو ملعون بلعنة الله له، أو بلعنة النبي ﷺ له، تحاشيًا للخلاف الوارد في هذه المسألة.

وإذا كان اللعن لمسلم فهو طرد عن كمال الرحمة، وإذا كان لكافر فهو طرد من رحمة الله عز وجل.

وفي رواية يدعو على صفوان بن أميّة وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وفيه: عن أبي هريرة ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، صعد الصفا فقال: (يا معشر قريش -أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفيّة عمّة رسول الله ﷺ، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئتِ، لا أغني عنك من الله شيئًا).[1] أخرجه البخاري

= **(اللهم العن فلانًا وفلانًا، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾)** : **إذن** هذا النص يدل على أن النبي ﷺ لعن أناسًا بأعيانهم، وهذا يدل على مشروعية لعن المعين، فهو ﷺ أوقع هذا اللعن وهذا الدعاء على أناس بأشخاصهم وأعيانهم، وأهل العلم حينما تحدثوا عن إنزال قول الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ قالوا بأن هذا ليس نسخ للحكم الذي هو اللعن، وإنما أن النبي ﷺ لا يملك من الأمر شيء فقد يوقع الله سبحانه وتعالى عليه أقداره التي قد يتضرر الإنسان بها، وهذا يدل على أن النبي ﷺ من جملة الخلائق التي لا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا.

(١): الله أكبر! هذا محمد ﷺ يقول لأقرب الناس إليه وأعز الناس عليه (لا أغني عنكم من الله شيئًا)، إذا كان أقرب الناس إلى النبي ﷺ وهم من أشرف الناس نسبًا، ومن أعظمهم مكانةً وقربًا من النبي ﷺ، قرابتهم من النبي ﷺ لا تنفعهم (لا أغني عنكم من الله شيئًا)، أنقذوا أنفسكم..

هذا يدل على أن النبي ﷺ لا يستحق شيئًا من خصائص الألوهية، وإذا علمنا ذلك علمنا ضلال وانحراف الذين يستغيثون بالنبي ﷺ أو يتوجهون إليه بالدعاء.

رأيناهم كثيرًا في المسجد النبوي يستدبرون القبلة ويستقبلون القبر، ويدعون النبي ﷺ بأدعية لا يجوز صرفها إلا لله، فيقولون: أغثنا واشفنا وعافنا وأدخلنا الجنة! واشفع لنا عند الله، واسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا! كل هذا من قبيل الشرك ولا حول ولا قوة إلا بالله..

يتعلقون بالمتشابه ويتركون المحكم، وهذا ديدن أهل الزيغ والضلال ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَناً بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الْأَلْبَبِ﴾.

لذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ما استدل أهل بدعٍ إلا ووجدنا في أدلتهم ما نرد به عليهم.. -أو كما نُقِلَ عنه رحمه الله-.

فدائمًا تجد ضعفًا في أدلة أهل البدع، وتجد أن أهل الحق يستدلون بالمحكمات والبيّنات الواضحات من الأحاديث الصِحاح ومن نصوص كتاب الله عز وجل قطعية الثبوت.

مشكلة عظيمة أن يعتقد الإنسان ثم يستدل.. هناك عندنا من يعتقد ثم يستدل، وعندنا من يستدل ثم يعتقد.. هل نستدل ثم نبني عقيدتنا على ما دل وثبت عندنا من نصوص الوحيين..؟ أو أننا نعتقد ثم بعد ذلك نبني الأدلة على اعتقادنا..؟! نستدل ثم نعتقد.

طيب كيف يكون الانحراف إذا اعتقد الإنسان ثم استدل؟ لأنه سيدافع عن عقيدته ولو كانت عقيدته وأدلته من هواه.. من أين جئت أنت بهذه العقيدة إن لم يسبقها دليل..؟!

الله عز وجل يقول: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾[محمد]، فإذا لم يكن هناك علم صحيح سينتج عنه اعتقاد باطل غير صحيح، وإذا وُجِد عندنا علم صحيح سيُبنى عليه اعتقاد صحيح، إذا كنا نعلم أن العقيدة لا تُستمد إلا من نور وهدي ونصوص الوحيين، فمن أين سنأتي بالعقيدة إذا لم يسبق ذلك دليل..؟!

فلذلك هذا ديدن أهل الزيغ، تجد أنه يسعى لتطويع النصوص إلى رأيه ومعتقده.. اعتقد عقيدةً في المسألة فوجد أن نصوص الشرع لا تحتمل ولا تعضد ولا تقوّي ما ذهب إليه، فتجد أنه يريد أن يحمّل النص ما لا يحتمله، لذلك كما قال أهل البدع في قضية نفي الكلام عن الله عز وجل، وكان أهل السنة يستدلون عليهم بقول الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[النساء]، نص قوي محكم، دلالته واضحة.. كلّم تكليمًا.. ليس هناك مجال للمناقشة، قال أحد أهل البدع: كلّمه أي جرحه بأنامل الحكمة..!! يعني تحميل للنص ما لا يحتمل! يأتي نص محكم قطعي الثبوت قطعي الدلالة، فتجد أنه يعترض عليه بهذا الاعتراض! حمله على معنى مجازي وو..إلخ

فلذلك كلما كان الإنسان يبني نهجه ويبني معتقده بناءً صحيحًا، فإنه لا يزيغ في وقت الزيغ ولا يضطرب في وقت الاضطراب؛ لأن المشكلة عند البعض أنه ما عنده أصلًا رسوخ في عقيدته،

فإذا طرأت عليه الشبهات تزعزع.. وهذه مشكلة..! لذلك البعض حينما ترد عليه بعض الشبه يقول: ها.. يا ولد هل أنا على الحق أم لا..؟!

لماذا يقع عند الناس مثل هذا..؟ عدم الرسوخ، ثم بعد ذلك الذي يبني معتقده على شفا جرف، لذلك حينما تأتيه ريح غير شديدة بل متوسطة ربما يسقط بسببها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذا ما تسنى ذكره وإيراده، والله يقول الحق ويهدي السبيل، هذا والله تعالى أعلى وأعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الرابع عشر

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

باب قول الله تعالى: ﴿حتى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.(١)[سبأ]

بسم الله، الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

ما زلنا وإياكم في هذه السلسلة القيمة المباركة أسأل الله سبحانه وتعالى أن يطرح فيها البركة.. نتدارس وإياكم فيها شرح كتاب التوحيد..

(١): **﴿حتى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعلِيُّ الْكَبِيرُ﴾**: يريد المصنف –رحمه الله تعالى– أن يبين أمرًا هامًا يقرر فيه أن ملائكة الله عز وجل هم من جملة المخلوقات التي يطرأ عليها الضعف والنقص، فإذا كانت ملائكة الله تفزع وتخاف فهذه صفة نقص فيها، والإله المعبود لا ينبغي أن يكون مُتّصفًا بصفات النقص، بل لا يكون الإله مستحقًّا للعبادة حتى يكون متصفًا بالكمال.

وقد بين المصنف –رحمه الله تعالى– وأورد على ذلك أدلة بين فيها أن النبي ﷺ كما مر معنا في الباب الماضي أنه من جملة البشر الذين لا يملكون من الأمر شيء، وأنه يعتريه ما يعتري سائر البشر،

فأصيب ﷺ وناله أذى من قومه، وهذا يدل على أن النبي ﷺ لا يستحق أن يكون إلهًا يُعبد من دون الله، وهذا ليس تقليلًا من شأنه ﷺ ولا إنقاصًا من قدره، بل إن الإنسان لا يكون مُعظِّمًا

ومحبًّا للنبي ﷺ حتى يُنزله المنزلة التي أنزله الله سبحانه وتعالى إياها، لا كما يظن بعض الناس أن من كمال محبة النبي ﷺ ومن صدق المحبة أن تتخذ النبي ﷺ إلهًا مع الله أو من دون الله كما وقع وحصل من كثير من الناس! وقد بيّنّا ذلك وقررناه في الدرس الماضي، أما في هذا الباب فيورد المصنف –رحمه الله تعالى– نصوصًا شرعية تدل على أن الملائكة على علو قدرها وعظيم منزلتها عند الله سبحانه وتعالى إلا أنه يعتريها من صفات النقص الشيء الكثير، وهذا يتنافى مع صفات الإله المعبود، فنعلم حينئذٍ أن العبادة لا يستحقها أحد مع الله ولا من دون الله، فإن أفضل الأنبياء وأعلى الأنبياء منزلةً ومكانةً عند الله عز وجل يُجرح ويُؤذى ويعتريه ما يعتري سائر البشر، فكيف بمن دونه؟!

فإذا كان النبي ﷺ على علو قدره وعظيم منزلته يتصف بهذه الصفات التي لا توصله لدرجة الإلهية فكذلك الأنبياء عليهم السلام لا يستحقون شيئًا من ذلك..

وبين المصنف –رحمه الله تعالى– حينما أورد هذه الآية في الباب ﴿**إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ**﴾: أي حتى إذا زال الفزع عن قلوبهم، فإذا علمنا أن الملائكة تفزع وتخاف، فهذه صفة نقص، والإله المعبود لا بد أن يكون متصفًا بصفات الكمال، وهذا يتنافى مع صفات الكمال، فنعلم حينئذٍ أن الملائكة لا تستحق أن تُعبد من دون الله عز وجل، وهذا ردٌّ على من ألَّه ملائكة الله، وعبدها من دون الله عز وجل.

فلذلك من فقه المصنف –رحمه الله– أن بين النصوص الشرعية التي تدل على بشرية النبي ﷺ، وبين كذلك النصوص الشرعية التي تدل على أن الملائكة وإن عُبِدَت من دون الله فإنها لا تستحق ذلك، بدليل أنها متصفة بصفات نقص تتنافى مع صفات الكمال التي يستحقها الإله المعبود.

قال المصنف -رحمه الله-:

في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ: عن النبي ﷺ قال: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، فيسمعها مسترق السمع - ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض- وصفه سفيان ابن عيينة بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن. فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ فيُصدّق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء).[1]

---

(١):هذا النص يدل على أن الملائكة تخاف ويطرأ عليها من الأمور التي تدل على أنها لا تتصف بصفات الكمال التي يستحق المتصف بها العبادة.

(إذا قضى الله الأمر في السماء): القضاء هنا يشمل القضاء بنوعيه: القضاء القدري والقضاء الشرعي.

وأهل العلم يقسمون القضاء والأمر إلى قسمين:

قضاء شرعي أو أمر شرعي، **وقضاء قدري** أو أمر قدري.

وبينهما فوارق، فالقضاء الكوني لا يلزم أن يكون محبوبًا لله عز وجل، أما القضاء الشرعي لا بد أن يكون محبوبًا لله عز وجل، وبمثل هذا التقسيم يتحدث أهل العلم على مسألة الإرادة، والإرادة إما أن تكون كونية أو تكون شرعية، فأهل العلم مثلًا يقولون: أن الله أراد وقوع الكفر إرادة كونية، لأننا قلنا أن القضاء الكوني أو الإرادة الكونية لا يلزم منها أن يكون هذا الأمر المقدّر محبوبًا لله عز وجل.

ولذلك يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى-: ومراد الله على قسمين: أمور أرادها الله لذاتها، وأمور أرادها الله لغيرها.

فالله أراد جبريل، أراد أن يوجد جبريل فهو ذات محبوبة، وأراد كذلك إرادةً كونية وجود الشيطان، وفي ذلك حِكَم، مثلًا إذا وُجِدَ الشيطان وجدت الغواية ووجدت المعصية، وإذا وجدت المعصية وجدت التوبة التي هي محبوبة لله عز وجل، فتوجد التوبة بوجود المعصية، وتوجد المعصية بوساوس ومكر وكيد الشيطان، فالشيطان هنا مراد لغيره لا لذاته، هذا هو مفهوم كلام الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى-.

فهناك أشياء أرادها الله سبحانه وتعالى لذاتها وهناك أشياء أرادها الله سبحانه وتعالى لغيرها، فيتفطن إلى مثل ذلك، فإذا أحسن الإنسان فهم مثل ذلك انحلت عنده كثير من الإشكالات التي قد تعلق في أذهان البعض.

قد يأتي شخص ويقول -كلام فيه جرأة، ولكنك قد تسمعه من عامة الناس-: لماذا يُخلق الشيطان، ولماذا توجد مظاهر الكفر، ولماذا يوجد الكفر..؟

الله أراد الجهاد والجهاد إرادة شرعية، والجهاد لا بد أن يكون في مقابلة الكفار، فلو لم يكن هناك كفار لم يكن هناك جهاد.. الله أراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا لم يوجد هناك معاصٍ لم يوجد هناك نهي عن المنكر، وإنما نالت الأمة الخيرية بهذه الصفة: ﴿كُنتمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[آل عمران]، يقول المفسرون: والأمة تنال الخيرية على قدر امتثالها لهذا الأمر، فكلما كانت محققةً لكمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نالت كمال الخيرية، وإذا قصّرت في ذلك فبقدر تقصيرها تنقص هذه الخيرية، وهكذا.

إذن (إذا قضى الله الأمر): قلنا أن القضاء هنا يشمل القضاء بنوعيه: القضاء القدري -الكوني- والقضاء الشرعي، وقلنا بينهما فرق، وقلنا هناك من الفوارق أن الإرادة أو القضاء الكوني لا يلزم أن يكون محبوبًا لله، قد يكون محبوبًا وقد لا يكون محبوبًا.. أما القضاء أو الأمر الشرعي يكون محبوبًا لله عز وجل، والقضاء الشرعي قد يقع وقد لا يقع.

أما القضاء الكوني فيقع، لأن الله سبحانه وتعالى يحب التوبة من عباده ويقبل التوبة عن عباده، ولكنها قد لا تقع من العباد، مع أن الله أحبها وأرادها، ولكن قدّرَ أن لا تقع، وإذا أحسن الإنسان فهم هذا التقسيم، انحل عنده إشكال عظيم ضلت فيه طوائف من المبتدعة..

مثلًا في القضايا التي تكلم فيها أهل العلم، والطوائف التي ضلت واستدرك عليها وناقشها أهل العلم: طائفة الجبرية، الذين لم يُقسّموا ولم يُفرّقوا بين الإرادتين، فقالوا أن الإنسان يفعل المعصية وهو مطيع لله، لأن الله قدّرَ عليه أن يعصي الله..

نجيب: لا شك أن الله سبحانه وتعالى جعل للعبد مشيئة واختيار، ومشيئة العبد لا تخرج عن مشيئة الله ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف]، ومشيئة العبد لا تخرج عن مشيئة الله عز وجل، فكل ما يقع في هذا الكون وكل ما سيقع في هذا الكون بعلم الله عز وجل، ولا يخرج عن علمه سبحانه وتعالى شيء، فإذا علمنا هذا الأمر انحل عندنا إشكال كبير قد يوردخ البعض..

وبعضهم قال: أن الله سبحانه وتعالى لا يريد المعاصي، والعبد أرادها، فنفذت إرادة العبد ولم تنفذ إرادة الله.. إشكال عظيم!

نجيب فنقول: أن الله أراد وقوع المعصية إرادة كونية، ولم يُردها إرادة شرعية، والله سبحانه وتعالى أراد وقوع الكفر وحصوله من العباد إرادة كونية وهو لا يريده إرادة شرعية، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾.[الزمر]

ففهم مثل ذلك يحل على الكثير إشكالات تقع وتعلق في أذهان الناس.

(إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان): الصفوان هو الحجر الأملس. وهنا تشبيه للصوت بالصوت، وقد تكلم أهل العلم على هذا التشبيه، فقيل أن خضوع الملائكة يكون كأنه هذا الصوت الذي يصدر من السلسلة على الحجارة الملساء، فالسياق يدل كذلك على مثل ما قرره أهل العلم.

﴿**حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾: وقلنا فُزّع أي إذا زال الفزع عن قلوبهم، وهذا هو موضع الشاهد،؛أن الملائكة تفزع وتخاف، وهذه صفة نقص وليست صفة كمال، وأراد المصنف -رحمه الله تعالى- من إيراد هذا النص أن يبين أن الملائكة فيها صفات نقص فلا تستحق بموجبها صفات الكمال التي يستحقها الإله المعبود.

(فيسمعها مسترق السمع -ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض- وصفه سفيان ابن عيينة بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن. فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ فيُصدّق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء): قضية استراق السمع وقضية الكهنة يقسّمها أهل العلم إلى أقسام: الأخبار التي ترد إلى الكهنة تكون بأمور: الأمر الأول عن طريق مسترق السمع، والأمر الثاني عن طريق القرين، والأمر الثالث عن طريق التخمين والكذب. هذه أمور ثلاثة يجعلها الكاهن والساحر موردًا للأخبار عنده، وأهل العلم يتحدثون في هذا الموضع عن قضية العلم أو الغيب المطلق والعلم أو الغيب النسبي..

الغيب المطلق: هو علم يختص الله به لا ينازعه فيه أحد من البشر، وحصره أهل العلم في أمور خمس: ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.[لقمان] هذا يسمى العلم المطلق أو الغيب المطلق، لا ينازع المولى فيه أحد، ومن ادعى أو اعتقد أن هناك أحد يعلم الغيب مع الله في هذه الأمور فقد كفر بالله.

والقسم الآخر من أقسام علم الغيب: علم الغيب النسبي، أي أن يكون معلومًا عند البعض ويغيب عن الآخرين. فبالنسبة لنا ما يقع خارج المسجد الآن غيب، ولكنه غيب نسبي، لأن الذين في الخارج يعلمون ما يقع حولهم، ولمن كان في الخارج فإن ما يقع داخل المسجد بالنسبة له غيب نسبي لأننا نحن ندرك ما في المسجد.

وهناك مسألة معاصرة قد يستشكلها البعض:

تكلمنا قبل قليل عن العلم المطلق، ومنه أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما في الأرحام.. توصل الطب الحديث إلى آلات يمكن من خلالها معرفة جنس الجنين، والسؤال: هل يدخل ذلك في علم الغيب المطلق أم لا؟

يمكن أن نلخص الإجابة في ذلك على النحو التالي:

أولًا: معرفة الأطباء لجنس الجنين ليست من قبيل علم الغيب المطلق، لماذا؟

لأنهم لا يُدركون ذلك إلا بعد النفخ في الروح، وإذا كان هذا العلم تم التوصل إليه بعد هذه المدة فهو لم يعد من الغيب المطلق، لأن المَلَك أصلًا عرف الآن، لأن الله يُرسل الملك لينفخ فيه الروح، وليكتب الأجل، أجله وشقي أو سعيد..

الآن خرج هذا من كونه غيب مطلق، لأننا قلنا أن الغيب المطلق لا يعلمه أحد إلا الله، لذلك لا يمكن للأطباء أن يحددوا جنس الجنين قبل هذه المدة الزمنية، وحتى لو علموها الآن فقد أصبح علمًا نسبيًا -كما نحن نقول الآن أن من يقف الآن خارج المسدج يدرك ما حوله وإن كان في حقه شيء مشاهد ولكنه بالنسبة لنا غيب، وهكذا-.

وكذلك يقال: أن هذه الآلات مبناها على غلبة الظن، فقد تصيب وقد تُخطئ، وكثيرًا ما تُخطئ.. يقول الأطباء أن الموجود في الرحم أنثى فيتبين أنه ذكر..

فهذه الآلات تجد أنه لا يمكن أن تحدد وليس عندها قدرة على التحديد قبل النفخ في الروح، فلا شك أن العلم بما في الأرحام قبل النفخ في الروح أنه من اختصاص الله سبحانه وتعالى، حتى الملائكة لا تعلم قبل النفخ، فهذا مما يختص به الله سبحانه وتعالى فما قبل النفخ في الجنين يكون علم الأجنة من الغيب المطلق، أما بعد النفخ فيكون من علم الغيب النسبي، لأنه انتقل إلى هذا المَلَك، وخرجَ من وصف الغيب المطلق.

البعض يسأل هل يجوز لي أن آخذ تصوير للجنين لأجل تحديد الجنس؟ فما رأيكم بعد ذلك يجوز أو لا يجوز؟ نعم لا حرج في ذلك -والله تعالى أعلى وأعلم-.

إذن عرفنا الفرق بين أقسام الغيب، فلا شك أن من يدعي أو ينسب الغيب المطلق لغير الله عز وجل فهذا كفر وردة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم بعد ذلك يدل هذا النص يدل على أن السحرة الأصل في كلامهم الكذب والدجل، لأنهم يتلقون الخبر ويضيفون عليه مائة كذبة، وهذا كذلك فيه أمر عجيب، أن الناس يتلقون منه معلومة صحيحة واحدة، ويصدقونه على سائر كذباته؛ وهذا يدل على قصور في عقول الناس، وسيأتي معنا باب مستقل بين المصنف -رحمه الله تعالى- فيه حكم الساحر وحكم الإتيان إلى السحرة، وهو باب مهم لعل الله إن أمد بأعمارنا تدارسنا وإياكم مسائله.

هنا يقول: (**فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته**): وهذا يدل على أن الجن وأن الشياطين يصعد بعضهم على ظهر بعض.

(**وصفه سفيان ابن عيينة بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه**): ووصف سفيان -رحمه الله تعالى- هذه الهيئة.. هكذا فوق بعض..

(**فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه**): ثم بعد ذلك ربما سصله الشهاب قبل أن يوصل الخبر.

وما يتلقاه الجان ويوصله إلى الساحر هو قبيل الغيب النسبي، لأنه الآن أمر الله سبحانه وتعالى به الملائكة و... لم يعد من قبيل الغيب المطلق.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وعن النوَّاس بن سمعان ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: (إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلَّم بالوحي، أخذت السَّماوات منه رجفة). أو قال: (رعدة- شديدة؛ خوفًا من الله عزوجل، فإذا سمع ذلك أهلُ السَّماوات صعقوا). أو (خرُّوا لله سُجَّدًا)، فيكون أول مَن يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمرّ جبريل على الملائكة، كلما مرَّ بسماءٍ سأله ملائكتُها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فيقولون كلهم مثلما قال جبريل، فينتهي جبريلُ بالوحي إلى حيث أمره الله عزوجل).(١) رواه ابن خزيمة

---

(١): **(إذا أراد الله تعالى أن يُوحي بالأمر)**: وكما مر معنا، الأمر على قسمين: الأمر الكوني، والأمر الشرعي، لأن كل ما يقدره الله سبحانه وتعالى فهو أمر، لأنه كان بِ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.[يس]

(إذا أراد الله تعالى أن يُوحي بالأمر تكلَّم بالوحي، أخذت السَّماوات منه رجفة): وهذا يدل على عَظَمةِ هذه الأوامر، وعلى عَظَمَةِ من أمر بها، انظروا إلى إجلال هذه المخلوقات لله عز وجل، وانظروا إلى الهيئة التي تتلقى عليها هذه الأوامر، وهذا لا شك أنه يدل على تعظيم هذه المخلوقات لله عز وجل، وهي دعوة للتعظيم الذي ينبغي أن يصدر من العباد تجاه خالقهم سبحانه وتعالى، أما إذا تأمل الإنسان في واقع نفسه ونقّبَ في سويداء قلبه، سيرى قصورًا عظيمًا في ذلك، لذلك يقول بعض السلف: إذا أردتَ أن تعرف مقدار محبتك لله عز وجل؛ فانظر إلى استجابتك لأوامره، وانظر إلى انتهائك عن نواهيه، فإذا رأيت المسارعةَ في الاستجابة؛ فاعلم أنك على خيرٍ عظيم، وإذا رأيت عندك قصور في الانتهاء فاعلم أنك على خطرٍ عظيم. وهكذا..

لذلك يقول أحدهم لا تكن كعبد السوء، لا يأتي إلى سيده إلا بعدما يُدعى، وإنما من كمال الاستجابة المسارعة والمبادرة، لذلك تضافرت نصوص الشرع في الحث على المبادرة والمسارعة، ولذلك جاء الثناء على بعض الأنبياء، كما في خبر موسى ﷺ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾[طه] هذه مسارعة

ومبادرة، ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[آل عمران]، ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[الحديد].. حثٌّ على المبادرة والمسارعة.

فإذا علمنا ذلك، علمنا أن سائر المخلوقات تُجِل وتعظم المولى سبحانه وتعالى.

والشاهد في هذا الخبر: أن ملائكة الله عز وجل تخاف ويطرأ الخوف عليها، وهذا يدل على أنها متصفة بصفات نقص لا تستحق بموجبها أن تعبد من دون الله أو أن تُتخذ مع الله إلهًا، وهذا ما أراده المصنف -رحمه الله-، حينما كَثُرَ في الناس اتخاذ الملائكة أربابًا تعبد من دون الله أو مع الله؛ أورد المصنف -رحمه الله تعالى- ما يدل على بطلان ذلك، كما بينه أتم البيان في الباب السابق في حق النبي ﷺ، فإذا كان الناس ينظرون إلى النبي ﷺ بنظرة خاصة، أو ينظرون إلى الملائكة بنظرة خاصة؛ فبيَّن المصنف -رحمه الله تعالى- أن هذه المنزلة لا يستحقون بموجبها أن يُعبدون من دون الله، لأنهم يخافون ويطرأ عليهم الخوف والفزع والوجل، وهذه صفات نقص، والإله المعبود يجب أن يكون متصفًا بصفات الكمال والجلال والعَظَمَة.

(فإذا سمع ذلك أهلُ السَّماوات صعقوا، أو خرُّوا لله سُجَّدًا): صعقوا لأن الأمر عظيم، وما يتلقونه من الله سبحانه وتعالى أمرٌ تعجز خاصيتهم الخَلقية أن يتحملوها فلذلك صُعِقوا.. فكيف يتخذ من يعبد الملائكة، كيف يتخذها أربابًا وآلهةً تعبد من دون الله وهذا حالها! هذا ما أراده المصنف -رحمه الله-.

(فيكون أول من يرفع رأسه جبريل): وهذا يدل على منزلة جبريل عليه السلام، فمع أنه أفضل الملائكة مع ذلك كان ممن صُعِق، وهو الذي يتلقى الأمر مباشرةً من الله عز وجل كان هذا حاله.

(فيُكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مرَّ بسماءٍ سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟): الله أكبر، انظروا إلى الحرص، لا شك أن الملائكة هم خَلقٌ خلقهم الله سبحانه وتعالى من نور، وهم كما وصفهم الله عز وجل: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم]، لذلك تكلم أهل العلم هل الملائكة أفضل أم الأولياء أفضل؟

الملائكة جبلها الله على الطاعة، بينما العباد قد امتُحنوا بالشهوات وامتحنوا بالملذات، فمن وقع في الملذات والشهوات وعصى؛ فالملائكة أفضل منه، ومن انتصر على شهوات نفسه وملذات الدنيا فأطاع الله سبحانه وتعالى ولم يعصه؛ فهو أفضل من الملائكة.

– أحد الإخوة: هناك مقولة لعلي بن أبي طالب: خُلقَ للملائكة عقولٌ بلا شهوة، وخُلق للبهائم شهوة بلا عقل، وخُلق للإنسان عقل وشهوة، فمَن غلب عقلُه شهوتَه: فهو خير من الملائكة، ومَن غلبت شهوتُه عقلَه فالبهائم خير منه..

– الشيخ: أحسنت، نعم، ولذلك تسمع كثيرًا في كلام السلف: الرباني.. الرباني.. فالإنسان إما أن يكون سماويًّا ربّانيًّا أو أن يكون دونيًّا أرضيًّا..

فالرباني السماوي هو من حقق هذه الأوصاف، والأرض الدوني هو من كان إلى شهوات نفسه أطلق.

فإذن هذا هو المرجح، وأما من يقول الملائكة أفضل على الإطلاق وأن الأولياء أفضل على الإطلاق، فهذا يحتاج إلى هذا التفصيل الذي ذكرناه.

– أخ يسأل: يعني نستطيع القول بأن السبعين ألف الذين دخلوا الجنة بغير حساب هم أفضل من الملائكة؟

– الشيخ: إذا حققوا تلك الصفة نعم، وأضافوا إليها أنهم انتصروا على شهواتهم وملذاتهم فأطاعوا الله عز وجل، فلا يستوي من لم يُمتحن ويُبتلَ، وبين من امتحن وابتُلي فصبر وفاز، فالأجر هنا مضاعف بلا شك، والمنزلة هنا أعلى وأعظم، فلذلك هذا مقام التفضيل.

طبعًا هنا لا يتوقف على هذه المسألة عمل، وإنما ذكرها أهل العلم من فضول العلم، أورد ذلك ابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية وبين هذه المسألة ونقل نقولًا طيبة عن أهل العلم.

– أخ يسأل عن سجود الملائكة لآدم عليه السلام..

– الشيخ: لا شك أن هذا أمر إلهي، ثم بعد ذلك تكلم أهل العلم على قضية السجود هنا هل هو سجود احترام أو هو سجود عبادة، لا شك أنه سجود احترام، والعبادة في الاستجابة لأمر الله، لذلك قال أهل العلم أن آدم هنا حينما أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة بالسجود له أصبح آدم حاله كحال الكعبة حينما أُمرنا بالسجود إلى جهتها، مع أنها حجارة، والسجود هنا إنما هو امتثال لله عز وجل، لذلك حينما رأى عمر ﷺ النبي ﷺ يُقبّل الحجر قال: والله إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يُقبل هذا الحجر لما قبّلته.

إذن التعبد يكون بالمتابعة، فتعبد الملائكة هنا كان بالمتابعة إلى الله، ولذلك حينما حل السخط على إبليس حل بمعصيته ومخالفته للأمر، لذلك كان السخط حينما أُمر إبليس بالسجود فامتنع. ولا شك أنه الكبر: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.[ص]

– أخ يسأل عن سجود إخوة يوسف ليوسف عليه السلام..

– الشيخ: هو هنا سجود تحية، وهنا مسألة لا بد أن نشير إليها أن الشرائع تختلف: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة]، و (الأنبياء أولاد علّات)، فالمقصود أن الأصل واحد والشرائع مختلفة، فكان في شريعة من قبلنا مشروعية سجود التحية ولذلك وقع ذلك من إخوة يوسف وقرابته: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾[يوسف]، هنا سجود تحية، وهذا كان مشروعًا في شرائع من قبلنا، فأُلغي ونُسخ هذا الأمر، وأصبح السجود بكل صوره وأنواعه لا يجوز إلا لله عز وجل، وصرفه لغير الله عز وجل يعد شركًا.

لذلك حذر أهل العلم حتى من الانحناء للغير تعظيمًا، والانحناء كما يقع من بعض الحُجّاب والحراس الذين يقفون على أبواب الملوك وما شابه ذلك، كما يُرى من طواغيت هذا الزمان، ويُرى من ملوك الشرق والغرب، تجد أنهم حينما يستقبلهم عساكرهم ينحنون إليهم تعظيمًا واحترامًا وتحية.. هذا لا شك

أنه من قبيل الشرك الأكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله. فلا يأتي متفقه يقول لقد سجد قرابة يوسف ليوسف فلا حرج من السجود لفلان أو لفلان، لا.. هذا استدلال ساقط ولا غٍ بما قررناه وبيناه.

– أخ: بالنسبة للسلام، من يسلم وينحني، العبرة بالقصد أم بالمظهر؟

– الشيخ: لا، يعرف من حال الناس أن الانحناء هنا للتعظيم، لكن مثلًا مع السلام.. مد اليد أصلًا يحصل معه انحناء فهذا شيء طبيعي..

– أخ: وتقبيل يد الوالد أو الوالدة؟

– الشيخ: هذا مما لا حرج فيه بل جاء الحث عليه، حتى تقبيل يد العالِم أو ما شابه ذلك.. فهذا مما أجازه أهل العلم بل حبذه البعض، ولكن إذا كان في حق العالم فتنة فإنه يُنكر وينبذ، ولكن إذا كان من قبيل الإجلال والاحترام فقد دعا إليه جمع من السلف، ولكن هنا يراعى فيه حال الناس، لأنه إذا عظم في واقع الناس تعظيم أهل العلم التعظيم الزائد عن قدره فيُسد مثل هذا الباب سدًّا للذرائع والمآلات التي قد يُخشى من وقوعها من تفشي مثل ذلك.

– أخ يسأل: وإذا كان العالم جالسًا ومد يده..؟

– الشيخ: نسأل الله السلامة والعافية قد تظهر هذه الأوصاف، لكن مثلًا العالم الرباني الذي يستحق أن يُجل ويحترم فهنا يراعى في مثل ذلك أمرين هامين: الأمر الأول: واقع العالم، والأمر الثاني واقع الناس.

فإذا كان العالم يُعرف من حاله –وهذا يُعرف– العُجب مثل هذا الذي يمد يده.. هذا ليس بعالم أصلًا لأنه كما قال أحدهم –وقد أحسن الكلام–: الشجر المثمر إذا زاد ثمره اقترب من الأرض وانحنى وكان متواضعًا، يخفض جناحه للمؤمنين، وأما إذا قل الثمر في الشجر تجد أنه تباعد عن الأرض.. إذن هذا هو الأمر الأول.

وكذلك يراعى واقع الناس، هناك في بعض المجتمعات تأثروا مثلًا بالمتصوفة، تجد أن هذا مريد وهذا شيخ الطريقة، أسماء وألقاب، حتى أن بعضهم يغلو في هؤلاء ويقول هذا مثلًا قطب من الأقطاب يؤثر في الكون -ولا حول ولا قوة إلا بالله- وتُرصد لهم مواقف وتُسمع لهم في مجالسهم الخاصة وفي الموالد وما شابه ذلك عبارات كفرية شركية -ولا حول ولا قوة إلا بالله- حتى قال قائلهم أن الولي بقدرته أن يخلق الجنين في رحم أمه، فلم يبقِ لله عز وجل شيئًا..

فإذا كان هذا هو واقع الناس فلا تُعرض مثل هذه المسائل ولا تُطرح أصالةً، ولكن نحن ذكرناها في سياق الحديث وفي التفريع على بعض المسائل.

- مداخلة من أخ:

مـــلأى السّـــنابل تنحـــني بتواضـــعٍ والفارغـــــات رؤوســـــهن شــــــوامخ

- الشيخ: نعم، هذا يدل على أن الانحناء مثلًا إذا كثُر الثمر.. المتواضع دائمًا حتى في مشيته تجد أنه ينظر إلى الطريق ولا يرفع رأسه كثيرًا، لذلك النبي ﷺ لما دخل مكة فاتحًا يكاد رأسه أن يضرب في الرحل ﷺ، ولكن هناك مواضع يُسن بل قد يجب فيها على المؤمن أن يكون شامخًا رافع الرأس حينما يحضر في الصف أمام العدو، كما جاء في خبر أبي دجانة حينما اعتصب عصابته الحمراء وأخذ يختال في ميدان المعركة، فقال النبي ﷺ: ((إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن))[رواه الطبراني]. مما يدل على أن الإنسان يجوز له في الحرب وفي أثناء مواجهة العدو ما لا يجوز في غير ذلك المكان.

وهذه مسألة أصلًا قد يطول المقام فيها، ولعل الله سبحانه وتعالى يهيئ لنا مجلسًا نتحدث في الأمور التي تجوز في الحرب ولا تجوز في غيرها.

(كلما مرَّ بسماءٍ سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟): وهذا يدل على حرص ملائكة الله عز وجل مع أنها غير مكلفة بهذه الأوامر التكليفية، إلا أن هذا يدل على عظيم حرصها لعلها تكون مأمورة بشيء أو ما شابه ذلك فتبادر وتسارع.

(فيقول: قال الحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فيقولون كلهم مثلما قال جبريل، فينتهي جبريلُ بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل): الشاهد من ذلك أن المصنف -رحمه الله تعالى- قرر في هذا الباب كما قرر في الباب الذي قبله، أراد أن يناقش من غلا في الأنبياء أو غلا في الملائكة، لذلك تجد أن أهل العلم دائمًا يقررون أن العبادة لا يستحقها لا مَلَك مُقرّب ولا نبيٌّ مرسل.

استطاع المصنف -رحمه الله تعالى- بعبارات موجزة أن ينقض كل أصول من ادعى مشروعية صرف العبادة للأنبياء أو للملائكة، فبين أنهم من جملة المخلوقات التي يعتريها من صفات النقص التي لا تستحق بموجبها العبادة مع الله أو من دون الله عز وجل.. فالنبي ﷺ قال الله سبحانه له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. والملائكة يطرأ عليها الخوف والفزع حينما يأمر الله سبحانه وتعالى بأمر كوني أو بأمر شرعي.

نعم ونكون بذلك أتممنا هذا الباب، هذا ما تسنى ذكره وإيراده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، هذا والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الخامس عشر

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: باب الشفاعة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

نستأنف وإياكم معاشر الأحبة مدارسة كتاب التوحيد، قد بينّا مرارًا وتكرارًا أن المصنف –رحمه الله تعالى– قد سرد أبوابًا وعنون لكل باب بعنوان، وسرد تحته أدلة تفصيلية وإجمالية، وأورد على ذلك جمعًا من نقول عن سلف الأمة وصالحيها.

الشفاعة في اللغة: مصدر شفعَ يشفعُ شفاعةً. وهي مأخوذة من الشفع، والشفع هو ضمُّ الواحد إلى الواحد، والشفع هو ضد الوتر الذي هو جعل الشيء واحد.

والشفاعة في الاصطلاح الشرعي: هي طلب الخير للغير، إما بجلب منفعة أو دفع مضرة.

والشفاعة من حيث التقسيم تنقسم إلى قسمين: شفاعة في أمور الدنيا، وشفاعة في أمور الآخرة.

أما الشفاعة المتعلقة بأمور الآخرة، فيقسمها أهل العلم أيضًا إلى قسمين: شفاعة مثبتة، وشفاعة منفية، أو شفاعة مشروعة وشفاعة ممنوعة.

أما الشفاعة المثبتة: فهي ما تطلب من الله عز وجل وحده في أمور الآخرة، وهي خاصة بالموحدين وأهل الإخلاص، ويشترط لها شرطان:

- إذنُ الله سبحانه للشافع أن يشفع.
- ورضا الله عن المشفوع له.

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمٰوٰتِ لَا تُغنِي شَفٰعَتُهُمْ شَيْأً إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ أنَ يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضٰىٓ﴾[النجم]
هذه الآية دليل على الشرطين.

إذن هذه هي الشفاعة المثبتة، وهي التي تُطلب من الله وحده لا شريك له في أمور الآخرة.

طلب هذه الشفاعة من غير الله عز وجل يُعد من قبيل الشرك بالله، وهي الشفاعة المنفية، التي نفاها الله سبحانه وتعالى، ونفى أن تُطلب من غيره سبحانه جل في علاه.

هذا بالنسبة لما يتعلق بالشفاعة في أمور الآخرة.

والشفاعة في أمور الدنيا كذلك لا بد أن تكون مقيّدة بقيود: أن تكون من جملة الأمور التي يقدر عليها بني الإنسان، وأن لا تكون في أمرٍ لا يقدر عليه إلا الله، لأنها إذا كانت في أمر لا يقدر عليه إلا الله فهي شرك أكبر -ولا حول ولا قوة إلا بالله،- لأنه مر معنى مرارًا وتكرارًا أن سؤال المخلوق أمرًا لا يقدر عليه إلا الله يُعد من قبيل الشرك.

والشفاعة المتعلقة بأمور الدنيا تجري عليها الأحكام التكليفية الخمس..

فقد تكون واجبة: مثلًا: نحن نعلم أن هناك رجل محتاج حاجة ماسة، وحاجته هذه متوقفة على الضرر والهلاك والتلف، فتكون واجبة على من كان بوسعه أن يشفع لأخيه، فيكون سببًا في رفع هذا الحرج عنه.

وقد تكون مستحبة: يعني مثلًا إذا كان هناك رجل يريد أن يقبل على طاعة، مثلًا يلتحق بحلق تحفيظ القرآن، فاشترط المعلم على الملتحق أن يأتي بشفاعة أو تزكية.. الأمر هنا مندوب ومستحب ومُرغّب فيه.. وبينّا حقيقتها: وهي طلب الخير للغير، وهنا فيه جلب نفع لهذا المشفوع له، ودليل ذلك

قول الحق تبارك وتعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾[النساء]. وكذلك النبي ﷺ يقول: ((اشفعوا تُؤجروا)).[صحيح النسائي]

وقد تكون الشفاعة مباحة: وهي في الأمور المباحة، **وتكون مكروهة** في أمر مكروه، **وتكون محرّمة** في أمر محرّم كالشفاعة في الحدود..

كما جاء في خبر المرأة المخزومية التي اهتم المشركون بأمرها حين سرقت، وجاء في بعض الروايات أنها جحدت العاريّة. فاهتمّ المشركون بأمر المرأة المخزومية، فلم يجرؤوا على أن يكلموا رسول الله ﷺ في شأنها، فانتدبوا لذلك أسامة بن زيد –رضي الله تعالى عنه وأرضاه–، فجاء أسامة –رضي الله تعالى عنه وأرضاه– راجيًا أجر الشفاعة، فلما تحدث مع النبي ﷺ طلب أن يشفع للمرأة المخزومية، وشق ذلك على النبي ﷺ، ثم قام خطيبًا في الناس لِعِظَمِ وشناعة ذلك الأمر، صحيح أن النبي ﷺ قال: ((تعافوا الحدود فيما بينكم))[أخرجه أبو داوود]، ولكن إذا بلغ الحد السلطان فلا شفاعة فيه، بل يجب إمضاؤه ويجب إنفاذه، وهذا ما قرره أهل العلم كما في خبر المغيرة حينما سُرقت بردته أو رداؤه فلما بلغ الحد إلى النبي ﷺ، قال المغيرة عفوت عنه، قال: هلّا كان ذلك قبل أن تأتيني، تعافوا الحدود فيما بينكم. هذه هي الشفاعة المحرمة، ودليلها قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾.[النساء]

فلذلك يشرع للإنسان أن يشفع لأخيه المسلم في أمر مستحب، ويجب عليه في أمر واجب، ويباح له في أمر مباح، ويكره له في أمر مكروه، ويحرم عليه في أمر محرم. بذلك يتم التقسيم في هذه المسألة.

والمصنف –رحمه الله تعالى– تحدث عن قضية الشفاعة، وصنف في ذلك مصنفًا مستقلًا أسماه (كشف الشبهات)، وقد أطال الإمام –رحمه الله تعالى– في الرد على من يجوزون الشفاعة التي تكون لله سبحانه وتعالى لغيره، ويستدلون بأدلة واهية ضعيفة بل مُنكرة، بل وُجِد في أسانيدها من هو متهم بالوضع، ومن جملة ما كانوا يستدلون به من الأخبار الضعيفة خبر الضرير الذي جاء إلى النبي ﷺ وسأله الدعاء، فقال النبي ﷺ: ((إن شئتَ دعوتُ، وإن شِئتَ صبرتَ فَهوَ خيرٌ لَكَ)) قال: فادعُهْ، قالَ: فأمرَهُ أن يتوضَّأَ فيُحْسِنَ وضوءَهُ ويدعوَ بِهَذا الدُّعاءِ : ((اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ وأتوجَّهُ إليكَ بنبيِّكَ...))

ولكن هذا الحديث رد عليه أهل العلم بجوابين:

الجواب الأول من ناحية الصبغة الحديثية: الحديث معلول، يقول الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني -رحمه الله تعالى-: وأكثر رواته ضعفاء.

وأما من الناحية الفقهية والشرعية: فإن أهل العلم على فرض صحة الحديث يحملون ما أمر النبي ﷺ به الضرير (وأتوجه إليك بنبيك): أي بدعاء نبيك، لأنه جاء في سياق الخبر أنه طلب من النبي ﷺ الدعاء، فعند ذلك يكون هذا الخبر على فرض صحته حجةً عليهم لا لهم.

وغير ذلك من الأدلة، ومن ذلك: أنهم يقولون أن الأنبياء والشهداء أحياء.. ولكن يُجاب على ذلك: أنهم أحياء حياة غير حياتنا هذه، بل هي حياة برزخية، ومن المقرر عند أهل العلم أن الحياة البرزخية لا تأخذ أحكام الحياة في الدنيا، فلو قلنا بأن الحياة البرزخية تأخذ أحكام الحياة الدنيوية فلا يوجد هناك مُورِّث! ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر]، ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث...)).[رواه مسلم]

ثم بعد ذلك الشهداء، ثبت بالنص عند ربهم أنهم أحياء عند ربهم يرزقون، رجل قدّر الله سبحانه وتعالى عليه القتل في سبيل الله (شهيد معركة) قُتل بفعل العدو في أرض المعركة، هذا هو شهيد المعركة كما يعرّفه الفقهاء، إذا قلنا أنهم أحياء، وحياتهم تأخذ أحكام الحياة الحقيقية في الدنيا، فلا تعتد زوجته، ولا يحق لورثته أن يقسموا ماله لأنه حي، ويترتب عليه أمور كثيرة أنهم مكلفون ووإلخ.. وهذا لا شك أنه مخالف للنصوص الشرعية ولهدي النبي ﷺ.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقول الله عز وجل: ﴿وَ أَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.(١)[الأنعام]

وقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.(٢)

وقوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.(٣)[البقرة]

= فإذن يُجاب عن هذا الإيراد بما سمعتم، أن يقال أن الحياة التي ثبتت للشهداء هي حياة خاصة برزخية.. وكذلك الأنبياء عليهم السلام الحياة التي ثبتت لهم لا تأخذ أحكام الحياة الحقيقية في الدنيا.

إذن علمنا الأقسام التي تكون للشفاعة، وعلمنا التعريف من الناحية اللغوية ومن الناحية الاصطلاحية.

(١): **﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾**: هنا يبين المولى سبحانه وتعالى أن الشفاعة في أمور الآخرة منفية عن الجميع حتى عن أهل التوحيد، أن ليس لهم حق الشفاعة إلا إذا تحققت الشروط: إذن الله سبحانه وتعالى للشافع أن يشفع، ورضا الله عن المشفوع له. أما ما عدا ذلك فهي منفية عن الجميع.

(٢): **﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾**[الزمر]: وهنا اللام في (لله) هي لام للملك والاستحقاق، أي أن هذه الشفاعة مستحقة لله وحده لا شريك له، فنعلم من هذا النص أن الشفاعة في الأمور الأخروية هي لله وحده لا شريك له. ولا تُطلب من غيره سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى هو الذي أعطاها النبي ﷺ ومكّنه من أن يشفع كما جاء في حديث الشفاعة الطويل،

حينما يطول قيام الناس في يوم المحشر، فيأتي الناس إلى الأنبياء كلهم، ثم بعد ذلك ينتهي الأمر إلى أن يصير الناس إلى النبي ﷺ فيقول: أنا لها أنا لها، ثم بعد ذلك في تتمة الخبر يذهب إلى المولى سبحانه وتعالى فيسجد بين يديه، ثم بعد ذلك يحمد المولى سبحانه وتعالى بمحامد يفتحها الله سبحانه وتعالى على نبيه، ثم بعد ذلك يقول له ارفع رأسك وسل تُعطى واشفع تُشفّع.

إذن هنا أذِنَ الله للمشفوع أن يشفع، ثم بعد ذلك يأتي الشرط الآخر وهو رضا الله عن المشفوع له، فلو شفع النبي ﷺ لشخص لم يرضَ الله سبحانه وتعالى عنه فإن الشفاعة لا تقع.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: والشفاعة على أقسام: شفاعة عامة، وشفاعة خاصة، وشفاعة خاصة الخاصة.

الشفاعة العامة: هي التي تكون للناس لأجل أن يفصل الله سبحانه وتعالى بين العباد.

والشفاعة الخاصة: الشفاعة لأهل الجنة بدخول الجنة.

وشفاعة خاصة الخاصة: وهي أن يشفع النبي ﷺ لعمّه بأن يُخفف عنه العذاب، فهذه الشفاعة خاصة بعم النبي ﷺ مع أنه مستحق للعذاب ومستحق للنار.

وكذلك هناك شفاعة يشترك فيها الأنبياء والملائكة والصالحون والشهداء وهكذا.. هناك مثلًا شفاعة لأن يُغفر لسبعين من أهل بيته وهكذا.. كما جاء في حق الشهداء.

(٣): ﴿**مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾: هنا المراد بها الشفاعة الأخروية (في أمور الآخرة)، وهذه لا بد فيها –كما تقرر وسبق أن بينا– من تحقق الشرطين: إذن الله للشافع، ورضا الله عن المشفوع له.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقول الله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾.(١) [النجم]

---

(١): هذه الآية تدل على أنه حتى الملائكة لا تشفع إلا بإذنه -سبحانه- ورضاه.. انظروا إلى السياق القرآني ما أعظمه! ونحن بحاجة إلى وقفات لا إلى وقفة واحدة.. أن نقف مع كتاب الله عز وجل، ولله درّ عثمان رضي الله عنه حينما قال: لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله عز وجل.

وصدق ورب الكعبة، حينما علا الران القلوب حُرمنا من تدبر كلام علام الغيوب، لذلك مرارًا وتكرارًا تتلى علينا الآيات العِظام فلا تتحرك عند سماعها قلوبنا، ولا تقشعر عند سماعها جلودنا، ولا تضطرب أجسادنا، واللهِ إلى الله نشكو قسوة في قلوبنا! ولكن حينما تُهدد دنيانا بالخطر تجد أن القلب يضطرب، وأن العين تدمع، وأن البدن يضطرب، وأن الجلد يقشعر، أما حينما يُتلى كتاب الله عز وجل تجد أن القلوب من شدة قسوتها لا تتأثر ولا يطرأ عليها تغير، وهذا لا شك أنه نذير شر في حق الإنسان وليس بنذير خير.

حينما نقرأ في سير السلف وفي أخبار الصالحين تجد هناك من يُنعت ويوصف أو يُسمى بقتيل القرآن، كان آخر عهده من الدنيا أن سمع آيةً توعّد الله سبحانه وتعالى بها العصاة أو كانت من نصوص الوعيد، فلم يتمالك نفسه حتى خرّ مغشيًا عليه.. قلوبٌ حيّة، أما قلوبنا فإلى الله نشكو قسوتها، وإلى الله نشكو حالنا! ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.[البقرة]

والله هذا الدرس، انظروا ثلاث آيات أربع آيات.. لو كانت قلوبنا حيّة والله ما فارقنا هذا المجلس إلا صرعى، ولكن نستغفر الله ونتوب إليه من ذنوب اقترفناها، ومن حدود شرعية تعدّيناها وتجاوزناها، نستغفر الله ونتوب إليه، نستغفر الله ونتوب إليه، نستغفر الله ونتوب إليه..

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقول الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفٰعَةُ عِندَه إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَه حَتىّٰ إِذا فُزِّعَ عَن قُلوُبِهِمْ قَالوُا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالوُا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.(١)[سبأ]

---

(١): أناس لا يملكون شيئًا، فهل هؤلاء يستحقون أن تُطلب منهم الشفاعة..؟!

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق]، حينما يتجرد الإنسان تجردًا تامًا مطلقًا، ويُهيئ نفسه لتلقي الخطابات الشرعية سيجد وضوحًا ما بعده وضوح، والله عز وجل حينما خاطبنا بهذه الأحكام التكليفية لم يخاطبنا بأمور غامضة ولم يخاطبنا بطلاسم غير مفهومة، بل خاطبنا بأمور واضحة بينة، لذلك كما يذكر أهل العلم عن امرأة عجوز مرت على أحد أئمة الضلال فرأت تلاميذه يتحلقون حوله، فقالت على ماذا تحلق هؤلاء؟ فقال أحدهم: على فلان بن فلان الذي يحفظ مئات الأحاديث على وجود الله، فقالت هذه العجوز: أفي الله شك..؟! قبحّ الله هذا العالم! وش هالعالِم هذا!

ضلال.. لأنهم يقولون أول واجب على المكلفين هو الشك! لا بد أن تشك، يعني سبحان الله حتى آل ببعضهم إلى عقيدة منحطة ومنحرفة وهي ما تسمى بعقيدة الحلول والاتحاد، حينما جاء الحلاج وكان تلاميذه يسيرون خلفه، فالتفت عليهم ووقف هُنيّة وبرهة فقال: (والله ما في هذه الجبة إلا الله). تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا!

حينما يسلم الإنسان قياده إلى عقل منحرف، ويبتعد عن نور وبصيرة الكتاب والسنة؛ عند ذلك يضل الإنسان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فيبين الله سبحانه وتعالى في هذا السياق القرآني أن هؤلاء الذين تُطلب منهم الشفاعة هم أصلًا لا يملكون مثقال ذرة، والذرة إذا أطلقت في نصوص الشرع فيراد بها النمل، فبعضهم يظن أن الذرة هي هذه الجزئية أو الحبة التي تُرى، لكن الذر يطلق ويراد به النمل وهو لا يوجد له وزن، وزنه غير مذكور، أو يراد به الشيء القليل المستحقر الذي لا وزن له، لذلك هناك كلام نفيس وعظيم ذكره الإمام السعدي وجمع من المفسرين عند قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[الزلزلة]، فيقول رحمه الله: وهاتان آيتان غاية في الترغيب وغاية في الترهيب، حيث أن الله رغبنا في الخير وإن كان شيئًا قليلًا يسيرًا محتقرًا، فهذا الشق غاية في الترغيب والشق الآخر غاية في الترهيب، حيث أن الله حذرنا من فعل الحرام وإن قل، حتى وإن كان مثقال ذرة. نسأل الله أن يعفو عنا ويرحمنا برحمته.

أنس بن مالك ﷺ حينما رأى بعض صنيع التابعين قال: ((إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدُّها على عهد النبي ﷺ من الموبقات)).[صحيح البخاري] الله أكبر! هذا في عهد التابعين.. ما زال هناك أكابر الصحابة على قيد الحياة، ما زال الخير وبركة النبوة موجودة، وهذا القرن من القرون المفضلة (خير القرون قرني...) ومع ذلك انظر ماذا يقول أنس!

انظروا إلى حالنا، كم هي المعاصي التي اقترفناها منذ أن أصحبنا، حدث ولا حرج، والله أعلم فيما نستقبل به باقي اليوم! نستغفر الله ونتوب إليه نستغفر الله ونتوب إليه نستغفر الله ونتوب إليه..

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

قال أبو العباس: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عونًا لله، ولم يبقَ إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾.(١)[الأنبياء]

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده -ولا يبدأ بالشفاعة أولًا- ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تُعطى، واشفع تشفع.

---

(١): **(قال أبو العباس)**: أبو العباس شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وله كلام نفيس في قضية الألقاب، لأنه مر في زمانه وقبل زمانه الاسترسال والإطراء الزائد.. شمس الحق، تقيّ الدين، صلاح الدين، حُجّة الإسلام، شيخ الإسلام.. هذه ألقاب.. حتى شيخ الإسلام -رحمه الله- لا يرضى أن يُطلق عليه شيخ الإسلام وهو بحق شيخ الإسلام.

علم من الأعلام، تصدّر للفتيا وهو ابن تسعة عشر عامًا، شيخ الإسلام -رحمه الله- ليس هناك ذكر لمشايخه لأنه هو جاوز مشايخه بمراحل رحمه الله رحمة واسعة وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء..

وقد ابتُلي بلاءً عظيمًا وسُجِن من أجل الحق، كما هو هدي الصالحين وهدي كذلك الأنبياء والمرسلين، فلقد يُبتلون ويُقدّر الله سبحانه وتعالى عليهم البلاء رفعة لهم.

(نفى الله عما سواه كلما يتعلق به المشركون): أي أن الله سبحانه وتعالى نفى هذه الشفاعة التي تُطلب من غير الله، ويتعلق بها المشركون، تجد أن المشركين يأتون عند قبور الأولياء والصالحين..

ويأتون كذلك عند قبر النبي ﷺ، فتجد أنهم يتجهون إلى القبر ويدعون النبي ﷺ ويدعون الأولياء طالبين شفاعتهم عند الله، وهذا عين ما وقع به المشركون في زمن النبي ﷺ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله..

بهذه العقيدة النبي ﷺ استباح دماءهم، واستحل أموالهم، وسبى نساءهم وذراريهم، وغنم ديارهم بهذه العقيدة، فكل من جاء عند أضرحة الأولياء والصالحين ويسألهم الشفاعة -يعني يخاطبهم خطابًا مباشرًا- ويقول لهم: يا أيها الولي فلان اشفع لي عند الله.. هذا الخطاب يسمى بالشرع شرك بالله عز وجل؛ لأنه تقرر معنا أن هذا من قبيل الشفاعة المنفية التي نفاها الله سبحانه وتعالى عمن سواه، وهذه الشفاعة دائمًا تجد أن الخطاب فيها يتجه في أمور الآخرة.

- أخ: يعني هم المشركون وحدوا في الربوبية ولم يوحدوا في الألوهية، فلم يُغنِ عنهم ذلك..

- الشيخ: نعم، أحسنت.. هذا ما قرره أهل العلم، ووصف ذلك الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى-، وبين أن المفاصلة التي كانت بين النبي ﷺ وبين المشركين كانت في باب الألوهية، لذلك اشتد نكيرهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص]، اشتد النكير في ذلك فعلمنا حينئذ أن الخلل أصالةً الذي وقع عند المشركين وبسببه نبذهم النبي ﷺ وتبرأ منهم قولًا وعملًا واعتقادًا هو في هذا الباب، لذلك هم كانوا يعرفون معنى لا إله إلا الله، لذلك حينما جاءهم النبي ﷺ وقال لهم كلمة تقولونها أبوا أن يقولوها (قولوا لا إله إلا الله، تُفلحوا).

حينما قال النبي ﷺ لعمه كلمة أحاج لك بها عند الله يوم القيامة، مباشرةً اعترض واستنكر ذلك أبو جهل وأبو لهب، لأنهم يعرفون حقيقة هذه الكلمة، هي إثبات العبادة لله وحده لا شريك له ونفي ما سواه سبحانه وتعالى، وهذه هي حقيقة لا إله إلا الله؛ نفي وإثبات، إثبات العبادة لله عز وجل وحده لا شريك له ونفي عبادة ما سواه.

(فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه): وهذا يدل على قصور من طُلبت منهم الشفاعة، ونحن مر معنا مرارًا وتكرارًا أن الإله والرب المستحق للعبادة هو الإله المتصف بالكمال، أما إذا سبرت أحوال

الآلهة التي تُدعى من دون الله عز وجل منذ أن خلق الله الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها تجد أنها قاصرة ومتصفة بالنقص المطلق.

انظروا إلى خبر إبراهيم عليه السلام، دخل إلى آلهة المشركين فحطمها، النبي ﷺ حينما دخل فاتحًا مكة كما [في الصحيحين]، مر على أصنامهم وحطمها: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[الإسراء].. آلهة عاجزة عن أن تدفع عن نفسها الضر والأذى، فكيف بعابديها..؟!

(فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عونًا لله): فكل هذه الأشياء منفية عن الوسائط وعن الشفعاء الذين سألهم الناس من دون الله عز وجل، لذلك من تجرد لله عز وجل تجد أنه سيدرك ذلك إدراكًا سهلًا يسيرًا سلسًا فطريًّا يُدركه حتى عامة الناس الذين قد لا يصل إلى تلك الدرجة العالية في العلم كتلك العجوز، وكما نُقل كذلك عن أحد علماء الكلام أنه لما حضرته الوفاة قال: لوددتُ أني أموت على عقائد عجائز نساء نيسابور. سنوات في علم الكلام كلها هرطقات وكلام عقلي بحت، أذاعوا وأشاعوا أصول المنطق اليوناني، ثم بعد ذلك كانت النتيجة أن يقول هذا الكلام.. ولله در الشافعي حينما قال: حكمي على أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال.

سبحان الله عمائم وفي النهاية جريد ونعال! فما أكثرهم في هذا الزمان! فحكمنا كذلك على علماء السوء وزبانية الطاغوت وأبواقه أن يُضربوا بالمفخخات حتى نقضي عليهم.. أن نمسحهم عن ظهر البسيطة لأنهم أفسدوا الدين والدنيا:

وهـــل أفســـد الـــدين إلا الملـــوك وأحبـــــارُ ســـــوءٍ ورهبانُهـــــا

(ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنه لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾) : نعم وهذا ما قررناه قبل، وبينّا ما ذكره أهل العلم من التقاسيم.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقال أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: (من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه). فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.(١)

وحقيقتها أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع؛ ليكرمه وينال المقام المحمود.(٢)

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص.(٣) ا.هـ كلامه -رحمه الله-

---

(١): الله أكبر! **(من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه)**، الله أكبر هذه تحتاج محاضرة بل محاضرات، انظروا إلى هذا الخبر ما أجمل ألفاظه..! من أسعد الناس..؟ أسأل الله يسعدنا وإياكم فشفاعة النبي ﷺ يوم أن نلقاه..

(من أسعد الناس؟) : انظروا إلى حرص أبي هريرة رضي الله عنه، لازم النبي ﷺ وكان من أكثر الصحابة روايةً عن النبي ﷺ للحديث، ثم بعد ذلك يسأل النبي ﷺ: من أسعد الناس..؟ الله أكبر!

كثير تسمعهم يقولون أنا صاحب فلان بن فلان.. فكيف بمن رأى النبي ﷺ ولازمه وكان من أكثر الصحابة روايةً عن النبي ﷺ، فروى عن النبي ﷺ أكثر من خمسة آلاف حديث..! لو روى عنه حديثًا واحدًا لنال أجورًا لا يُحصي عددها إلا الله، فكيف بخمسة آلاف حديث بل أكثر! ثم بعد ذلك يسأل من أسعد الناس؟ يتمنى أن يكون أبو هريرة رضي الله عنه ممن وفقه الله عز وجل لهذه المنزلة..

أبو هريرة الذي يقول خرجت في يوم من الأيام وقد أنهكني الجوع، فرأى أبا بكر ورأى عمر على نفس حاله وهيئته، الكل يبحث عن من يضيفه لعله يجد عنده شيئًا يسد به جوعه ورمقه، هؤلاء الذين سادوا وحكموا البلاد وأطروا العباد على الحق أطرًا..

يخرج أحدهم لا يجد في بيته ما يأكل، ونحن الآن أكثرنا يجد ما يأكل وزيادة ومع ذلك قد حُرمنا من ذلك المجد، وحُرمنا من ذلك العز.. إذن هناك خلل فينا نحن..

إن من الأخطاء الشائعة بين الناس إذا سعى الإنسان للتغيير أخذ يشير ببنانه، ويشير بسبابته، ولا ينظر إلى نفسه، وقد يكون مكمن الخلل فيها، أبو هريرة صحابي جليل يغمره الحياء والأدب، خرج ذات يوم في الطريق وكان جُنُبًا -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، فلما رأى النبي ﷺ توارى عنه.. الله أكبر، انظروا إلى الأدب، فغاب عن النبي ﷺ ثم رآه مرة أخرى، انظروا إلى تلطف النبي ﷺ مع أبي هريرة، يا أبا هريرة رأيتك ثم تواريت مني! ما الخبر؟! إيش القصة؟! قال يا رسول الله كنت جُنُبًا فما أحببت أن ألتقي بك وأنا على هذه الهيئة وهذا الحال، فقال ﷺ: إن المؤمن لا ينجُسُ.

فهذا سؤال عظيم يدل على علو همة أبي هريرة رضي الله عنه (من أسعد الناس بشفاعتك؟)؛ **وهنا دليل** على أن الإنسان لا يغتر بكثرة أعماله، فإذا كان أبو هريرة على جلالة قدره وعلو كعبه يسأل هذا السؤال، ونحن نوقن وندرك أننا لم نبلغ ما بلغه أبو هريرة ومع ذلك سأل هذا السؤال، فحري بنا كذلك أن نسأل مثل هذا السؤال وألا نركن وألا نغتر بأعمالنا، فإذا كان النبي ﷺ يقول لا يدخل أحد الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله سبحانه وتعالى برحمته.

(من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه):

حكى أهل العلم الإجماع على أن من قال لا إله إلا الله وهو لا يعرف معناها ولا يعمل بمقتضاها، فإنها لا تنفعه، لأن هذه الكلمة لا تُراد لألفاظها فحسب، بل تُراد كذلك لمعانيها ومقاصدها، وهناك شروط لا بد من تحققها في صاحبها.

ولكن هناك مسألة: قد يقول البعض أن هناك من يحقق مقتضاها ولكن لا يحسن التعبير بها، يعني حينما تأتي إلى شخص يحقق شروط الكلمة، فتجد عنده المحبة المنافية للبغض والانقياد والقبول، فتجد أنه محقق لهذه الشروط، لكن إذا سألته ما شروط لا إله إلا الله لم يحُسن التعبير بها فهل هذا المراد من كلامنا؟ لا، فقد يوجد أناس يحققون ذلك ولكن لا يُحسنون التعبير، ولكن واجب عليهم أن يضبطوا

هذا الأمر خصوصًا في هذه الأزمنة التي –ولله الحمد والمنة– مُكِّن فيها لأهل الحق من أن يذيعوا هذه الدعوة وينشروها ويبثوها في أوساط الناس، فحينئذ لا عذر لأحد، فالصغير بوسعه أن يتعلم وأن يتفقه.. هل هذه الدروس كانت تُمكّن في أيام الطاغية بشار..؟ والله ممكن كان الآن كلنا في سجن حلب..

– أخ: يا شيخ دروس الصوفية كانت شغالة..

– الشيخ: الله المستعان.. لأن أهل التوحيد دائمًا في حرب مع الطواغيت في كل زمان ومكان، هذه سنة الله سبحانه وتعالى التي لا تتغير ولا تتبدل، بدأ الدين غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء.. فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يحيينا على التوحيد وأن يميتنا عليه..

– أخ: يا شيخ، مسألة هنا: كيف نوفق بين كلامك هذا أنه في هذا الزمان لا بد أن يحقق الشروط ويجيد التعبير عنها، وبين ذاك الأعرابي الذي جاء إلى النبي ﷺ فقال لا إله إلا الله.. قال لا أزيد على ذلك شيء.. ومن لم يحقق لم يعرف هذه الشروط ولم يحققها..؟

– الشيخ: لا، لكن هنا الآن الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ سأله عن ما يجب عليه وقد حقق المعنى..

– أخ: يعني فهمه فهمًا عامًا إجماليًا..

– الشيخ: هو لا شك أن هذا الذي يجب على المكلفين عمومًا، لكن الآن مثلًا حينما تتاح هذه الدروس، ويُدعى الناس إلى حضورها، فلا شك أن هذا حجة على العباد.. شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تعالى– يقول: الحجة تقوم على العباد بأمرين: القدرة على العلم والقدرة على العمل.

مجرد القدرة على العلم حجة على العباد، إذا كان في وسعك أن تتعلم وأن تصل إلى المعلومة وصاحب المعلومة فهذا بحد ذاته حجة على العباد. والقدرة على العمل: ألا يكون هناك عوارض في الأهلية، أي لا يكون هناك جنون أو ما شابه من عوارض في الأهلية.

- أخ: ذاك الأعرابي كان عنده الاثنين العلم والعمل، العلم كان عند النبي ﷺ والعمل هو..

- الشيخ: طيب هو قال لا أزيد على ذلك، لكن لا يعني ذلك أنه لا يعرف معنى ذلك.. في فرق..

- الأخ: ما بيّن النبي ﷺ له هذه الـ...

- على العموم عدم ورودها في الخبر لا يعني عدم وجودها، وهذا تجد أنه دائمًا.. مثلًا حينما ذهبت أم هانئ إلى النبي ﷺ، فقالت السلام عليكم يا رسول الله، فقال النبي ﷺ مرحبًا بأم هانئ.. فهل نقول أن النبي ﷺ لم يرد السلام! هناك أمور قد تحذف اختصارًا من الراوي..

طيب إذا كان الإنسان يحفظها حفظًا دقيقًا ولكنه لا يأتي بمعناها؟! نحن لا شك نقول أن الواجب على الإنسان أن يحقق المقتضى، حتى وإن لم يحسن التعبير، لكن نحن نقول الآن: لماذا لا يحسن الإنسان التعبير وقد أُتيحت الفرصة للتعلم!

في السابق كان المعلم في المدارس لا يسمح أبدًا للتلميذ أن يخطئ مثلًا في مقررات حزب البعث التي تُدرّس ويُلزم بها الطلاب.. النشيد الوطني مثلًا لا يُسمح أبدًا أن يُخطئ فيه، سبحان الله وربما عُوقب وعوقبت الأسرة معه كاملة!

فنحن الآن لا نطالب الناس بحقوق للعباد، نطالبهم بحقوق لرب العباد سبحانه وتعالى.

ثم بعد ذلك لا شك أن ضبط المسألة ومعرفتها يقود إلى معرفة المقتضى وتحقيق المقتضى، فإذا كان هناك إخلال بالمقتضى لا شك أنه سيكون له سبب كذلك في عدم فهم الألفاظ التي تدل على هذا المقتضى.

فهي دعوة، كذلك دعوة لكم أنتم الآن أئمة وخطباء وفقهاء كذلك.. دائمًا تأتون بأقوال ما أدري ههههه.. أسأل الله أن ينفع بكم ويبارك فيكم.. لعل الله سبحانه وتعالى أن يجعلكم مصابيح دجى ومنائر يستضيء النار بضوئها ويهتدوا بها إلى طريق الحق..

– مداخلة من أخ: الأعرابي.. العربية من الأعرابي.. دكتور بالعربية هذا.. سمع أحد الأعراب برجل يأتيه الخبر من السماء، فسأل: إلامَ يدعو؟ قالوا: يدعو إلى لا إله إلا الله. قال: والله إنها لكلمة تهابها الملوك.. انظر كيف فهمها وهو أعرابي مع الغنم!

– الشيخ، أحسنت.. الله أكبر.. نعم، لذلك لو وزنت عقيدة أعرابيًا في زمان النبي ﷺ بعقيدة ممكن علماء، لرجحت عقيدة ذلك الأعرابي الذي استطاع أن يستدل بفطرته على وحدانية الله عز وجل.. البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، أرض ذات فجاج، وسماء ذات أبراج، ألا تدل على العليم الخبير؟ –أو كما جاء في الخبر–.

(**خالصًا من قلبه**): لأنه لا يمكن أن يصح للمرء توحيد بدون إخلاص، بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، فلا يُدعى إلا هو ولا يُذبح إلا له، ولا يُدعى إلا هو، وهكذا.. أن يُفرِد الإنسان المولى سبحانه وتعالى بأفعاله، فإذا أخل بذلك أخل بأصل التوحيد.

(**فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله**): حينما قال النبي ﷺ لأبي هريرة: (من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه)، نعلم أن أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ هم أهل التوحيد، هم أهل الإخلاص، وعدهم الله عز وجل بكل خير في الدنيا والآخرة، ولكن قد يقدر الله سبحانه وتعالى الامتحان والبلاء عليهم ليُعظِمَ لهم الأجر وليجزل لهم المثوبة حينما يلقونه سبحانه وتعالى.

(٢): **(وحقيقتها أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع؛ ليُكرمه وينال المقام المحمود)**: هذا هو معنى الشفاعة، هي أصلًا أمر أذِنَ الله سبحانه وتعالى به وتحقق الرضا في حق المشفوع له، وهذا هو معنى الشفاعة.

(٣): **(فالشفاعة التي نفاها القرآن هي ما كان فيها شرك)**: الشفاعة المنفية يكون الشرك فيها عندما تُطلب من غير الله عز وجل، من الأولياء والأموات وما شابه ذلك..

هنا مسألة: بعضهم يقول: أنتم تنفون هذا الشيء عن الأولياء وعن النبي ﷺ، وهذا يدل على أنكم لا تُجلون ولا تحترمون هؤلاء على جلالة قدرهم.. ثم بعد ذلك يسرد النصوص الشرعية مثلًا في منزلة النبي ﷺ ويستدل بقول الله عز وجل في حق الأولياء: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[يونس]..

لا شك أنك إذا قلت بمشروعية صرف هذه الطاعات وهذه الأعمال لغير الله عز وجل، أنت فكرت في الولي، ولم تفكر في الله سبحانه وتعالى الذي أنزل هذا الولي هذه المنزلة..؟! سبحانك هذا بهتان عظيم.. تلك إذن قسمة ضيزى..

يعني حصرتَ العبادة وحصرت التعظيم و حصرت الإجلال والتوقير في حق هؤلاء، وأهملت المولى سبحانه وتعالى..! الذي لا يصح للإنسان إيمان ولا يصح له توحيد حتى يعظم الله سبحانه وتعالى التعظيم المطلق اللائق بجلاله وعظيم سلطانه، بل إن الإنسان إذا قدّم محبة النبي ﷺ على محبة الله عُدَّ مُخلًا بالتوحيد، فلا بد أن يقدم الإنسان محبة الله على محبة من سواه ثم بعد ذلك تأتي محبة النبي ﷺ.

فبعضهم -سبحان الله- حتى إيراده ضعيف، يقول لك أنت ما تُجل النبي ﷺ.. قل له: أنت ما تجل الله سبحانه وتعالى! ما تعظم المولى سبحانه وتعالى! فيُتفطن إلى مثل ذلك.

(فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع. وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص).

إذن نُعيد خلاصة الدرس ونُجمل ما أخذناه: بينّا أن المصنف -رحمه الله تعالى- بيّن مسألة الشفاعة، وهي مسألة عَظُمَ الحديث عليها في وقته وصنف في ذلك مُصنَّفًا معروفًا مسمى بكشف الشبهات، وكان أسلوبه فيه رائع فكان يورد الشُبهة ثم يُجيب عليها جوابًا إجمالي، ثم بعد ذلك يُردفه بجواب تفصيلي وهكذا.. وجرى على ذلك -رحمه الله- حتى رد على شبههم كلها وبددها وأحسن في كشف تلك الشبهات.. رحمه الله رحمة واسعة.

إذن فالشفاعة تنقسم إلى قسمين: شفاعة في أمور الدنيا وشفاعة في أمور الآخرة.

الشفاعة التي في أمور الآخرة منها منفي ومنها مثبت على التقسيم الذي ذكرناه وبينا الأدلة في ذلك.

والشفاعة التي تكون في أمور الدنيا فتجري عليها الأحكام التكليفية الخمس، فقد تكون واجبة تارة، وقد تكون مستحبة تارة، وقد تكون مكروهة تارة، وقد تكون مباحة أو محرمة. ودليل ذلك قول الله عز وجل: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَاۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾.

ونكون بذلك أتممنا هذا الدرس، أسأل الله العلي القدير أن ينفعنا بما قلنا، وأن يجعل ما قلنا حجة لنا وشافعًا لنا يوم أن نلقاه، هذا والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس السادس عشر

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: باب قوله تعالى: ﴿إِنَكَّ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبَتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.(١)[القصص]

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

قبل أن نشرع في درس هذا اليوم، أحب أنبه على أمر لعله التبس على البعض، في الدرس ما قبل الماضي، وهو في: **(إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان)** قلنا هنا الكاف للتشبيه، فالتشبيه قلنا تشبيه الصوت بالصوت، صوت ضرب الأجنحة كصوت السلسلة.. لأجل ألّا يلتبس على البعض، لأنه وردت بعض الأسئلة، يبدو أن البعض ما أحسن الفهم.

– أخ: شيخ، في سؤال في نفس سياق الدرس هذا، ربما يظن الظان عندما قلت أن الشياطين تسترق السمع، ربما يظن الظان أنه بغير مشيئة الله عز وجل يسترق السمع.. فعندما يصيبه الشهاب أو لا يصيبه الشهاب.. فرّق بين هذه النقطة وجزاك الله خير.

– الشيخ: لا، لا شك نحن بينا مرارًا وتكرارًا قضية أن هناك أمور يريدها الله سبحانه وتعالى، يريد من وقوعها كونًا أو قدرًا وإن كان لا يرضاها ولا يحبها ديانة وشرعا، وهذا حينما تحدثنا عن التفريق بين الإرادتين –أي الإرادة الكونية والإرادة الشرعية– هناك أمور قد يريدها الله سبحانه وتعالى، وقد لا تكون مرادة لذاتها وإنما مرادة لغيرها، ولا يلزم من الإرادة الكونية أن تكون محبوبة لله عز وجل، فقد يريد الله

سبحانه وتعالى أمورًا لكنه لا يريدها لذاتها، وهذه الذات أصلًا غير محبوبة لله عز وجل، مثل: أراد الله سبحانه وتعالى حكمًا من وجود الشيطان، مع أن الشيطان ذات خبيثة، ولعنه الله سبحانه وتعالى في كتابه، ولكن كما ذكرنا كلام الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- حينما قال: أن مراد الله نوعان: مراد لذاته ومراد لغيره. وبينّا ذلك وفصلناه في الدرس ما قبل الماضي.

(١): ﴿**إِنَكَّ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبَتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُٓ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾: أراد المصنف -رحمه الله تعالى- بهذا التبويب أن يبين أن النبي ﷺ لا يملك هداية العباد، فإذا علم الناس أن النبي ﷺ لا يملك ذلك فهل يكون مُستحقًا للعبادة أم لا؟! لا..

إذن ما زال المصنف -رحمه الله تعالى- يبين في هذه التبويبات أن الأنبياء وعلى رأسهم النبي ﷺ وكذلك الملائكة عليهم السلام لا يستحقون أن يصرف العباد شيئًا من عبادتهم لهم، لأن العبادة لا تُصرف إلا لله عز وجل وحده لا شريك له، وأن الله سبحانه وتعالى قال لنبيه ﷺ ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾، وكما في الخبر أن النبي ﷺ قال لابنته فاطمة: يا فاطمة سليني من مالي ما شئتِ لا أغني عنك من الله شيئًا.

إذا كان هذا قول النبي ﷺ حال حياته إلى أقرب وأحب الناس إليه، فما بالك به عليه الصلاة والسلام بعد مماته، وما بالك إذا كان هذا الخطاب إلى من هو أقل قدرًا ومنزلةً وشأنًا من فاطمة بالنسبة للنبي ﷺ؟!

وبينّا أن الإله ينبغي أن يكون متصفًا بصفات الكمال لا أن يكون متصفًا بصفات النقص التي لا يستحق بسببها أن يكون مألوهًا أو مربوبًا.

إذن أراد المصنف -رحمه الله- من هذا التبويب أن يبين أن النبي ﷺ لا يملك هداية العباد، انظروا إلى هذا الخطاب: ﴿إِنَكَّ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبَتَ﴾..

وهنا يرد إشكال أن الله عز وجل قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى]، أي: إنك يا محمد تهدي إلى صراط مستقيم، وهنا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَكَّ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبَتَ﴾..؟

النصان في ظاهرهما تعارض ظاهري، وهذا يكون باعتبار الفهم، فهم المتلقي لأول وهلة، وقد مر معنا أنه في حال تعارض النصوص يُصار أولًا إلى الجمع والتوفيق بين النصوص، فقال أهل العلم أن الهداية على نوعين: هداية توفيق وإلهام، وهداية دلالة وإرشاد.

أما هداية التوفيق والإلهام: فهي لله وحده لا شريك له، خاصة به سبحانه لا ينازعه فيها أحد، لا ملك مقرب ولا نبي مُرسل، بل هي مما اختص الله سبحانه وتعالى به، لا يُنازعه فيها أحد، وعلى هذا النوع من أنواع الهداية يُحمل قوله تعالى: ﴿إِنَكَّ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبَتَ﴾.

وهداية الدلالة والإرشاد: هي التي يُحمل عليها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهذه الهداية يشترك بها الأنبياء والدعاة والصالحون والمرشدون الذين يرشدون الناس إلى طريق الحق والهدى، ولا يلزم من الدلالة سلوك الطريق..

أنت قد يأتيك رجل ضلَّ الطريق، فيقول لك يا أخ الإسلام السلام عليكم.. وعليكم السلام.. من أين أذهب إلى الرقة؟ تقول تذهب بهذا الطريق.. هذه تسمى دلالة إرشاد، هذا الرجل قد يسير على الطريق الذي دللته عليه وقد لا يسير.

أما هداية التوفيق والإلهام: أن يوفق الله قلب العبد ويشرح الله سبحانه وتعالى فؤاده لسلوك هذا الطريق، لذلك تعجب من بعض الناس، يُدعى سنوات إلى الحق ولا يستجيب، وبعضهم بدون أن يتلقّفه أحد من الدعاة هو بنفسه يسلك الطريق ، لتدرك وتعلم علمًا يقينيًا جازمًا أن الهادي هو الله..

تعجب من بعض الدعاة والمتكلمين والمتحدثين والخطباء قد يفتح الله سبحانه وتعالى على يديه، فيتحدّث ويُحسن الحديث، وإذا بالناس أفواجًا وزرافات ووحدانًا يهتدون بفضل الله عز وجل وكرمه على يديه، فيظن هذا المسكين أنه يملك هداية التوفيق والإلهام.. هو دل، والذي وفق هو الله..

لذلك لو جمعت كل دعاة الأرض -دون الأنبياء- لن يبلغوا إخلاص نبي من الأنبياء عليهم السلام، ومع ذلك كما مر معنا في خبر ابن عباس رضي الله عنهما: والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي يأتي وليس معه أحد،

والنبي يأتي ومعه الرهط -وهو عدد يسير من الناس-، فهل هذا العدد له علاقة وتأثر كبير بصدق وإخلاص الداعي؟ لا، قد يكون الداعي مخلصًا لله عز وجل ومع هذا قد لا يستجيب له أحد. هو أخلص في دعوته وهذا ما كلفه الله به.. وأما هداية التوفيق والإلهام فهذه ليست لك.. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾[نوح]، نوح عليه السلام من أولي العزم، دعا قومه ليلًا ونهارًا، فما النتيجة؟ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيَ إِلاَّ فِرارًا﴾، لم يتوقف الأمر فقط على الفرار، بل كان هناك إعراض واستكبار وعناد: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعلَوُا أَصَٰبِعَهَمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾، ثم استخدم معهم كل السبل والطرق: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ، ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، لا إله إلا الله! جَلَدٌ وصبرٌ، واحتسابٌ، ومع ذلك الذين استجابوا قلّة!

فلذلك الواجب عليك أن تدعو إلى الله، وأعظم ما تدعو الناس إليه هو توحيد الله، أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا، وأن تعلم أن لك هداية الدلالة والإرشاد، والتوفيق والإلهام إلى الله.

النبي ﷺ سعى جادًا في هداية عمه أبي طالب، ومع ذلك يقول الله عز وجل له: ﴿إِنَكَّ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبَتَ﴾. أمرٌ خارج حتى عن إرادة النبي ﷺ، وكذلك إبراهيم عليه السلام مع أبيه خاطبه بذلك الخطاب اللين الهين: يا أبتِ يا أبتِ يا أبتِ يا أبتِ.. يعني قمة في التودد ومع ذلك بقي على دين آبائه وبقي على ضلاله.

- أخ: ونوح عليه السلام قال: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾.[هود]

- الشيخ: نعم.

- أخ: بعض الناس يقول لماذا تغير المنكر باليد والله لم يهدِ هذا الرجل بعد..؟

- الشيخ: أحسنت، هذه مسألة مهمة..

يعني هناك فرق بين إزالة المنكرات الظاهرة وبين هداية الناس واستقامة، يعني الآن إذا كان هناك مجتمع، وهذا المجتمع تحت سلطان المسلمين وتحت سلطان دولة المسلمين ودولة الإسلام، فهناك منكرات

لا يُسمح بإظهارها، ولو قال الشخص: إن الله سبحانه وتعالى لم يكتب لي الهداية، فيجاب عليه: وما يدريك أن الله لم يكتب لك الهداية، هل أطلعك على شيء من الغيب؟! فبعض الناس عنده جرأة..

حتى أن بعضهم ممكن لو تأتيه بشريط أو بمطوية قال لك: لا لا، جزاك الله خير.. ليش؟ قال: لا أريد أن تُقيم عليّ الحجة..! تتعجب من بعضهم..

هو ما دام أن كتاب الله قُرئ بين ظهرانينا، وأُذيع أمر الدين بيننا، وكان عند الناس قدرة على تعلم هذا العلم وسماعه ومعرفته؛ فقد قامت الحجة على العباد، وأما الذين يُعرضون فهذا أمر آخر ومناط آخر.

- أخ: يا شيخ، الآية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، المشيئة للعبد أم لله؟

- الشيخ: لا، يشاء المولى سبحانه وتعالى.

وقد أشرنا إلى جزء من هذه المسألة، أن مشيئة العبد لا يُمكن أن تخرج عن مشيئة الله، لذلك البعض مثلًا يقول إن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف]، هنا يقول أن الله سبحانه وتعالى أعاد المشيئة إلى العبد.. ولكن يُقال أصلًا: أن السياق أصلا سياق تهديد وزجر..

يعني -ولله المثل الأعلى- أنت تريد مثلًا أن تؤدب شخص من الأشخاص، وتقول: سوِّي ولّا ما تسوي، أنا أفعل لك كذا.. فقد يأتي هذا الأسلوب ولكن في سياق الزجر والتهديد والوعيد وما شابه ذلك..

وحتى لو سلّمنا أن فعلًا نعم، أن الله سبحانه وتعالى جعل للعبد اختيارًا وإرادة، ولكنها لا تخرج عن إرادة الله ولا عن اختيار المولى سبحانه وتعالى..

– أخ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾.[الأنعام]

– الشيخ: نعم هو لا شك نحن كما ذكرنا وبينّا ذلك مرارًا وتكرارًا، أن الله سبحانه وتعالى قد يجعل للعبد إرادة ولكنها لا تخرج عن إرادة الله عز وجل..

هو علم ما به هداية العباد وما به صلاحهم وما به فلاحهم، ويعلم من هو الشقي ومن هو السعيد، فلا يمكن أن تأتي بمسألة وتورد عليها نصًا، وتريد بهذا الإيراد أن تُخرج إرادة العبد عن إرادة الله، أبدًا لا يمكن.. لا يمكن مهما تجلب على ذلك وتجِدّ وتبذل قصارى جهدك على أن توجد نصًا تُخرج به إرادة العبد أو ما جعله الله سبحانه وتعالى للعبد عن إرادة الله ومشيئة الله.. لا يمكن أبدًا.. كل ذلك تحت مشيئة الله وتحت إرادة الله عز وجل.

– أخ: يا شيخ، بالنسبة لقول رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب ﷺ: (فوالله لئن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم) هذه هداية دلالة؟

– الشيخ: نعم هذه هداية دلالة.

ولا شك أن الله سبحانه وتعالى إذا جعلك سببًا هذا توفيق من الله سبحانه وتعالى لك، وتشريف من الله سبحانه وتعالى لك، ولكن اعلم أن الله هو الهادي، وقد يُوفَّق العبد للهداية بدون أن يسترشد بأحد، فقد يُهدى هكذا..

لذلك تعرفون قصة سلمان الفارسي، انظر كيف أراد الله سبحانه وتعالى به خيرًا، كيف تنقل ثم بعد ذلك ساقه الله سبحانه وتعالى إلى النور سَوْقا.. لا إله إلا الله!

إذن علمنا مراد المصنف –رحمه الله تعالى– من هذا التبويب ﴿إِنَكَّ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبَتَ﴾. وعرفنا ما ذكره أهل العلم في قضية الهداية وأنواع الهداية، فقلنا أن الهداية تنقسم إلى قسمين: هداية دلالة وإرشاد وهداية توفيق وإلهام. وعلمنا أن هداية التوفيق والإلهام هي لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له خاصة،

وأما هداية الدلالة فيشترك فيها الدعاة والأنبياء والصالحون الذين يدعون إلى صراط الله المستقيم، وعلى ذلك يُحمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وهناك مسألة ذكرها أهل العلم: في قوله: ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

من المعلوم والمقرر أن الإنسان لا يصح اعتقاده حتى يبرأ إلى الله سبحانه وتعالى من الكفر وأهله، وإن محبة الكفار تتنافى مع أصل الدين وتتنافى كذلك مع البراءة التي لا يصح إيمان العبد إلا بها، فكيف نُجيب على من أورد إيرادًا بقول الله عز وجل: ﴿إِنَكَّ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبَتَ﴾، الخطاب هنا للنبي ﷺ، وأحب ﷺ هنا عمه أبا طالب، مع أن أبا طالب كان مشركًا ومات على الشرك، فكيف نُجيب على هذا الإيراد..؟ وقد كنا بينا أن بغض الكفار والبراءة منهم ومن معبوداتهم من أصل الدرين..

أجاب أهل العلم على ذلك بجوابين:

الجواب الأول: أن النبي ﷺ أحب هدايته ولم يحبه لكفره، فإذا كان السياق كذلك فالسياق صحيح ولا تعارض هنا، ومحبة هداية الكفار محمودة، أن تحب وتسعى لهداية الكفار.. طبعًا هذا في حق الكافر المسالم أو الكافر الذمي، أما من نابذ بالسيف فليس له إلا السيف، لذلك الله عز وجل يقول: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[التوبة]، يعني تترصدون لهم وتكمنون لهم وتقطعون عليهم الطرق وما شابه ذلك.

نعم هذا هو الجواب الأول: إنك لا تهدي من أحببت هدايته، إذن نجعل في سياق الآية مقدّر محذوف: إنك لا تهدي من أحببت هدايته ولكن الله يهدي من يشاء.

الجواب الآخر: قال أهل العلم: أن المحبة هنا هي محبة فطرية، محبة القريب لقريبه، وهذه المحبة الفطرية لا تتنافى مع أصل الدين، لذلك يشرع للمؤمن أن ينكح الكتابية اليهودية والنصرانية مع أنها كافرة، وقد يحبها زوجها المسلم محبة شهوة، بعضهم يأتي يقول أنتم يا مطاوعة تأتوننا بعقيدة مادري كيف.. الآن

أنتم تقولون ولاء وبراء وولاء وبراء وكفر بالطاغوت، ثم بعد ذلك تأتي وتقول نعم يشرع للإنسان أن ينكح الكتابية..؟!

انظر قصور الفهم.. حينما يعجز الإنسان عن إدراك مدلولات خطاب الشرع تأتي هذه الأجوبة، حتى قام أحدهم -عليه من الله ما يستحق- من بني علمان -أخرس الله لسانه- واعترض بهذا الاعتراض قال: يأتي صاحب لحية والبراء والبراء ثم بعد ذلك ينكح نصرانية ويهودية!

قاتله الله، هو حقيقة هذا في ذهنه وإلا لو علم الإنسان المسألة وأخذها من مظانها، لعلم أنه ليس هناك تعارض، هناك عندنا محبة للدين: هذه كفر وردته أن تحب الكافر لكفره وضلاله.. هذه ردة -نسأل الله السلامة-، وهناك أن تحبه محبة فطرية.. مثلًا الابن المسلم قد فطريًا يحبّ أباه الكافر محبة فطرية -لاحظوا-، والمحبة الفطرية إذا كانت تؤثر على الاعتقاد عُدّت على صاحبها ليست لصاحبها.

لذلك هل يمكن الجمع بينهما؟ نعم يمكن.. أن تتزوج يهودية أو نصرانية من أهل الكتاب -شريطة أن تكون من أهل الكتاب على التأصيل الذي بينّاه في السابق، قلنا أهل الكتاب المنتسبين إلى الكتاب ينقسمون إلى ثلاث: الأول: مؤمنون، وهم من أدركوا دعوة النبي مثلًا موسى أو عيسى، وماتوا على ذلك قبل أن تُنسخ تلك الشريعة وتلك الديانة. وأما من آمن بالكتاب بعد نسخه أو بعد تحريفه وبقي مؤمنًا بالكتاب المحرف فهذا من أهل الكتاب، يأخذ أحكام أهل الكتاب؛ تحل ذبائحهم ويحل مناكحة نسائهم وكذلك تُقبل منهم الجزية وما شابه ذلك من الأحكام المتعلقة بأهل الكتاب.

فقد ينكح الإنسان يهودية أو نصرانية، وقد يحبها محبة شهوة، ولكنه يبرأ إلى الله من معتقدها ولا يقبل أبدًا بهذا الضلال الذي هي عليه.. وهذا نعم ممكن، لا يتنافى ولا يتضاد، ممكن قد يوجد ويمكن تصور وقوعه.. فإذن لا تنافي ولا تضاد في مثل هذا الأمر.

إذن المراد من سياق هذه الآية بناءً على الجواب الثاني:

إنك لا تهدي من أحببته محبة فطرية.. محبة طبيعية، هذه لا يؤاخذ عليها الإنسان.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

في الصحيح: عن ابن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ، وعنده عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل، فقال له: (يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله. فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعادا، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أُنهَ عنك). فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ﴾.(١)

وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.(٢)

= ثم بعد ذلك لا بد أن نعلم أن الكفر لا شك ينقطع به الولاء (الولاء العقدي)، لكن لا ينقطع به النسب، فعكرمة صحابي جليل.. أكملوا الاسم: (عكرمة بن أبي جهل)، يُنسب لأبيه، مع أن أباه كان كافرًا بل طاغوتًا من طواغيت هذه الأمة، إذن لا تنافي ولا تضاد في مثل هذا الأمر.

فإذن علمنا أن أهل العلم أجابوا بهذين الجوابين: إنك لا تهدي من أحببت هدايته. هذا الجواب الأول، والجواب الثاني: إنك لا تهدي من أحببته محبةً فطرية.

(١): هنا النبي ﷺ قال له (**يا عم**)، فهل الإنسان حينما ينادي قريبه من النسب بوصف القرابة هل هذا يتنافى مع البراءة؟ لا يتنافى، فمثلًا رجل أبوه مشرك يناديه يقول يا أبي، فإبراهيم عليه السلام نادى أباه يا أبتِ يا أبتِ.. والنبي ﷺ نادى عمه يا عم، لكن الذي يتنافى مع البراءة الأصلية أن تكون هناك مودة ومحبة للدين وما شابه ذلك فهذا يتنافى مع أصل الدين.

(يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاجّ لك بها عند الله): انظروا إلى شفقة النبي ﷺ حيث أنه جاء إلى عمه وهو في سياق الموت، وذكّره بالله عز وجل،

لذلك يذكر الفقهاء –رحمهم الله– في كتاب الجنائز أن من حضرته الوفاة يَحسُن بمن كان حوله أن يذكره بكلمة التوحيد لأن النبي ﷺ يقول: (من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة).

وهنا الذي يقول هذه الكلمة في سياق الموت وهو على الكفر الأصلي لا شك أن قائل هذه الكلمة لا يخلو حاله من حالين أو ثلاثة:

الحالة الأولى: أن يكون على الكفر الأصلي، فإذا تلفظ بلا إله إلا الله فإنه بمجرد أن يتلفظ يُعصم عند ذلك الدم والمال، ولكن هل يُحكم له بالإسلام أو لا.. قولان لأهل العلم:

القول الأول: قالوا أنه تثبت له عصمة الدم والمال، ولكن لا يحكم له بالإسلام حتى يأتي بمقتضى هذه الكلمة وتصدر منه الأعمال التي بناء عليها يحكم له بالإسلام. لذلك مر معنا أن الإجماع انعقد على أن هذه الكلمة من قالها وهو لا يعرف معناها ولم يعمل بمقتضاها فإنها لا تنفعه، وهذه الكلمة لا تراد لألفاظها وحروفها وإنما تراد لمعانيها ومدلولاتها..

فإذن إذا كان الناطق بهذه الكلمة على الكفر الأصلي فإنها تعصم دمه ابتداءً وتعصم المال كذلك، ولكن هل يحكم له بالإسلام أو لا قولان لأهل العلم.. منهم من قال نعم يحكم له بالإسلام، ومنهم من قال لا يحكم له بالإسلام حتى يأتي بمقتضى هذه الكلمة.

الحالة الأخرى: أن يكون قائلها يصنف أنه من أهل الكفر الطارئ (مرتد يعني)، أسلم ثم طرأ عليه الكفر.. هل قول كلمة التوحيد بعد طروء الكفر عليه تعصم دمه أو ماله أم لا ؟ لا.

– أخ: يجب أن يدخل من الباب الذي خرج منه إلى الكفر..

– الشيخ: أحسنت.

قد يعترض عليك معترض: يقول أنت عندك غلو يا أخي، ويستدل عليك بنص (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله)..

- أخ: أبو بكر قاتل مانعي الزكاة وهم يقولون لا إله إلا الله..

- أخ آخر: (إلا بحق الإسلام).

- الشيخ: ما شاء الله.. خلّك ثابت، أهم شيء الثبات، لأن البعض إذا اعترض عليه معترض كيف هو يقول لا إله إلا الله..؟! فيقول الأخ ها؟ كيف؟ بدأ يتزعزع.. لا، لا بد أن يعرف الإنسان ويدرك الإنسان الفوارق في هذه المسألة..

نعم، فقد يقول المرتد هذه الكلمة، ولكنها لا تنفعه، لأنه هو نقض عرى هذه الكلمة، وقد مر معنا الإجماع الذي حكاه أهل العلم أن قائلها الذي لا يعتمل بمقتضاها لا تنفعه، فهو لا يصح إيمانه بعد ارتكابه الكفر حتى يرجع عن الكفر الذي وقع فيه ويبرأ إلى الله منه ومن فاعليه ثم بعد ذلك ينطق بالكلمة، عند ذلك تنفعه، لأن الباب الذي حُكم عليه بالكفر من خلاله لا يحكم عليه بالإسلام حتى يخرج منه كما دخل.. دخل من باب الموالاة يخرج من باب الموالاة، أما أن يدخل من باب الموالاة ويفتح لنا باب آخر يقول أسلمت..!!

وهنا [مسألة مهمة]: بعضهم قد يكون في جيش النظام أو أحد القطاعات الاستخبارية أو العسكرية فيقول أنا أخدم المجاهدين وأمررهم على الحواجز وما شابه ذلك، فهل ينفعه ذلك؟

السؤال: رجل منتسب إلى النظام الطاغوتي الكفري، عمله كفر، وهو من أركان الطاغوت وممن ظاهر وآزر الطاغوت ونافح عن الطاغوت وحمى النظام الكفري، وناصر الأحكام الوضعية وما شابه ذلك من النواقض الكفرية، خدمته للمجاهدين أو خدمته للمسلمين هل يُحكم له بسببها بالإسلام؟

الآن معنا يا إخوة قصة عم النبي ﷺ، يا إخوة هذا أعظم دليل معنا، يا إخوة عم النبي ﷺ خدم النبي ﷺ وآزره في ساعة تخلى الجميع عن نصرته ومؤازرته، ومع ذلك ما النتيجة؟ وما الجزاء؟

يعني لو خدم هذا المجند أو هذا العسكري خدم كل مجاهد على ظهر الأرض وهو ما زال في عمله هذا فهو مرتدٌ مرتدٌ مرتد.. لأنه لم يحقق الأمور التي يُحكم له بسببها بالإسلام وعودته إلى الدين، هل خرج من الباب الذي دخل منه؟ لا. هل حقق مقتضى الكلمة التي تنفع صاحبها؟ لا. إذن من أين يأتيه الإسلام..؟! ألم يكن المشركون يعمرون المسجد الحرام؟ ألم يكونوا يتصدقون على الضعفاء والمساكين؟

لذلك حكى الإمام الماوردي -رحمه الله- الإجماع على أن عبادة المرتد لا تُقبل..

يعني لو كان هناك مرتد يصوم النهار ويقوم الليل ويتصدق ويخدم المجاهدين على الحواجز، فعمله هذا سيكون هباءً منثورًا ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾.[الفرقان]

هناك أناس يحصل عندهم تخبط، يقول لك يا أخي هذا ما شاء الله العسكري -الذي عند حاجز النظام الطاغوتي- ما شاء الله قاعد يتبسّـم ويمشّي أمور العـوام.. والله يا زينه زيناه ما شاء الله طيّب! لا يا أخي، يجب عليك أن تبرأ إلى الله منه حتى وإن تبسّم..

إن استطعت أن تصدح بعقيدتك وجب عليك، وإن لم تستطع فإنك تُعذر في إصدار القول ظاهرًا، ولكنك لا تُعذر في أن تُكنَّ عقيدتك وتُكنَّ البراءة تجاهه في باطنك. لذلك لا بد أن تُفهم هذه المسألة.

أنا أذكر أن شخص جاء يسأل، فقال: يا شيخ أنا أعمل في وزارة الداخلية، لكن يعني أنا أخدم المجاهدين وأخدم كذا..، قلت ما شاء الله عليك مبسوط إنك تخدمهم! مستانس سعيد أنت إنك تخدمهم! قلت أنت مرتد، وإن خدمت آلاف المجاهدين وإن خدمت أُسرهم وأبناءهم وأجدادهم، وعملك هذا لا يُرفع إلى الله، وإن جُزيت عليه فسيكون جزاؤك دنيوي.

- أخ يسأل: شيخنا الله يحفظك ويبارك فيك.. فإذا طلب منه المجاهدون أن يبقى في مكانه عينًا لهم؟

- الشيخ: هذه مسألة أخرى يا شيخ، هذا بحث آخر، وهذا لا يُقدّر في مجلس مثل هذه المجالس، وإنما يُقدّره أصحاب السلطة وأصحاب الولاية وأصحاب السلطان مع إضفاء الصبغة الشرعية عليه، لأنه

هناك أعمال تُشرع وهناك أعمال لا تُشرع، ثم بعد ذلك يُنظر إلى مآلات هذا العمل، وإلى ما يقتضيه هذا العمل، وهل المصلحة الناتجة أعظم من المفسدة المتحققة، وهكذا.. يعني أمور لا بد فيها من الموازنة..

يعني هناك شخص يقول: أنا جالس في النظام.. هكذا اجتهاد من عنده.. لكن والله جالس عشان أخدم المسلمين وأخدم المجاهدين.. إذن الكل سيدّعي هذه الدعوى..!

وَكُـــلٌّ يَـــدَّعِي وَصْـــلاً بِلَيْلَـــى وَلَيْلَـــى لَا تُقِـــرُّ لَهُـــمْ بِـــذَاكَا

قبل أمس شبّيح خبيث، فلما وقع في يد المجاهدين قال والله أنا كنت يأتوني المجاهدين على الحواجز وأنا أمشّيهم.. يظن أن هذا سيشفع له، أبدًا..

الشاهد: انظروا إلى عِظم ما فعله أبو طالب عم النبي ﷺ، ومع ذلك لم يشفع له عند الله سبحانه وتعالى، فأين الذين يتغنون بمثل ذلك ويتغزلون بالمجاهدين ويقولون نحن نخدم المجاهدين فكيف أنتم تكفرون أبناءنا وتكفروننا وما شابه ذلك..؟!

اتركوا العمل الكفري، وإذا تبرأتم منه وتخلصتم منه عند ذلك فأنتم مسلمون وإن لم تخدموا مجاهدًا واحدًا، حتى وإن لم تخدموا المجاهدين، حتى وإن لم تجاهدوا.. فترككم للجهاد مع القدرة عليه معصية، ولكننا نحكم بإسلامكم ما دمتم أنكم تبرأتم من هذا النظام الطاغوتي وهذا العمل الكفري، حتى وإن لم يخدم مجاهدًا واحدًا..

أما أن يعيش الإنسان مُتلبسًا بالمناطات الكفرية التي لا تُعد ولا تُحصى، ثم بعد ذلك يظن أنه إذا خدم فلانًا أو فلانًا من المجاهدين أنه عُدّ بذلك مسلمًا ..!

هذه مغالطات.. وهذه ظنون خاطئة.. قد يحسب الإنسان حسابًا دنيويًا، وينتظر عرضًا من أعراض الدنيا، ثم بعد ذلك يتفاجأ أنه قد خرج من دائرة الإسلام ووقع في المكفرات.. فلا بد أن يتفطن الجميع إلى مثل ذلك، لأنه يكثر عند البعض ويعلق في أذهان البعض مثل هذه المسائل أو مثل هذه الشبهات، فلذلك كان لِزامًا علينا أن نتفطن لمثل ذلك وانظروا هذا الخبر العظيم الذي بين أيدينا، وانظروا إلى هذا

الخبر العظيم الذي بين أيدينا؛ خدم النبي ﷺ في فترة تخاذل الكل عن نصرته ﷺ، ومع ذلك يموت على الكفر وليس له إلا النار ويُنهى النبي ﷺ عن أن يستغفر له: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾.[التوبة]

من هؤلاء الذين يعيشون بين ظهراني الطواغيت، ينصرونهم ويكثرون سوادهم ويوالونهم ويتولونهم، ثم بعد ذلك يُقدّم خدمة لفلان أو فلان و يظن أنه قد أحيا الدين كله أو أنه اعتقد عقيدةً لم يسبقه إليها أحد..! لن يبلغ عمله هذا عمل أبي طالب ومع ذلك رأينا كيف جازاه الله سبحانه وتعالى.

- أخ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ يا شيخ.

- الشيخ: نعم.

فقال له: (**يا عم!، قل: لا إله إلا الله، كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله**): هنا قائل الكلمة (كلمة لا إله إلا الله) إذا كان القائل في وضع وحال وهيئة قصيرة مثل: كافر يحتضر أو في سياق الموت، كما جاء عن النبي ﷺ أنه زار غلامًا يهوديًا يحتضر فلقنه الشهادة فالتفت إلى أبيه فقال أبوه: أطِع أبا القاسم، فنطَقَ بكلمة التوحيد ففاضت روحه.

فإذا كان قائلها على الكفر الأصلي وقالها في حالة في مثل حالة هذا اليهودي -أي في سياق الموت-، نعم فإنها تنفعه، لأنه ليس هناك وقت لأن يُطالب بالعمل..

ونحن نعلم أن الإنسان إذا أسلم يُخاطب أو يُطالب التكاليف، مع أن الصحيح من أقوال أهل العلم أن الكفار كما أنهم مخاطبون بأصل الدين مخاطبون كذلك بفروعه ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[المدثر] فهم مؤاخذون عليها، وإن كانت لا تصح منهم في حال الكفر..

فإذا كان الإنسان على الكفر الأصلي فقالها في مثل هذا الحال ولم تطل به الحياة، نفعته.

وأما إذا كان على الكفر الطارئ -الذي هو مرتد- فهي لا تنفعه حتى يخرج من الباب الذي دخل منه، فإذا كان الناقص قوليًا يكون الرجوع قوليًا، وإذا كان الناقض عمليًا يكون الرجوع عمليًا، وإذا الناقض اعتقاديًا يكون الرجوع اعتقاديًا، وهكذا..

وهنا [مسألة مهمة]:

كثير من الناس كان في النظام يعمل عسكري أو في أحد القطاعات الطاغوتية الكفرية، ثم بعد ذلك يتقاعد، فيظن أن التقاعد ترك للعمل الكفري..!

التقاعد هو ترك لا شك، لكن هناك ترك عادة وترك عبادة، فإذا كان الإنسان يفارق العمل الكفري بِنيّة البراءة منه؛ عُدّ ذلك من قبيل التوبة إذا أكمل باقي الشروط.

أما إذا كانت المفارقة من هذه العمل لأمر عادي: انتهت الخدمة، جاوز السن النظامي، بل في بعض الحالات المؤسسة نفسها هي التي تحيله إلى التقاعد، ثم يقول أنا [كنت عسكريًا]..

لا يصح لك التوحيد ولا يصح لك إيمان حتى تبرأ إلى الله من ذلك العمل، وهذا يعد من أصل الدين، وهذه مسألة مهمة لا بد من التنبيه إليها.. أما أن يعيش الناس بين ظهرانينا يظنون أنهم قد حققوا التوحيد بالتقاعد، فلا.

من ترك العمل الكفري طلبًا للتقاعد أو أحيل إلى التقاعد ثم بعد ذلك علم الحكم، وجب عليه أن يبرأ؛ عند ذلك يصح توحيده.

أما أن يجعل مفارقة العمل براءةً فقط لأنها إجراء إداري فهذا لا يعد براءةً، لأنه يشاركه في ذلك الصالح والطالح.. قد يحال الإنسان إلى التقاعد ولكنه لم يحقق البراءة الواجبة.. رجل كان في عمل كفري فتغيب فطرُد فكانت المفارقة للطرد، أي لولا الطرد لما ترك وفارق هذا العمل، هل حقق البراءة؟ لم يحققها.

فليست كل مفارقة براءة، فإذا اقترنت البراءة بالمفارقة عُدّ هذا العمل توبة إذا أُضيف إليه باقي الشروط.

فهذه مسألة مهمة لا بد أن يتفطن الناس إليها، بعض الناس كان في دوائر أو كان يعمل في قطاعات أو كان في حزب البعث أو ما شابه ذلك، فيجب على كل من انتسب إلى هذا الحزب أن يبرأ إلى الله منه، بعد ذلك يصح توحيده.. أما أن يكون الإنسان فقط فارق الحزب لأنه طرُد أو أحُيل إلى التقاعد أو ما شابه ذلك فهذا لم يحقق التوحيد بعد.

لا بد أن تبرأ إلى الله سبحانه وتعالى من هذا الحزب، وتعتقد كفره، وضلال المنتسبين إليه، وأن تبغضهم وتتمنى زوالهم؛ عند ذلك تكون قد حققت ملة إبراهيم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَٰوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ فإذا كان الإنسان قد فارق الحزب فقط لأمور دنيوية أو ما شابه ذلك فهذا لم يحقق التوحيد بعد. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يبصرنا بديننا.

– أخ: شيخ، معناه بدّك تأخذ براءة من كل الموجودين.. الكل كان حزبيًا يا شيخ..

– الشيخ: على العموم الذي يجب على الإنسان أن يحقق ما سمع، ولا يعني ذلك أنه يجب علينا أن نأخذ من فلان وفلان أننا ندعو الناس إلى التوحيد، هذا دين الله سبحانه وتعالى، نحن لا نتعامل فيه مع الآخرين بالمحاباة والمودة، ليس بيننا وبين أحد في قضايا الدين نسب ولا حسب، بيننا وبين الناس كتاب الله وسنة النبي ﷺ، لا نحابي في ذلك أميرًا ولا مأمورًا، ولا صغيرًا ولا كبيرًا، هذا دين الله الذي أُسست على أركانه الملة، ونُصِبت القبلة، وانقسم الناس بسببه إلى شقي وسعيد، فريق في الجنة وفريق في السعير، فمن آمن وحقق الإيمان فهو من أهل هذا الفريق، وأما من ضادّ هذا الدين وأخل بأصوله وارتكب ما ينقض بسببه عُراه؛ عند ذلك يكون من الأشقياء والعياذ بالله.

(**كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله**): كان النبي ﷺ يرغب أن يُسلم هذا القريب الذي كانت له مواقف عظيمة، شهدت له بذلك السيرة ولو أردنا أن نسترسل في مواقف أبي طالب التي وقف بها مع النبي ﷺ لطال بنا المقام، ولكن على عِظمها لم تنفعه ولا حول ولا قوة إلا بالله، ونعوذ بالله أن يكون حال أحدنا

كما قال الله عز وجل: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾[الغاشية] يعمل الإنسان ويظن أنه يُحسن صنعًا، ثم بعد ذلك تأتي النتيجة: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾.

يا إخوة قضية التوحيد قضية عظيمة، وللأسف الشديد حينما يتحدث البعض عن قضايا الإيمان والكفر تجد أن البعض يعترض عليه يقول: يعني كلنا كفار! هل هذا جواب..؟!

إذا كانت المسألة تُعرض بقال الله وقال الرسول، وكانت المسألة تُعرض بالدليل والحجة والبرهان، فلا بد أن يكون الاعتراض بالحجة والدليل والبرهان، أما أن يكون الحديث عاطفيًا أو حديث نهيّج به المشاعر والعواطف فهذا لا مكان له في دروس العقيدة.

العقيدة هي ما ينعقد عليه قلب المرء، وأُخذت من العَقْد، وأنت حينما تعقد عقدة وتحكم ربطها يتعذر على الناس حلها، فالإنسان إذا أحكم هذه العقدة أعيى الناس حلها، كذلك لا يمكن أن تُحل بالشبه ولا يمكن أن تُحل بالفتن والقلاقل، فلذلك ينبغي على الإنسان أن يهتم بقضية المعتقد وألا يتساهل فيها.

(فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب): كان هذا الاعتراض من عبد الله بن أبي أمية ومن أبي جهل، وهذا يدل على شؤم قرناء السوء ورفقة السوء، الذين لا يبرحون ولا يدخرون وسعًا في إضلال أقرانهم وفي إضلال من حولهم، لأن الفاسد لا يرغب إلا بالعيش مع الفاسدين، ولا يمكن أن يقبل الفاسد أن يعيش بين ظهراني الصالحين، ولو وجد إنسانًا صالحًا يعيش معه لسعى وجدَّ لإفساده، فلذلك اجتهد أبو جهل وابن أبي أمية على إبقاء أبو طالب على دين آبائه، لذلك أنشد تلك الأبيات:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلاَ المِلامَةُ أَو حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

يعني كان يعلم أن النبي ﷺ على الحق، لكنه خشي الملامة وخشي المسبة، فكانت النتيجة أن مات على ملة عبد المطلب ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذا هو الحرمان أن يُصر الإنسان على الضلال مع أن الله سبحانه وتعالى فتح أمامه أبواب النور والهداية، لتدرك وتعلم أن الهادي هو الله، حتى أن النبي ﷺ على شدة حرصه على هداية عمه إلا أن الله سبحانه وتعالى لم يُرِد، لتعلم أن إرادة الله هي النافذة، ولا يمكن أن تنفذ هناك إرادة سوى إرادة الله فلذلك يُجاب على من ضل في مسألة القدر كما حلَّ بين القدرية والجبرية بمثل هذه المسألة، حتى أنهم أرادو أن يُنزِّهوا الله سبحانه وتعالى عن أن يريد وقوع الكفر أو المعاصي، وهذا بينّا أن الإخلال بسبب عدم التفريق بين الإرادتين والخلط بينهما، فإذا أحسن الإنسان التفريق حُلّت عنده الإشكالات ولم يعد هناك عنده إشكال، فإن الله سبحانه وتعالى أراد وقوع الكفر إرادة كونية ولم يُرده إرادةً شرعية وهكذا.

(**فأعاد عليه النبي ﷺ**): وهنا مسألة: أنه إذا دُعي الإنسان إلى البر والخير فأعرض، فإنه لا حرج من التكرار والإعادة عليه والصبر والاحتساب عند ذلك، فإن هداية العباد أمر محبب إلى الله ((لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم)).[مسلم بخلاف يسير]

(**فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعادا، فكان آخر ما قال: هو على ملّة عبد المطلب**): آخر ما قال من؟ أبو طالب.. والذي نقل الخبر هو الراوي، فاستخدم الراوي سياق: (آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب) ولم يقُل (آخر ما قال: أنا على ملة عبد المطلب)..

لماذا لم يكن السياق أنه عبّر بِ (أنا)؟ لأن الراوي إن قال (أنا) فكأنه يقول عن نفسه، مع أنه ناقل وناقل الكفر ليس بكافر.

لذلك تجد دائمًا في كلام الفقهاء أن السياق المفروض يعبر بضمير المتكلم (أنا)، لكن تجد أنهم يكتبون في السياق (هو)، مثل ما معنا هنا، ومثلًا يقول لك: (لو قال إنسان: هو يهودي)، هو لا يريد أن يقول (أنا) لأنه لو قال (أنا) لُعزي هذا الضمير للمتكلم.. مع أن ناقل الكفر ليس بكافر، ولكن يعني تحرُّزًا وبُعدًا واجتنابًا عن مثل هذه الألفاظ.

فقال الراوي (هو على ملة عبد المطلب)، مع أن أبا طالب عبّر بضمير المتكلم.

(وأبى أن يقول لا إله إلا الله): لا إله إلا الله.. يقول وأبى.. ثلاثة أحرف! أبى.. يا الله! شَقِي بثلاثة أحرف! أبى! فكم هم الذين يأبون؟! ((ومن عصاني فقد أَبَى))[البخاري].. فكم هم الذين يأبون؟!

يُدعى الإنسان وتأتيه دعوة الخير بين يديه، ويأبى! ((عجبت إلى قوم يُقادون إلى الجنة بالسلاسل))[أبو نعيم في الحلية]، فكم هم الذين سيعجب منهم النبي ﷺ؟! فهل أنا وأنت أخي منهم؟!

احذروا، فالخطاب كذلك موجه لنا، فلنحذر جميعًا أن نُحرم الهداية بسبب ثلاثة أحرف.. (أبى).. نعوذ بالله أن نُحرم من فضل الله عز وجل ومن نور هدايته.

(وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنهَ عنك. فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ﴾.[التوبة] وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾).

أختم هذا الدرس برسالة: أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلها خالصةً لوجهه الكريم وأن يغفر لنا بسببها الذنوب والزلات..

أحبابي الكرام، لقد امتنّ الله سبحانه وتعالى علينا في كل يوم من أيام الأسبوع –حاشا الخميس والجمعة– أن نتدارس وإياكم متنًا عظيمًا نتعلم فيه أصل الدين، نتعلم فيه ما نبني عليه المعتقد وما نبني عليه عقيدتنا.. فيا أحبابي الكرام، لا تكن علاقتنا بالعقيدة فقط في هذا الدرس، بعض الناس يظن أن التوحيد عبارة عن جلباب ما يلبسه إلا إذا دخل مع هذا الباب، وينزعه عند هذا الباب! يدخل المسجد بجلباب الموحدين، وإذا وصل عند الباب نزعه وخرج بجلباب آخر..!

فلنتقِ الله عز وجل، ولنكون من أهل التوحيد، ومن الدعاة إليه، ونكون توحيدًا يسير على ظهر الأرض، نحقق التوحيد كما أمرنا الله سبحانه وتعالى، لا نحابي في ذلك أحد ولا نجامل في ذلك أحد،

فهذا دين الله، والله سبحانه وتعالى تعبّدنا بإظهاره وتعبّدنا بالبراءة ممن ناقضه.. أسأل الله العلي القدير أن يوفقنا وإياكم إلى الهدى والصواب.

هذا ما تسنى ذكره وإيراده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، هذا وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس السابع عشر

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.(٢)[المائدة]

---

(١) [...] مثل دخول الوقت بالنسبة للصلاة، يلزم من وجوده وجود الصلاة، ومن عدمه عدم الصلاة..

النكاح من أسباب الإرث، فالزوجة ترث زوجها، والزوج يرث زوجته، ولكن هل هذا هو السبب الوحيد أم أن هناك أسباب أخرى؟

توجد أسباب أخرى.. النسب القرابة.. فالابن يرث من أبيه والأب يرث من ابنه، فهذه أسباب أخرى..

هذا يسمى سببًا غير مستقل، ولكن السبب المستقل من أمثلته دخول الوقت بالنسبة للصلاة..

ذكرَ أن من مآلات الغلو في الصالحين: الكفر وترك الدين.

وقد ذكر هنا (**كفر بني آدم وتركهم دينهم**)، فهل هناك فرق بين الكفر وترك الدين؟

١- من هنا بدأ تسجل الدرس، وهذا الجزء تعليق من الشيخ -تقبله الله- على عنوان الباب، فهو يقصد أن الغلو في الصالحين ليس هو السبب الوحيد في كفر بني آدم.

الكفر تركٌ للدين، وترك الدين كفر، ولكن قد يكون الكفر في جزء من الدين، وترك الدين هو ترك لكل الدين، بينهما عموم وخصوص، فلا شك أن ترك الدين كفر، لكن لا يلزم لكل كفر أن يكون ترك للدين، فقد يكفر في جزئية واحدة من الدين، يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض فيسمى كافرًا، وفي الأصل من حيث الحكم أن من ترك بعض الدين فهو تارك لكله. يقول الإمام ابن حزم –رحمه الله–: وليس بعض الإيمان إيمانًا. يعني من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض هذا أصلًا لا يسمى إيمانًا.

(**أن سبب كفر بني آدم**): الكفر هو الستر والتغطية. لذلك يسمى المزارع كافرًا لأنه يغطي البذور بالتراب. ومن الناحية الاصطلاحية هو الإخلال بأصل الدين قولًا أو عملًا أو اعتقادًا أو شكًّا أو جحودًا. كل هذه الصور إذا اقترف الإنسان واحدة منها وكانت تتنافى مع أصل الدين عُدَّ ذلك كفرًا.. ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.[الفتح]

(**الغلو في الصالحين**): الغلو هو مجاوزة الحد، وأُخذ من غليان القدر إذا تجاوز الحد فار. ومن الناحية الاصطلاحية هو مجاوزة الحد بالاعتقادات والعبادات والعادات. أو هو مجاوزة الحد في المدح أو الذم أو الاتباع. هذا يسمى غلوًا.

بيّن المصنف –رحمه الله تعالى– أن سبب ضلال الناس وضياع الناس هو الغلو.

والغلو من حيث الموضع يقسم إلى ثلاث: غلو في الاعتقادات، وغلو في العبادات، وغلو في العادات.

من أمثلة الغلو في الاعتقادات: حينما غلا المعطلة في باب الأسماء والصفات فغلوا في التنزيه، فآل بهم المآل إلى أن عطلوا عن الله هذه الصفات، فجردوا المولى سبحانه وتعالى من الصفات، ولا يوجد ذات على ظهر الأرض إلا ولها صفات، فغلوا في باب النفي فنفوا عن الله سبحانه وتعالى كل هذه الصفات، وفي المقابل غلا المشبِّهَة في الإثبات فآل بهم المآل إلى أن أثبتوا لله صفات كصفات المخلوق، وأهل السنة وسط بين طرفين؛ فأثبتوا لله الصفات ولكن على الوجه الذي يليق بجلاله وعظيم سلطانه.

كذلك غلا الخوارج فعظّموا نصوص الوعيد وأهملوا نصوص الوعد، فضلوا في أنهم أنزلوا حكم الكفر على أناس لم يقترفوا الموجب للتكفير، فكفّروا الزاني الذي لم يقترف الزنا استحلالًا وإنما تهاونًا وشهوةً.

وكذلك عندنا في المقابل غلا المرجئة في نصوص الوعد حتى قالوا: ولا يضر مع الإيمان ذنب.

وأهل السنة وسط بين طرفين فهم يُعملون نصوص الوعد ونصوص الوعيد.

أما الغلو في العبادات: كأن يبالغ الإنسان في حكم بعض السنن فيقول أن تركها إثم أو كفر أو ما شابه ذلك، فهذا يسمى غلوًا، لأنه مجاوزة للحد.

ولكن ترك السنة يقسمه أهل العلم إلى قسمين: ترك كلي وترك جزئي.

فأما الترك الجزئي :فلا يؤاخذ به الإنسان ولكنه قد فوّت الأجر وضيّع الثواب.

وأما الترك الكلي فهو مذموم: (فمن رغب عن سنتي فليس مني).

رجل لا يرغب بالسنن في كل أبواب الدين، فهذا لا شك أنه تعطيل لهذه السنن، فإذا كان الإعراض عن السنة إعراضًا كليًا فهذا لا شك أنه لا يقال أن هذا يُثاب الفاعل ولا يُعاقب التارك، لذلك النبي ﷺ يقول: ((فمن رغب عن سنتي فليس مني)). [صحيح ابن حبان]

القسم الثالث غلو في العادات: كأن يغلو الإنسان في بعض العادات المتعارف عليها، فيبالغ الإنسان ببعض العادات حتى يوالي فيها ويعادي من أجلها. هذا يسمى غلو في العادات.

ويقسم أهل العلم العادة إلى قسمين: عادة لا تتناقض مع الشرع، وعادات تتناقض مع الشرع.

أما العادات التي تتناقض مع الشرع فهي مردودة جملةً وتفصيلًا.

وأما إذا كانت العادات لا تتصادم مع الشرع فهي من الأمور المتروكة المرسلة، لا حرج أن تُفعل.. مثلًا في أحكام البيوع، قد تكون هناك عادة من العادات، ولكن إذا حصل النزاع بين اثنين على أمر لا يوجد حكمًا له في نصوص الشرع، وهناك عادة متعارف عليها؛ فهنا نُعمِل القاعدة التي نص عليها علماء الأصول: [العادةُ مُحكَّمَة].

– أخ: يُصار إلى هذه القاعدة [العادةُ مُحكَّمَة] عندما لا نملك نصًا في القرآن أو في السنة أو في الإجماع..

– الشيخ: أحسنت، أحسنت.. أو مثلًا من اللغة.. يعني حتى مثلًا في ألفاظ الظهار أو الطلاق إذا كانت كنائية، أو مثلًا في ألفاظ البيع إذا كانت كنائية غير صريحة.. مثلًا: رجل قال: إن دخلت الدار زوجتي طالق. ويكون هناك عُرف سائد أن الدار يُراد بها الحُجرة، لا يُراد بها كل البيت، فهنا إذا دخل إلى فناء البيت لا تَطْلُق المرأة.. وإذا دخل إلى الحُجرة تَطْلُق.. وهكذا..

وهناك كذلك حالات قد يتلفظ إنسان ببعض العبارات ولا يمكن حملها على الحقيقة.. مثلًا قال: والله لا أضع قدمي في بيت فلان.. فما المراد هنا؟ هل الحقيقة أنك تحمل قدمك وتضعها؟ المراد به الدخول.. فلو قال والله لا أضع قدمي.. يحنث عندما يدخله..

إذن علمنا المواضع التي يقع فيها الغلو، قلنا غلو في الاعتقادات وفي العبادات وفي العادات..

كذلك من حيث الحكم: فأهل العلم يقولون أن الغلو إما أن يكون في الاعتقاد أو في وسائل الاعتقاد، منه ما يكون شركًا ومنه ما يكون دون ذلك وهكذا.

يعني مثلًا: الغلو في الصالحين أن تُنزِل الصالحين منزلةَ الإله فتذبح لهم، هذا غلو شركي يخرج الإنسان بسببه من الإسلام ويعد بذلك كافرًا مرتدًا.

أما لو كان الإنسان قد غلا ولكنه لم يُنزِل المخلوق الذي غلا به منزلة الله، مثلًا: جاء وعبدَ الله عند قبره.. صلى لله.. طبعًا الصلاة هنا غير صحيحة، لأن المقبرة أصلًا لا يُصلّى فيها ((الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمّام))[أخرجه أبو داوود]، فهذان الموضعان لا يصح إيقاع الصلاة فيها، إلا صلاة الجنازة، فالصلاة المقصودة هي التي فيها الركوع والسجود، أما صلاة الجنازة فهي خارجة عن ذلك، ومخصصة بفعله ﷺ في شأن تلك المرأة التي كانت تقُم المسجد، فلما جاء النبي ﷺ وتحسّس خبرها فأُخبرِ أنها قد ماتت فدُلَّ على قبرها فصلى عليها عليه الصلاة والسلام.

إذن فمثل هذا غلو ولكنه لا يُخرِج من الملة وإنما يكون شركًا أصغرًا، أن يوقع العبادة لله -في فرق- أن يأتي ويذبح لله ويظن أن هذا الموضع مبارك.

أما الشرك الأكبر: رجل جاء ذبح للقبر، لم يذبح لله. أما أن يذبح لله متبركًا بالمكان فهذا شرك أصغر، لا تخلط.. بعضهم يأتي ببدع من القول.. يقول أبو مالك يقول كذا وكذا.. انتبهوا..

أنا أسألكم لأجل أن أنظر فهمتم أو ما فهمتم.. ننظر إلى سعة فقهكم..

دخل رجل إلى مقبرة فيها شهداء وفيها أموات، فقال أن الدعاء هنا فيه بركة، فرفع يديه إلى السماء وأخذ يدعو الله متبركًا بالمكان.. ما حكم فعله؟

- أخ: لا يجوز، شرك أصغر.

- الشيخ: لماذا؟

- الأخ: لأن هذا المكان منهي عن الصلاة فيه والدعاء فيه، والتبرك بالصالحين غير جائز.

- الشيخ: وكذلك هو وسيلة إلى الشرك الأكبر.

طيّب، رجل ذبح ذبيحة في المقبرة للولي..؟

- الإخوة: شرك أكبر.

- الشيخ: إي نعم.. لأن هناك خلط، قد يقع الخلط عند بعض الناس.. أخشى أشوف بكرة واحد تالّ له ذبيحة.. وين يا الحبيب؟ والله في هنا واحد صالح.. واحد من الشهداء.. سلامات؟ والله سمعنا أبو مالك يقول..

وَكَــم مِــن عائِــبٍ قَــولاً صَــحيحًا وَآفَتُـــــهُ مِـــــنَ الفَهـــــمِ السَـــــقيمِ

لا بد أن نُفرِّق، لكن لا يعني ذلك أننا نقول أن فعله هذا مشروع لأنه لا يُخرِج من الملة! لا هو ممقوت، ولو وجدناه لعاقبناه وأدبناه.

وأما الذي وقع في الصورة الأولى فيُستتاب، فإن تاب من فعله وإلا قُتلِ مُرتدًا ولا حول ولا قوة إلا بالله، لأنه صرف عبادةً لغير الله عز وجل وهي من العبادات التي لا يجوز صرفها لغير الله.

- أخ: شيخ سؤال: الدعاء أمام الحُجرة النبوية.. قد يكون ما هو بالمقبرة، في المسجد؟

- الشيخ: يعني يستقبل القبر؟

- الأخ: في ناس يستقبلوه وفي ناس ما يستقبلوه..

- الشيخ: يدعو من؟

- الأخ: يدعو الله.

- الشيخ: يعني هو يأتي إلى المسجد النبوي متبركًا بقبر النبي ﷺ؟

- الأخ: نعم.

– الشيخ: نفس الآلية، نفس الآلية التي ذكرناها قبل قليل، وإن كان في الحقيقة كما قال الإمام ابن القيم –رحمه الله–: وقد استجاب الله دعاء نبيه فقد أُحيط قبره بثلاثة جدران.

يعني حتى من الناحية العقلية وحتى من الناحية الهندسية لا يُمكن أن يُستقبل القبر، لأنه أصلًا محاط بجدران، وكأنه أصلًا خارج المسجد، وإدخاله في حدود المسجد أمرٌ غير مُقَر، والنبي ﷺ ما دُفِن في المسجد دُفن في غرفته عليه الصلاة والسلام، ولم يأمر بذلك. وحتى وقع كلام طويل من السلف ولكن لا شك أن السلف راعوا قضية المفاسد المترتبة على ذلك.

لكن الشاهد من ذلك أن القبر ليس في المسجد، وهذا ما قرره جمع من علماء السلف، والنبي ﷺ ما دُفن في المسجد وإنما دُفن في حجرته ﷺ، وحتى قضية الاتساع تراها ليست من جهة النبي ﷺ وإنما من جهات أخرى.

ثم بعد ذلك من جاء إلى المسجد النبوي وهو لا يتبرك بالمسجد وإنما يتبرك بقبر النبي ﷺ فنفس المثال:

فإذا كان يدعو الله مُتبركًا بقبر النبي ﷺ فهذا شرك أصغر، وإن كان يدعو الله متبركًا بالمسجد فهذا من البركة المكانية المشروعة، فقد بيّن النبي ﷺ أن الصلاة في المسجد النبوي مضاعفة، والعبادة فيه مضاعفة، وهذا من التبرك المشروع (المكاني)، لكن الذي يدخل إلى المسجد النبوي متبركًا بقبره ﷺ فهذا دخل في وسائل الشرك، ومن يأتي ويدعو الله متبركًا بالمسجد فهو مشروع، ومن يأتي ويدعو النبي ﷺ بالقبر فهو مشرك سواء استقبل القبلة أو استدبرها، والتوجه إلى النبي ﷺ شرك سواء كان داخل المسجد أو خارجه.

وهنا مسائل قد تشكل على البعض:

فيُدخل البعض مشروعية التبرك بالمسجد النبوي بالقبر، بل بعضهم تسمعه يقول (أذهب لزيارة النبي) هذا خطأ، إنما أنت تذهب لزيارة المسجد، فالنبي ﷺ قال: ((لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هذا، وَمَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى))[الطبراني]. فالنبي ﷺ قال: (مسجدي) ولم يقل قبري.

لكن بعضهم قد يقول أنا أذهب إلى زيارة النبي ﷺ، لكن إذا جاء الإنسان إلى المسجد -لاحظوا- وكان الغرض من إتيانه إلى المسجد هو العبادة في المسجد، فتهيّأت له أسباب الزيارة فزارَ القبر زيارة مشروعة فلا حرج، [زيارة للسلام على النبي ﷺ، ليس للتبرك أو للدعاء أو للاستغاثة أو ما شابه ذلك]، فهذا كله من وسائل الشرك، أو قد يكون شركًا أكبر بحسب التقسيم الذي ذكرناه، فإذا كان يستغيث بالنبي ﷺ فهذا شرك أكبر سواءً كان في المسجد أو خارج المسجد، وإن كان يتبرك بقبر النبي ﷺ في هذا الموضع فهذا شرك أصغر، وهكذا.

- أخ: شيخ، تعرف أن زيارة المسجد بعض الناس يعتبرها ركن من أركان الحج.. ذهبنا إلى زيارة النبي ﷺ..

- الشيخ: هذه مصيبة..

- أخ: حديث ((ما بيْنَ بَيْتِي ومِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِن رِيَاضِ الجَنَّةِ))؟

- الشيخ: نعم حديث صحيح.

- الأخ: ما يدل على قبر النبي؟

- الشيخ: لا لا ما قال النبي ﷺ القبر، قال منبري وبيتي.

(الغلو في الصالحين): عرفنا معنى الغلو، الصالحين جمع صالح، والصالح هو: ما فعل المأمور واتقّى المحذور، وأهل العلم يقولون أنه يدخل في هذا الوصف (وصف الصالحين) المقتصد والسابق بالخيرات..

والمقتصد: هو الذي اقتصر على فعل المأمور واتقّاء المحذور، والسابق بالخيرات: هو من حقّق ذلك وأضاف على ذلك السُنن والمستحبّات.

(٢): ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ﴾.

(يا أهل الكتاب): خطاب من الله عز وجل لأهل الكتاب، وإذا أُطلق أهل الكتاب اتّجه أولًا إلى اليهود والنصارى، ويدخل في ذلك من عنده شبهة كتاب كالمجوس.

(لا تغلوا في دينكم): لا تغلوا بأعمالكم، لأن الدين قد يُطلق ويراد به العمل (كما تدين تدان) أي كما تعمل تُجازى، وهكذا..

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وفي الصحيح عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت.[١]

وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.[٢]

---

(١): أولًا: يظهر لنا من هذا الخبر أن من سُبل الشرك: الغلو، وكذلك من صور الشرك التصوير، ومن صور الشرك العكوف..

ذكر ابن عباس هنا مرحلتين وقع فيها المشركون من قوم نوح، وابن القيم ذكر ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: حينما مات الصالحون، ماذا فعل قومهم؟ عكفوا على قبورهم، هذه هي المرحلة الأولى، انتهى الجيل الأول.

جاء الجيل الثاني: وكانوا يرون آباءهم وأجدادهم يعكفون على تلك القبور، فعظّمَ الشيطان أمر هؤلاء فنقلهم إلى مرحلة أخرى وهي التصوير، فصوروا على قبورهم صورًا تدل عليهم، وكان الغرض من العكوف الأولي والتصوير في المرحلة الثانية هو تذكر الصالحين وتذكر عباداتهم واقتفاء آثارهم وهكذا. انتهى الجيل الثاني.

جاء الجيل الثالث: نُسي العلم واندرست معالم العلم، فوقع المحذور.

كثيرًا ما يتكرر في سياقات نصوص الشرع ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[النور]، الشيطان هكذا يبتدئ خطوة خطوة حتى يوصل الإنسان إلى ما يريد الشيطان من الغواية والإضلال، لذلك لو قيل للذين عكفوا في المرحلة الأولى: إن عكوفكم عند قبورهم ذريعة إلى الشرك ماذا سيكون الجواب؟ لا يا أخي! نُشرك نحن!! نحن نعرف التوحيد ونحن الذين نُدرّس التوحيد و.. و.. إلخ..

ذرائع.. لذلك حينما يمنع الشرع تعليق الصور ذوات الأرواح تجد البعض يسأل لماذا ما السبب؟! ما العلة؟! ماهو الدليل؟! فيرد عليه أن ذلك ذريعة أن تُعظّم هذي الصور ثم تُعبَد من دون الله، فتجدهم يقولون مباشرة: صورة تعبد! كيف هذا! ما يكون! لا، كان، ووقع، لقد أجاب بمثل هذا الجواب أصحاب المرحلة الأولى، ولم يكونوا يتوقعون حصولها في المرحلة الثالثة، وهذا يدل على أن النهي عن الذرائع لا يلزم منه وقوعه في الحال، بل قد يقع بعد مراحل.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح]: إذا كان ثمة محبة للصالحين فإنها تكون بالتأسي بأفعالهم الموافقة للشرع، لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تعالى– يقول: ولا تغتر بالرجل إن كان يسير فوق الماء أو يطير في السماء ولكن اعرض أفعاله وأقواله على كتاب الله وسنة النبي ﷺ. لأن هناك أناس قد يعملون أعمالًا خارقة للعادة فيغتر الناس بهم، ثم بعد ذلك يكون مآل ذلك إلى تعظيم هؤلاء، ثمبعد ذلك صرف شيء لهم مما لا يجوز صرفه لغير لله عز وجل.

وكذلك فإن الغلو في الصالحين باب شر عظيم، وهذا قد يقع بين ظهرانينا في هذا الزمان.. تجد مثلًا رجلًا تتلمذ على يد أحد المشايخ، حتى أنه أثبت العصمة لهذا الشيخ إما أصالةً أو ضمنًا، فتجده مثلًا عندما تُعرض مسألة من المسائل الشرعية وهذه المسألة قد يكون دلالة النص فيها قطعية الثبوت، قطعية الدلالة، فلما تورد هذا النص تجده يعترض عليك بأن يقول: طيب الشيخ قال كذا! وهذا يدخل في عموم قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[التوبة]، فلذلك لا بد من الحذر الشديد من مجاوزة الحد والقدر المشروع.

فبعضهم من فرط محبته للشيخ قد يتحدث بمنطلق العصمة لشيخه، وقد لا يقول ذلك صراحةً وإنما ضمنًا، يعني مثلًا: يقول لك: بس الشيخ قالَه؟ بس خلاص.

تسليم مطلق، وأهل العلم وأهل الفضل متابعتهم استقلالاً أو تبعًا؟ تبعًا، فهم إذا وافقوا وتابعوا بأفعالهم النبي ﷺ فلا حرج في متابعتهم، ومتابعتهم هنا ليست استقلالاً وإنما تبعًا، ولكن لا يُتابعون استقلالاً. طرحتَ الكتاب السنة؟!

ولكن هناك أمور اجتهادية قد تقبل الاجتهاد، أو للنظر فيها مندوحة، فهذا أمر آخر، لذلك لا يدفعك حبك لعالم من العلماء أو لأحد طلبة العلم أن تُؤَلِّه هذا الشخص في مضمون كلامك.

نضرب مثالًا الآن: هناك خبر، ابن عباس رضي الله عنه، لا شك هو حبر الأمة وترجمان القرآن هذا أمر مقرر متفق عليه، ولا شك كذلك أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما هما أفضل من ابن عباس، بل أجمعت الأمة وأجمع علماؤها وفقهاؤها وفضلاؤها جيلًا بعد جيل وكابرًا بعد كابر أن أفضل البرية والبشرية بعد الأنبياء عليهم السلام أبو بكر وعمر.

اختلف الصحابة في قضية المتعة في الحج، أي الأنساك أفضل هل هو التمتع أو القران؟ -تعرفون أن أنساك الحج ثلاث التمتع والقران والإفراد-، فبعضهم قال أن التمتع أفضل، وبعضهم قال أن القران أفضل لأن النبي ﷺ حجَّ قارنًا، فجاؤوا هم إلى ابن عباس رجعوا إلى العالم لكي يستفتوه، فقال لهم ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: ((لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأحللت بعمرة ولم أسق الهدي)) يعني أنه أراد التمتع، ولكن الذي منعه من التمتع سَوْق الهدي، لأنه إذا ساق الهدي لا يحل إحرامه حتى يبلغ الهدي محله (حتى ينحر الهدي)، فقال لهم ذلك، فاعترض البعض بقول أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، انظروا من يتكلم ومن الذي يعترض عليه! والمعترض هنا يرجح قول من! والذي يرد عليه يرجح قول من!

المتكلّم ابن عباس، يعترض عليه بعض الصحابة بقول أفضل الناس بعد الأنبياء أبو بكر وعمر، لكن المقام ليس مقام أفضل الناس بعد الأنبياء، المقام أن قول رسول ﷺ يُرد! فلما يُرد قول النبي ﷺ أو يُرد كتاب الله عز وجل فلا اعتبار بالقول الذي يُعترض به هنا حتى وإن القائل أبو بكر وعمر اللذان هما

أفضل الناس بعد الأنبياء، إذا كان المقام مقام تعظيم للنصوص تسقط كل الألقاب وتسقط كل الأسماء وتسقط كل الشخصيات، قال ابن عباس: ((يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنْ السَّمَاءِ! أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!)).[مجموع الفتاوى]

إذا كان هذا الموقف صدر من ابن عباس وهو أقل قدرًا وأقل شأنًا من أبي بكر وعمر، ولكن المقام مقام تعظيمٍ للنص، الآن حينما يعترض علينا البعض ويرُد صريح الكتاب والسنة بقول فلان وعلان ويستعظمون أن يُردّ عليهم، فإذا قلت لهم: يقول الله.. يقول: قال فلان! سبحان الله! غضب ابن عباس وقال: توشك أن تقع عليكم حجارةً من السماء: يعني يحلّ بكم عقاب وغضب وعذاب أليم من الله عز وجل..

فالنص الشرعي له قداسة لا يُلتفت فيها حتى إلى الصحابي وإن كان ذا شان وقدر في الإسلام، إذا وصلت الأمة إلى هذا القدر عند ذلك نخرج من تأليه الأشخاص، في هذا الزمان كثر بين ظهرانينا تأليه الأشخاص، وتعظيم الشخصيات، حتى ضلّت الأمة وضاعت وابتعدت عن كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ، لا شك أننا نطالب بتعظيم النصوص ويُراعى في ذلك فهم السلف لهذه النصوص، لا أن يأتي آتٍ فيُعظّم النص بفهم يُخالف فهم السلف لأنه لا يمكن أن نأتي بدليل، والسلف هم أقرب إلى عصر التنزيل، وأوثق ديانةً وأقدر فقهًا وأعلم باللغة ومدلولات الألفاظ.

إذن لا بد من تعظيم النص، ولا يُنظر إلى قول المعترض إذا كان النص قطعي الدلالة قطعي الثبوت، أما إذا كان قطعي الثبوت ظني الدلالة فعند إذن ننظر، لأنه يُحتمل، فإذا كانت دلالة النص ظنية فهي مترددة بين معنيين.

نطرح مسألة:

النبي ﷺ حينما قال لبعض الصحابة: ((لا يُصلِّينَّ أحدكم العصر إلا في بني قريظة))[البخاري بخلاف يسير]، هذا النص قطعي الدلالة ولّا ظني الدلالة؟ طبعًا الثبوت هم سمعوه من النبي ﷺ مباشرة فما يحتاج.. بدون ناقل سمعوه مباشرة فلا مجال لاطراح قضية ثبوت النص.. لكن الدلالة ظنيّة، لماذا؟

– أخ: لأن بعض الصحابة صلوا العصر ثم انطلقوا إلى بني قريظة، وبعض الصحابة ما صلوا العصر إلا في بني قريظة.

– الشيخ: والنتيجة؟

– الأخ: أن النبي ﷺ لم ينكر على أحدهما.

– الشيخ أحسنتم، لم ينكر النبي ﷺ على أحدهما لأن النص يحتمل.

الاحتمال الأول: قوله ﷺ: «لا يُصلِّينَّ أحدكم العصر إلا في بني قريظة»، هو لا شك أنه أمر من النبي ﷺ لكن قد يُفهم منه الحث على السير، لماذاُ وجِد احتمال أنه حث على السير؟ لأن المسافة أصلًا لا يمكن أن تُقطع بهذا الوقت؛ بدليل الذين حملوه على ظاهره صلوا بعد خروج الوقت، والذين حملوه على حث السير صلوا في الوقت، لأنهم قالوا لا يُمكن في هذا الوقت أن نقطع هذه المسافة، لأنه وُجدت قرينة قوية تُرجح عندهم أحد المعنيين، أما الفئة الأخرى قالوا الأمر على ظاهره (لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة) العصر العصر، سواءً خرج الوقت دخل وقت الصلاة الأخرى، بعد يومين ثلاثة أيام.. العصر في بني قريظة يعني العصر، سمعنا وأطعنا.

– أخ: متى صلى النبي ﷺ ؟

– الشيخ: لا لا، هذا أمر للصحابة ليس معهم، هذا أمر، النبي ﷺ أمر هؤلاء الصحابة (فئة منهم) انتدبهم لأمر..

– أخ: يا شيخ، صدقة الفطر، قول معاوية فيها نصف صاع، أين هو من هذا الكلام؟! قول معاوية أم حديث النبي ﷺ، ونأخذ بقول معاوية رضي الله عنه أم بقول النبي ﷺ؟

– الشيخ: هنا على العموم نحن خرجنا إلى مسألة، الآن تقصد قضية تعظيم النص وما شابه ذلك.. هذا يُحمل على عدة أمور، أنه لم يبلغه النص أو أنه تأول في النص وما شابه ذلك.. يعني هناك إيرادات كثيرة، لكن هنا مثلًا كان النص لا يحتمل التأويل ولا يحتمل معنى آخر.

نحن الآن تحدثنا قلنا قطعي الثبوت قطعي الدلالة.. لأن هناك نصوص كثيرة دلالتها ظنية، وإذا نظرت إلى دلالة النصوص، كثير منها ظني، وإلا لماذا حصل الخلاف؟!

والخلاف يقسم إلى أقسام: هناك مثلًا خلاف مُطَّرَح ومردود وهو الخلاف في مورد النص، أن يكون هناك نص قطعي الثبوت قطعي الدلالة فيأتي أحد بقول يُخالفه.. ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[البقرة] هذا النص قطعي الدلالة.. فيأتي رجل مثلًا: ويقول لك الربا حلال.. هل هذا النص ظني؟ قطعي الدلالة..

لكن مثلًا يقول لك: إنما الربا في النسيئة.. هل يجوز ربا الفضل؟ أُورد أصلًا على هذا النص عدة إيرادات، وابن عباس ﵄ رجع عن ذلك وحديث سمعه وهكذا.. مسألة أخرى..

الشاهد من ذلك: أنه إذا كان النص ظني الدلالة: نعم، يسوغ فيه الخلاف، لأن الفهوم تتفاوت فيه، فقد يفهم البعض ويحمله على هذا المعنى، وقد يحمله البعض على معنى آخر بدلالة اللغة وبدلالة نصوص أخرى وبدلالة عمومات من الشرع وأصول وقواعد..

وإذا كان الخلاف في مورد النص فلا اعتبار لأنه لا اجتهاد في مورد النص، لأنه خلاص هنا النص بتّ في هذه المسألة، لكن إذا كان ظني الدلالة فقد يسوغ الخلاف، البعض يحمله على أحد المعنيين والآخر يحمله على المعنى الآخر

إذن علمنا أن ابن عباس ﵄ وقف موقفًا عظَّمَ فيه من نصوص الكتاب والسنة، وهذا الذي ينبغي أن نعيش عليه نحن كموحدين وألا نُقدِّم قول أحد كائنًا من كان على قول الله ورسوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الاحزاب]، لا بد من التسليم المطلق لله ولرسوله ﷺ.

إذن بين ابن عباس ﵄ مرحلتين من المراحل التي وقع فيها المشركون من قوم نوح، وذكر ابن القيم -رحمه الله تعالى- كلامًا أضاف فيه مرحلةً أخرى..

(٢): **قال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم** (هذه المرحلة الأولى)، **ثم صوروا تماثيلهم** (هذه المرحلة الثانية)، **ثم طالَ عليهم الأمد فعبدوهم** (هذه المرحلة الثالثة).

وجاء في بعض الأخبار أنه (لما فشا الجهل ونُسي العلم)، وهذا يدل على أن أعظم أمر وأعظم شؤم يحل على العباد هو ارتفاع العلم، والمراد به ارتفاع التوحيد، والعلم كله توحيد، فإذا ارتفع التوحيد من بين ظهراني الناس ضلوا وأضلوا وضاعوا وعاشوا كالبهائم -أجلكم الله-، وكما وصف الله سبحانه حال المشركين أنهم يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام، النتيجة: النار مثوى لهم.

إذا عاش الإنسان بدون عقيدة فهو يعيش كالبهيمة، شهوة بطن وشهوة فرج، ليس هناك هدف من هذه الحياة، وانظروا في واقع كل من كفر بالله عز وجل وارتد عن دينه، ستجد أن شغله الشاغل وهمه الأوحد هو إشباع غرائزه وشهوات البطن والفرج، أما الموحد فهمه وشغله كيف يحقق التوحيد ويُصفيّه ويُنقّيه من شوائب الشرك.. فرق، شتان بين هذا وذاك، فرقٌ بين السماء والأرض.

إذن ذم الغلو في الصالحين وعدم التهاون في الوسائل التي توصل إلى الشرك.

والوسيلة قد يُنهى عنها وقد لا يتحقق المصير إلى الشرك إلا بعد مراحل، فانظر هنا الوسيلة نُهيت في المرحلة الأولى، لكن نتيجتها وهو الشرك وقع في المرحلة والجيل الثالث.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وعن عمر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: (لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله).(١) أخرجه البخاري

وفي الصحيح عن ابن عباس ﷺ: قال: قال رسول الله ﷺ: (إياكم والغُلوَّ، فإنما أهلكَ من كان قبلكم الغلُوُّ).(٢)

ولمسلم عن ابن مسعود -رضي الله عنه-: أن رسول الله ﷺ قال: (هلكَ المُتنطِّعون). قالها ثلاثًا.(٣)

---

(١): الإطراء هو المبالغة في المديح.

والكاف هنا تكلم أهل العلم على نوعها، فغلاة المتصوفة يحملونها على التشبيه.. يعني الآن إذا حملوها على التشبيه يعني أنتم امدحوني واطروني لكن لا تقولوا كما قالت النصارى المسيح ابن الله أو أنهم قالوا عن المسيح أنه ثالث ثلاثة وأنه هو الله.. هذا هو المعنى الأول وهو معنى مردود.

بل المنهي عنه هنا: هو الإطراء، والكاف هنا للتعليل؛ أي لا تبالغوا في مدحي، لا تطروني لأجل ألّا تقعوا فيما وقع فيه النصارى.. فألّهوا عيسى بن مريم..

انظر ماذا قال النبي ﷺ: **(إنما أنا عبد)**، ومر معنا مرارًا وتكرارًا في نصوص السنة أنه دائمًا يأتي التعبير بأن النبي ﷺ هو عبد الله ورسوله، فقلنا هو عبدٌ فلا يُعبد، ورسولٌ فلا يُكذّب، يُصدّق ولا يُكذّب.

لذلك البوصيري تعرفون قصيدته الشهيرة المعروفة (البُردة) التي تُنشد الآن في الموالد وما شابه ذلك، حتى أنه جاء بأبيات كفرية شركية نَسبَ فيها إلى النبي ﷺ العلم بالغيب (ومن علومك علم اللوح والقلم)،

فنسب إلى النبي ﷺ علم الغيب، وهذا لا شك أنه كفرٌ بالله عز وجل، والنبي ﷺ لا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله سبحانه وتعالى عليه وحيًا من عند الله، أما ما عدا ذلك فالنبي ﷺ لا يعلم من الغيب شيء: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾.[الاعراف]

- أخ: مِن المحكم هذه الآية؟

- الشيخ: نعم.

- الأخ: هم يتّبعون المتشابه في هذا.

- الشيخ: أهل العلم أصّلوا أن دائمًا أهل الزيغ والضلال وأهل البدع والخرافات يتعلقون بالنصوص المشتبهة ويطّرحون النصوص المحكمة.

(٢): قال رسول الله ﷺ: **(إياكم والغُلوَّ، فإنما أهلكَ من كان قبلكم الغلُوُّ)**: نهانا النبي ﷺ عن الغلو في كل شيء، وهنا النص عام فيشمل المواضع الثلاثة التي ذكرناها، الغلو في الاعتقادات والعبادات والعادات، وكلما تجاوز الإنسان الحد المشروع ضلّ وزل، وإنما الإنسان مطالب بالاقتصار على المشروع وألا يتجاوز ذلك.

التنطُّع هو التعمق الزائد الذي يجاوز به الإنسان الحد المتعارف عليه، والتنطع صورة من صور مجاوزة الحد، زيادة في التعمق، حتى أن الإنسان يتعمق في بعض الأشياء فيصدر منه نتائج غير صحيحة كل ذلك بسبب مجاوزة الحد.

الخلاصة: أراد المصنف -رحمه الله تعالى- أن يبين في هذا التبويب أن من أعظم أسباب الوقوع في الشرك هو الغلو في الصالحين، ومن هذا الباب عُكِفَ على قبور الأولياء وصُوّرت لهم تصاوير، وعُبِدوا من دون الله، كل ذلك من هذا الباب، وقد يقع الإنسان في ذلك حتى في هذا الوقت..

وهذه صورة، وإلا هناك صور تُلحق بهذه الصورة كما ذكرنا لكم، قد يغلو إنسان في شيخ من المشايخ أو في عالم من العلماء، فيجعل قوله حجة مُطلقة سواءً وافق فيها الكتاب أو لم يوافقه، وقلنا أن متابعة العلماء والصالحين واقتفاء آثارهم إنما تكون تبعًا لا استقلالًا، أي أنهم إذا وافقوا في أفعالهم وأقوالهم هدي الكتاب والسنة عند ذلك لا حرج، ومتابعتهم هنا تَبَعًا للموافقة، فإذا خالفوا الكتاب والسنة فلا متابعة حينئذ، لأن الذي له المتابعة المطلقة هو النبي ﷺ، فالأنبياء عليهم السلام معصومون في أمور الدين وفيما يبلغونه عن الله سبحانه وتعالى، أما في أمور الدنيا وفي أمور المعاش التي تصدر منهم فقد يكونون من جملة البشر.. (أنتم أعلم بأمور دنياكم).

نكون بذلك أنهينا هذا الدرس، هذا والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الثامن عشر

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟.(١)

وفي الصحيح: عن عائشة رضي الله عنها: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور، فقال: (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجدًا، وصوّروا فيه تلك الصور، أولئك شِرار الخلق عند الله). فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل.(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

نستأنف وإياكم معاشر الأحبة مدارسة كتاب التوحيد..

(١): يريد المصنف –رحمه الله تعالى– أن يبين أمرًا عظيمًا ذاعَ وكثر وقوعه بين أوساط المسلمين، وهو أن يتعبد الإنسان لله عز وجل عند مواضع يُظنّ فيها البركة وهي ليست كذلك، ومن صور ذلك: عبادة الله عند قبر رجل صالح، فيقول المصنف: **(فكيف إذا عبده)**، أي فكيف إذا عُبِدَ هذا الرجل الصالح، وقد مر معنا صورة ذلك، وهو أن يذبح الإنسان لله أو يصلي لله عند قبر أو ما شابه ذلك، متبركًا بالمكان مع أن العبادة والتوجه لله عز وجل، ولا شك أن هذا من جملة الوسائل المفضية إلى الشرك، فلذلك لا شك أن هذا من الأمور المحدثة والمبتدعَة، وهي من حيث الحكم الشرعي: إذا كان التوجّه فيها

لله عز وجل وإنما قُصِدَ بذلك التبرك بالموضع أو بالمكان فهذا من قبيل الشرك الأصغر، ويجب منع الناس من ذلك لأن في ذلك إفضاء إلى الشرك الأكبر.

هنا قال المصنف -رحمه الله-: (**فيمن عبد الله عند رجل صالح**): أراد المصنف أن يبين أن كل صور العبادة لا تجوز في مثل هذه الصورة، سواءً الصلاة أو الذبح أو الدعاء أو ما شابه ذلك، لأن كل ما يُفضي إلى الشرك لا بد من منعه وصد الناس عنه.

هنا يقول: (**باب ما جاء في التغليظ**): في التشديد، والنبي ﷺ كما سيأتي معنا، غلّظ وشدّد في شأن هذا الأمر، مما يدل على خطورته وخطورة ما يُفضي إليه.

(٢): (**وفي الصحيح: عن عائشة ﵂: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة**).

الكنيسة: هي الدار التي يتعبّد فيها النصارى.

وقد مر معنا حكم إيقاع العبادة في معابد أهل الكتاب، فمن يُذكّرنا؟

- أخ: هناك قولان لأهل العلم: منهم من قال لا يجوز بالكل، ومنهم من قال حتى تُزال معالم الشرك.

- الشيخ: أحسنت.

وقلنا أنه ثبت عن بعض الصحابة أن منهم من قال بالجواز ومنهم من قال بالمنع، وقد مر معنا ما قاله عمر ﵁: لا تدخلوا على المشركين في معابدهم فإن السُّخْطَة تنزل عليهم.

وقد بينّا تعليل من قال بالجواز وقلنا أن الجواز هذا محمول على أنه لا يستقبل التصاوير ومظاهر الشرك كالصليب وما شابه ذلك، وقالوا أن هذه الدور الأصل فيها أنها كانت دور يُعبد فيها الله وحده

في أول الأمر ثم لما طرأ عليها التحريف وتطاول عليها أحبار الكذب والدجل انحرف الناس بعد ذلك، وهي شِرعة منسوخة أي أُلغيت أحكامها.

والعبرة هنا بهذا الدين الذي ختم الله سبحانه وتعالى به كل تلك الأديان وأنزل الله كتابه وختم به ونسخ به كل الكتب السماوية التي أُنزلت قبله، وقلنا الصحيح -والله تعالى أعلى وأعلم- أنه لا تشرع العبادة في مثل هذه الدور خصوصًا إذا خُشي من إيقاع العبادة فيها استنادًا على قول من قال بمشروعية ذلك أن يتساهل الناس في الدخول إلى معابد المشركين -وهذا على فرض وجود مثل هذه المعابد- فمثلًا إذا أُقر أهل الكتاب في أرض فُتحت عنوة، أقروا على دينهم مقابل دفع الجزية والخضوع لأحكام الإسلام، فقد يتصور في مثل ذلك بقاء الكنائس، أما أن تُستحدث فلا، وهذا مر معنا مُفصلًا عندما تحدثنا عن قول الله عز وجل ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.[التوبة]

وكذلك قال أهل العلم أن الدخول إلى معابد المشركين لا يخلو من أحوال ثلاثة:

الحال الأول: الدخول فيها لإيقاع العبادة لله عز وجل، ومر معنا الحكم في ذلك.

الحالة الأخرى: الدخول فيها للفُرجة والتنزه. كما يحصل الآن في بعض البلدان، تجد أن هناك كنيسة لها مئات السنين فتوضع كالمتحف فيدخل الناس إليها للفرُجة والنزهة، والذي يظهر -والله تعالى أعلى وأعلم- أنه لا يجوز، وهذا قد يُفضي إلى محبتهم ومحبة طقوس عبادتهم، وهذا قد يدخل في عموم التشبه المنهي عنه، يقول شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-: إن موافقة المشركين في الظاهر تؤول إلى موافقتهم في الباطن.

والإنسان إنما أُمر بالهجرة خشية أن يتأثر ببقائه بدين المشركين، لذلك أُمر بمفارقة ديار الشرك خشية الافتتان وخشية الاضمحلال وذوبان العقيدة في قلب الإنسان من حيث لا يشعر، ومر أن أشرنا إلى قول متداول بين الناس: (كثرة الإمساس تُميت الإحساس).

وهذا قد تكلم عليه بعض من عاش بين ظهراني المشركين في فترة ما، يقول: حينما انتقلنا إلى تلك الدور كنا نستنكر بشدة مظاهر التعري والسفور، والمظاهر الكفرية والشركية، فما زلنا على ذلك حتى بدأت تتقلص حدة ذلك في نفوسنا، حتى طال علينا الزمان فأصبحت كالروتين اليومي، أصبحت شيئًا مألوفًا في حياتنا وأثناء تنقلاتنا..

لذلك نعلم علمًا يقينيًا جازمًا أن من أبرز حكم الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام خشية التأثر بالشرك وأهله، ثم بعد ذلك إذا انطمست معالم الولاء والبراء عند الإنسان يصل إليه الزلل والخلل بكل سهولة ويُسر، فلذلك نقول -والله تعالى أعلى وأعلم- أنه لا يجوز الدخول للفُرجة ولا للتنزه في معابد المشركين.

الحالة الثالثة: الدخول إلى معابدهم للدعوة إلى الله وإنكار المنكر. إذا علمنا أن الدعوة إلى التوحيد واجبة، كان الدخول للدعوة إلى الله ولإزالة مظاهر الشرك أمر واجب، يجب على كل ذي قدرة وطاقة وسَعة -طبعًا هذا على تصور وجود مثل ذلك- وهذا قد يكون بالنسبة لأهل الذمة في ديار الإسلام، أو يكون بالنسبة لرجل يُعذر بترك الهجرة إذا كان يعيش في دار الكفر، ففي مثل هذه الحالات تُتصوّر مثل هذه المسألة.

لكن لا شك أن الإنسان إذا كان ضعيفًا حتى ولو كان عنده علم ولكنه لا يُحسن المجادلة ولا يُحسن المناقشة، فقد قرر أهل العلم أنه لا يجوز له أن يتصدر لمناقشة أهل البدع والضلال والكفر لأنه إذا ظهر كان يمثل الإسلام، فإذا جادل أهل الكفر والزيغ والضلال فإن مجادلته ستكون ضعيفة وقد يتقلّب عليه الطرف الآخر فيظهر الحق ويظهر الإسلام بمظهر الضعيف، فلذلك لا يجوز له في مثل ذلك، لذلك حينما تكلم أهل العلم على حكم مناظرة أهل البدع الزيغ والضلال والكفر والنفاق والشقاق أوردوا مثل هذا الكلام.

(وفي الصحيح: عن عائشة ﵂: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور): هنا تعلمون أن الصحابة ﵃ انتقلوا فيما يُسمى بالهجرة الأولى إلى الحبشة،

وذلك زمن الاستضعاف، ولم يكن للمسلمين دار إسلام، بل كانت مكة في ذلك الحين دار كفر، وكان النبي ﷺ في الطور الأول من الدعوة إلى الله، فلما عَظُمَ البلاء واشتد وكثر الأذى على المسلمين جاءت الرخصة بالانتقال من دارٍ الكفرُ فيها أشدّ إلى دارٍ الكفرُ فيها أخف، ولذلك أهل العلم يقولون أن الهجرة لها مراحل ولها صور، ولا شك أن المعنى العام التي تتعلق به أحكام الهجرة: هي الانتقال من دار الكفر إلى دار الإسلام، هذا هو المعنى الذي يتبادر إلى الذهن حينما نتحدث عن الهجرة، ولكن هناك صور أخرى، الهجرة بمعنى:

- الانتقال من دار البدعة إلى دار السنة.
- وكذلك الانتقال من دار المعصية إلى دار الطاعة.
- وكذلك الانتقال من دارٍ الكفر فيها أشد إلى دارٍ الكفر فيها أخف.
- وكذلك الانتقال من دار يشيع فيها الظلم إلى دار يقل فيها الظلم.

وهكذا.

فكانت هجرة الصحابة في أول الأمر هي انتقال من دارٍ الكفر فيها أشد إلى دارٍ الكفر فيها أخف، وكذلك قد يُدخل فيها أمر الظلم، ولم تكن الحبشة آنذاك دار إسلام.

– أخ يسأل: بالنسبة لتقسيم الدور شيخ؟

– الشيخ: كيف؟

– الأخ: يعني لدار الإسلام أوصاف، فقط التي يقام فيها شرع الله هي دار إسلام أم هناك أوصاف ثانية؟

– الشيخ: **ما عليه جماهير العلماء** مالك والشافعي وأحمد أن دار الإسلام هي الدار التي تعلوها أحكام الإسلام، وهي الأحكام النافذة والتي يُلزم بها أهل الدار، والدار التي تعلوها أحكام الكفر فهي دار كفر بغض النظر عن قاطنيها وساكنيها، ولا يلزم من حكمنا على الدار الحكم على قاطنيها، فقد

يُحكم على الدار بأنها دار إسلام وقد يقطنها كفار، وقد يُحكم على دار بأنها دار كفر وقد يسكنها مسلمون، وهكذا.

(**كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور**): هذا يدل على أن الكنائس تكثر فيها الصور والتصاوير، ونُعيد ونؤكد على ما مر معنا من أن الصور دائمًا إذا عُظّمت تُفضي إلى أن تُعبد من دون الله عز وجل، وهذا أمر ملاحظ في القديم والحديث، وقد رأينا من طواغيت هذا الزمان من غلا الناس فيه حتى نُحتت صورته على الحجارة وأصبحت صورته تُلبس على القمصان وعلى الألبسة،

وتُعلق على الجدران وفي الأفنية وفي الشوارع العامة وما شابه ذلك، ولا شك أن هذا من صور التعظيم المفضية إلى الشرك.

ومر معنا في النهي عن تعليق مثل هذه الصور أنه قد يعترض علينا البعض بالسؤال عن الحجة في ذلك، فقد يورَد من جملة الأدلة أن ذلك يُفضي إلى الشرك وأن تُعبد من دون الله.. فيقول: وكيف ذلك؟ نقول: قد حصل في قوم نوح عليه السلام أنهم في بداية الأمر عكفوا على قبور الصالحين محبة لهم ورغبة في تذكر صلاحهم لأجل أن ينشطوا للعبادة، فطال الأمد عليهم فانقضى ذلك الجيل الأول، ثم جاء الجيل الثاني فاستحدثوا طريقة جديدة، وضعوا الأحجار وصوروا عليها صور الصالحين لأجل أن تقوى التذكرة بهم، ثم بعد ذلك طال الأمر حتى نُسي العلم، واندرست معالم التوحيد، فعُبدت تلك الصور من دون الله عز وجل..

نعم فالقول بأن من ذرائع الشرك تعليق الصور على هيئة تُفضي إلى التعظيم وما شابه ذلك..

فقال: (**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجدًا، وصوّروا فيه تلك الصور، أولئك شِرار الخلق عند الله**): انظروا إلى الآلية التي كان يسير عليها عبدة الأصنام والأوثان، وكل من يُعظّم الأحجار وكل من يُعظّم الصالحين.. أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح تجاوزوا الحد الشرعي وأنزلوا ذلك العبد الصالح منزلةً لا تليق إلا بالله عز وجل، صرفوا العبادة لهم ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾.[الجن]

(إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدًا): المسجد هنا قد يُراد في هذا السياق البناء المعهود، وهو بناءٌ يُنشأ لإقامة الصلاة فيه، والمسجد إنما يكون مسجدًا إذا بُني لتُقام الصلاة فيه ويؤذنُّ لها ويُدعى الناس إلى عبادة الله فيها، وبعض أهل العلم اشترط الوقفية في الأرض أي أن تكون الأرض وقفًا لله، وهذا على رأي في المسألة.

ويخرج من قولنا بناءٌ يُعد للصلوات الخمس ويُنادى للصلاة فيه المصلّيات العارضة.. يعني مثلًا في السوق بعض الأحيان تجد مجموعة تأتي وتضع الفرش والُبسط ثم يُصلّى عليها،

فهل هذه الفرش تأخذ حكم المسجد؟ لا، هذه مُصلّيات، فإذا قلنا أن المصلى لا يأخذ حكم المسجد فلا يشرع فيه تحية المسجد، ولا حرج من البيع والشراء فيه، لأن الذي يمنع من البيع والشراء فيه هو المسجد، ولا حرج في أن تُنشد فيه الضالّة لأن الذي يمنع من أن تُنشد فيه الضالّة هو المسجد، ولا حرج من أن يتحدث فيه الإنسان بحديث الدنيا، وكذلك جلوس الحائض والجنب ﴿وَلَا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتىَّ تَغْتَسِلُوا﴾[النساء]: أي فقط للمرور، وقد ترخّص الصحابة رضي الله عنهم بالبقاء في المسجد في حق الجُنب إذا توضأ تخفيفًا للجنابة كما كان بعض الصحابة يفعل.

– أخ يسأل: الصلاة في المصلى حكمها حكم الجماعة نفس الصلاة في الجسد؟

– الشيخ: هنا مسألة: النبي ﷺ قال: ((صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة))[صحيح البخاري]، لا شك أن هناك جماعة يجب إجابة النداء عند سماعه، فيجب الإجابة وشهود تلك الجماعة، إذا كان هناك جماعة كجماعة المسجد، يؤذن للصلاة فكل من سمع النداء –وسماع النداء يكون بالصوت المعهود ليس عن طريق المكبرات–.. هب أن هناك منارة يصعد عليها المؤذن وليس هناك موانع طبيعية، فأذن بصوت الإنسان المعهود بدون مكبر، فالقطر الذي يبلغ فيه هذا الصوت يجب عليه إجابة النداء إلى المسجد: ((من سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له إلا من عذر))[أبو داوود بخلاف يسير]، هذا هو الأصل، والذي يخرج عن هذا القطر أو هذا النطاق تستحب في حقه الصلاة في هذا المسجد ولا تجب، فإذا كان هناك جماعات أخرى تجتمع وتصلي الصلاة تؤجر على صلاة الجماعة، ولكنها تأثم على التخلف عن

الإجابة إلا لعذر. إذن أجر الجماعة يتحقق في الحالين، ولكن الإثم لا يسقط في حق من تخلف عند أدائها في المسجد إلا لعذر.

يعني مثلًا أناس يعملون على حراسة مقر أو ما شابه ذلك، جماعة هم (ثلاثة).. والجماعة في الصلاة تصدق حتى على اثنين خلافًا للمعنى اللغوي.. ولكن نحن قلنا ثلاثة..

جماعة تسمع النداء ولكنها تخلفت لعذر، لها أجر الجماعة ولا إثم على التخلف..

جماعة تسمع النداء فتخلّفت عن أدائها في المسجد، أُجِروا على أجر الجماعة وأثموا للتخلف، لأن أداءها في المسجد يدل على وجوبه أن النبي ﷺ كما [في الصحيحين] يقول: ((لقد هَممتُ أن آمُرَ بالصَّلاةِ فتقامَ، ثمَّ آمُرَ رجُلًا فيصلِّيَ بالنَّاسِ، ثمَّ أنطلقَ مَعي برجالٍ معَهُم حَزمٌ من حطَبٍ إلى قومٍ لا يشهَدونَ الصَّلاةَ فأُحرِّقَ عليهم بيوتَهُم بالنَّارِ))، ما قال ما يُصلون، بل قال ما يشهدون الصلاة جماعةً في المسجد، مع أنه يُحتمل أنهم يصلون جماعة في البيت.

وكما قال عبدُ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه: ((ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها -صلاة الجماعة- إلا منافق أو مريض، ولقد كان الرجل يؤتى به يعني من المرضى يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف))[مسلم بخلاف يسير].. وقد كان الرجل من حرصه على الصلاة حتى في حال المرض يُؤتى به.

- أخ: يا شيخ، والجماعة الثانية بعد الفريضة؟

- الشيخ: هناك من أهل العلم من لا يرى مشروعية تعدد الجماعات في المسجد الواحد، حتى بعد انقضاء الجماعة الأولى، ولهم في ذلك علة قوية حقيقةً، لأننا إذا علمنا أن هناك جماعة واحدة فقط.. إذا فاتتك فاتك الأجر؛ حرص الناس على إدراك الجماعة الأولى، ولكن إذا علم الناس أن هناك أكثر من جماعة تُقام قالوا ما في مشكلة، تفوتنا الجماعة الأولى ونُدرك الثانية، مَيخالف.. والله بعض المساجد تُقام فيها ست سبع جماعات!

إذا كانت المساجد على الطرق أو في الأماكن التي يرتادها الناس مرورًا، فممكن أن تُقام فيها أكثر من جماعة، لكن ليس المساجد التي داخل الأحياء، أهل الحي الواحد يقيمون ست سبع جماعات في مسجد واحد! أي تقصير هذا!

يعني انظر الآن يُؤذن للصلاة، ويُجعل بين الأذان والإقامة مدة معينة لأجل أن يُمنح الناس فرصةً للتهيؤ للصلاة لأن كثيرًا من الناس قد يكونون منشغلين في أشغالهم.. التاجر في متجره والبائع في دكانه والحمّال يحمل والبنّاء يبني والمدرس يُدرّس وهكذا يعني الناس في شغل.. فهذه فرصة ليتهيّأ الناس.. ولا شك أنها تصح هذه الجماعة، لكن هناك من السلف من ينهى عن ذلك ويزجر ويمنع عن ذلك منعًا شديدًا لأجل ذلك الأمر، ولا يليق حقيقةً بالرجل ذي الدين والصلاح أن يُرى في الجماعة الثانية، فضلًا عن أن يُرى في الجماعة الثالثة، بل لا يليق بالرجل الصالح أن يكون هديه الدائم التأخر عن الصلاة!

يعني مثلًا تخيل كل يوم آتي في الصف الأخير، فاتتني ثلاث ركعات، الصلاة كلها فاتتني، ثم وقت الصلاة أصلي، ثم بعد ذلك آتي وأجلس هنا للتعليم..! يعني حقيقة هذا يتناقض مع القول، لكن أن تأتي وتشهد الجماعة من أولها، ثم إذا حثثت الناس على خير ما رأى الناس فيك خلافه، كانت استجابة الناس أكثر.. رجل يدعو الناس إلى خير وهو أول من يُخالفه! رجل يقول ابني يكذب، أنهاه عن الكذب فيزداد كذبًا، إذا نظرت في واقع الأب إذا به إمامه في الكذب أصلًا! يأتي رجل يطرق عليه الباب.. يأتي الابن يا أبتِ، فلان على الباب.. قُل له نائم! وهو يراك قائم تتحدث وتتسامر مع الأسرة! وكذلك النماذج كثيرة، الابن يرى أنك إمامه في هذا الباب، فكيف تريد لابنك أن يستقيم ويتغير؟!

– أخ: شيخ هل يُمنع الناس من الجماعة الثانية في المسجد؟

– الشيخ: هذا على رأي في المسألة، نحن ما قلنا به، لكن هو حقيقة له وجاهة، الذين قالوا بهذا القول رأوا المنفعة المترتبة عليه أن الناس يُحثُّون إلى الخير.. هذا إذا كان في الناس حرص على الجماعة، المشكلة الناس الحين نحب يدينه تكفى ياخوي صل في المسجد.. الله يرحم والديك! نبي نشوف وجهك بس، اعبد ربك يا رجل! سبحان الله.. فلو قلنا الآن ما في إلا جماعة وحدة قال الله يجزاكم خير خففتوا

عليّ.. خلني أروح بس البيت.. فالبعض الآن يتذرع، نراه في الطريق، ها ورا ما صليت؟ قال والله أنتم عندكم هالقول هذا الي ما شاء الله جزاكم الله خير عليه، إذا فاتتك الجماعة لا تشرع الجماعة الأخرى، فجزاكم الله خير أصلي في البيت بارك الله فيكم..

مع أن شهود الجماعة له حِكم.. منها يتعلم الجاهل، قد يأتي رجل فيُخطئ في الصلاة فيراه رجل متعلّم فيقول يا أخي هذا خطأ والصحيح أن تفعل هكذا (تعلّم الجاهل).. جاء الناس إلى المسجد، رأى الغني الفقير فعلمه فتصدّق عليه (أجر).. رأى الصحيح المريض فعاده وواساه وذكّره (أجر)..

الصحبة الصالحة، ترى الصالح فترافقه وتتعاون أنت وإياه على البر والتقوى.. تعرف أن فلان توفي له قريب فتذهب فتواسيه ((من عزّى مسلمًا في مصابه كساه الله من حُلل الكرامة يوم القيامة))[أخرجه ابن ماجة بخلاف يسير]، فهناك منافع وحكم كثيرة.

هنا يقول النبي ﷺ: **(أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجدًا، وصوّروا فيه تلك الصور، أولئك شِرار الخلق عند الله)**: تعلم أن عبدة الأوثان وأن المشركين وأن الكفار عمومًا هم من أشرّ الخلق عند الله سبحانه وتعالى، فإذا علمنا أن شرار الخلق هم من كفروا بالله، نعلم أن خِيار الخلق عند الله هم من وحّدوا الله عز وجل ولم يُشركوا به شيئًا، فهذا يدل على شناعة الشرك وعِظم شأن التوحيد.

ثم جاء كلام شيخ الإسلام -رحمه الله-: **(فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل)**؛ لأن النبي ﷺ قال إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح.. وننظر النبي ﷺ قال الرجل الصالح ثم قال العبد الصالح ليؤكد أنه عبد لله عز وجل فلا يستحق العبادة -وقد تُعبد امرأة من دون الله ولكن هنا باعتبار الغالب- فهم جمعوا بين الفتنتين فتنة القبور وفتنة التماثيل.

وبناء المساجد لا يخلو من حالات، وهنا ظاهر النص يدل على أن المسجد بُني على القبر (بنوا على قبره مسجدًا)، وأهل العلم يذكرون قاعدة في هذا الباب: أن (الأحقيّة للأسبق)،

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

ولهما عنها -يعني عائشة رضي الله عنها-: قالت لما نُزِلَ برسول الله ﷺ طفِقَ يطرحُ خميصةً له على وجهه، فإذا اغتمّ بها كشفها فقال وهو كذلك: (لعنةُ الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجدَ). يُحذِرُّ ما صنعوا، ولولا ذلك لأُبرزَ قبرهُ، غير أنه خُشي أن يُتخذَ مسجدًا.[1] أخرجاه

= فإذا كان المسجد هو السابق، والقبر هو اللاحق، فالحكم للمسجد ويُنبش القبر، وإذا كان القبر هو السابق، والمسجد هو اللاحق، يُهدم المسجد ويُبقى القبر.

والمسجد لا يُراد به فقط اتخاذ القبور مساجد، وإنما يُراد به الصلاة والبناء على القبور، لأن كل من صلى عند القبر فقد اتخذ ذلك القبر مسجدًا.

(١): **(لما نُزِلَ)**: أي نزل به ملك الموت.

(طفق يطرح خميصةً له على وجهه): أي أخذ يطرح خميصة، والخميصة: هي قطعة من القماش لها أعلام وخطوط.

(فإذا اغتمّ بها كشفها): الله أكبر! النبي ﷺ عالج وعانى سكرات الموت، وهذا يدل على بشريته عليه الصلاة والسلام، وأنه لا يستحق شيئًا من العبادة، وأنه من البشر عليه الصلاة والسلام، وكان حريصًا على ألّا يغلو الناس فيه: ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم)). [البخاري]

فقال وهو كذلك: **(لعنةُ الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)**: انتهى كلامه عليه الصلاة والسلام، ثم تقول عائشة رضي الله عنها: يُحذِرُّ ما صنعوا، ولولا ذلك لأُبرزَ قبرهُ، غير أنه خُشي أن يُتخذَ مسجدًا. أخرجاه.

واللعنة كما مر معنا يقسمها أهل العلم إلى قسمين: لعنٌ أكبر ولعنٌ أصغر، اللعن الأكبر هو الطرد الكامل عن رحمة الله عز وجل، وهذا هو عين الشقاء الأبدي. واللعن الأصغر هو طرد عن كمال الرحمة.

والسياق هنا يُحمل على المعنى الأول اللعن الأكبر..

وليس المراد هنا تخصيص اليهود والنصارى فقط أو أنها صفة بارزة فيهم (صفة اتخاذ القبور مساجد)، وإنما هي تتّجه إليهم أصالةً وابتداءً، وكل من نحا نحوهم أو نهجَ نهجهم.

(لعنةُ الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد): وهذا يدل على أن هناك سمة بارزة فيهم، فاليهود قالوا عزير ابن الله والنصارى قالوا عيسى ابن الله وقالوا أنه هو الله، فغلوا فيهم.

وكل من صرف عبادةً عند قبر فقد اتخذ ذلك القبر مسجدًا.

والصلاة في المساجد التي بُنيت فيها القبور لا تخلو من حالات:

أولاً: الصلاة في مسجد بُني على قبر: هذه الصلاة باطلة قولًا واحدًا، وحكم هذا المسجد أنه يُهدم، لأن النبي ﷺ يقول: ((الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمّام))، يُستثنى من ذلك صلاة الجنازة فقط – ولها أحكام ليست في هذا الموضع–.

إذن أداء الصلاة في مسجد بُني على قبر لا تصح، وقولنا باطلة أو لا تصح أي أنها لا تُجزِئ ولا تبرأ بها الذمة ولا تُسقِط الطلب، أي أنه لو صلى الظهر فصلاته غير صحيحة باطلة، ما برئت ذمته وما زال مطالبًا بصلاة الظهر، ولا بد أن يعيد.

الفرق بين الإعادة والقضاء: إنسان أدى الصلاة بغير وضوء، فتذكر في أثناء الوقت، نقول يلزمك إعادة الصلاة. رجل نام عن صلاة أو نسيها لعذر بغير تقصّد، فاستيقظ أو تذكر بعد خروج الوقت، نقول عليك قضاء الصلاة..

طيّب، قبر أُدخِل في المسجد، فما حكم الصلاة فيه؟

نخلُص بجواب: هو لا شك أنه يجب إزالة القبر قولًا واحدًا.. وهنا يُفرَّق: إذا كان في داخل القبر المسجد أو في فناء المسجد وعلِمَ المصلي بوجوده حُرِمَ عليه أن يصلي، ولو صلى صحت صلاته إذا صلّاها لله ولم ينوِ التبرك بذلك القبر وإنما أراد الصلاة صحّت صلاته وحَرُمَ فعله وأثم على ذلك، ولو صلى لله والقبر في فناء المسجد ولم يعلم به صحت صلاته ولا إثم عليه.

طيّب، هناك صور، قد تكون هناك مساجد تكون القبور في حُجَر أو في بعض الغرف الملحقة بالمسجد، فهل هذه تأخذ حكم المسجد الذي وُضِع فيه القبر أم لا؟

– أخ: أليس هذا حال المسجد النبوي؟

– الشيخ: لا لا، المسجد النبوي قررنا هذا مرارًا وتكرارًا، قلنا أن أول من أدخل حُجَر النبي ﷺ هو الوليد بن عبد الملك، ولم يُقر على ذلك، خالفه في ذلك ابن المسيب وعلماء عصره، ففعله هذا لا يُتابع فيه أصلًا، ثم بعد ذلك قلنا أن النبي ﷺ دُفن في حجرته، في بيته، ولم يُدفن في المسجد، بل إن النبي ﷺ هو الذي بنى المسجد، وهو حي حينما بنى المسجد، فكيف نقول أنه دُفن في المسجد؟!

وأثنى الله سبحانه وتعالى على ذلك المسجد: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾[التوبة]..

فنعم يُفرّق، لكن وجود القبر في قبلة المسجد الأمر فيه أشد، ووجود القبر داخل المسجد أشد من وجوده في فناء المسجد، ولكن يجب قولًا واحدًا إزالة القبر، ومن علم بوجوده حَرُمَ عليه أن يصلي فيه، ولو صلى فيه فقلنا على التفصيل السابق..

يعني في بعض الأحيان قد تصلي في مسجد كبير مثلًا، وتكون الصلاة في وقت الفروض في أول المسجد ليس في آخره عند المحراب، فقد يدخل الناس يصلون ما ينتبهون القبر مُغيّب عن الناس غير ظاهر للناس.. فجاء رجل (جهل الحال، ما علم بالقبر المسجد هو السابق والقبر هو اللاحق)، فدخل

وصلى على أن البيت بيت لله (مسجد)، فصلى وانتهت صلاته وخرج، وعلم بعد ذلك بعد أن نبهه بعض الإخوة..

نحن قلنا إذا كان يعلم فتحرُم عليه الصلاة، ولو صلى صحت صلاته وأثم، وإذا ما علم فصلاته صحيحة، لأن هذا أصلًا جهِل الحال، ثم بعد ذلك الأصل أن المسجد هو السابق، والمساجد هي التي أُمرنا بإيقاع العبادة فيها، وهكذا..

– أخ: يا شيخ بسألك سؤال: قبر أُسس على المسجد، وأنا صليت، وما أعرف أن هذا قبر..

– الشيخ: تُعيد..

– الأخ: أُخبرت بعد ممكن شهر..

– الشيخ: تُعيد..

– أخ: وإذا لم يعلم؟

– الشيخ: الأصل براءة الذمة.. هنا ما يعرف، نحن نتكلم عن إنسان عَلِم..

– أخ: ينطبق قول المقام على القبر؟ لا يكون موجود قبر..

– الشيخ: نعم نعم، هذا كذلك يأخذ الحكم، لأن هذه تعظم وتعبد من دون الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

– أخ: شيخ، أنا صليت مرتين أو ثلاثة في المسجد الأموي، فيه قبر، بس ما أعرف صليت الظهر أو العصر، أقضيها؟

– الشيخ: هذه القبور الآن..

- إخوة: خارج المسجد..

- إخوة آخرين: داخل المسجد..

- الشيخ: لمن هي؟

- أخ: كنائس لسيدنا يحيى كما يقال..

- أخ: لا لا مو يحيى.. وفي قلب المسجد..

- الشيخ: في قلب المسجد.. والسابق من؟

- أخ: السابق القبور.. كان كنيس..

- الشيخ: إذن ما تصح الصلاة أصلًا، باطلة الصلاة.

- الأخ السائل: أعيد الصلاة؟

- الشيخ: نعم تعيدها الله يجزاك خير.

- الأخ: بس أنا ما أعرف ما أتذكر صليت الظهر أو العصر..

- الشيخ: تتحرى وتعيد.. أو تعيد احتياطًا الظهر والعصر.

- أخ: يا شيخ.. ﴿لنتخذن عليهم مسجدا﴾..؟

- الشيخ: من هذا المنطلق يعني مشروعية الاتخاذ؟

- الأخ: لا لا..

– الشيخ: هذا أولًا في شرع من قبلنا، وشرع من قبلنا ليس شرعًا لنا إذا جاء في شرعنا ما يخالفه..[١]

– أخ: إذا بُني المسجد على قبر فالأصل أن يُهدم المسجد، طيّب إذا هدمنا المسجد ونبشنا القبر ثم في المكان نفسه بنينا مسجد من جديد فهل يجوز ذلك أم لا؟

– الشيخ: الذي يظهر –والله تعالى أعلى وأعلم– أنه من الناحية الشرعية يجوز، لكن في نفس الوقت نقول لا يجوز، لأنه ترسخ في أذهان الناس بقاء القبر أو مكان القبر هذا، فلذلك ينبغي أن نعلق الناس بالله ولا نعلقها بغيره سبحانه وتعالى، فقد يأتي آتٍ بعد مرور أزمنة ويقول أن القبر ما زال موجودًا وأنه أُخفي، فيرجع إلى ما كان، لذلك نقول لا يجوز سدًّا للذرائع، لكن إذا أُزيل القبر الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، لكن هناك بعض الأشياء تُمنع لمآلاتها: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.[الأنعام]

(**ولولا ذلك لأُبرزَ قبرهُ، غير أنه خُشي أن يُتّخذَ مسجدًا**): الإبراز هنا يُحمل على معنيين:

الإبراز: أي رفع بنائه.

أو البرز: أي الخروج.. فلان برز إلى فلان أي خرج إليه.

وهذا كذلك يتوافق مع أن الأنبياء يدفنون حيث ماتوا.

---

[١]- [تنبيه من الناشر: قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[الكهف].
حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين: أحدهما: أنهم المسلمون منهم، والثاني: أهل الشرك منهم، فالله أعلم. والظاهر أن الذين قالوا ذلك: هم أصحاب الكلمة والنفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبي ﷺ قال: ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا)). اهـ.

وقال السعدي -رحمه الله- في تفسيره: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ أي: نعبد الله تعالى فيه، ونتذكر به أحوالهم، وما جرى لهم، وهذه الحالة محظورة، نهى عنها النبي ﷺ، وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجدا، بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.]

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

ولمسلم: عن جُندب بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمسٍ، وهو يقول: (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيمَ خليلا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك).(١)

فقد نهى عنه في آخر حياته ثم إنه لعن وهو في السياق من فعله، والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يُبنَ مسجدا وهو معنى قولها: (خُشي أن يُتخذَ مسجدًا)، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا عند قبره مسجدًا، فكل موضع قُصِدَ الصلاة فيه يسمى مسجدًا، بل كل موضعٍ يُصلى فيه يسمى مسجدًا، كما قال ﷺ: (جُعِلت لي الأرضُ مسجدًا وطَهورًا).

---

(١): **(قبل أن يموت بخمسٍ)**: أي بخمس ليال.

(إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل): الخُلّة هي أعلى درجات المحبة.

(فإن الله قد اتخذني خليلًا): هذا دليل على إثبات المحبة لله ردًّا على من نفاها عن الله سبحانه وتعالى.

(ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا): هذا يدل على عظم منزلة أبي بكر رضي الله عنه وأنه من أحب الناس إلى النبي ﷺ كما جاء في الخبر ((من أحب الناس إليك؟ قال: عائشة. فقلت من الرجال؟ قال: أبوها)).

(ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك): وقلنا أن اتخاذ القبور مساجد يكون بأمرين: بتشييد البنيان عليها أي بناء المساجد عليها، أو بالصلاة عندها فكل من صلى عند القبور فقد اتخذها مسجدًا.

(**فإني أنهاكم عن ذلك**): وهذا نهي يقتضي التحريم فلا يمكن حمله على غير ذلك..

(**فلا تتخذوا القبور مساجد**)، ينهانا النبي ﷺ عن ذلك، لذلك أحسن المصنف حينما قال: باب ما جاء في التغليظ.. كل هذه العبارات فيها تغليظ (إني أنهاكم عن ذلك)، (لعنة الله على اليهود والنصارى) تشديد بالنهي.

(٢): (**وهو في السياق**): أي في سياق الموت.

(**والصلاة عندها**): أي عند القبور.

(**فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا عند قبره مسجدًا**): هذا يدل على أن واقع قبر النبي ﷺ الآن بالنسبة للمسجد ليس مما أُقر من الصحابة، وهذا أصلًا ما حصل في زمن الصحابة وإنما حصل بعدهم.

- أخ يسأل: البناء في المسجد النبوي من الطرف الغربي يعني خارج المسجد الموجود حاليا، ماهو ضمن البناء.. حتى على التوسعة الأخيرة؟

- الشيخ: اترك التوسعة، حتى على القديم، هو القديم لا شك أنه خارج، أول ما بُني المسجد كان خارج بعيد، لكن لما جاءت التوسعة وُسِّع لا نقول أنه ضُم، ولكن تمدد بنيان المسجد.. فنحن قلنا وأعدنا ذلك مرارًا وتكرارًا أن هذا ليس حجة على الذين يرون مشروعية بناء القبور أو مشروعية بناء المساجد على القبور أو إدخال القبور في المسجد، فكل هذه ذرائع مفضية إلى الإشراك بالله عز وجل، وليس لهم حجة في مسجد النبي ﷺ، بل هذا المسجد رد عليهم أن النبي ﷺ دُفن في حجرته في بيته، ثم بعد ذلك أصلًا هناك حواجز ثلاثة جدران، ومفصول حقيقة عنه.. فحتى هذا المكان لا يأخذ حكم المسجد، وهذا أصلًا كان من الوليد بن عبد الملك في عام أربعة وتسعين من الهجرة ولم يُقرّ على ذلك بل خالفه علماء عصره وعلى رأسهم سعيد بن المسيب -رحمه الله-.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

ولأحمد بسندٍ جيد: عن ابن مسعود ﷺ مرفوعًا: (إن من شِرار الناس من تُدركهم الساعةُ وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد).[1] رواه أبو حاتم في صحيحه

---

(١): هذا مثل ما قررنا كل موضع وكل مكان قُصد للصلاة فيه فقد اتُّخِذ مسجدًا.

وهنا أُطلِق السجود من قبيل إطلاق البعض وإرادة الكل (وهي الصلاة)، ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[البقرة] أُطلق الجزء وأُريد الصلاة (الكل)، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ هذا على العكس إطلاق الكل وإرادة الجزء، فالدعاء جزء من الصلاة، وهنا أطلق الكل والمراد الجزء (الدعاء). وهكذا..

وهنا (جُعِلت لي الأرضُ مسجدًا وطَهورًا): مسجدًا: وهو موضع السجود، هذا جزء من العبادة، وإلا الصلاة فيها سجود وفيها ركوع وفيها قيام وفيها قراءة.

فكل من صلى عند القبر فقد اتخذه مسجدًا، والنبي ﷺ في نهيه عن اتخاذ القبور مساجد يشمل الصلاة ويشمل كل العبادات التي تصدر من العباد ولا يجوز صرفها إلا لله، فالذبح يستدل عليه بهذا الحديث، والدعاء كذلك يستدل عليه بهذا الحديث، فإذا كان النبي ﷺ نهى عن الصلاة فهو نهي عن كل صور العبادة.

– أخ: سؤال على أرض الواقع اليوم يا شيخ، الصلاة في المسجد الأمور فيه قبر زكريا..

– الشيخ: طبعًا هو إذا ثبت أنه لزكريا، فهذا يدل على أن القبر سابق والمسجد لاحق، وبناء على ذلك الصلاة باطلة.

– أخ: ويُهدم المسجد؟

- الشيخ: نعم ويُهدم المسجد.

- أخ: شيخ، بالنسبة لحلب الجامع الأموي ما كان فيه شيء، لكن من فترة من الزمن أحد الصوفية رأى في المنام أن هنا ضعوا مقام زكريا.. فوضعوا.. هذا بالنسبة لحلب، أما بالنسبة للشام فلا أعلم.

- الشيخ: طيب هذا إذا كان نعم، إذا كانت قصة مختلقة فتُزال آثار الضريح، والمسجد هنا لم يكن هناك شيء يسبقه أصلًا..

- أخ: لكن هو في جهة القبلة، يعني يصلون الجماعة، فالإمام على يساره قليلًا يوجد هذا الضريح الذي يُعبد من دون الله، هل الصلاة جائزة؟ كل الناس تستقبل القبر..

- الشيخ: لا هنا على التفصيل الذي ذكرناه قبل قليل.. نحن الآن علمنا أنه لا يوجد قبر.. هذا واحد، وإنما يوجد ضريح، وهذا الضريح يُعظم من دون الله، فحكمه حكم القبر، وعلمنا أنه لاحق وليس سابق، فيأخذ حكمه، فمن جاء يصلي للضريح فقد أشرك بالله، ومن جاء يصلي لله متبركًا بالضريح فهذا شرك أصغر والعبادة باطلة، ومن جاء وهو يعلم أن المسجد هو السابق ويعلم أن هناك ضريح وصلى مع علمه فالصلاة صحيحة وهو آثم لمخالفته، ولو صلى إنسان ولا يعلم بوجود ذلك وصلاته لله فصلاته صحيحة ولا إثم عليه.. وهكذا..

- أخ: شيخ بالنسبة للصور..؟

- أخ يسأل: صور الرياضيين الكفار على القمصان؟

- الشيخ: لا يجوز.

هنا هذا الخبر بين النبي ﷺ فيه: ((**إن من شِرار الناس من تُدكهُم الساعةُ وهم أحياء**))، لماذا؟ لأنه جاء أنه تُقبض النفوس، ما تبقى نفس موحدة إلا ويتوفاها الله سبحانه وتعالى حتى ما يبقى إلا شرار الناس فتقوم الساعة عليهم.

(والذين يتخذون القبور مساجد): -كما مر معنا- وهذا يبين أن أشر الناس هم الذين يُشركون بالله عز وجل، وأن خِيار الناس هم الذين يوحدون الله وحده لا شريك له، لتعلمَ أخي المسلم عِظَمَ منزلة التوحيد وعِظم منزلة أهله عند الله، وشناعة الشرك وقبح مكانته ومكانة صاحبه عند الله عز وجل.

ونكون بذلك أنهينا هذا الباب، هذا والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس التاسع عشر

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تُعبد من دون الله.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

نستأنف وإياكم معاشر الأحبة مدارسة كتاب التوحيد..

(١): سبق وأن ذكر المصنف –رحمه الله تعالى– في الباب السابق (باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده)، وبينّا أن الغلو من الناحية اللغوية هو مجاوزة الحد، ومن الناحية الاصطلاحية: هو مجاوزة الحد في الاعتقادات أو العبادات أو العادات، وذكرنا كذلك معنى آخر: هو مجاوزة الحد في المدح أو الذم أو الاتباع..

ذكر المصنف –رحمه الله تعالى– في الباب الماضي التغليظ في قضية الغلو في الأنبياء والصالحين، وفي هذا الباب تحدث عن الغلو في قبور الصالحين، فهل هذا من قبيل التكرار، أو أنه زيادة في المعنى؟

المصنف –رحمه الله– أراد بالباب الأول أن الغلو في الصالحين يُصيّر الصالحين آلهة تُعبد من دون الله، والغلو في قبور الصالحين يُصيّرها أوثانًا تُعبد من دون الله، ففي الباب الأول يُصيّر ذات الصالحين آلهة تُعبد من دون الله (الغلو فيهم)، وفي الباب الثاني يريد المصنف أن الغلو في قبور الصالحين يُصيّرها أوثانًا تُعبد من دون الله.

وقد مر معنا التفريق بين الأوثان والأصنام، فكل ما عُبِدَ على هيئة إنسان فهو صنم، وكل ما عُبِدَ من دون الله على أي هيئة فهو وثن.

وقلنا أن بين الأوثان والأصنام عموم وخصوص، فكل وثن صنم، وليس كل صنم وثن، وهما لفظان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا كالإسلام والإيمان، فإذا ذُكر الوثن على حدة شمل المعنيين، وإذا ذُكر الصنم على حدة شمل المعنيين، وإذا اقترنا أو اجتمعا في سياق واحد استقل كل واحد منهما بمعنى. فيجوز أن نقول وثن الديمقراطية ويجوز أن نقول صنم الديمقراطية أو العلمانية، لكن لا يصح من ناحية السياق والمعنى أن نجمع في قولنا (أوثان وأصنام الديمقراطية).

لكن لماذا نحن نقول أن الديمقراطية وثن؟ هل هي شرعة أو دين يتعبد الناس فيه من دون الله؟

فالديمقراطية دين يتعبد الناس فيه من دون الله، وحقيقة ذلك أن هناك أناس حصروا الشرك في عبادة الأوثان وفي إشراك المخلوقين في أفعال الله عز وجل، فهناك فئة من الناس وعلى رأسهم الآن غلاة المتصوفة الذين يقولون أن من قال لا خالق إلا الله فقد حقق التوحيد، فتجد أنهم دائمًا يؤكدون على أفعال الله ولا يُعرّجون على أفعال العباد وهذا خلل في التوحيد، ونحن علمنا أن النبي ﷺ إنما كانت المفاصلة بينه وبين المشركين في توحيد الألوهية حيث أنهم كانوا يُقرّون أصلًا بتوحيد الربوبية إلا أنهم قد يقع منهم الشرك في بعض جزئياته، لذلك كان نكيرهم يشتد حينما يقول لهم النبي ﷺ قولوا لا إله إلا الله، فيأتي الاعتراض: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص]، فأصبحت دعوة النبي ﷺ المشركين إلى التوحيد من الأمور التي حظيت بتعجب من المشركين وقد كانوا يعلمون حقيقة هذه الكلمة ومعناها.

إذن الديمقراطية دين، وحقيقة ذلك أن دُعاتها والذين قبلوا بالتعاطي والتعامل معها ارتضوا أن يكون التشريع لغير الله، وارتضوا أن يكون هناك مُشرّع من دون الله يُلتزم بحكمه ويُترافع إليه، وهذا يتناقض مع أصل من أصول الدين وهو الحاكمية، والله عز وجل يقول: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[يوسف]، أي أن هذا الحكم لا يكون لأحد إلا الله، لذلك عُدّت الديمقراطية دين، وهي تتناقض مع الإسلام، فلذلك عُدّ دُعاة الديمقراطية كفارًا بالله، لأنهم دعوا إلى دين غير الإسلام،

والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[آل عمران]، فلذلك أعلن الموحدون الحرب على الديمقراطية ودُعاتها، لأنها حرب بين الإيمان والكفر، حرب بين الحق والباطل، والمنتصر فيها معلوم، المنتصر فيها التوحيد وأهله، لأن هذا الدين له رب ينصره ويُسخِّر له من عباده من يستخدمهم لنصرة هذا الدين.

إذن علمنا أن المصنف -رحمه الله تعالى- ذكر هذا الباب ليس من قبيل التكرار وإنما زيادةً للمعنى..

هنا قال (**في قبور الصالحين**): القبر هو الموضع الذي يُدفن فيه الميت، ولأهل الإسلام في صفة القبر نوعان من القبور: قبرٌ يُلحد وقبرٌ فيه ما يسمى بالشَقّ، واللحد هو حجرة زائدة في القبر تجاه القبلة، يوضع فيها الميت ويوجّه إلى القبلة، ويُلصق بحائط اللحد ثم توضع خلفه حجارة لأجل أن يتوسّد ولا يسقط هذا هو اللحد.. وجاء ما يدل على أفضليته، ولكن هناك مواضع من الأرض قد يتعسر على المسلمين اللحد فيها كالأراضي الرملية أو الرخوة أو الحجرية القوية أو الصخرية التي قد يتعسر على المسلمين حفر اللحد فيها.

وهناك ما يسمى بِالشَق، وهو حفرة توضع في وسط القبر يوضع فيها الميت موجهًا للقبلة على جنبه الأيمن. ولا شك أن اللحد أفضل، وإذا تعسر فلا حرج من المصير إلى الشق.

ويُنهى بعد دفن الميت في قبره أن يُرفع القبر أو أن يُجصص، أو أن يُبنى عليه، أو أن يُكتب عليه، أو أن توضع عليه السُرُج -كما سيأتي معنا-، وإنما يُرخّص أن يُرفع فوق القبر مقدار شبر، وأن تكون هيئته الخارجية مُسَنَّن أي على شكل سنام الإبل، يكون أوسط القبر أعلى من أطرافه..

وإذا نظرنا إلى كثير من المقابر نجد فيها من المخالفات الشرعية الشيء الكثير، كتخصيص أحد القبور بسور خاص، البناء، الكتابة، زرع الأشجار بالقرب من القبر، وضع السيراميك، وضع الإسمنت.. يُترك لأن الله سبحانه وتعالى تكلفنا بما في وسعنا وطاقتنا، فإذا كان هذا في وسعنا وطاقتنا ولم يفِ بالغرض ويؤديه، عند ذلك لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، أما أن يتجاوز الإنسان القدر المشروع، فلا..

وكذلك قراءة القرآن على الميت، لأن بعضهم يتأول ما روي عن النبي ﷺ: ((اقرؤوا على موتاكم يس))، وهذا على فرض صحة الخبر، مع أن الخبر تكلم فيه الحفاظ وأعلّوه وضعّفوه، وتجد دائمًا في سياق نصوص الشرع يوصف الشخص باعتبار مآله (لقّنوا موتاكم، اقرؤوا على موتاكم)، ليس المراد هنا بعد مفارقة الروح الجسد، وإنما اقرؤوا على من كان في سياق الموت يحتضر لأن مآله الموت، لذلك يسمى اللديغ عند العرب سليم، باعتبار المآل أنه سيبرأ، والكسير جبير، مع أنه مكسور، هذا باعتبار مآله، فهذا سياق درج العرب على استخدامه في ثنايا حديثهم.

كذلك كتابة (المرحوم أو المغفور له) فهذا إخبارٌ ورجمٌ بالغيب، ومن الذي أعلمك وأطلعك حينما تكتب المغفور أو المرحوم أنه قد غُفِرَ له..؟! ولكن لو الإنسان قال من باب الدعاء له قولًا هكذا.. المرحوم يعني نطلب من الله سبحانه وتعالى أن يرحمه فلا حرج في ذلك.

– أخ: على قبر البخاري مكتوب..

– الشيخ: هذا ليس بحجة.

– أخ: شيخ، الأعجب من ذلك توزيع الحلوى عند القبر..

– الشيخ: يعني هذا ممكن لعله فرح بموت الميت، لعله وارث أو أنه مثلًا قد نغّص عليه العيش فسُرّ عندما مات..

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

روى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: (اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد، اشتد غضب الله على قوام اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد).(١)

ولابن جرير بسنده: عن سفيان عن منصور عن مجاهد في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾، قال: كان يلتّ السويق للحاج فمات، فعكفوا على قبره.

وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلتّ السويق للحاج.

---

(١): (**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد**): دعاء من النبي ﷺ، وقد أشار جمع من أهل العلم أن الله سبحانه وتعالى استجاب دعاءه ﷺ، فأحاطه بثلاثة جدران حتى أصبح في معزل ولا يمكن من الناحية الحقيقية ومن الناحية الشرعية أن يصْدُق عليه أنه استقبل أحد قبره، فقد حفظ الله سبحانه وتعالى قبر النبي من أن يكون عيدًا أو من أن يكون وثنًا يُعبد تُذبح عنده الذبائح وتوضع النذور وما شابه ذلك، ولكن يوجد من اتخذ النبي ﷺ إلهًا، يوجد من يستغيث بالنبي ﷺ، وهذا لا يدل على أن دعاء النبي ﷺ لم يجب، هنا النبي ﷺ قال اللهم لا تجعل قبري وثنًا، وكان له ذلك عليه السلام وهذا يؤيد أن المسجد لم يُبنَ على القبر، ولم يوضع قبر النبي ﷺ في المسجد، بل كان موضع قبر النبي ﷺ في حجرته وهي خارج المسجد، فكان الوليد بن عبد الملك قد فعل توسعة للمسجد، وقد أنكر عليه علماء عصره وعلى رأسهم سعيد بن المسيب -رحمه الله-.

(اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد): وهذا الشاهد، فالمصنف -رحمه الله- قال باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يُصيّرها أوثانًا تُعبد من دون الله، فإذا كان النبي ﷺ يسأل الله وينهى أمته عن اتخاذ قبره هو وثنًا يُعبد فكيف بمن دونه؟!

لا شك أن خيار البشر وعلى رأسهم أبي بكر وعمر لا يبلغون درجة النبي ﷺ، وهذا محل اتفقاء ومحل إجماع، والنبي ﷺ ينهى أمته ويسأل الله من أعماق قلبه ألّا يكون قبره وثنًا يُعبد ولا عيدًا من الأعياد، فكيف بمن دونه؟ فمن دونه من باب أولى.

أين الذين يدّعون محبتهم للنبي ﷺ ويرون مشروعية العكوف عند قبور الصالحين وما شابه ذلك من مظاهر الشرك؟ أين أنتم من دعاء النبي ﷺ الذي كان يدعوه ويسأل الله سبحانه وتعالى أن يجيبه له..؟

ثم يقول عليه الصلاة والسلام: (**اشتدّ غضب الله على قوام اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**): أي أن الذين اتخذوا القبور مساجد لا يحل عليهم الغضب من الله فحسب، بل يشتد غضب الله عليهم، وفي هذا الخبر إثبات صفة الغضب لله عز وجل.. وهي صفة فعلية: لأن الصفة الذاتية لا تنفك عن الله، أما الفعلية فهي التي يفعلها الله متى شاء، لأن الله سبحانه وتعالى يغضب ويرضى.

(اشتدّ غضب الله على قوام اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد): هل هذا الغضب مختصٌّ بمن اتخذ قبور الأنبياء، أم كل من اتخذ القبور سواءً من الأنبياء أو غير الأنبياء؟ يشمل الكل، فإذا كان غضب الله سبحانه وتعالى يشتد غضبه على من اتخذ قبور الأنبياء مساجد وهم أعلى رتبة من غيرهم من الناس، فكيف بمن هم دونهم؟!

واتخاذ القبور مساجد قلنا يكون بأمرين: البناء عليها، أو بالصلاة عندها. قلنا لأن المصلي عندها يكون قد اتخذ ذلك الموضع مسجدًا.. لأن النبي ﷺ يقول: (جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا) يُستثنى من ذلك المقبرة والحمّام كما جاء في الخبر.

(٢): ولابن جرير بسنده: عن سفيان عن منصور عن مجاهد في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾، قال: كان يلتّ السويق للحاج فمات، فعكفوا على قبره.

طبعًا مجاهد هو الإمام التابعي وهو من أكابر تلامذة ابن عباس رضي الله عنهما، لذلك يُقال: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فكفى به تفسيرًا، وكذلك نُقِل عنه أنه عرض القرآن على ابن عباس ثلاثًا يستوقفه

عند كل آية، انظر هنا أخذ تفسير القرآن عن حبر الأمة وترجمان القرآن الذي دعا له النبي ﷺ فقال: ((اللهم فقّهُ في الدين وعلمّه التأويل))[مسلم] يستوقفه عند كل آية، انظروا إلى الحرص.. الآن بعض الناس حينما يبدأ بدرس تفسير وما شابه ذلك، بدأ يناظر الساعة.. طوّل علينا ذا المطوّع.. متى ينتهي؟ لا إله إلا الله، أسأل الله أن يرحمنا برحمته.

﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ**﴾: مر معنا في درس ماضٍ، اللات والعزى ومناة وهي آلهة وأوثان تُعبد من دون الله عز وجل، منها على صورة إنسان ومنها على صورة حجر ومنها على صورة شجر.

واللات هو رجل من الصالحين قد نذر نفسه لخدمة الحجيج، وكان من أبرز أعماله أنه كان يُطعم الحجيج، وكان يطعمهم السويق، وهو دقيق الحنطة والشعير، واللتُّ هو بلّهُ بالماء أو السمن، فاشتهر ذلك الرجل الصالح بعمله فلما مات عكفوا على قبره، والعكوف هو طول المكث، فعكفوا على قبره متذللين خاضعين، قد صرفوا الذل الذي لا يُصرف إلا لله والخضوع الذي لا يُصرف إلا لله صرفوه لغير الله فوقعوا في المحذور، فخرجوا بذلك عن دائرة الإسلام لصرفهم هذه العبادة التي لا تُصرف إلا لله صرفوها لغيره.

(**وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلتّ السويق للحاج**): الحاج كما هو معلوم لدى الجميع هو من خرج قاصدًا مكة والمشاعر لأداء فريضة الحج.

نسمع كثيرًا من يقول الحجي فلان وفلان الحجي، وهذا عدّه بعض أهل العلم من التزكية، التي قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[النجم]، وجاء في الخبر أن: ((الركب كثير والحاجُّ قليل)). فكم هم الذين يحجّون، والله أعلم بمن قُبِلِ حاجًّا عند الله!

منهم من يحج وقلبه متعلق بغير الله، وأذكر قصة امرأة جاءت من أحد البلدان وكانت تطوف بالكعبة طواف الإفاضة، وكان بجوارها ابنها، ابنها صغير، وبينما هي تطوف التفت الابن إليها –وكان أحدهم يسمع–، قال الابن: لماذا نحن نطوف على الكعبة؟ فأجابت أمه: موجود هناك قبر وسط الكعبة.. ترسخ في أذهانهم أن شعيرة الطواف لا يمكن أن تكون إلا بقبر.. الركبُ كثير والحاجُّ قليل!

ومنهم في يوم عرفة يرفع يديه إلى السماء وتجد أنه لا يستغيث بالله ولا يدعو الله، وإنما تجد أنه يدعو: يا جيلاني يا بدوي يا زينب! يدعو غير الله! الركبُ كثير والحاجُّ قليل!

فمن حج محققًا التوحيد لله، ونابذًا عبادة ما سواه، هذا هو الحاج.

وفي الحج عبودية لله عز وجل، تجد أن في الحج وفي مناسك الحج حجارة تُرمى، وحجارة يُطاف عليها، وحجارة تُقبّل؛ عبودية لله، عمر ﵁ حينما رأى النبي ﷺ يُقبل الحجر الأسود ماذا قال؟ قال والله إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله يقبّلك ما قبّلتك.. عبودية عظيمة، لماذا لا تزيد على سبعة أحجار..؟ عبودية، لماذا لم تكن ثمانية..؟ توقيفية، لماذا لم تكن ستة..؟ توقيفية.

بعضهم لعلكم رأيتم أو سمعتم، منهم من فرط غضبه يظن أن هذا هو الشيطان، وإنما هو تأسي، رجم الخليل إبراهيم عليه السلام، ثم بعد ذلك النبي ﷺ، حتى أن بعضهم دخل في الحوض حينما كان صغيرًا، فأخذ يضرب هذا المعلم بالنعل فرآه البعض فظنوا أن الشيطان قد خرج عليه، فأدموه بالحجارة! يظن أنه يُحسن صنعا..

ما أجمل الوقوف على الحدود الشرعية، وعدم تخطيها بغير ضابط شرعي.

إذن، هل يشرع للإنسان أن يقول لغيره يا حاج..؟

إذا كان من قبيل العَلَمية فلان اسمه حجّي، خلاص علَم عليه، ما في حرج.. لكن إذا كان تزكية، أسألك عن فلان.. تعرف فلان؟ والله ما شاء الله حجّي كبير جيّد وهكذا..

- أخ: الكبير في السن نقول له حجّي..

- الشيخ: نعم إذا كان من هذا القبيل لا حرج، لكن إذا كان فيها مبالغة وتزكية وما شابه ذلك فتُمنع.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وعن ابن عباس ﷺ قال: (لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرُج).[١] رواه أهل السنن

---

(١): اللعن هنا لعنٌ أصغر، فاللعن الأصغر حقيقته الطرد عن كمال الرحمة، واللعن الأكبر الطرد عن كامل الرحمة.

فزيارة القبور هنا في حق النساء ظاهر النص يقتضي تحريمها، فنعلم من اللعن هنا أنه لعن أصغر.

طبعا زيارة القبور بالنسبة للنساء محل خلاف بين أهل العلم، وسبب الخلاف وجود أفعال صادرة من بعض الصحابة كأم المؤمنين رضي الله عنها أنها زارت أخاها عبد الرحمن، وكذلك في خبر أم عطية: ((نهانا النبي ﷺ عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا)). وجاء عند أحمد: ((لعن رسول الله زوّارات القبور))، وهذه صيغة مبالغة، فلذلك وقع الخلاف، ولكن الصحيح -والله تعالى أعلى وأعلم بالصواب- حرمة زيارة النساء للمقابر.

وما نُقل عن عائشة رضي الله عنها أنها زارت أخاها عبد الرحمن، فأجاب عنه أهل العلم بعدة أجوبة:

أولاً: أنه فعل صحابي، وفعل الصحابي لا ينسخ النص ولا يُلغى به النص، فيُحتمل أن النص لم يبلغها، أو أن هذا كان في أول الأمر قبل أن يبلغها النص وما شابه ذلك من الأجوبة.

- أخ يسأل عن حديث البقيع (حين فقدت عائشة النبي ﷺ ووجدته زائرًا للبقيع، قالت: يا رسول الله، أرأيت ماذا أقول؟ فعلمها السلام على القبور).

- الشيخ: نعم لحقت به ﷺ ولكنها سألته عن السلام وهذا يدل على أنها مرت وما دخلت..

إذا مرّت المرأة على القبور من غير تقصّد للزيارة، نعم تمرّ على القبر وتسلم، كما ذكر ذلك النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها.

فالذي عليه المحققون من أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وجمع من الفقهاء أن المرأة لا يُشرع لها الزيارة، أولًا من الناحية الشرعية نعم هذه نصوص أقوى من غيرها، والخطاب حينما قال النبي ﷺ: ((إني نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة))[أخرجه أحمد بخلاف يسير]، هذا خطاب عام والأصل في خطابات الشرع أنها تشمل الجنسين الذكور والإناث، إلا إذا دل دليلٌ على التخصيص، هنا ورد ما يدل على منع النساء، فيبقى النص على عمومه في حق الرجال، ويُخرج منه النساء، لخبر أم عطية أن النبي ﷺ نهاهم عن اتباع الجنائز، فكيف بزيارة القبور؟! مع أن الاتباع أخف.

ثم بعد ذلك المرأة بطبيعتها ضعيفة، ودخولها إلى المقبرة يعني قد يترتب عليه نياحة وصراخ ولطم للخدود، وشق للجيوب وهذا مخالف للشرع.

ثم بعد ذلك المقابر هي مواضع يتذكر بها الإنسان الآخرة، ودخول النساء فتنة وفيه مفاسد كثيرة، فأقل أحواله أن يقال أصلًا حتى وإن لم يرد هناك نص يا أخي يُمنع لتحقق المفسدة في ذلك.

- أخ: وقبر النبي؟

- الشيخ: نعم قبر النبي ﷺ تسلم المرأة من بعيد ولكن لا تتقصد الزيارة، وإنما لو سلمت من بعيد أو مرت مرورًا فوافقت نعم، لكن أن تتقصد الزيارة لا هذا ليس مشروعًا في حقها.

- أخ: شيخ، عائشة رضي الله عنها عندما قالت للرسول ﷺ ماذا أقول؟ قال: قولي السلام عليكم..

- الشيخ: نعم هذا قد يحمل على المرور، أثناء المرور، أنت تعرف في بعض الأحيان قد تكون المقابر على الطريق.

طبعًا وزيارة القبور تُشرع لأمور (بالنسبة للرجال):

أولًا: للتذكرة، فالإنسان إذا دخل إلى المقبرة ورأى قبور أناس كانوا بالأمس القريب معه يؤاكلهم ويشاربهم ويجالسهم ثم بعد ذلك ارتحلوا من دار الدنيا إلى دار البرزخ، فهذا لا شك أنه يُحيي الإيمان في قلب الإنسان ويزهده في الدنيا، ويدفعه لمحاسبة نفسه والاستعداد للارتحال من هذه الدنيا، وأن الدنيا ليست بدار قرار وإنما هي دار مرور وعبور. إذن هذا هو الأمر الأول الذي من أجله تشرع زيارة القبور (فزوروها فإنّها تُذكركم الآخرة).

الأمر الثاني: زيارتها للدعاء للأموات بالرحمة والمغفرة، فالنبي ﷺ حينما استأذن ربه أن يستغفر لأمه فلم يأذن له وإنما أذن له بالزيارة، ولكن لا يُشرع الاستغفار للمشركين ﴿مَا كَانَ لِلنبِيِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنَ يَسْتغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانوٓا أُوْلِي قُرْبٰى مِنٌّ بَعْدِ مَا تبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُم أَصْحٰبُ الْجَحِيمِ﴾.[التوبة]

– أخ: أليسوا من أهل الفترة يا أستاذ؟

– الشيخ: حتى أن أهل الفترة الذي حُكي فيه وفاق أهل العلم أنهم يُسمون مشركين، ووقع الخلاف بينهم في مآلهم في الآخرة هل يُمتحنون أو أنهم من أهل النار.

– أخ: هل يُعذّب الله من لم يُرسل له رسولًا يا أستاذ؟ أهل الفترة ما جاءهم رسول..

– الشيخ: هذه مسألة تكلم عنها أهل العلم، تكلموا عن أهل الفترة، وأهل الفترة هم أناس عاشوا بين نبيين لم تبلغهم دعوة النبي السابق ولم يدركوا النبي اللاحق، فهم عاشوا في فترة من الرسل ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفكِّينَ حَتىّٰ تَأْتِيهُمُ الْبَيّنَةُ﴾[البينة]، سماهم مشركين ولم تأتهم البينة بعد ﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتىّٰ يَسْمَعَ كَلٰمَ اللهِ﴾[التوبة]، فسماه الله مشركًا قبل أن يسمع كلامه. وأما قضية: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء]، هذه تحدثت عن المآل الأخروي، ولم تتحدث عن حكمه الدنيوي، ومن يستدل بقصة ذلك الرجل الذي أمر أبناءه إن مات أن يُحرّقوه وينثروا رُفات جسده في الفضاء، قائلًا: لو قدر الله علي لعذبني عذابًا شديدًا.

فلما بُعث إلى الله –كما يحكي ذلك النبي ﷺ– بين عذره وحُجته في ذلك وهو خوفه من الله عز وجل، فتجاوز الله سبحانه وتعالى عنه، فقال أهل العلم هنا أن هذا الجهل عُدّ مانعًا في حق هذا الرجل مع أنه أنكر أمرًا عظيمًا..

ولكن هذا كلام غير صحيح، هذا الرجل يؤمن بالبعث ولم ينكره؛ بدليل أنه قال حرّقوني.. لماذا يحرّقوه؟ حتى لا يُبعث، ولكنه كان يظن أن هذه الهيئة الحرق ثم النشر، أن هذه الجُزئية لا يُبعث بعدها، فقال أهل العلم هنا الجهل ليس في البعث وإنما جهلٌ في كمال القدرة (في جزئية معينة)، في سعة القدرة، وسعة القدرة أمر قد يخفى على الناس ولا يعلمه ولا يدركه إلا الخاصة، فقد يُتصور مغيبه عن العامة، فهذه مسألة قد تخفى، فلذلك كان الجهل فيها عذرًا، ليس كما يقول البعض أنها عذر عام! لا، هذا الرجل كان يؤمن بالبعث والدليل يدل على ذلك.

إذن نعلم مما ذكرناه مسبقًا أن زيارة القبور للتذكرة والدعاء للأموات هي من الأمور التي شرعت من أجلها الزيارة، لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–، يقول هناك زيارة مشروعة وزيارة غير مشروعة.. الزيارة مثلًا لقراءة القرآن هذه بدعية، والزيارة لدعاء الله تبركًا بالقبور شرك أصغر، ودعاء الأموات شرك أكبر، وزيارة القبور للتذكرة مشروعة ومرغب فيها، وهكذا.

– أخ: زيارة القبور للتذكرة لها أجر؟

– الشيخ: نعم.

– أخ: شيخ، في المناطق الجبلية يضعون علامات على القبور، حتى لا يدوس أحد على القبر.. ما حكم هذا؟

– الشيخ: هو على العموم الإنسان لا يتجاوز القدر المشروع، أن يكون القبر مسننًا ارتفاعه شبر، وهناك في بعض الأحيان قد تحتاج إلى إخفاء معالم القبر، علي رضي الله عنه حينما قال لأبي الهياج ((ألا أبعثك على ما بعثني عليه النبي ﷺ ألّا أدع قبرًا مُشْرفًا إلا سويته ولا صورة إلا طمستها)).[مسلم]

فالقدر المشروع أن يكون الارتفاع شبرًا وأن توضع لبنة عند رأسه ولبنة عند رجليه لتحديد القبر، أما أن يُزاد على ذلك من التجصيص والبناء فلا.

هناك مسألة يذكرها بعض الفقهاء وهي أنه قد يُخفى القبر، متى؟

إذا خُشي على المقبور أن يُنبش القبر، قد يُقتل مجاهد في أرض العدو، والأصل أن يُدفن في المكان الذي قُتل فيه ليس كما يعمل البعض يحمله وما شابه ذلك، أهل العلم تحدثوا عن أمور قد لا يُشرع فيها حمل المقتول خارج المكان الذي قُتل فيه إلا إذا كان هناك أمر آخر مثلًا كأن يكون أرفق بقرابته أو ما شابه ذلك، هناك حالات استثنائية، وإلا الأصل أنه يقبر حيث قُتل، فقد يكون في أراضي العدو فيُساوى بالأرض تعميةً عن العدو.

- أخ: شيخ، مسألة شهداء أحد وإخفائهم، هذا أيضًا يدخل في سد الذرائع؟

- الشيخ:نعم، تعرفون ما قام به عمر ﵁ في قبر دانيال، حفر أكثر من قبر وأخفاه في أحد هذه القبور لأجل أن يُعمّي الناس عن هذا القبر.

فإذا كان واقع الناس تظهر فيهم آثار الجاهلية فلا بد من مراعاة مثل ذلك على ولاة الأمر.. لذلك النبي ﷺ لماذا منع الناس ابتداءً من زيارة القبور؟

لأنه مازال هناك تعلق بها، الناس حدثاء عهد، فما زالت رواسب الجاهلية، فأراد النبي ﷺ أن يقوّي توحيدهم ثم بعد ذلك لما قوي توحيد الناس أذِنَ لهم بزيارة القبور لوجود المصلحة الراجحة من زيارتها، وهكذا.

نعم نكون بذلك أنهينا هذا الباب، هذا والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس العشرون

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك.(١)

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.(٢) [التوبة]

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

نستأنف وإياكم معاشر الأحبة مدارسة كتاب التوحيد، و مازال المصنف –رحمه الله تعالى– يسرد تلك الأبواب التي يبين فيها أحكام التوحيد ومسائله العظام.

(١): (باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك).
أراد المصنف بهذا الباب أن يبين أن المصطفى عليه الصلاة والسلام كان من أحرص الناس على هذه الأمة، وكان من أعظم صور هذا الحرص أنه دعا أمته إلى التوحيد ونهاهم عن الشرك، وهذا من أعظم صور الشفقة، لذلك استفتح المصنف –رحمه الله تعالى– هذا الباب بقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. فهذه الآية بين الله سبحانه وتعالى فيها أن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق وأرسله كذلك رحمة للعالمين.

(٢): ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾: هذا يدل على حرص النبي ﷺ على أمته.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: ومن أعظم صور الرأفة والرحمة أن يُدعى الناس إلى التوحيد واتقاء الشرك وسبله.

وقد مر معنا مرارًا وتكرارًا أن السعادة والفلاح حينما يوحد الإنسان ربه، والشقاء كل الشقاء أن يعيش الإنسان متخبطًا في أوحال الشرك.

(باب ما جاء في حماية المصطفى): هذا يدل على أن النبي ﷺ أمان وهداية لهذه الأمة حينما تتبعه وتلزم غراس سنته، عند ذلك تنجو الأمة ويحميها الله سبحانه وتعالى من الشرك.

(حماية المصطفى): هذا يدل على أن النبي ﷺ لا حرج من تسميته أو وصفه بالمصطفى، حيث أن الله سبحانه وتعالى اصطفاه من بني هاشم، وهو المصطفى وهو المجتبى، لذلك يقول بعض السلف: اطّلع الله سبحانه وتعالى على العباد فلم يجد من عباده أطهر قلبًا ولا أنقى نفسًا من محمد ﷺ، فاصطفاه الله واجتباه لتحمل هذه الرسالة وأمره ببلاغها وبيانها للناس، فلا شك أنه مصطفى عليه الصلاة والسلام.

(وسدّ كل طريق يوصل إلى الشرك): لا شك أن النبي ﷺ ما فارق هذه الدنيا وما من خير إلا وقد دل الأمة عليه، وما من شر إلا وقد حذر الأمة منه.

ففارق هذه الدنيا وقد تركنا على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. والذي لا يقر بذلك فقد أخل بإيمانه بالنبي ﷺ، وهذا الأمر هو الشق الثاني من كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، ففارق هذه الدنيا وقد تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، والذي لا يقر بذلك فقد أخل بإيمانه بالنبي ﷺ، وهذا الأمر هو الشق الثاني من كلمة التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وهذه الدعوة التي جاء بها النبي ﷺ هي الدعوة التي أرسل الله من أجلها الرسل وأنزل من أجلها الكتب: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّٰغُوتَ﴾[النحل]، أمرنا الله سبحانه وتعالى وأمر أنبياءه ورسله أن يبلغوا هذا الدين، وبين المولى سبحانه وتعالى أن الدين يقوم على هذين الركنين ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّٰغُوتَ﴾.

(**وسدّ كل طريق يوصل إلى الشرك**): نستفيد من هذا العنوان العريض أن كل من خالف هدي النبي ﷺ كان مآله أن يقع أو يسير على السبل التي توصل إلى الشرك، والذي يلزم غراس السنة وغراس الكتاب ولا يفارقهما يُحمى بإذن الله عز وجل من سبل الشرك.

فأورد المصنف –رحمه الله تعالى– تحت هذا التبويب قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. قُرئت هذه الآية على قراءة البعض (مِّنْ أَنفُسِكُمْ) أي من جنسكم من البشر، وفي قراءة أخرى (مِّنْ أَنْفَسِكُمْ) أي من أفضلكم ومن أعلى الناس فيكم نسباً، وكان النبي ﷺ كذلك.

﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ**﴾: كان النبي ﷺ يتطلع للتخفيف عن أمته، ويتباعد كل البعد عن أن تُكلّف أمته بما فيه عنت وشدة، وهذه من أبرز أوصافه ﷺ، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾: يشق عليه أن تقع عليكم المشقة والعنت، وهذا من كمال رحمته عليه الصلاة والسلام، ومن كمال شفقته فداه أبي وأمي ونفسي.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم).(١) رواه أبو داوود بإسناد حسن، ورواته ثقات

---

(١): **(لا تجعلوا بيوتكم قبورًا)**: حمل أهل العلم هذا اللفظ على معنيين:

المعنى الأول: أي لا بد من عمارة البيوت بذكر الله والصلاة فيها، لأن الموضع الذي لا يُصلى فيه هو المقبرة ((الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام))، فالذي لا يجعل من صلاته في بيته فقد جعله كالمقبرة، والنبي ﷺ يقول: ((اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم لا تجعلوها قبورًا))[مسلم]، والمراد هنا إيقاع صلاة النفل، وقد مر معنا أن أشرنا إلى حكم صلاة الجماعة وأدائها في المسجد، وبينّا أن الراجح من أقوال أهل العلم وجوب أداء الصلاة جماعة في المسجد ومن أجل ذلك شُيّدت المساجد، وهذا هو الصحيح من أقوال أهل العلم، وبينّا الفرق بين من أدّاها جماعة خارج المسجد ومن أدّاها جماعة في المسجد -تذكرون- فمن يؤديها جماعة خارج المسجد له أجر الصلاة وعليه أثم عدم تلبية النداء، فالنبي ﷺ قال: ((صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة))، فالفضل هنا على عمومه، فإذا أوقع الإنسان صلاته في جماعة تحصل على الأجر المرتب على هذا العمل.

ويبقى عندنا أمر آخر: اتجه خطاب الشرع إلى المكلفين بإجابة النداء ((من سمع النداء فلم يُجب فلا صلاة له إلا من عذر))، فإذا أدى الإنسان الصلاة جماعة نال الفضل وسقط عنه وجوب الجماعة ولكنه مطالب بإجابة النداء.. فننظر إذا كان ثمة عذر من التخلف عن إجابة النداء وقع الإثم وعُدَّ المتخلف عن إجابة النداء آثمًا لأن هذه البيوت ما شُيّد بناؤها وما أُسست أركانها إلا لعمارتها بذكر الله، ومن أبرز صور العمارة فيها عمارتها بالصلاة التي يُنادى لها، هذا هو المعنى الأول..

(لا تجعلوا بيوتكم قبورًا) أي: لا تهجروا الطاعة فيها فلا تصلوا ولا تؤدوا شيئًا من العبادة فيها. هذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني: (لا تجعلوا بيوتكم قبورًا): أي لا تقبروا فيها موتاكم.

مسألة: هل يجوز دفن الأموات داخل البيوت أو في الأملاك الخاصة؟

يعني فلان من الناس عنده بيت، مات أبوه (مالك البيت)، الأصل أن البيت ينتقل إلى الورثة، والأب أوصى قال إذا أنا مت ادفنوني في البيت، وأنت قاضي الآن.. جاءك الورثة السلام عليكم.. عليكم السلام.. حياك الله يا شيخ، أفتنا بارك الله فيك، الوالد يوصينا أن نقبره في البيت ندفنه في البيت.. وأنت عندك أخوات وإخوة ورثة لهم حق في هذا البيت..؟

– الشيخ لأحد الإخوة: أنت قلت يجوز، واستدليت على ذلك بحال النبي ﷺ، وأنت أطلقت هذا، مع أن النبي ﷺ في حقه مُخصِّص أن الأنبياء تُدفن مكان ما ماتوا..

أولًا عندنا نص شرعي: (لا تجعلوا بيوتكم قبورًا)، قلنا المعنى الثاني أي لا تتخذوا هذه البيوت مقابر، وواقع النبي عليه السلام هذا خاص بالأنبياء.

أما دفن أبو بكر وعمر عليه السلام معه فلأنه الآن خرج من الملكيّة.

ثم بعد ذلك عندنا نص: (لا تجعلوا بيوتكم قبورًا)، نفهم من عموم هذا الإطلاق أي لا يجوز أن يُدفن الأموات في البيوت لأمور عدة:

أولاً: إذا أوصى الميت بذلك وصيته غير نافذة، والوصايا لا تُنفذ إلا في إطار المشروع، فإذا كانت الوصية جائرة أو كانت على أمر محرم فهي غير نافذة، ومن جملة الوصايا التي لا يجوز إنفاذها وصية الميت بأن يقبر في بيته.

ثم بعد ذلك إن قبر الأموات داخل الأملاك الخاصة يضر بالأحياء، والأملاك الخاصة أحق من ينتفع بها أصحابها الأحياء، أما الأموات فلهم باطن الأرض.

فحينما يُقبر الميت في أرضه مثلًا.. تجد أنه ما عاد تُشرع الصلاة في داخل البيت، وكذلك لا بد أن يكون الدخول منضبط بضوابط والخروج كذلك والمبيت كذلك، والأصل في مثل ذلك أننا نقول خلاص يُخرج من البيت سدًّا لذرائع الشرك وسبله.

فالمحصلة في النهاية: لا يُشرع دفن الأموات في البيوت والأملاك الخاصة إلا إذا قال صاحب الملك: أوقفت هذه الأرض للمسلمين ليدفنوا فيها موتاهم، فأصبحت مقبرة، خرجت من ملكه إلى أن تكون لعامة المسلمين يدفنون فيها موتاهم.

– أخ يسأل: بقيت السيدة عائشة تصلي عند قبر زوجها ووالدها حتى جاء وأُخرجت من البيت

– الشيخ: لكن ما يلزم أنها كانت تصلي، ما الدليل؟ وجودها لا يعني أنها تصلي، ما في دليل..

– أخ آخر: الكلام مو على الصلاة، الكلام كان عن أنها لم تكن تضع على رأسها الحجاب لما دفن عمر..

– الشيخ: طيب الأموات لا يأخذون حكم الأحياء يا أخي، الآن هب مثالًا.. أن ميتًا من الأموات كان مكشوفًا مسجى أو غير مسجى، فدخل رجل ومعه امرأة هذه المرأة زوجته أو قريبته أو ما شابه ذلك، وكانت أمام هذا الرجل.. ميت هو.. أو أن مرأة أجنبية دخلت على هذا الرجل، هل هنا حصلت خلوة؟ ميت يا إخوة..

– أخ: لماذا في كلامك الآن قلت ضوابط في البيت والمبيت والدخول والخروج..؟

– الشيخ: قلت لأنها ستقيد هذا الشيء، يعني مثلًا أنت لما تدخل تريد أن تقرأ القرآن، فقد يأتيك من يقول لك لماذا لأنت تقرأ القرآن؟ هل تظن أن هناك بركة في هذا المكان..؟! وأن قراءة القرآن هنا أعظم أجرًا من الغرفة الأخرى التي ليس تحتها القبر..؟!

ستجد أن هناك أبواب كثيرة ستُفتح، فلذلك هذا يُضر بالأحياء.. يا أخي الناس في أملاكهم يقرأ القرآن حيث شاء في أي مكان، يصلي في أي مكان، شريطة أن لا يكون في مكان نجس أو في حمام وما شابه ذلك.

فلا شك أن الإضرار بالأحياء ظاهر إذا دُفِن الأموات في البيوت، وقضية الأملاك الخاصة القصد منها ابتداءً البيوت، ولكن إذا كانت أرض هكذا خالية وهي داخلة في حكم الأملاك الخاصة فأراد صاحبها أن يوقفها أو أن يبيعها إلى من يشتريها ويجعلها مقبرة لا حرج.

لكن بيت رجل قال ادفنوني في بيتي هذا لا شك أنه سيُخالف، ثم بعد ذلك قد يترتب على ذلك من الضوابط التي نذكرها زيارة النساء، ونحن تكلمنا عن زيارة النساء للمقابر، إذا قلنا أن البيت الآن أخذ حكم القبر إذن لا يُشرع دخول النساء، لأن دخول المرأة الآن إلى البيت في حكم الدخول إلى المقبرة، وجاء لعن زائرات القبور، وفي رواية أخرى زوّارات القبور، هذه هي الضوابط التي نحن نذكرها.. فإذن نجد أن المؤدى في النهاية إضرارٌ بالأحياء، لكن حينما يكون هناك جزء مخصص لدفن الأموات فيه عند ذاك تندرئ كل هذه المفاسد.

إذا ارتضى الورثة مثلًا أن يقوها مقبرة، فلا يُختص الأب بها، يُهدم البيت ويبقى مقبرة للمسلمين، فيخرج من كونه بيت، لأننا لو دفناه في البيت وعليه بناء –ونحن مر معنا النهي عن البناء–، فستجد أن هناك تفريعات كثيرة تندرج تحت هذه المسألة.

– أخ: مسألة شراء القبر شيخ؟

– الشيخ: ما في مشكلة إن كان القبر يُشترى في مكان فيه قبور، لأن في بعض الأحيان قد لا يوجد مكان يُدفن فيه الأموات.. والأصل أنها على بيت مال المسلمين، هذه من الأمور العامة التي يتكفلها بيت مال المسلمين، أن يؤمّن لعموم المسلمين أماكن للموتى يُقبرون فيها، وتراعى فيها السنة، لا أن ترفع القبور ولا أن تظهر فيها المظاهر البدعية أو الشركية، تُضبط ويشرع الاحتساب فيها، يدخل محتسب ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، إذا ظهرت مظاهر بدعية أنكرها أو شركية حطمها، إذا كان هناك كتابة أو رفع أزالهُ، كما جاء في خبر علي حينما قال لأبي الهيّاج: «ألا أبعثك على ما بعثني إليه رسول الله ﷺ ألا أدع قبرًا مُشرفًا إلا سويته ولا صورة إلا طمستها».

– أخ: شيخ، لا يكون له حرمان ألا يدفن في مقابة المسلمين كالكافر المرتد من عقوبته أنه لا يُدفن في مقابر المسلمين..؟

– الشيخ: إيه، لكن إذا قلنا أن المرتد لا يقُبر في مقابر المسلمين لا يعني أننا ندفنه في بيته، لذلك يقول بعض علماء الأحناف: ولا تُراعى في المرتد السنة، لا يُغسل بل يُلف في ثيابه ويرمى للكلاب، إلا إذا تأذى الناس من رائحته حُفرت له حفرة ولم تُراعَ فيه السنة ودُفن كما تُدفن الجيف. هذا هو حكمه في الشرع.

لكن المسلم مكرّم، يتعين على عموم المسلمين إذا مات ميت أن يقوم من بينهم من يكفي لتغسيله وتكفينه وإلا أثموا (فرض كفاية)، وكذلك يُصلى عليه، وهكذا.

لكن لو دفنه الناس.. يعني مثلًا نحن قتلنا المرتد أقمنا عليه حد الردة، فأهل العلم حينما قالوا يُرمى ولا تُراعى فيه السنة ويرمى للكلاب، هذا يدل على أنه لا يجب في حقه كما يجب في حق المسلم، لكن لو دُفن ليس هذا تكرمةً له وإنما لأجل رائحته والضرر المترتب على بقائه على ظهر الأرض.

(**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا**): العيد مر معنا معناه، وهو الذي يعود ويتكرر..

أما معنى قول النبي ﷺ (لا تجعلوا قبري عيدًا): فكل من حدد يومًا لزيارته أو هيئة لزيارته، ومر معنا أن الرحال لا تُشد إلى قبره ﷺ وإنما تُشد الرحال إلى المساجد الثلاث كما جاء في الحديث.

فإذا شد الإنسان رحاله إلى القبر -وإن كان قبر النبي ﷺ-، فلا يجوز ولا يُشرع، وهذا من البدع ومن ذرائع الشرك، والإنسان يشد رحاله إلى المسجد لا يقصد إلا المسجد، فإذا دخل المسجد وتهيّأت له أسباب زيارة قبر النبي ﷺ زاره، لا أن يُنشئ السفر أصالةً لزيارة قبر النبي ﷺ، وهذا من ذرائع الشرك التي وقع فيها كثير من الناس حتى أوصلتهم إلى أن يستغيثوا بالنبي ﷺ ويدعوه من دون الله.

وأهل العلم أصلًا قالوا أن قبر النبي ﷺ الآن قد أُحيط بثلاثة جدران، قالوا فأنت الآن ما يصدق عليك أنك زرته.. قبره ﷺ حِيل بينك وبينه.

أما السلام فيصله جاء هناك أخبار أن هناك مَلَك موكّل بقبره ﷺ يوصِل إليه السلام، لكن السلام يصله سواءً كنت داخل المسجد أو خارج المسجد، كذلك الصلاة على النبي ﷺ تُعرض عليه عليه ﷺ سواء كان بعيدًا أم قريبًا.

لذلك هناك ثلاث حالات:

الصلاة على النبي ﷺ، ولا يلزم منها أن تكون عند قبره، وإنما في كل مكان.

السلام على النبي ﷺ وله حالان:

الحال الأولى: أن يكون عند القبر ليس خلف الجدران، ويُحمل عليه أن اللفظ الوارد أن من سلم عليه ﷺ ردّ الله عليه روحه فيردّ عليه السلام.. هذا محمول على السلام الذي يكون عند القبر -وهذا غير مُتأَتّي الآن-.

والسلام الآخر: أن يكون خارج المسجد أو بعيدًا عن قبره ﷺ، فيُسلّم المسلم، فتُبلِّغ الملائكة سلامه إلى النبي ﷺ.

- أخ: لماذا لا يصدق على الزائر أنه زار قبره ﷺ؟

- الشيخ: لأنه قلنا أُحيط بثلاثة جدران، حِيل بينه وبين القبر.. أضرب لك مثالًا، أنت واقف هنا عند الباب، وخلف الشارع مقبرة، متى يُشرع لك أن تُسلم على الأموات؟ حين تمر على القبور.. على المقابر.

- سؤال من أخ..

- الشيخ: أهل العلم فرقوا بين الخبرين: الخبر الأول: ((إن الله وكّل بقبري ملكًا أعطاه أسماع الخلائق، فلا يصلي عليَّ أحد إلى يوم القيامة إلابلغني باسمه واسم أبيه: هذا فلان بن فلان قد صلى عليك))[الطبراني]، والخبر الثاني: (مَا مِن أحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إلا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّ أرُدَّ عَلَيهِ السَّلَامَ)..

فرقوا بينهما، فقالوا هناك سلام عام يكون في كل مكان، هذا يُبلَّغ إلى النبي ﷺ، سواءً عن طريق السيارة أو غيرهم، وأما النص الذي ورد فيه أن الله سبحانه وتعالى يرد على النبي ﷺ روحه ليرد السلام فهذا محمول على من سلم عند القبر.. يصدُق عليه أنه زار القبر، أما أن يُحاط بجدرا هذا ما زار..

نُكمل..

(وصلّوا عليّ): لأن النبي ﷺ قال: ((من صلى علي صلاةً واحدة صلى الله عليه بها عشرًا)).[مسلم]

وصفة الصلاة، وأكمل الصفات: الصلاة الإبراهيمية: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

هذه أكمل الصيغ وأعظمها أجرًا، ولكن لو قال الإنسان: (اللهم صلّ على محمد) كفاه، حتى لو قالها في التشهد الأخير، هذا هو القدر المجزئ، ولكن إذا أتى بالصفة الأكمل كان ثوابه أكثر وهكذا.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وعن علي بن الحسين ﷺ: أنه رأى رجلًا يجيءُ إلى فُرجةٍ عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، فقال: ألا أحدّثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي، عن رسول الله ﷺ قال: (لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلّوا عليّ، فإنّ صلاتكم تبلغني أينما كنتم). وفي المطبوعة: (تسليمكم يبلغني أينما كنتم).[1]

= (**فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**): وهذا يدل على أنه لا يلزم أن تكون الصلاة عند القبر، وأنه في كل مكان من أنحاء المعمورة لو صلى الإنسان على النبي ﷺ فإنها تبلغه ﷺ، ولا شك أن هذا النص يدل على فضيلة الصلاة عليه ﷺ.

(١): (**فنهاه**): لماذا نهاه؟ نحن مر معنا في قصة قوم نوح عليه السلام فقلنا أنهم مروا بثلاث مراحل، في المرحلة الأولى عكفوا فقط، مجرد عكوف، ما صدر منهم أي تصرف شركي، فلما طال بهم المقام مات الجيل الأول وجاء الجيل الثاني، فما هو التجديد؟ صوروا على تلك القبور صور، ثم بعد ذلك انقضى ذلك الجيل فجاء الجيل الثالث فماذا أحدثوا؟ عبدوها.

مما يدل على أن الشيطان يسير مع العباد بخطوات كثيرة حتى يوقعهم بالإشراك بالله -ولا حول ولا قوة إلا بالله-، فلذلك لزم الحذر فنهاه، وهذا ما كان عليه الصحابة.. فهل يشك أحد في محبة الصحابة للنبي ﷺ..؟!

الآن كل من يتجه إلى قبر النبي ﷺ ويدعو متجهًا للقبر مستدبرًا القبلة أو أنه يتصرف تصرفات لا تخلو إما أن تكون بدعية أو شركية تجد أنه يتذرع ابتداءً بماذا؟ بمحبة النبي ﷺ، وإذا اعترض عليه معترض ماذا قال له؟ أنت ما تحب النبي ﷺ..

انظروا إلى الصحابة -رضوان الله عليهم-

رأى رجلًا يدخل في فرجةٍ فيدعو عند قبر من؟ عند قبر النبي ﷺ، يعني أفضل قبر وأفضل مقبور على ظهر الأرض محمد ﷺ، وهؤلاء الصحابة الذين هم من أكثر الناس حبًا للنبي ﷺ مع ذلك أنكروا مثل هذا الشيء، فلو جاء زاعم أو مُدّعٍ لمحبة النبي ﷺ فقال بخلاف ذلك فقد كذب في محبته، لأنه قد قال بخلافه أكثر الناس حبًا للنبي ﷺ، فلا يمكن أن يأتي قوم بأكثر مما جاء به صحابة رسول الله ﷺ حبًا وتوقيرًا واتباعًا واحترامًا للنبي ﷺ.

(فنهاه، فقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي، عن رسول الله ﷺ قال: لا تتخذوا قبري عيدًا): لأنه جعل فعل ذلك الرجل (أنه يتردد على القبر) جعل فعله داخلًا في عموم: (لا تجعلوا قبري عيدًا).

مثلًا: إنسان سافر إلى المدينة فأصبح في كل مرة يدخل إلى المسجد يذهب إلى القبر، يصلي الظهر يذهب، يصلي العصر يذهب، يصلي المغرب يذهب، فقد أدخله أهل العلم في عموم قول النبي ﷺ: (لا تجعلوا قبري عيدًا).

فإذا زار الإنسان المسجد، ومرّ مرورًا على بيت النبي ﷺ، وافق طريق المرور أن يمر على بيت النبي ﷺ يُسلم على النبي ﷺ لاحرج، مع أنه لو سلم في أي مكان لوصله السلام، ولو صلى في أي مكان لوصلت الصلاة، وهكذا.

قال: (لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليّ، فإن صلاتكم تبلغني أينما كنتم) وفي المطبوعة: **(تسليمكم يبلغني أينما كنتم)**: كذلك هذه المسألة تحدث عنها أهل العلم في عبارة: (وصلوا علي فإن تسليمكم): الصلاة ذكر وطاعة، والتسليم كذلك عبادة أخرى، فهنا أجاب أهل العلم بعدة أجوبة:

الجواب الأول: قالوا أنه خطأ من الراوي: [حيث أنها]: (وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني أينما كنتم).

الجواب الثاني: منهم من قال أن اللفظ: (وسلموا عليّ فإن تسليمكم يبلغني)، وهذا له ما يدل عليه: أن الله أوكل ملكًا بقبر النبي ﷺ، وأن لله ملائكة سيّاحة تسيح في الأرض تُبلِّغ النبي ﷺ السلام.

الجواب الثالث: أنه من كثرة اقتران التسليم بالصلاة أطلق التسليم وأُريدَ به الصلاة، يعني: صلوا عليّ فإن تسليمكم (بمعنى الصلاة) يبلغني.

هذه ثلاثة أجوبة أجاب بها أهل العلم على ذلك.

وقد يُقال أن الراوي حذف ذلك اختصارًا، فيُقال: صلوا عليّ وسلّموا فإن صلاتكم وتسليمكم يبلغني أينما كنتم، أو يقال صلوا عليّ فإن صلاتكم وتسليمكم.. مثلًا، أو صلوا عليّ وسلموا فإن صلاتكم وتسليمكم يبلغني أينما كنتم.

نعم كل هذه الأجوبة يمكن حملها، مع أن العرب قد تحذف في الكلام اختصارًا، وقد تحذف في بعض الأحيان لأنه أصلًا معلوم لا حاجة من ذكره، مثل عندما دخلت أم هانئ على النبي ﷺ فسلمت قالت: السلام عليكم، فماذا رد النبي ﷺ قال: مرحبًا بأم هانئ.. فبعض أهل العلم قالوا أن هذا يدل على عدم وجوب رد السلام.. لكن لماذا نحن نتعلق بهذا المتشابه ونترك كثير من النصوص المحكمة، يعني شيء طبيعي وشيء مألوف ومعتاد أن من سُلِّمَ عليه أنه سيرد السلام، لكن الجديد أن النبي ﷺ قال: مرحبًا.. وفي سياق الآية يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[النساء]، فهل يُتصوّر بالنبي ﷺ أن يُخالف مثل هذا..؟! حاشاه عليه الصلاة والسلام.

فإنه يقال في مثل هذا أن الراوي حذف التسليم اختصارًا أو لأنه معلوم وبدَهي ومتقرر، وزاد علمًا أن النبي ﷺ قال: مرحبًا بأم هانئ.. أي أنه رد فقال: وعليكم السلام مرحبًا..

- أخ: يا شيخ، التبس عليّ أمر، في الصلاة نقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.. والنبي ﷺ قال في الصلاة لا يصح فيها من قول البشر، إنما هي تسبيح وتهليل وتحميد -أو كما قال النبي ﷺ، ولما قلنا السلام عليك الكاف هنا للخطاب، تفسيرك لهذا الكلام..؟

– الشيخ: نعم هو لا شك أن هذه الألفاظ تعبدية أولًا وتوقيفية علمناها من النبي ﷺ، ولفظ الإنسان بها في الصلاة كلام تعبد، فهو خارج من عموم هذا الكلام..

– الأخ: شيخ ألا يُقال أن هذا بمعنى الدعاء؟

– الشيخ: هو لا شك بمعنى الدعاء وبمعنى الذكر كذلك، هذه من الأذكار التي شُرع قولها داخل الصلاة.

– أخ: نتخيل النبي قدامنا ونحن نقول الصلاة والسلام على رسول الله؟

– الشيخ: لا بدون تخيل، ما يحتاج تتخيل جزاك الله خير، صاحب خيال واسع أنت هههههه.

– أخ: حديث عائشة نقل عن عبد الله بن عمرو أنّا كنا نقول الصلاة والسلام عليك أيها النبي في حال حياته، فلما مات أصبحنا نقول السلام على النبي.. هل هذه صحيحة؟ موجودة في كتاب صفة صلاة النبي ﷺ

– الشيخ: نعم قد يُحمل ذلك، لكن (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) ما دام أن اللفظ هنا تعبدي، فقد لا يُستشكل مثل ذلك، لأنه إذا ورد أمر تعبدي وتعارض مع قاعدة لغوية وما شابه ذلك وكان هذا الإيراد ثابت وصحيح، فلماذا نحن نعارض بقاعدة لغوية نص شرعي؟

مع أنه الأصل أن النبي ﷺ عربي ومن أفصح الناس لسانًا ﷺ، لذلك البعض مثلًا يأتي ويعترض على بعض الآيات القرآنية بقواعد لغوية! هذا تتعجب حقيقة من الجرأة والتكلف، بل كان من الواجب أن تُعارض القواعد اللغوية بالنصوص الشرعية لأنه قرآن عربي، بلسان عربي مبين، وهو الأصل.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الواحد والعشرون

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان.(١)

وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾.[النساء](٢)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

نستأنف وإياكم معاشرة الأحبة مدارسة كتاب التوحيد..

(١): أراد المصنف –رحمه الله تعالى– أن يبين في هذا التبويب أن الشرك وقع في أمة محمد ﷺ، وأورد على ذلك نصوصًا عدة، بين فيها –رحمه الله– أن الشرك وقع في هذه الأمة، وكان مراده –رحمه الله– بلفظ الأمة أمة الإجابة، لأن أهل العلم بينوا أن الأمة إذا جاء ذكرها في سياق نصوص الشرع فإنها تشمل النوعين: أمة الدعوة وأمة الإجابة.

أمة الدعوة: تُطلق على كل من أدرك أو وُلِدَ أو وُجدَ بعد بعثة النبي ﷺ حتى وإن لم يؤمن به، ودليل ذلك ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه أن النبي ﷺ قال: ((و الذي نفْسُ محمدٍ بيدِهِ ، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمةِ ، لا يهوديٌّ ، و لا نصرانِيٌّ ، ثُمَّ يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ به ، إلَّا كان من أصحابِ النارِ))[مسلم]، فنفهم من عموم هذا اللفظ النبوي أن اليهود والنصارى داخلون

في عموم هذا اللفظ، ولكن من هم اليهود والنصارى الذين يدخلون في هذا العموم؟ هم من كان على اليهودية والنصرانية بعد بعثة النبي ﷺ هذه تسمى أمة الدعوة.

أمة الإجابة: هم من استجاب للنبي ﷺ.

فأراد المصنف –رحمه الله تعالى– أن يبين أن هناك من الأمة من وقع في عبادة الأوثان، وقد مر معنا معنى الوثن والفرق بينه وبين الصنم، وقلنا أن بينهما عموم وخصوص، فكل وثن صنم، وليس كل صنم وثن، ويتجوّز بعض أهل العلم ويقول أن واقع اللفظين كواقع لفظ الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

هنا يقول المصنف –رحمه الله–: (أن بعض أهل هذه الأمة): يريد المصنف أن يبين أن الشرك وقع في جزء من الأمة، لا يريد عموم الأمة، وسيمر معنا كذلك مزيد تفصيل.

(٢): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾: هذا الخطاب يبين الحق تبارك وتعالى في سياقه أن أهل الكتاب اليهود والنصارى يؤمنون بالجبت والطاغوت.

الجبت: هو كل أمرٍ لا خير فيه. وكذلك ورد عن بعض الصحابة وعن بعض السلف تفسير الجبت بالسحر والساحر والصنم والكاهن والشيطان. وبعض أهل العلم قالوا أن الجبت يُطلَق على معانٍ والطاغوت يُطلق على العامل. يعني مثلًا: القوانين الوضعية جبت، الحاكم بها طاغوت. كذلك الأعمال الشركية هي جبت، والذي يعملها طاغوت.

والطاغوت: هو كل ما تجاوز به الحد من معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاع.

والطواغيت كُثُر، ورؤوسهم خمسة: الشيطان، ومن دعا الناس إلى عبادته، ومن عُبِدَ وهو راضٍ، ومن ادعى علم الغيب، ومن استبدل حكم الله عز وجل وارتضى أن يُنصِّب نفسه مُشرِّعًا مع الله، والله عز وجل يقول: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[يوسف]، أي أن الله سبحانه وتعالى اختصَّ بالتشريع، وأن هذا الفعل خاص به سبحانه وحده لا شريك له، لا يُنازعه فيه أحد

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾: أي أن سبحانه وتعالى أمرنا بأن نتعبّد إليه بالتحاكم إلى شرعه، فإذا تحاكمنا إلى غير شرعه فقد تعبّدنا بالتحاكم لغيره.

هنا أراد المصنف -رحمه الله تعالى- حين أورد هذه الآية تحت هذا التبويب أن يبين أن اليهود والنصارى آمنوا بالجبت والطاغوت، وقد أخبر النبي ﷺ أن من أبناء هذه الأمة من سيقتفي أثر أهل الكتاب: ((لتتبعن سَنن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذّة))[مجموع الفتاوى] هذا يدل على أن هناك فئة من الأمة تتبع أهل الكتاب متابعةً حقيقيةً تقتضي كمال المشابهة، لأن الوصف النبوي: (حذو القذّة بالقذّة) كناية عن شدة المشابهة والمقاربة.

القذّة: هي ريشة السهم، كما أن آخر السهم يوضع فيه الريش ويكون الريش على هيئة ومقاس واحد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.(١)

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.[الكهف](٢)

عن أبي سعيد ﷺ، أن الرسول ﷺ قال: (لتتبعُنَّ سنن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذّة، حتى لو دخلوا جحر ضَبٍ لدخلتموه)، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: (فمن؟).(٣)أخرجاه

---

(١): حينما سخِرَ أهل الكتاب بدين الإسلام ورأوا أن أهل الإسلام ضلوا حينما اعتنقوا ذلك الدين، فحكى الله سبحانه وتعالى ما قاله النبي ﷺ في رده عليهم: **﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾**[المائدة] : أي قل هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك جزاءً ومكافأةً ومحاسبة له عند الله، يعني من أشرِّ الناس مجازاةً ومن أشرهم محاسبةً يوم القيامة من لعنه الله وغضب عليه، من هم الملعونون هنا في هذا السياق؟ اليهود، وقد لعنوا على لسان داوود وعيسى بن مريم: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ الآية.

﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾: فأهل الكتاب اجتمعت فيهم هذه الأوصاف، لعنهم الله وغضب عليهم، وجعل منهم القردة والخنازير، وعبد الطاغوت، اجتمع فيهم الشر كله، فلذلك قال: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾..

أراد المصنف –رحمه الله تعالى– من إيراد هذه الآية تحت هذا التبويب أن يبين أن فئامًا من أمة الإجابة سيناهم لعنة من الله وغضب لمشابهتهم المشركين ومن عبد غير ربّ العالمين، فهم مستحقون بمثل

ذلك للعنة، مر معنا (لعن الله من ذبح لغير الله) فعله شرك استحقّ بموجبه اللعنة، وهنا اللعن الوارد لعن أكبر لأن الفعل شرك وليس معصية.

(٢): ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾: قال أهل السلطة أهل الولاية أهل الشوكة أهل الغلبة الأمراء والوزراء في ذلك الزمان عن أصحاب الكهف وعن الصالحين: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، ما مناسبة هذه الآية للباب..؟

أراد المصنف -رحمه الله- من إيراد هذه الآية أن يُبين أن هناك فئام من الناس من هذه الأمة سيتخذون أو سيجعلون أو سيبنون على قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ما هو الربط بين هذه النصوص؟ حيث أن الله حكى فيها واقع أمم مضت، لذلك انظروا إلى فقه الإمام -رحمه الله-، أورد الأحداث والوقائع التي وقع فيها الشرك في الأمم الماضية، ثم أردف هذه النصوص بقول النبي ﷺ: ((لتتّبعُنَّ سنن من كان قبلكم...))، فما دام أن النبي ﷺ أخبر، والشرك قد وقع في الأمم التي مضت وخلت؛ علمنا أن هناك فئام من الناس سيتبعون كما أخبر النبي ﷺ سنن من كان قبلهم.

(٣): عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن الرسول ﷺ قال: (لتتبعُنَّ سنن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذّة، حتى لو دخلوا جحر ضَبٍ لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟).

هذا الحديث أورده المصنف -رحمه الله تعالى- كما بيّنا لكم بعد هذه النصوص الشرعية التي حكى الله سبحانه وتعالى فيها واقع الأمم التي خلت أنها آمنت بالجبت والطاغوت، وكفرت بالله، فمسخ الله منها جزءًا ولعن الله منهم من يستحق اللعن ووقعت منهم عبادة الطاغوت، فبناءً على هذه الإشارة العامة يُردف المصنف -رحمه الله تعالى- تلكم الأحداث بقوله ﷺ: ((لتتبعُنَّ سنن من كان قبلكم...)).

وهنا مسألة تكلم عنها أهل العلم: هنا في النص الثاني ﴿وَجَعلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾، هذا مسخ، وقد تحدث أهل العلم عن ما هيّة هذا المسخ، هل هو مسخ حقيقي أو أنه مسخ معنوي؟

جماهير العلماء حملوا المسخ الوارد في النص على المسخ الحقيقي أي أن الله مسخ أجسادهم، وقلب صورهم إلى أن أضحوا خنازير وقردة.. ما تراه إلا قرد ما تراه إلا خنزير، عقوبةً لهم وزجرًا لغيرهم، وهذا يدل على شناعة وقبح ما صنعوا، وهذا وقع على أصحاب السبت، الذين كانوا يتلاعبون، لذلك قال بعض السلف في شأن المتحيّلين ذامًّا لهم، يقول: (أن أحدهم يتعامل مع ربه كما يتعامل أحدهم مع الصِبية) حينما تريد أن تتعامل مع صبي تتلاعب تقول أعطيك حلوى وأعطيك كذا.. تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا..

فالله منعهم من أن يصيدوا يوم السبت، فماذا فعلوا؟ نصبوا الشباك يوم الجمعة وأخذوها يوم الأحد، حيلةً على أمر الله عز وجل ونهيه، فلما كانت طبيعة تعاملهم على هذا النوع المحتقَر والمزدرى، أن يتعامل الإنسان مع ربه على هذه الصفة؛ كان جزاؤه أن يُمسخ، وأن تُغيّر حقيقة شكله عقوبةً من الله عز وجل وردعًا لأمثاله. هذا هو القول الأول، أن المسخ وقع عليهم حقيقةً.

والقول الثاني وقال به مجاهد –رحمه الله وهو من التابعين–: قال أن المسخ معنوي، أي أن طبائعهم وحقيقة عيشهم، وطبيعة تعاملاتهم تكون كهذه الحيوانات، فهو في أكلهِ كالخنزير وفي تعامله مع غيره كالخنزير وكالقرد وكذا، طبع الله فيهم طبائع هذه الحيوانات وجعلها مُلازمةً لهم لا تنفك عنهم، عقوبةً من الله..

ثم بعد ذلك أردف المصنف –رحمه الله تعالى– قول النبي ﷺ: **(لتتبعُنَّ سنن من كان قبلكم)**، أي تتبعون طرقهم، طريقة عيشهم، طريقة تعاملاتهم، طريقة تعاطيهم للأمور وما شابه ذلك.

والتشبه بالكفار يقسمه أهل العلم إلى قسمين: تشبه أكبر يخرج به الإنسان من الملة. وتشبه أصغر.

التشبه الأكبر: أن يتشبه الإنسان بالكفار في عباداتهم، يعني مثلًا أن يتشبه بهم في لبس الصليب.. الصليب شعيرة من شعائر النصارى الدينية، أو يصلي صلاتهم، أو يلبس اللباس الخاص بُعبَّادِهم أو بأحبارهم.. الآن لو تنظرون إلى حال ما يسمى بالقس أو القسيس تجد أنه يتزيّى بزيٍّ خاص وهيئة خاصة هي من طقوسهم الدينية، فمن تشبه من المسلمين بالكفار في شيء من عباداتهم هذا يكون تشبه أكبر

مُخرِج من الملة، ويُحمل على ذلك ظاهر قوله ﷺ: ((من تشبّه بقومٍ فهو منهم))[أخرجه أبو داوود] أي على ظاهره.

ومن الصور كذلك التشبّه بهم في عباداتهم: التحاكم إلى كتبهم المحرفة وإلى نُظمهم وإلى قوانينهم الوضعية، فمن تشبه بهم في مثل ذلك فأقام المحاكم الوضعية وأقر الدساتير الكفرية..

انظروا الآن إلى كل أنحاء ما يسمى العالم العربي والإسلامي، تجد أن نظام القضاء فيه فرنسي أو أمريكي والنظام العسكري روسي أو ما شابه ذلك، تجد أنهم يوافقون الكفار في مثل هذه الأمور وقد تعبدنا الله سبحانه وتعالى كمسلمين بالتحاكم إلى شرعه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة]، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[يوسف]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[المائدة]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنَ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنَ يَكْفُرُوا بِهِ﴾[النساء]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتىَّ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.[النساء]

فمن وافق الكفار في هذا الباب فقد ضادَّ وتصادمَ مع هذه النصوص الشرعيّة المحكمة، فهذه الصور تدخل تحت التشبه بهم في عباداتهم، وعلى ذلك قِس.

الاحتفال برأس السنة هذا تعبّدي لأنه عيد عندهم، الله أعلم أنهم يرون أنه ميلاد المسيح..[١]

التشبه بهم في عاداتهم هذا تشبه أصغر، يكون كفرًا أصغر أو كبيرة من كبائر الذنوب على حسب الخلاف الواقع بين أهل العلم.. كالاحتفال بعيد ميلاد الطفل، الأكل باليسار، الأعياد الأخرى، لبس الألبسة الخاصة بالكفّار التي يلبسونها على وجه العادة لا على وجه العبادة.

هنا مسألة: تكلم أهل العلم عن قضية التفشّي:

١- [الناشر]: عيد الميلاد والمعروف باسم الكريسماس هو عيد يُحتفل به في ٢٤ ديسمبر بميلاد المسيح، أما السنة الجديدة أو رأس السنة هو يوم للاحتفال بسنة ميلادية جديدة.

إذا لبس الكفار لباسًا أو تزيّوا بزي أو ظهروا على هيئة تفشّت وانتشرت بين المسلمين، هل هذا التفشي يخرج هذا المسألة عن التشبه أم لا؟ قولان لأهل العلم:

منهم من قال أن التفشي يسقط به ما يسمى بالتشبه، يعني مثلًا لبس الكرفتة أو البنطال الجينز.. أصبح منتشرًا..

هنا إذا علمنا أن هذا اللباس استحدثه الكفار ومنشؤه من عندهم فهذه التي يرد فيها الخلاف، لكن أن يكون اللباس في أصله إسلاميًا ثم انتقل إلى الكفار واندرسَ عن بلاد المسلمين فيكون أصله إسلامي، وهذا متوقف على حقيقة اللباس.

القول الآخر: يقولون لا، ما دام أن الكفار استحدثوا زيًا أو هيئة فالأصل فيه الحُرمة حتى وإن تفشى هذا اللباس بين المسلمين.. يعني بناء على هذا القول تحرم البنطلونات الجينز.

ولكن هذه دعوة لأن يستقل المسلمون بألبستهم وأن يكون لهم لباسهم.. اترك أنه متفشي، وحتى وإن لم نقل أنه تشبه، يا إخوة الذي ينظر إلى واقع البناطيل هذه أو البنطالات هذه، يجد أنها لا تخرج من حالين: إما أنها مخالفة شرعية لأنها تُجسّد العورة، وفيها كذلك تخنُّث يا أخي، الواحد الذي يمشي وهو يلبس الضيق هذا كيف يمشي..؟! حقيقة حتى ظاهر المشية ليست سويّة..

حتى يُحكى أن عمر ﷺ مر عليه رجل وكان هذا الرجل مو مضبوط، يمشي يتكسّر في المشية، فيه نص ميل، يعني يتشبه بالنساء في مشيته وهكذا.. فرآه عمر، فقال جيبوه جيبوه تعال.. فجيء به، فأخرج الدُرّة فأعطاه ضربتين موجعتين، استقامَ بعدها.

فكم هم الذين يحتاجون درة عمر! والله لو كانت درة عمر موجودة لكانت كُسِرت من كثرة ما يضرب بها.. الله المستعان الله المستعان.

فلذلك ندعو ونوصي، والحمد لله هناك ألبسة طيبة وفضفاضة وساترة وسابغة، حتى أن البعض يُلبس أبناءه وبناته ألبسة لا تليق بالمسلمين حقيقةً، وهنا دعوة للآباء وللإخوة الفضلاء أن ينزهوا أنفسهم

وأهل بيتهم عن هذه الألبسة التي ما تليق حقيقةً من ناحية المروءة فضلًا عن ناحية الشرع، فلذلك الإنسان يحذر وينتبه، وهذا أمر مشاهد.. يعني انظر الذي يلبس مثلًا هذا البنطال الضيق حقيقة يعني أمر مرير والله.. الحمد لله توجد الألبسة التي تغطي العورة المغلظة، وبعض الألبسة تجسدها تجسيدًا ظاهرًا، حتى أن أهل العلم تكلموا قالوا إذا كانت تُجسّد العورة فبعضهم أدخل هذا في مُبطلات الصلاة،

قالوا حكمه حكم الذي لم يستر عورته، بعض الألبسة تصف وصفًا دقيقًا ضيقة جدًا يعني تقاطيع الجسد عند العورة المغلّظة تجد أنها..

وهذا واجب الأئمة، أنتم أئمة المساجد تذكرونهم وتنصحونهم وتخوفونهم بالله عز وجل..

– أخ: شيخ بنطلون طيّحني هذا..

– الشيخ: هذا أدهى وأمر، يعني لا خير فيه ولا خير في من لبسه حقيقة، لأنه لا حياء ولا أخلاق يعني هذا ما يسمى بطيّحني نسأل الله السلامة والعافية يا إخوة، هذا والله الذي يلبسه لا مروءة له والله العظيم نسأل الله السلامة والعافية.. الله المستعان نسأل الله أن يرحمنا..

وما نُسيت المروءة إلا حينما غابت معالمها في أوساط الناس وتخلى أهل المروءات عنها.. الله المستعان.

هنا يقول النبي ﷺ: ((لتتبعُنَّ سنن من كان قبلكم حذو القذةّ بالقذةّ)): ذكرنا معنى القذة: هو الريش الذي يكون في مؤخرة السهم، وهذا كناية عن شدة الموافقة والمشابهة للكفار.

(حتى لو دخلوا جُحر ضبٍّ لدخلتموه): هذا كناية عن شدة المتابعة العمياء التي لا يتوقف الإنسان حتى عند معانيها، والنبي ﷺ يصف هذا الأمر وهو من علامات نبوته عليه الصلاة والسلام، حيث رأينا من أبناء الأمة من يُقلد الكفار ويتابعهم متابعةً عمياء، حتى أن بعض أبناء المسلمين يلبس ألبسة عليها صليب، وكذلك يلبس ألبسة تجد أن فيها مثلًا دعوة للنصرانية أو دعوة لليهودية أو للتخنث وما شابه ذلك.. يعني تجد أنه فَرِح ومسرور ويدخل بها المسجد ويرى أنه واكب الموضة ولبس لباسًا أنيقًا وأصبح مُلفتًا للأنظار.. يعني قمة في العمى وقمة في التنكر عن الهدي النبوي!

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

ولمسلمٍ عن ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فرَأَيْتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سَيبْلغ مُلْكُها ما زُوِيَ لِي مِنْها، وأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ الأحْمَرَ والأبْيَضَ، وإنِّي سَألتُ رَبِّي لِأُمَّتي أنْ لا يُهْلِكَها بسَنَةٍ عامَّةٍ، وأنْ لا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا مِن سِوَى أنْفُسِهِمْ، فَيَسْتبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وإنَّ رَبِّي قالَ: يا مُحَمَّدُ إنِّي إذا قضَيْتُ قضَاءً فإنَّه لا يُرَدُّ، وإنِّي أعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أنْ لا أهْلِكَهُمْ بسَنَةٍ عامَّةٍ، وأنْ لا أُسَلِطَّ عليهم عَدُوًّا مِن سِوَى أنْفُسِهِمْ، يَسْتبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، ولَوِ اجْتمَع عليهم مَن بأقْطارِها، أوْ قالَ مَن بيْنَ أقْطارِها، حتىَّ يكَونَ بعضُهُمْ يُهْلِكُ بعضًا، ويَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا).(١)

= **(حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟)**: هذا يدل على أن غالب مشابهة المسلمين تكون لأهل الكتاب، لكن لا يعني ذلك أنه لا يقع من المسلمين مشابهة لغيرهم من المشركين، فتجد أن بعضهم يشابه عبدة النار وعبدة الشيطان في بعض الممارسات وفي بعض الألبسة.

(١): **(إنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فرَأَيْتُ مَشارِقَها ومَغارِبَهَا)**: هذا لا شك أن الأمر على ظاهره وأن الزوي والطوي كان على الحقيقة، وأن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير. إن الله زوى لي الأرض (حقيقةً) وليس هنا من قبيل الكناية والمعنى المجازي.

(فرَأَيْتُ مَشارِقَهَا ومَغارِبَهَا): أي مشارق ما زوي إليه من الأرض، ومغارب ما زوي إليه من الأرض.

(وإنَّ أُمَّتي سَيبلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لِي مِنْها): هذا يدل على أن الأمّة الإسلاميّة ستتمدد، وأنها ستُفتح لها الأرض، وتكثر الفتوحات، وتكثر الانتصارات، وهنا حينما ذكر النبي ﷺ مشارق الأرض ومغاربها، هذا يدل على أن جهة تمدد المسلمين يكون شرقًا وغربًا..

(وإنَّ أُمَّتِي سَيَبْلغُ مُلْكهُا ما زُوِيَ لي مِنْها): أي أن النبي ﷺ رأى نهاية الملك ورأى ما ينتهي إليه ملك هذه الأمة، وهذا يدل على اتساع رقعة المسلمين ودولة المسلمين، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يقرّ أعيننا ببسط نفوذ الإسلام على أرضه.

(وأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ الأحْمَرَ والأبْيَضَ): المراد بالكنزين هنا: الأحمر هو الذهب، ويُشار به إلى ملك الروم، والأبيض يراد به الفضة، ويُشار به إلى ملك فارس، وقد تحقق ذلك في خلافة عمر رضي الله عنه، وإننا نسأل الله سبحانه وتعالى أن يتجدد ذلك مرةً أخرى لدولة الإسلام وما ذلك على الله بعزيز..

الذي أرانا في هذا الزمن شعائر غُيّبت عن واقع الأمة لا يُعجزه أن يُرينا أكثر من ذلك، أُخِذت الجزية من أهلها، وجُبيت الزكاة، وعُقدت الألوية، وسبي نساء المشركين، وأُقيمت الحدود، وطُبقت الشريعة، وأصبح الناس يُظهرون عقيدتهم لا يخافون في الله لومة لائم.

(وإنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أنْ لا يُهْلِكَها بسَنَةٍ بعامَّةٍ): أي بعقوبةٍ عامة، وهنا يدل على شفقة النبي ﷺ حيث أنه دعا لأمته: (وإنِّي سَألتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أنْ لا يُهْلِكَها بسَنَةٍ بعامَّةٍ) أي أن لا يهلكها بعقوبة عامة تأخذ أولها وآخرها، وتطال صغيرها وكبيرها فلا تُبقي ولا تذر.

(وأَنْ لا يُسَلِطَّ عليهم عَدُوًّا مِن سِوَى أنْفُسِهِمْ): ودعا النبي ﷺ لأمته ألا يُسبط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم.. يعني لا يأتيهم عدو من الخارج من غيرهم يعدو على أراضيهم وعلى أموالهم ونسائهم وذراريهم.

(فَيَسْتبِيحَ بَيْضَتهُمْ): أي قاعدتهم وأصلهم التي إذا زالت زال بها الكل.

(وإنَّ رَبِّي قالَ: يا مُحَمَّدُ) هنا المنادي الله سبحانه ينادي نبيه، فقال (يا محمد)، ولكن هذا الأسلوب لا يليق أن يصدر من سائر البشر إلى النبي ﷺ، وإنما من الله لنبيه فلا حرج. لكن أن يأتي رجل فيقول يا محمد..! ﴿لاَّ تَجْعلَوُا دُعَاءَ الرَّسوُلِ بَيْنكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾.[النور]

يأتي بعض الناس فيقول: (هذا حديث محمد) خير إن شاء الله؟! هذا ما يليق، ينبغي أن تتأدب! محمد ﷺ رسولنا عليه الصلاة والسلام، أما أن تتحدث وتوجه هذا الخطاب وتتحدث في سياق الإخبار عن النبي ﷺ فلا بد أن تتأدب في خطابك، وأن لا يصدر منك مثل هذا الخطاب كما يصدر منك مع سائر البشر والناس. أما من الله إلى نبيه، فالله سبحانه وتعالى يخاطب نبيه فلا حرج.

- أخ: شيخ، قول سيّدنا محمد ﷺ؟

- الشيخ: هو على العموم لما جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال: أنت سيّدنا وابن سيّدنا، فقال ﷺ: ((السيّدُ اللهُ تبارَكَ وتعالى)). فقالوا: وأفضَلُنا وأعظَمُنا طَوْلاً. قال: ((قولوا بقولِكم، أو بعضِ قولِكم، أنا محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ، عبدُ اللهِ ورسولُه)).[أخرجه أبو داوود] فإذا أُطلق هذا اللفظ من باب المغالاة ومجاوزة الحد فلا.

- أخ: ورد قوله ﷺ: (أنا سيّد ولد آدم)..

- الشيخ: (أنا سيّد ولد آدم) هو يخبر عن نفسه عليه الصلاة والسلام..

- أخ: حديث (قوموا إلى سيدكم) وعمر قال (أبو بكر سيّدنا وأعتق سيّدنا)..

- الشيخ: نعم، لكن إذا أطلقت هذه العبارة على صيغة [المبالغة في المدح] .. لذلك النبي ﷺ رد قولهم قال (قولوا بقولِكم، أو بعضِ قولِكم، أنا محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ، عبدُ اللهِ ورسولُه)، (إنما أنا بشر)، (إنما أنا عبدٌ فقولوا عبدُ اللهِ ورسولُه).. فهنا النبي ﷺ أرشدهم إلى الأولى سدًّا للذريعة.

فيقال له قل: (عبد الله ورسوله)، هذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ، والسنة أن يُنادى الإنسان بما يحب وعلى الهيئة التي يحب، فالنبي ﷺ كره هذه الهيئة، فمن كمال محبته أن تناديه بما يحب، لذلك ناداه الله تعالى بأحب الأوصاف إلى الله وبأحب الأوصاف إلى نبيه: ﴿سُبْحَٰنَ الَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[الإسراء]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَٰبَ..﴾[الكهف] وهكذا.

(وإنَّ رَبِّي قالَ: يا مُحَمَّدُ إِنِّ إذا قضَيْتُ قضَاءً فإنَّه لا يُرَدُّ): نحن مر معنا أن القضاء قضاءان قضاء كوني قدري، وقضاء ديني شرعي، هنا قال: (إذا قضَيْتُ قضَاءً فإنَّه لا يرد) فهذا قضاء كوني قدري، لأننا قلنا أن القضاء الكوني يقع، والقضاء الشرعي قد يقع وقد لا يقع مع أنه محبوب لله عز وجل.

– أخ: شيخ يتغير القضاء بالدعاء؟

– الشيخ: نعم جاء في الخبر، هو لا يتغير هو مثلًا قد يكون مقدّرًا لك في سابق علم الله عز وجل أمرين، فإن دعوت فلك كذا وإن تركت فلك كذا، وهكذا، وهذا كذلك فيه حث على الدعاء والمكاثرة منه، هذا هو المقدر لا يمكن أن يخرج ذلك عن قضاء الله وقدره وعن علمه سبحانه وتعالى، وأنت أصلًا إن دعوت فهذا من قدر الله عز وجل ومن تقدير الله.

أنت لا يمكن أن تخرج عن قدر الله وقضائه، فأنت إن دعوت إنما دعوت بقدر الله، والدعاء كما جاء قد لا يجاب لك في الدنيا وإنما يدخر لك في الآخرة، وقد تدعو وتكون قد ارتكبت مانعًا من موانع الإجابة فهنا أمور عدة ولكن كل هذه الأشياء لا يمكن أن تخرج عن قضاء الله ﴿إنّا كُلَّ شيءٍ خلقنٰهُ بِقَدَر﴾[القمر] (كُلَّ) من ألفاظ العموم، يدخل فيها كل شيء، كل حركة وسَكَنَة.

(وإنِّي أعْطَيْتكَ لِأُمَّتِكَ أنْ لا أهْلِكَهُمْ بسَنَةٍ عامَّةٍ، وأنْ لا أُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا مِن سِوَى أنْفُسِهِمْ، يَسْتبِيحُ بَيْضَتهُمْ، ولوِ اجْتمَع عليهم مَن بأَقْطارِها، أوْ قالَ مَن بيْنَ أقْطارِها، حتىّ يكَونَ بَعْضُهُمْ يهْلِكُ بعضًا، ويَسْبِي بعضُهُمْ بَعْضًا): أي أن الله سبحانه وتعالى أجاب لنبيه وحقق لنبيه ﷺ دعوته ومطلبه، إلا أن هناك استثناء: أن النبي ﷺ قال: (وأَنْ لا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا مِن سِوَى أنْفسِهِمْ، فَيَسْتبَيِحَ بَيْضَتهُمْ)، هنا جاء الاستثناء: (حتىّ يكَونَ بعضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، ويسبِي بعْضُهُمْ بعْضًا)، أي أنه إذا دبّ الخلاف ودبّت الفُرقة بين الأمة تسلط عليها عدو من سوى نفسها، وهذا ما وقع، لماذا تسلط التتار على المسلمين؟ لأنهم تفرقوا واختلفوا، وأصبحوا أحزابًا وشيعًا متناحرة، لماذا تسلط عُبَّاد الصليب والكفرة وعبدة الأوثان؟ والاستعمار؟ واستُبيح الحمى..وو إلخ؟ لأن الأمة تفرقت، لكن لما بدأت الأمة الآن تجتمع..

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

ورواه البرقاني في صحيحه وزاد: (وَإِنَّما أخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأئَمّةَ المُضِلِيّنَ، وَإِذاَ وقعَ عليهم السَّيْفُ لَمْ يُرْفعَ إلِى يوْمِ القِيَامَةِ، وَلَا تقوُمُ السَّاعَةُ حَتىَّ يلحَقَ حيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالمُشْرِكِينَ، وَحَتىَّ تَعْبُدَ فئامٌ مِنْ أُمَّتِي الأوْثَانَ، وَإنَّهُ سَيكَوُنُ فِي أُمَّتِي كَذَّابوُنَ ثلَاثوُنَ، كُلهُّمْ يزعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأنَاَ خَاتَمُ النَّبيّينَ، لَا نَبِيَّ بعدِي، وَلَا تزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقّ ظَاهِرِينَ منصورة لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفهُمْ حَتىَّ يَأتِيَ أمْرُاللهِ تبارك وتعالى).(١)

= اجتمعت ولله الحمد المنة وثقةً بالله عز وجل ما دمنا مجتمعين على الحق والهدى متمسكين بغراس هذا الدين وبغراس هذه العقيدة، فبإذن الله لن يصلوا إلى مرادهم ثقةً بنصر الله وثقةً بوعد الله، فإن الله سبحانه وتعالى بين في مُحكم كتابه أن عباده إذا انتصروا لدين الله نصرهم الله: ﴿إِنْ تنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾. [محمد]

فإذا حققت الأمة هذه الأوصاف نالت الجزاء المترتب على مثل ذلك، أما أن تعيش الأمة متناحرة يلعن بعضها بعضًا، ويقتل بعضها بعضًا، ويسبي بعضها بعضًا، فإنه في مثل هذا الواقع يتسلط الأعداء، فلذلك على الأمة أن تجتمع على هذه الراية التي رَفعت كلمة التوحيد عاليًا لأجل أن يقوى عود الأمة وتُكسَر شوكة الكفار والمشركين.

(١): **(وَإِنَّما أخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأئَمّةَ المُضِلِيّنَ)**: الأئمة هنا يُحمل على السلاطين أصحاب الولايات العامة، وقد يُحمل على العلماء، وقد يُحمل عمومًا على أصحاب الولاية العامة.

وهذا يدل على أن فساد الأئمة وضلال الأئمة هلاكٌ وضياعٌ للأمة، وكذلك ضلال العلماء، إذا نظرت إلى واقع علماء الأمة في هذا الزمان تجد أنهم انحرفوا عن الغاية الأساسية، والمقصد الأساسي الذي حُمّلوا بسببه هذه الأمانة وهذه الرسالة العظيمة، أصبح كثير من العلماء أبواقًا للطواغيت والسلاطين، أصبح علماء هذا الزمان يتاجرون بكتاب الله وبسنة رسوله، أصبح العلماء في هذا الزمان يبيعون دينهم

بِعَرَضٍ من الدنيا قليل، ومن العجائب ومن المضحكات المبكيات أن يخرج قادة الكفر ليستشهدوا في خطاباتهم بفتوى علماء السوء! هذه ما حصلت ممكن حتى في تاريخ البشرية! فالشاهد من ذلك هذا مصداق قوله عليه الصلاة والسلام..

(وَإِنَّمَا أخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئَمِّةَ المضِلِيّنَ، وَإِذاَ وقعَ عليهم الَسَّيْفُ لَمْ يُرْفعَ إِلى يوْمِ القِيَامَةِ): وهذا يدل على أن المسلمين يجب عليهم أن يربؤوا بأنفسهم عن مواضع الفتن التي تُراق فيها الدماء بغير حق.

والمراد بالفتنة: أي إذا التبس الحق بالباطل، فلم يستطع الإنسان أن يميز بين الحق والباطل، لذلك كان الصحابة يقولون عن بعض ما جاء بعدهم أننا كنا نقاتل حتى لا تكون فتنة وجاء من يُقاتل حتى تكون فتنة!

فإذا ظهر الحق وتجلى فعندئذٍ يكون هذا حق والقتال فيه حق ليس بفتنة، والخفاء الذي يلتبس به الحق بالباطل ليس المراد به أن يكون عند أبعاض الناس، بل أن يكون خفاءً عامًا يصعب على الخاصة إدراكه، لا أن يأتي آتٍ فيسمي هذا الجهاد المبارك العظيم الذي ظهر فيه الحق ولاح فتنة! فهذا لا يؤبه به، ولا يُعتد به.

(وَلَا تقَوُمُ الَسَّاعَةُ حَتىَّ يَلْحَقَ حيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ): هذا يدل على أن الشرك سيكثر وسيقع في هذه الأمة ولا حول ولا قوة إلا بالله.. وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنا إليكَ غير خزايا ولا مفتونين يا رب العالمين.

(وَحَتىَّ تَعْبُدَ فئامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ): وهذا وَقعَ، هنا انظر التعبير: (أوثان)، وهذا يتجلى في دُعاة الديمقراطية ودعاة العلمانية والليبرالية والدولة المدنية وما شابه ذلك من هذه الدعاوى المنحطة المنحلة التي لا تمت إلى الإسلام ولا تمت إلى المسلمين بصلة.

(وَإِنَّهُ سَيكَوُنُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثلَاثوُنَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأنَا خَاتمُ النّبِيّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي): هنا أخبر النبي ﷺ أنه سيكون في أمته كذابون ثلاثون، لماذا هنا جاء الحصر بثلاثين، مع أن مُدّعي النبوة

أكثر من هذا العدد؟ لأن هؤلاء يكون لهم أتباع، ويكون لدعوتهم أثر والناس يُفتنون بهم، وتوجد لهم فئة كبيرة من الناس تصدق قولهم وتعمل بما يقولون، وهكذا.. تَعْظُمُ فيهم الفتنة، فوصفهم النبي ﷺ بالكذب.. وهذا يتنافى مع النبوة، لذلك مر معنا لماذا يُوصف النبي ﷺ دائمًا بعبد الله ورسوله؟ لأنه عبد فلا يُعبد ورسولٌ فلا يُكذّب، لأنك تعلم أنه يُبلّغ عن الله.

إذن المراد هنا بالعدد أي أن هناك فئة من الناس تدعي النبوة وهم كُثُر، ولكن سيكون منهم ثلاثون يكون لهم أثر وشوكة وأتباع يُفتن الناس بهم.

(**كُلهُّمْ يزعُمُ أنَّهُ نَبِيٌّ**): يدّعي دعوة باطلة كذبًا وزورًا وبهتانًا.

(**وَأنَا خَاتمُ النّبِيّينَ**): أي ختم الله سبحانه وتعالى به أنبياءه ورسله.

(**وَلَا تزَالُ طَائفِةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحقِّ ظَاهِرِينَ منصورة لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفهُمْ حَتىَّ يَأتِي أَمْرُ الله تبارك وتعالى**): يحكي النبي ﷺ أنه سيُبقي الله سبحانه وتعالى فئةً من الناس ظاهرةً ومُظهرةً للحق وهي منصورة مؤيَّدة مسدَّدة، هي منصورةٌ وإن قلَّ عددها، هي منصورةٌ وإن قلت عُدّتها، هي منصورةٌ وإن تخاذل الجميع عن نصرتها، منصورةٌ بإذن الله وبوعد رسول الله ﷺ.. هذه الطائفة أخبر بنصرتها رب العالمين ورسوله الأمين.. لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وهنا مسألة: النصر نصران، والهزيمة هزيمتان: نصر حقيقي ونصر معنوي، وهزيمة حقيقية وهزيمة معنوية.

النصر الحقيقي: المراد به النجاح الميداني، أن تحقق مكاسب ميدانية.

النصر المعنوي: أنك حتى وإن كانت الغلبة لعدوك فما تزداد بذلك إلا ثباتًا على عقيدتك، وثباتًا على نهجك ومنهجك، القتل في سبيل الله انتصار، قدّر الله الفناء على أمة كاملة (أصحاب الأخدود)، ثم قال الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾.[البروج]

فهذا يدل على أن النصر نصران، نصر حقيقي ونصر معنوي، والابتلاء في النصر الحقيقي أعظم من الابتلاء في النصر المعنوي ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء] فقد تكون فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء، فحينما لا يتحقق للمسلمين الغلبة في ميدان القتال فيثبُت المسلمين على عقيدتهم وعلى منهجهم هذا انتصار.. أن يصبر المسلمون على مصابهم هذا انتصار.. أن يعلم المسلمون أن الله ما ابتلاهم إلا ليرفع درجاتهم ويُكفّر عنهم سيئاتهم هذا انتصار..

وكذلك الإخفاق أو الهزيمة هزيمتان:

هزيمة حقيقية: وهي التي تكون في ميدان القتال.

وهزيمة معنوية: وهي التي تكون داخلية.

فقد يكون هناك انتصار حقيقي وهزيمة معنوية، وقد يكون هناك هزيمة حقيقية وانتصار معنوي.. ويقع، قد تتحقق الفتوحات ولكن نكون مهزومين، قد نعزو هذا الانتصار لآلات ومعدات أو خبرة وما شابه ذلك، فهذه هزيمة..

لذلك سلمة بن سلامة ماذا قال يوم حنين؟ لن نُغلب اليوم من قلة، ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.[التوبة]

(وَلَا تزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقّ ظَاهِرِينَ منصورة لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تبارك وتعالى): يعني نفهم من ذلك أن الطائفة المنصورة يلحقها الضرر، والضرر لا يضرّها، والضرر إما أن يكون حسيًا أو معنويًا، فنفى الله عنهم كِلا الضررين (لا يَضُرُّهُمْ)، لأنه في بعض الأحيان إذا كثُر الخذلان قد يتزعزع الإنسان، لكن أهل الطائفة المنصورة لا يتزعزعون حتى وإن عَظُمَ الخذلان، فإذا رأيت أنك تتزعزع من كثرة الخذلان فانتبه! فقد ينتفي عنك وصف الطائفة، وإذا رأيت أن الله ما يزيدك إلا صبرًا وثباتًا مع كثرة الإرجاف والتخذيل ؛ فاعلم أن الله أراد بك خيرًا.

إذن فنفهم من ذلك أن هناك طائفة من هذه الأمة قائمة بالحق، مُظهرة له، وقد يكونون أفرادًا وقد يكونون آحادًا في زمن من الأزمنة، وقد يجمعهم الله سبحانه وتعالى فيكونون كَثرة.. وهكذا، وقد مر معنا أن الحق لا يستدل له بالكثرة ولا بالقلة وإنما يستدل له بموافقة النص وموافقة الهدى، فمن وافق الحق والهدى فهو المحِقّ وهو على الحق حتى وإن كان وحده، ومن خالف الهدى والحق وصراط الله المستقيم فهو على الباطل وإن كان من أكثر الناس.

كذلك من أوصافهم أنهم يقاتلون وأنهم ينافحون عن دين الله عز وجل بالسنان، وكذلك يبذلون في سبيل نصرة دين الله النفس والنفيس والغالي.

– أخ: الإنسان الذي ما بيتوقع أنه لسّى في طائفة منصورة هل عليه خوف على دينه؟

– الشيخ: النبي ﷺ يقول (ولا تزال) وهنا عبّر بصيغة المضارع الذي يدل على الاستمرار والديمومة (حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى)، فهذا عليه أن يراجع هذه الاحاديث وهي ثابتة عنه عليه الصلاة والسلام، فالذي يشكك فيما ثبت عن النبي ﷺ فهذا ينتفي عنه أصل الدين.

– أخ: كلٌ يدعي نحن الطائفة المنصورة..

– الشيخ: ليست العبرة بالدعوى –ونحن ذكرنا قبل قليل– العبرة بموافقة الحق..

كلٌّ يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقرُّ لهم بذاكا

الكل يقول أنا لها أنا لها.. ولكن العبرة بالحقائق، ليست العبرة بالألفاظ والمباني، بل بالحقائق والمعاني.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الثاني والعشرون

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: باب ما جاء في السحر.[١]

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

نستأنف وإياكم معاشرة الأحبة مدارسة كتاب التوحيد..

(١): السحر في اللغة: هو ما خفي ولَطُف سببه. ومن ذلك سمي آخر الليل سَحَرًا لاختفاء أفعال الناس فيه. هذا هو معنى السحر من الناحية اللغوية.

وأما من الناحية الاصطلاحية: فهو عبارة عن رُقى وعزائم وعُقد وأدوية وعقاقير وأبخرة تؤثر على الأبدان والقلوب فتُمرض وتقتل وتُفرّق بين المرء وزوجه بإذن الله عز وجل.

وأورد المصنف –رحمه الله تعالى– هذا الباب في ثنايا هذه السلسلة المباركة من التبويبات ليُبين في هذا الكتاب بهذا الباب حكم السحر.

وسيُردف المصنف –رحمه الله تعالى– تحت هذا التبويب نصوصًا شرعية تدل على أن السحر كفر بالله عز وجل، وأن فاعله مستحق للقتل، كما سيمر معنا في ثنايا مدارستنا لنصوص هذا الباب.

تكلم أهل العلم على حكم السحر، فذهب جماهير العلماء أبو حنيفة، ومالك، وأحمد في رواية، إلى أن السحر بكل صوره وأشكاله كفر بالله.

وخالف في ذلك الشافعي وأحمد في رواية، فقالوا أن من السحر ما يكون كفرًا، ومنه ما لا يكون كفرًا، فإذا ثبت اقتراف شخص من الأشخاص للسحر فإنهم يقولون نستفصل منه، فإن وصف لنا ما يوجب الكفر حكمنا عليه به، وإن وصف لنا خلاف ذلك عُدّ فعله جرمًا من الجرائم ولكنه لا يحكم له بالكفر. ولذلك وقع الخلاف بين أهل العلم هل يُقتل الساحر حدًا أو ردةً.

وبناءً على هذا الخلاف نقول -والله تعالى أعلى وأعلم بالصواب- أن الناظر والمتأمل في نصوص الشرع الواردة في حكم السحر مطلقة لم تفرق بين نوع وغيره، فهذا الإطلاق تخصيصه يفتقر إلى دليل، ونصوص الشرع إذا جاءت مطلقة فإنها تبقى على إطلاقها، ولا ينتقل عن هذا الإطلاق إلا بمخصص شرعي، وهذا ما استظهره الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى-.

فالإمام محمد -رحمه الله -حتى في رسالته الطيبة المباركة (نواقض الإسلام) جعل السحر ناقضًا من نواقض الإسلام ولم يُفصّل في ذلك، وهذا يدل على أنه يميل إلى قول جمهور العلماء، وهذا الذي يظهر أنه أقرب للصواب أن السحر بكل أشكاله وأنواعه كفر وردة عن الإسلام.

لذلك جاء الإطلاق في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾.[البقرة]

ولقول الإمام الشافعي -رحمه الله- وجاهة، ولكن نحن نحتاج إلى مُخصِّص، -وعلى جلالة قدر الإمام الشافعي رحمه الله وتعالى- إلا أنه لا يمكن أن يُخصَّص النص الشرعي أو يُقيّد النص الشرعي بمخالفة عالم، وهذا ما مال إليه الإمام محمد -رحمه الله-.

والشافعي -رحمه الله-، وأحمد في رواية وافقوا رأي الجمهور بأن السحر إذا كان فيه تقرب إلى الشياطين بالذبح أو بالاستغاثة أو ما شابه ذلك فهو كفر وردة قولًا واحدًا.

وأما إذا كان هذا السحر ليس فيه في الظاهر تقرب للشياطين واستغاثة بهم فالذي عليه الجمهور أنه كفر، إلا الشافعي وأحمد في رواية على أنه ليس بكفر ولكنه من جملة المحرمات.

وهنا الحديث عن هذا القول وأنه ليس بكفر هذا ليس حديثًا عن حكم القتل، فالساحر يُقتل سواءً قلنا أنه اقترف ما يوجب الكفر أو لم يقترف.

والذي يظهر بناءً على الترجيح الذي رجحناه أنه يُقتل ردةً، وبناءً على ذلك لا يُستتاب لأن ردته مغلظة، والساحر ديدنه الكذب والخداع.

وقد فصّل أهل العلم في ثنايا حديثهم عن أحكام السحر وفاعليه، وتحدثوا عن مسائل عدة منها مثلًا:

أن السحر باعتبار الموضع والمكان، يكون على القلوب والأبدان ويكون كذلك على الأعين والأذهان، فإذا كان على القلب أثر على قلب صاحبه حبًا وبغضًا وهذا ما يُسمى بسحر الصرف والعطف، وهذا السحر ليس فقط يقتصر على القلب بل قد يكون لهذا السحر أثر، فمثلًا إذا دخل الزوج إلى زوجته أصبح يشم رائحة كريهة لا يمكن أن يطيقها -تخرج من المرأة عن طريق الجان-، فقد يكون لها أثر من قبيل الجن الذي يعمل في خدمة الساحر لإنجاح هذا العمل، أو مثلًا يراها على صورة قبيحة، فتجد أن الجان يأتي على عينيه فيُخرج الزوجة بصورة قبيحة مستنكرة، وما شابه ذلك من صور الصرف. وكذلك العطف تجد أن المرأة قبيحة ولكن يجمّلها وهكذا.

وكل هذا الشيء لا يحصل إلا بإذن الله ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.[البقرة]

وكذلك يكون على الأبدان فيُمرض ويضعف، وقد ترون بعض الاشخاص تطرأ عليهم أمراض يعجز الأطباء عن معرفتها فتجد أنها في الغالب تكون على أثر عمل سحري، فالعلاج هنا هو العلاج القرآني الرباني كما سيأتي معنا في باب مستقل.

وقد يكون السحر سببًا للقتل وقد حصل، وقد شهدتُ على ذلك مواقف متعددة سُحِر فيها رجال ونساء حتى اشتد أثر السحر عليهم فكان -بأمر الله- سببًا لوفاتهم.

إذن فمن السحر ما يقع على الأبدان فيُمرض ويقتل، وما يحصل ذلك إلا بأمر الله عز وجل، وقد يكون كذلك من السحر ما يقع على الأذهان أو على العين فيتخيل المسحور أمورًا لا حقيقة لها.. وهذه من أعراض السحر أحيانًا.

كذلك إن كان السحر على الأذهان فقد يؤثر على آلة الذَّكر، وهذا يحصل.. يُحجَب الرجل عن زوجته، وهذه من أنواع السحر التي انتشرت في أواسط الناس ولا حول ولا قوة إلا بالله، والدافع في ذلك البغض والحسد وتمني زوال النعم عن الآخرين، والعلاج هو اللجوء إلى الله عز وجل بالقرآن والأذكار الشرعية.

- أخ: **ما حكم الطلاق تحت تأثير السحر؟**

- الشيخ: هذا يتوقف على معرفة حال الشخص، فإذا علمنا أن أقواله تصدر بغير اختياره فلا شك أن قوله هذا لا يقع وأنه في حكم المغلوب على أمره، كما أن المجنون لا يؤاخَذ على أقواله والمكره كذلك الإكراه الملجئ، فهذا لا شك أنه خارج عن إرادته، لأن الملبوس غالبًا قد يُجري الجان على لسانه كلامًا لم يتلفظ به هو. والذي عايشَ هذا الواقع يُدرك ذلك إدراكًا حقيقيًا.

إذن هذا من حيث المحل.

ومن حيث الحقيقة، فالسحر يُقسم إلى قسمين: سحرٌ حقيقي وسحر تخييلي.

وهذه المسألة أدخلها أهل العلم في مسائل الاعتقاد، حيث أن أهل السنة يُثبتون السحر بنوعيه الحقيقي والتخييلي وخالف في ذلك المعتزلة، فأثبتوا أن السحر يكون تخييليًّا فحسب وأنه لا حقيقة له.

ولا شك أن إثباتهم هذا هو إثبات لنوعٍ من أنواع السحر، وهذا ما حصل مع سحرة فرعون ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.[طه]

والسحرة بتعاملهم مع الجان قد يسحرون أعين الناس ويؤثرون على الرؤية الطبيعية المجردة، فتنقلب الحقائق وتكون الصورة الظاهرة الأولية هي للخيال، فلذلك حينما ألقوا الحبال والعصي خُيِّلَ إليهم وإلا هي في حقيقتها تبقى عصا وذلك يبقى حبل، حتى أن نبي الله موسى أوجس في نفسه خيفة لقوة التخييل الذي وقع، ولكن ما وقع ذلك إلا بأمر الله.

وهنا الخوف الذي طرأ على نبي الله موسى خوف طبيعي فطري جِبلّي، لا يؤاخذ عليه الإنسان، وهذا يدل على بشرية الأنبياء عليهم السلام، وأنهم بشر يطرأ عليهم ما يطرأ على سائر البشر.

إذن فأهل السنة يثبتون السحر بنوعيه الحقيقي والتخييلي.

هناك مسألة أخرى يُردفها أهل العلم تحت مسائل السحر.. علمنا حكم الساحر،

ما حكم الذي يذهب إلى الساحر؟

وهذه مسألة من الأهمية بمكان، فإن الذي يذهب إلى السحرة ويعتقد أنهم يعلمون الغيب فهذا كفر أكبر مستقل، فحتى وإن لم يذهب إليهم فإنه يكفر.. تحقق هذا الاعتقاد فيه أن هناك من يعلم الغيب مع الله أو من دون الله فهذا كفر مستقل سواءً ذهب أم لم يذهب، ذهابه مع هذا الاعتقاد زيادة في الكفر ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[النمل]، فهذا العلم استقل به الله سبحانه وتعالى.

وقد تكلمنا عن الغيب المطلق والغيب النسبي.. الغيب المطلق: لا ينازع الله فيه أحد، هو علم يستقل به الله سبحانه وتعالى، لا يعرفه مَلَكٌ مقرب ولا نبي مرسل.. وأوردنا إيرادًا قلنا أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما في الأرحام، وأن ما توصل إليه الطب الحديث من خلال أجهزة تصوير نوع الجنين فهو لا يمكن إلا بعد نفخ الروح، ويكون هذا بعد أربعة أشهر، ويكون مبناه على ظنون وما أكثر ما تخطئ.. فبعض الناس يُصور ويُقال له بنت فيشتري ملابس بنّاتية، ثم لما وضعت المرأة تفاجأ أنه ولد.. والعكس.

فحتى وإن سلمنا جدلًا أن العلم الحديث استطاع، فهل نقول أن هذا من ادعاء علم الغيب المطلق؟ لا فهو قد خرج من كونه مطلقًا، لأن الله أمر الملَك فعلمَ الملَك ثم حصل النفخ.. فانتقل من علم الغيب المطلق إلى علم الغيب النسبي.. وقد يُتصوّر أنه إذا كان غيب نسبي فقد يطلع عليه البعض وقد يخفى على البعض..

لكن تصوير الجنين من حيث الجواز فهو على الأصل، لا يُقدّم ولا يؤخر.. ما دام أنه خارج عن علم الغيب المطلق، فلا حرج.. مثل أن تقول لشخص اذهب وانظر إلى ما خلف الجدار..

- أخ حتى علم المجرات..

- الشيخ: نعم نعم.. وما أكثر أخطاء هذه العلوم..

إذن إذا ذهب الإنسان إلى الساحر وهو يعتقد أنه يعلم شيئًا من الغيب فهذا كفر مستقل، وإذا ذهب إليه فهو زيادة في الكفر، لأننا قلنا أن هذا الاعتقاد أصلًا كفر مستقل ذهبَ إليه أو لم يذهب.

من ذهب إلى الساحر فصدّقه كفر بالله (من أتى كاهنًا أو عرّافًا فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد)، وهذا سيأتي معنا في باب مستقل..

فنحن قلنا من ذهب إلى الساحر فصدقه، **ماهي صور التصديق؟**

- استجابة الآتي لقول الساحر صورة من صور التصديق.

- كذلك طمأنينة القلب لقول الساحر، هذه صورة من صور التصديق.

- كذلك الاعتبار المطلق بقول الساحر: بأن يعتبر قوله قولًا لا صواب بعده، هذه من صور التصديق.

– الصورة الثالثة أن يذهب إلى الساحر للفُرجة.. فضولي.. نحن نسميه ملقوف.. بس شريطة أن يعلم أنه ساحر فهذا لا شك أن فعله محرم.

أما قضية لا يُقبل له صلاة فهذا إذا سأله، إذا وقع السؤال من فضولي نعم دخل في ذلك، أما إذا لم يقع السؤال وجاء فقط للفرجة فهذا فعله محرم.

– الصورة الرابعة: أن يذهب للتحري.. حِسبة وعندنا شك، شككنا في رجل أنه ساحر وهذه تهمة موجبة للقتل (حد الردة) لكن ما نستطيع أن نجازف، لكن تواترت عندنا الأخبار أن هناك ممارسات تصدر من هذا الرجل.. وشرّهم خطير لا بد من القضاء عليه وهتك أستارهم وكشف خباياهم.. فقلنا لا بد أن نُرسل شخصًا يفعل نفسه مثلًا مريض أو مجنون أو به مس أو ما شابه ذلك، فهذا سيقع منه أسئلة كثيرة وتصرفات ودخول إلى الساحر.. فما رأيكم أنتم؟ هو ذهب للتحري.. أصلًا هذا المتحري يحتاج دروة شرعية قبل ما يذهب علشان نضبطه صحيح :)

أو أننا نأتي بالساحر ونأخذه من رأسه وننهي القضية؟ طيب إذا أخذناه وأنكر وتواترت الأخبار عنه مرة أخرى..؟

نحن نحتاج فقط أن يثبت عندنا أنه ساحر، فمثلًا إذا ثبت من زيارة واحدة، خلاص ما نحتاج.. إذا ثبت بإرسال واحد، ما يحتاج أن نرسل أكثر.. إذا ثبت بسؤال واحد.. طيّب سألناه سؤال وما تبيّن شيء.. يجوز الثاني، الثاني ما ظهر شيء.. ثالث.. لا حرج، لكن متى ما ثبت عندنا خلاص أوقفنا التعامل، عند ذلك يأتي الأمر بإلقاء القبض عليه ثم بعد ذلك إنفاذ حكم الشرع عليه.

خرج في الآونة الأخيرة ما يُسمى بقنوات السحر، قنوات تستقبل الأسئلة وتجد أن المتصلين للأسف الشديد ٩٩,٩٪ من المسلمين –الذين لهم الإسلام الحكمي والله العالم ، لأنه لو كان هناك إسلام حقيقي لما وُجِد هذا الاتصال.. وهذه بإحصائية أن قنوات السحر التي يتصدر السحرة لاستقبال الأسئلة فيها أكثر المتصلين من البلدان الإسلامية.. للأسف الشديد.. عشان تعرف ما شاء الله مقدار العقيدة التي وصلت إليها الأمة! وأكثرهم من النساء..

فهذا الاتصال هل يُنزَّل منزلة الذهاب أم لا؟

نقول أن الذهاب إلى السحرة ينقسم إلى قسمين: ذهاب حقيقي وذهاب حكمي، أو إتيان حقيقي وإتيان حكمي.

فمن صور الإتيان الحكمي: الاتصال معهم عن طريق هذه الوسائل الحديثة.. مثلًا واحد عندنا الجديد هذا اسمه واتساب.. ساحر مشخِّص.. معاه إنترنت ومن هالفلوس الي يجمعها بالحرام.. معه جوال كبير ولّا لابتوب ويستقبل الاتصالات الهاتفية أو الرسائل.. فكل من فعل مثل ذلك تجري عليه نفس الأحكام التي ذكرناها.. حتى لو أراد شخص أن يتحرى بهذه الطريقة مثلًا، والتحري حقيقة عن طريق هذه الوسائل ليس كالتحري حقيقةً ومعاينةً لأنه يحتمل أن يُنكر هذ الشيء يقول لست أنا الذي أجبت.. لكن لما يُرى بالعين بالمجردة [هذا يختلف]..

وهناك مسألة في الذهاب إليه:

الذهاب إلى الساحر للتحرّي ما يكفي فيه واحد، لا بد من اثنين لأجل أن تتم الشهادة، أن نُرسل عدلان إليه من أجل أن يثبتا ذلك عليه بالبينة العادلة التي لا تُرد في مجلس القضاء.

والكاميرا في الحقيقة ليست بيّنة، وإنما تجعل قرينة قوية.. يعني أضربُ لك مثالًا: لو أن إنسانًا –أكرمكم الله وأجلّ السامعين وملائكته الكرام الحافظين– لو أن إنسانًا نصب كاميرا لزانٍ وظهرت في هذه الكاميرا حقيقة الزنا الكامل تغييب الميل في المكحل ووإلخ.. وشاهد هذا المقطع الفيديو أربعة عدول هل يثبت بمثل ذلك حد الزنا؟ لا يثبت، لأن هذه الالآت ما دام أن التلاعب فيها ممكن فلا تبنى عليها أحكام، ولكن تُجعل قرائن، وقد يُقضى في بعض الأحيان بالقرينة إذا قويت، ويقال أنه في العلم الحديث أنهم يستطيعون أن يختبروا صحة هذا التصوير، هل طرأ عليه تعديل أو لا، لكن نجد أن الشرع ربط ذلك بأمور مُحكَمة، عدلان يشهدان، الكاميرا آلة.. فتكون شهادة هذا قوية وتكون الكاميرا قرينة على ذلك، تقوّي وتُرجّح كفة ثبوت مثل هذا الشيء، إذن فالكاميرا هي قرينة، ما رددناها جملةً وتفصيلًا، لكن أن نجعلها بيّنة تقوم مقام البيّنة، نقول لا.

ونحن قلنا أن الصحيح من أقوال أهل العلم قد يقضي القاضي بالقرائن، كما مال إلى ذلك ابن القيم رحمه الله في (الطرق الحكميّة)..

يعني مثلًا تذكرون قصة ذلك الرجل الذي خرج في الليل فوجد امرأة تصرخ وتصيح أدركوا فلان أدركوا فلان.. إيش العلم؟ ماذا حصل؟ قالت هجم عليّ وأنا نائمة وكذا وكذا.. (زنى بها).. فهذا الأول الذي جاء لإغاثتها، سمع صراخها فجاء لنجدتها، ثم أخذ يجري خلف الجاني، فكان هو أول من جاء إلى هذه المرأة، فمن شدّة الصوت والصراخ خرج على إثر ذلك الصوت أهل الحي والمدينة، أصبح الذين خرجوا كثر، فجاؤوا إليها فقالت: حصل كذا وكذا وأدركوا فلان، هي نسيت الأول وكان الوقت ظلامًا يعني ما تستطيع حتى المرأة أن تُفرّق.. فما شاء الله كل واحد عضّ ثوبه مثل ما يُقال، رفع ثوبه جرْي.. فكان أول موجود المسكين هذا الرجل، فمسكوه فكان يجري واضح أنه هارب فمسكوه، فجيء به إلى المرأة فقالت نعم هذا هو، هي ما رأت أصلًا.. الجو ظلام، قال يا أمة الله جئت لنجدتك، وهكذا.. فقالت أبدًا كذاب، هذا هو..

والنبي ﷺ في مثل هذا الحال أمر بالحد، والنبي ﷺ قضى بقرينة قوية، تقول هرب من هنا ثم بعد ذلك جيء بهذا الرجل وهو يركض، فسبحان الله لما تهيّأ الناس لإقامة هذا الحد جاء الأول وأقر واعترف على نفسه، وعد ذلك النبي ﷺ توبة صادقة من ذلك الرجل وكانت قبل القدرة عليه، جاء تائبًا قبل القدرة عليه، والتوبة قبل القدرة تُسقط الحد.

- أخ: حتى الزاني؟

- الشيخ: نعم حتى الزاني قبل القدرة عليه.

- أخ: وعندما أتت المخزومية للنبي ﷺ..

- الشيخ: المرأة المخزومية حينما جاءت جاءت تائبة، ولذلك أهل العلم قالوا إذا جاء الذي ارتكب حدًا تائبًا إلى الإمام فهو مخيّر بين أن يختار الستر، وبين أن يُقيم الحد عليه.

فالغامدية وماعز اختارا إقامة الحد، فهنا لهم الاختيار، لكن من يُلقى القبض عليه ليس له اختيار، له أن يُدعى إلى التوبة ويتوب والتوبة بينه وبين الله.

إذن هذه قرينة والنبي ﷺ أعملَ القرينة في مثل هذا الحال، فقضية التصوير قد يستأنس بها القاضي، قد يجعلها من قبيل القرائن وقد تقوى تارة، وتضعف تارة، وهكذا.. لكن إذا قويت القرائن وأصبح الأمر متواترًا فلا شك أن له تأثيره.

– أخ: إن كان الساحر لا يستقبل إلا النساء، فهل يجوز إرسال النساء للساحر من أجل إثبات الدلائل عليه؟

– الشيخ: هذا متوقف على الحال، متوقف على هذه الطبيعة، لأنه في مفاسد كبيرة من إرسال النساء، لكن هذا متوقف على الواقع والحال، إذا نظرنا أن إرسال المرأة في هذه الحال فيه مفسدة ولكن مفسدة بقاء الساحر يهتك أعراض الناس ويبث الشر والكفر بين الناس لا شك أن هذه مفسدة أعظم.

– أخ: الأبراج شيخي؟

– الشيخ هذا من الكهانة يأتي معنا إن شاء الله..

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.(١) [البقرة]

---

(١): أي لقد علم اليهود لمن رضي السحر وارتضاه وأقره ورضي به، ما له في الآخرة من خلاق؛ أي ليس له خلاق في الآخرة، ليس له شيء وليس له نصيب، وهذه تدل على أن الساحر لا يفلح حيث أتى، وأن الساحر لا فلاح له لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل له الشقاء إن لم يتدارك نفسه.

ونُردِف كذلك مسألة ذكرها أهل العلم، وهي قضية:

أنه لو تاب الساحر قبل القدرة عليه هل يدخل ذلك في عموم قول الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾.[المائدة]؟

منهم من جعل ذلك خاصًا بحد الحرابة، ومنهم من عمم ذلك على كل الحدود وهذا الذي يظهر والله تعالى أعلى وأعلم، ولكن يُنظر في حال هذا التائب فإن ظهرت عليه قرائن الصدق صدق التوبة فلا سبيل لنا عليه، لأن تعرفون أن السحرة لهم طرق ملتوية وخطيرة وخبيثة.

لذلك أهل العلم قالوا لا يُستتاب الساحر وإنما يُقتل بعد ثبوت السحر عليه مباشرةً وبينّا أن المرجّح أنه يُقتل ردةً.

ما الفرق بين قولنا يُقتل ردةً أو حدًّا؟

إذا قُتل ردةً لا تجري عليه أحكام المسلمين، أما إذا قُتل حدًّا تجري عليه أحكام المسلمين، ويثبت التوارث بينه وبين قرابته الذين يرثونه، وأما إذا قلنا أنه يُقتل ردةً فإنه لا توارث بينه وبين قرابته على الصحيح من أقوال أهل العلم، لأن هناك من قال بخلاف ذلك: قال أنه يقع التوارث بينه وبين قرابته

المسلمين، كما قال في مثل ذلك الحنفية.. ولكن خالف أبو حنيفة في المال الذي يكون في دار الحرب خالف صاحباه أبو يوسف ومحمد بن الحسن، وهذا القول سبحان الله سُئِلت في مرة من المرات عن رجل يعيش في روسيا، يقول النظام هناك يورِّثون.. يتركون المواريث بين المسلمين، يقول فلو كان الأبناء على الإسلام وكان الأب على الردة فبناءً على قول جماهير العلماء مالك والشافعي وأحمد في رواية -وهي مشهورة- أن ماله يصير فيئًا لبيت مال المسلمين، فهنا كيف نتعاطى مع هذا المال؟ لا يوجد بيت مال ثم بعد ذلك هل تُحال هذه الأموال إلى هذه الدولة الكافرة؟ فإن قُسّمت قسّمنا مال مرتد على المسلمين وإن لم تُقسم أين يُذهَب بها؟ فقد يُصار إلى مثل هذا القول أحيانًا، ولكن تُقسم بينهم على أنها فيء، فلا يُشترط فيها ما يُشترط في المواريث، هذا الذي يظهر -والله تعالى أعلى وأعلم بالصواب-.

وإن كانت المسألة من النوازل التي تفتقر إلى مزيد بحث، ولكن بُحِثتْ هذه المسألة بحثًا متوسطًا فتوصّلنا إلى ذلك -والله تعالى أعلى وأعلم بالصواب-، لأننا لو قلنا الآن أنها تُقسم بين ورثته ماذا نفعل بحديث أسامة ((لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم))؟ في ذلك معارضة للنص، -والصحيح والله تعالى أعلى وأعلم- أن المراد به من كان على خلاف الدين، يدخل في ذلك الكافر الأصلي والمرتد، حيث لا شك أن دين المرتد يختلف عن دين المسلم، فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يزيدنا بصيرة وإياكم في الدين.

فإذن الحل الوحيد أننا نحكم على المال بأنه فيء، فإذا تعذر علينا وجود بيت المال فإنه هنا يصرف على القرابة وعلى غيره من المسلمين على أنه فيء، ثم بعد ذلك حتى في دولة الإسلام وفي دار الإسلام لو كان هناك مرتد وله مال وكان أهله حديثي عهدٍ باستقامة أو هداية، ورأى الإمام أن ماله هذا يصير فيئًا، فلا حرج إذا رأى الإمام المصلحة في صرف هذا المال على ورثته ولكن يصرفه على أنه فيء تأليفًا وتطييبًا، لا على أنه تركة تُقسم بينهم على الأنصبة.. (الربع مثلًا إذا كانت الزوجة موجودة ولا فرع واث له، أو مثلًا الثمن مع وجود الفرع الوارث..) لا تُقسم على هذا النحو، وإنما يعطون بحسب ما يراه ولي الأمر يحقق المصلحة، وأن تُصرف لهم على أنها فيء وتطييبًا للخاطر وإن شاء صرف الإمام كل المال عليهم أو صرف جزءًا منه بحسب ما تقتضيه المصلحة.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾.(١) [النساء]

قال عمر: الجبت السحر، والطاغوت الشيطان.

وقال جابر: الطواغيت كُهّان كان ينزل عيلهم الشيطان، في كل حي واحد.(٢)

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هنّ يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّمَ الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المغافلات المؤمنات).(٣) أخرجاه

---

(١): مر معنا الحديث عن الجبت، ولا شك أنه نص عام، وورد عن السلف والصحابة عدة تفاسير للجبت، وأعم ما ذُكر: أنه كل شيء مستخبث مستقذر لاخير فيه. ومنهم من قال أنه السحر ومنهم من قال أنه الساحر، ومنهم من قال أنه الكاهن والشيطان وهكذا..

(٢): هذه التفاسير التي وردت عن صحابة رسول الله ﷺ في معنى الجبت والطاغوت، وبينّا معنى الطاغوت في الدرس الماضي أنه مأخوذ من الطغيان وهو المجاوزة، وقلنا أنه كل ما تُجوّز به الحد من متبوع أو معبود أو مطاع.

(٣): الموبقات المراد بها المهلكات، والهلاك في هذا السياق النبوي قسّمه أهل العلم باعتبار هذه المنكرات إلى قسمين، هلاك أكبر وهلاك أصغر، فالهلاك الأكبر يزول به أصل الدين. والهلاك الأصغر يزول به كمال الإيمان. وهذا بحسب نوع الموبق أو نوع الجرم الذي وقع فيه المسلم.

(قالوا: وما هن يا رسول الله، قال: الشرك بالله): الشرك موبق أكبر، إذن الهلاك في الشرك هلاك أكبر يزول به أصل الدين.

(والسحر): موبق أكبر أو مهلك إهلاك أكبر. هذا على المرجح وهذا هو رأي الجماهير، أن السحر بكل صوره وأشكاله مهلك إهلاكًا أكبر.

(وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق): أصغر ما لم يستحل، فإذا كان مستحلًا للقتل فهلاكه أكبر لأنه استحل مُحرّمًا مجمع عليه، معلوم من الدين بالضرورة، وهذا أصل من الأصول الشرعية، وإذا كان القتل ليس عن استحلال واستباحة وإنما عن جرم وتجني، يعلم أن القتل حرام لكن حمله الهوى ودفعته أطماع نفسه للقتل بغرض الجناية، فهذا مهلك هلاكًا أصغر.

هنا جاء في لفظ الحديث (إلا بالحق) ما هي صور الحق في قتل النفس؟ الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة..

يعني لو جئنا الآن برجل قتل نفسًا عمدًا وعدوانًا فهذا يعد شرعًا قتل عمد فيه القصاص إن طالب بذلك أولياء الدم، فإذا طالب أولياء الدم بالقصاص فجاء تنفيذ الحكم، فهذا قتل للنفس ولكن بحق، فلذلك خارج هذا من عموم اللفظ.

(وأكل الربا): الربا بنوعيه: ربا الفضل وربا النسيئة. أكله حرام.

وعِلل الربا ثلاث: الثمنيّة -المراد بها الأثمان-، والكيل والطعم -على الصحيح-، والوزن والطعم -على الصحيح-.

فمثلًا أنت تريد أن تبيع ليرة بليرة، العلة هنا الثمنيّة (أثمان.. دراهم)، هذا يسمى صرف لكنه مُندرج تحت الثمنية، ليرة بليرة يُشترط: التماثل والتقابض (مِثلاً بمِثل، وهاءً بهاء ويدًا بيد)، هذا الآن يسمى عند الفقهاء الجنس واحد والنوع واحد، فإذا اتحد الجنس والنوع اشتُرط الشرطان: التماثل والتقابض.. لو اتحد

الجنس واختلف النوع مثلًا ليرة بدولار، فإنه يُشترط التقابض ويجوز التفاضل (التفاضل يعني دولار واحد بمئة وتسعين ليرة مثلًا فهذا تفاضل) لكن يُشترط التقابض

إذا اختلفت الأجناس: نقد بمكيل أو بموزون: مثلًا ريال بقمح فيجوز التفاضل ويجوز النَّساء..

وأما في قضية (إذا اختلفت الأجناس فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد)..

– أخ: شيخنا الله يحفظك، خاتم ذهب مكسور، وزنه الصائغ وقال هذا قيمته كذا، وأخذت خاتمًا صحيحًا..

– الشيخ: هذه محل خلاف بين أهل العلم، لكن الصحيح –والله تعالى أعلى وأعلم– والخروج من شبهة الربا أن يُباع الخاتم ويُعتاض عنه بالنقد ثم بعد ذلك يشتري الإنسان ما شاء.. ولكن حبذا أن يكون البيع في محل آخر احتياطًا على شبهة الربا.

طبعًا هنا أكل الربا هلاكه أصغر، لكن إن كان عن استحلال فهلاكه أكبر، أما إن كان عن إقرار بحرمته ولكن تعامل به عن هوى فهو هلاك أصغر.

والربا ملعون آكله وموكله وشاهديه.

– أخ: بيع العينة؟

– الشيخ: محرم، لأنه حيلة أصلًا على الربا.. وهو أن يكون الإنسان مقصده الثمن ليس مقصده السلعة، فيأتي عند شخص هو يريد القرض منه لكن قال له ما أقرضك.. أنت تريد كم؟ قال مئة ألف مثلًا.. قال أنا أعطيك سيارة قيمتها مئة ألف.. وأشتريها منك بثمانين حالّة، على أن يكون الوفاء كامل القيمة.. السيارة أصبحت صورية، وحقيقة التعامل ثمانين مقابل مئة (عين الربا)..

هناك مسألة أخرى اختلف فيها أهل العلم، ولكن الذي عليه التحقيق جوازها ما يسمى بالتورُّق.. أن تأخذ السلعة وأنت مرادك الثمن، مرادك النقد لا تريد السلعة، فتأخذها فتبيعها على طرف ثالث،

ولا توكل.. بعضهم يقول لك وكّلني أو أوكلني في البيع.. لا، لا توكل الطرف الأول، اخرج من علة الربا، فاذهب وبع هذه السلعة لطرف آخر.. ثم بعد ذلك هنا أصلًا لو لم يكن هناك ربح ملموس ومرجو للطرف الأول لما باعك هذا البيع.. هو ضمن الآن قيمة السيارة وبفائدة حقيقية..

على أساس ما نسترسل يا إخوة، حنّا في العقيدة وخرجنا..

إذا كان المشترى منه شخص والمباع إليه شخص آخر، نعم هذا هو التورق.. حتى وإن كانت القيمة واحدة، نحن نريد أن نخرج من قضية العينة المحرمة شرعًا..

– أخ: شيخ، النفس بالنفس، لو أن رجلًا قتل رجلًا، وواحد فقط من أهل المقتول سامح فيكُتفى بالدية؟

– الشيخ: نعم يسقط القصاص، لأن القصاص لا يتبعّض، فإذا عفا واحد من أولياء الدم فليس لأولياء الدم المطالبة بغير الدية، لأنه هنا الآن تبعّض يعني هناك جزء من بدن الجاني حر خرج من قضية القصاص، حتى وإن اعترض البقية، هذا ترغيب من الشارع لبقاء الأنفس وعمارة هذه الدنيا بالطاعة.

(اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هنّ يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّمَ الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المغافلات المؤمنات): هنا يقول: **(وأكل مال اليتيم)**: وهذا من الموبقات المهلكات ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بطُوُنِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء]، هذا لا شك أنه وعيد عظيم توعد فيه الحق تبارك وتعالى آكل مال اليتيم، لأن اليتيم الكل يتجرأ عليه، واليتيم هو من فقد أباه قبل البلوغ، أما من فقد أباه بعد البلوغ فلا يُتم بعد البلوغ.

بعض الناس تجد لحيته بيضاء وإذا تكلم معك قال والله يا شيخ إني يتيم.. يعني يسترحم.. فتجد كثير من الناس يتجوّز في إطلاق هذا اللفظ.. فكثير من الناس أذكر يأتيني رجل كبير في السن فيقول

والله يا ولدي إني يتيم.. قلت أسأل الله أن يجبر مصابك وكسرك.. إذا كنت أنت يتيم الصغير هذا سبحان الله ماذا سيكون؟ أبو الأيتام..

فإذا فهم وفقه الناس هذه الأحكام وهذه المسائل انجلت كثير من الإشكالات التي قد تعلق في أذهان كثير من الناس..

فلما كان اليتيم لا أب له يدافع عنه وينافح عن حقه جعل الله سبحانه وتعالى مثل هذه النصوص زاجرةً ورادعةً لكل من تسوِّل له نفسه أن يتجرأ على أموال اليتامى، فصانَ الله حقوق المستضعفين بمثل هذه النصوص لتعلم كمال رحمته سبحانه وتعالى بعباده المستضعفين.

والمراد باليُتم فقد الأب، فالأم لا تدخل في مثل ذلك، لأن مصاب الطفل بفقد الاب أكبر وإن كان فقد الأم عظيم حقيقة من ناحية، ولكن الضعف يظهر بفقد الأب، لذلك فقد الأم يفقد به الصبي الحنان ولكن إذا فُقد الأب فَقد الصبي النصرة، لذلك الآن انظر دائمًا -إلا ما رحم ربي- تجد أن اليتامى تُهضم حقوقهم حتى مع وجود أمهاتهم.

- أخ: هذه من المهلكات؟

- الشيخ: نعم، كبيرة من كبائر الذنوب.

نتوقف عند هذا القدر، هذا والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الثالث والعشرون

[تكملة] باب ما جاء في السحر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

نستأنف وإياكم معاشر الأحبة مدارسة كتاب التوحيد، وقد أخذنا في الدرس الماضي باب ما جاء في السحر، ومر معنا الإشارة إلى معنى الموبقات، وقلنا أن معناها المهلكات، والهلاك هنا إما أن يكون هلاك أكبر أو هلاك أصغر، والمراد بالهلاك الأكبر هو الهلاك الذي يُردي بصاحبه خارج الإسلام، والهلاك الأصغر هو الذي ينتفي في حق مرتكبه كمال الإيمان ويبقى أصله.

فهنا قال النبي ﷺ: **(اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هنّ يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّمَ الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المغافلات المؤمنات)**، وتوقفنا عند قوله:

(والتولي يوم الزحف): إذا التحم الصفان، وبدأ القتال بين المسلمين والكفار؛ تعين على المؤمنين الثبات، لذلك ذكر ابن قُدامة -رحمه الله تعالى- في (المغْني) المواضع التي يتعين فيها الجهاد، وذكر منها: حين التقاء الصفوف أو إذا التحم الصفان تعين على عموم المسلمين الثبات.

والتولي من صف القتال كبيرة من كبائر الذنوب وموبقة من الموبقات، استثنى الشارع من ذلك ما جاء في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ

يومَئِذٍ دُبرَهُۥ إلاَّ مُتحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أوْ مُتحَيِّزًا إِلَى فِئةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[الأنفال]، فاستثنى الشارع هذين الأمرين: إلا مُتحرّفًا لقتال أو مُتحيّزًا إلى فئة.

التحرّف للقتال: معناه الكر والفر، كأن تكون أمام العدو ثم تستدير فتلتف من وراءه، هذا هو التحرف للقتال كرٌ وفر.. توهم العدو بأنك قد انسحبت أو تراجعت، وقد يُطلق عليه في هذا الزمان المعاصر ما يُسمى بالانسحاب التكتيكي، تكتيك في الحرب.. توهم العدو أنك تراجعت حتى يتقدم ثم يقع في كمين مثلًا، هذا يُسمى (متحرّفًا لقتال).

إذن هذا لا يدخل في عموم ما جاء في النص، فالتحرف للقتال لا يُعد توليًا من الزحف.

مثلًا: التحم الصفان وكان أمير المعركة يرقب ما يجري في المعركة ويتابع أحداثها، رأى أنه من المناسب من الناحية العسكرية أن ينسحب المجاهدون وينصبوا كمينًا للعدو حتى يستدرجوه ثم يلتفوا عليه، فإذا جاء الأمر بالانسحاب التكتيكي، فما حكم طاعة الأمير في مثل ذلك؟ واجبة، لأنه لم يأمر بمعصية، ولأنه من المتقرر أن الطاعة إنما تكون بالمعروف ولا تكون في معصية الله عز وجل، فإذن على الجند جميعًا أن يسمعوا ويطيعوا، ثم بعد ذلك يتحقق التحرف للقتال.. تنسحب مجموعة المقدمة وتكون مجموعة المؤخرة قد التفت بطريقة ذكية وتسللت الجبال ونصبت كمينًا للعدو مثلًا.. فالتحرف لقتال هذا خارج من قوله ﷺ: (والتولي يوم الزحف).

﴿**أَوْ مُتحَيّزًا إِلَى فِئةٍ**﴾: يعني أن يكون عندنا مثلًا مجموعة تشاغل العدو من جهة، ومجموعة أخرى تواجهه من جهة أخرى، احتاجت أحد المجموعتين لإسناد يحتاجون لعدد (مؤازرة) فأمر الأمير بأن تنتقل سرية أو مجموعة من الأفراد إلى مؤازرة الجهة الأخرى.. ﴿أَوْ مُتحَيِّزًا إِلَى فِئةٍ﴾ وهكذا.

في بعض الأحيان ما يجني على الجيش إلا الاجتهادات الفردية، دائمًا تحصل هناك نكَسَات في ميدان المعركة بسبب الاجتهادات الفردية، وإنما على الجندي أن يسمع ويطيع وأن يكون ضمن المنظومة العامة للجيش.. كما حصل في غزوة أحد، بعضهم اجتهد البعض، ولا نظن أن صحابة رسول الله ﷺ تقصدوا وتعمدوا المعصية ولكن تأولوا، قالوا أن النبي ﷺ أمرنا بلزوم الجبل ما دام العراك مستمرًا والقتال

على أشده، لكن بدأ الناس يحرزون الغنائم فظنوا أن الأمر قد انتهى، فهم نزلوا وقد تأولوا في نزولهم ﵃ وقد أخطؤوا، وهذا مقرر، ومن أراد الاستزادة فليراجع ما حصل في أحداث غزوة أحد.

أمرٌ مهم التولي يوم الزحف.. **متى يعد المجاهد متوليًا من الزحف؟**

تحدث أهل العلم عن هذه المسألة، لذلك جاء التخفيف ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾[الأنفال].. في السابق كان المؤمن يؤمر بالثبات أمام عشرة، ثم بعد ذلك جاء التخفيف بأنه يجب على المجاهد أن يثبت أمام الضِعف: مئة مقابل مئتين، ألف مقابل ألفين ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.[الأنفال]

يقول ابن عباس ﵄: (من فرّ من الثلاثة فما تولّى من الزحف، ومن فرّ من الاثنين فقد تولّى من الزحف).

وهنا إذا قلنا أنه لا يجب الثبات، لا يعني ذلك أنه يستحب الفرار، بل يستحب الثبات ويُرغب فيه.

تحدث أهل العلم عن ما إذا كان هناك فرق بين الآلتين وبين السلاحين –سلاح المؤمنين وسلاح الكفار– مثال: الطائرة المروحية كم راكب فيها؟ اثنان، وقد يكون عدد المجاهدين خمسين، تأتي طائرة مزودة بدرابيل ليلية، وصواريخ متطورة، وعيار ثقيل رشاش، ومع المجاهدين هذه الأسلحة الآلية التي قد لا تؤثر في هذه الطائرة.. من ناحية العدد عشرة أمام اثنين، فيجب الثبات أم لا يجب (من ناحية العدد؟) ترك الخطوط من حيث العدد تولي.. لكن إذا نظرنا إلى سلاح العدو وإلى سلاح المجاهدين بينهما فرق، فيُنزّل السلاح منزلة العدد.

صورة أخرى: رجل معه سلاح صاروخ أرض جو محمول على الكتف ستينغر، أو سام ٧ أو ما شابه ذلك من المضادات.. الآن قاذف محمول على الكتف مقابل طائرة فيها اثنان، الرامي معه مساعد.. أي اثنان أمام اثنين، يجب الثبات أو لا؟ يجب لأن السلاح الآن يمكن..

طيّب إذا رماه فأخطأ يفر أو لا؟

هذه مسألة هي حقيقة من النوازل، ونحتاج حقيقة إلى تأصيل أكثر ومزيد بحث في مثل هذه المسائل، ولكن حقيقةً تأملت في هذه المسألة كثيرًا فوجدت -والله تعالى أعلى وأعلم- أن السلاح يُنزَّل منزلة العدد إذا لم يكن هناك تكافؤ بين السلاحين، وحتى أن أهل العلم ذكروا أنه إذا كان مع العدو خيل سريعة تُحسن الكر والفر، ومع المسلمين خيل ضعيفة أو ما شابه ذلك.. هل التولي في حال المواجهة في مثل هذه الصورة يعد توليًا من الزحف أم لا؟

لا، وبمثل ذلك تحدّث أهل العلم.. فكل صورة ينظر فيها بحسبها، فإذا كان السلاح مُتكافئًا بين الطرفين فننظر إلى العدد، فإذا كان واحد في مواجهة اثنين وجبَ الثبات، وإذا كان واحد في مواجهة ثلاثة استُحِب الثبات.

هناك حالات قد يُقال فيها: يجب الثبات حتى وإن كان عدد العدو أضعاف مضاعفة، متى؟

إذا التحم الصفان ولا مجال للخلاص والفرار، لأنه إن لم نواجه العدو استباح العدو بيضة المسلمين وانتهك أعراض المسلمين وسعى في الأرض فسادًا، فالأمر سيان، أصبح الفرار والثبات شيء واحد، فما الحل؟ االتفاني، قتالٌ حتى الموت، إما أن يُرد ويُكف صيال العدو، أو أن تكون باطن الأرض أحب إلينا من ظاهرها، لأن الإنسان لو عاش وهو يرى أعراض المسلمات تنتهك فلا قيمة للعيش عند ذلك.. وإننا نسأل الله سبحانه وتعالى ألا يرينا في إخواننا المسلمين ما نكره.

إذن هذه المسائل التي يمكن أن تورد تحت هذا الجزء من النص: (والتولي يوم الزحف).

أما مسألة العملية الاستشهادية:

- أخ: هل يعتبر تفجير الاستشهادي نفسه من التولي يوم الزحف؟

- الشيخ: لا هذه مسألة أخرى.

على العموم اتفق أهل العلم على جواز التغرير بالنفس في سبيل الله، وأوردوا على ذلك نصوصًا شرعية عدة، منها ما جاء [في الصحيح] في قصة الغلام الذي تسبب في قتل نفسه نصرةً لدين الله ودعوةً لعبادة الله عز وجل وحده لا شريك له، فهنا بين النبي ﷺ أن الغلام قد تسبب في قتل نفسه.

قتل النفس لا يخلو من حالتين، الحالة الأولى: أن يَقتل الإنسان نفسه مباشرةً أو تسببًا، فرارًا من الواقع واعتراضًا على قضاء الله وقدره فهذا يُسمى انتحارًا، والانتحار محرم بكل صوره وأشكاله.

النوع الآخر: ما يسمى بالعمل الفدائي أو الاستشهادي، وهو قتل للنفس بالتسبب أو بالمباشرة، ولكن لإعلاء كلمة الله ولنصرة دينه، فبينهما فرق.. هذا الاستشهادي يقول أتمنى أن أرجع لأنفذ، ولكن المنتحر يقول لا يا أخي ما أريد أن أرجع بل أريد الفرار من هذه الدنيا.. فبينهما فرق.

هذا من الناحية الأولى أن قتل النفس لا يخلو من حالتين، الصورة الأولى التي أسميناها بالانتحار(هي التي قال الله عز وجل عنها: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.[النساء]

وأما الصورة الأخرى التي أسميناها بالعمل الفدائي أو الاستشهادي فهي داخلة في عموم قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.[البقرة]

واستدل كذلك من أجاز مثل هذه الأعمال الفدائية بقصة البراء بن مالك حين قال للصحابة احملوني على التّرس، فألقى بنفسه على العدو، فهذا تسببٌ في القتل، ولكن كان لهذا التسبب مصلحة عظيمة فُتح بها باب السور وكان بذلك نصرٌ عظيم للإسلام والمسلمين، مع أنه نجا رضي الله عنه، ولكنه حقيقةً تسبب في قتل نفسه هذا تسبب: إلقاءٌ للنفس في موضع هو مظنة الهلاك.

وجمهور العلماء يقولون أن المتسبِّب له حكمُ المباشِر.. ما معنى هذه القاعدة؟ أي أن الذي يتسبب حكمه حكمُ الذي يُباشر.

أورد الفقهاء مسألة، قالوا: لو أن مكلفًا بالغًا أمرَ صبيًا صغيرًا بأخذِ السكين وطعنِ مكلفٍ آخر (شخص نائم)، فأخذ هذا الصبي هذه السكين وطعن هذا النائم في قلبه فمات، فالآن من الناحية

الحقيقية من الذي باشر القتل؟ الصبي، والكبير الذي أمره هو متسبب، فجيء به إلى مجلس القضاء فقال أنا ما قتلت، هذا الصبي هو القاتل.. كلامه صحيح، لكن نحن نقول له أن أمرك وفعل الصبي منزلة واحدة.. المتسبب له حكم المباشِر.

ولكن هنا بما أن الصبي صغير دون سن البلوغ، يعدُّه أهل العلم في حكم الآلة فلا قصاص عليه، وإنما القصاص يكون على المتسبب، لأن الصبي في حكم الآلة، يعني كأن الصبي هو السلاح وأنت الذي ضغطت الزناد، أنت حينما تمسك الزناد وتقتل فهل على السلاح حكم؟ الحكم على من ضغط الزناد، إذن هذا معنى الآلة، أن الصبي في هذه الصورة نُزِّل منزلة الآلة، فالصبي لا يُقتص منه لكن قد يعزر يؤدب، ليس عليه قصاص في هذه الحالة.

إذن هذه من الموبقات التي ذكرها النبي ﷺ..

(**وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**): المحصنة هي الحرة، والقذف رميها بالزنا، فقذف الحرائر المؤمنات الغافلات أي اللاتي لا يقعن في هذا الشيء ولا يألفنه ولا يأتين حول حِماه، فقذف أمثال هؤلاء موبقة من الموبقات، والإيباق هنا أصغر.. معصية وكبيرة من كبائر الذنوب.

وهنا قال المحصنات أي الحرائر، فلو قذف مؤمنٌ أمَةً فهذا فيه التعزير ولكن ليس فيه حد القذف.

أيضًا لو قذف كتابية ففيه التعزير ولا حد عليه، والكلام هنا عن الكتابية التي بينها وبين المسلمين عقد ذمة أو أمان أو ما شابه ذلك من العقود.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وعن جندب مرفوعًا: (حدُّ الساحرِ ضربةٌ بالسيف).[١] رواه الترمذي وقال الصحيح أنه موقوف.

وفي صحيح البخاري: عن بَجَالَة بن عبدة، قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب ﵁: "أن اقتلوا كل ساحر وساحرة"، قال: فقتلنا ثلاث سواحر.[٢]

وصحَّ عن حفصة رضي الله تعالى عنها: أنها أمرت بقتل جاريةٍ لها سحرتها فقُتلت.[٣]

وكذا صحَّ عن جندب.

قال أحمد: صحَّ عن ثلاثةٍ من أصحاب النبي ﷺ قتل الساحر.

---

(١): الصحيح أنه موقوف، أي لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، وإنما يصح موقوفًا على جندب، ولكن لهذا الحكم شواهد، وكان عمل الصحابة ﵃ على هذا الحكم.

(حدُّ الساحر ضربةٌ بالسيف): أي أن حكم من ثبت في حقه السحر: القتل. وهنا جاء الإخبار بأن آلة القتل هي السيف لأنها آلة حادة وتُزهق الروح، والنبي ﷺ يقول: ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا ذبحتم فأحسنوا الذِبحة وإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وليُحد أحدكم شفرته وليُرح ذبيحته)). [صحيح ابن حبان]

وهنا مسألة ذكرها أهل العلم: لو تسبب الساحر في قتل إنسان مسلم معصوم الدم، ثم قُبض عليه، فهل فيه القصاص أم لا؟

- الإخوة: فيه القصاص.

- الشيخ: قتَله، ونوع هذا القتل عمد عدوان.

وجناية القتل يقسمها أهل العلم إلى ثلاثة أقسام: قتل عمد، وشبه عمد وخطأ.

العمد: هو أن يقصد الجناية فيقتل معصومًا بآلة تَقتل غالبًا.

طيّب، إذا ما يقصد الجناية وقتل بآلة تقتل غالبًا، فهنا يكون نوع القتل خطأ.

العمد وشبه العمد يشتركان في قصد الجناية ويفترقان في الآلة، فالآلة في العمد تقتل غالبًا والآلة في شبه العمد لا تقتل غالبًا.

وقتل الخطأ: أن يفعل الإنسان ما له فعله، فيقتلُ معصومًا.

مثال: رجل ذهب للبرية للصيد (يجوز له فعل ذلك)، فرأى أرنبًا ما شاء الله.. أخذ ينيشن على الأرنب، ولكن لعل هذا الأخ عنده حول أو عنده شيء، أو السلاح الركلاج ليس جيد، فسبحان الله رمى فصرعَ له معصومًا.. ولكن هو أراد الأرنب، فقتل معصومًا.. هذا قتل خطأ فيه الدية مخفّفة، تُقسّط على العاقلة في ثلاثة أعوام.

وأما قتل العمد: أن يقصد الجناية

مثال: أتى أمام شخص بمسدس، والمسدس يقتل غالبًا. أخذ المسدس وجاء أمام شخص وقال له سأقتلك وضغط الزناد فصرعه فقتله.. نوع هذه الجناية قتل عمد عدوان.

ما هي الأحكام المترتبة على ذلك؟

القصاص إذا طالب أولياء الدم، أو إذا تنازل أولياء الدم عن القصاص فتكون الدية من مال الجاني نفسه هو الذي يتحمل، لأن العاقلة لا تتحمل عنه عمده، وإنما تتحمل عنه خطأه.

شبه العمد: أن يقصد الجناية بآلة لا تقتل غالبًا.

مثل العصا أو مثل البوكس.. جاء واحد مسكين عند شخص هزيل وضعيف أو كان مريضًا فوكزه وكزةً فقضى عليه فقتله، قصد الجناية بآلة أو بطريقة لا تقتل غالبًا، لأن الوكز لا يقتل غالبًا، لكنه وكزه واحدة أو اثنتين فبعدها قدّر الله أن يموت، فمات، نوع الجناية: شبه عمد، لا قصاص فيها وإنما فيها دية مغلظة على العاقلة مقسطة على ثلاث سنوات.

هي مئة ولكنها مغلظة في الصفة في أوصاف الإبل، وإذا اختلفت الأوصاف اختلفت الأقيام.. أصبح الآن درس فقه..

- أخ: الذي يدافع عن نفسه؟

الشيخ: هذه **قضية الصائل**:

إذا صال على المسلم إنسان اتفق العلماء على أن الصائل يُدفع بالأخف فالأخف، يعني مثلًا لو صال عليك رجل واستطعت أن تدفعه بالكلام فلا يجوز لك أن تعدل عن الكلام إلى ما فوق الكلام، ولو صال عليك واستطعت أن تدفعه بطلقة في رجله فلا يجوز لك أن تعطيه طلقة في رأسه، ولو أعطيته طلقة في رأسه فأنت قاتل قتل عمد عدوان فيه القصاص.

إذن الصائل يُدفع بالأخف فالأخف -هذا الصائل المسلم على المسلم-، أما إذا كان الصائل مرتدًا أو كافرًا جاز قتله مباشرةً، وأما صيال المسلم على المسلم فلا يجوز القتل ابتداءً وإنما يُدفع بالأخف فالأخف، دُفع بالضرب بالدفع؛ يُدفع.. إن دُفع بطلقةٍ في رجله فلا يجوز لك أن ترميه في رأسه، وإن ثبت بقرائن الحال أنك مباشرةً رميته في مقتل فنوع هذا القتل عمد عدوان فيه الأحكام المترتبة على العمد العدوان مثل ما ذكرنا قبل قليل.

هنا مسألة: لو أن الساحر قَتَلَ بالسحر: عندنا قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عوُقِبْتمُ بِهِ﴾[النحل]، أي أن الجاني يُقتص منه بقتله على نفس الهيئة التي قتل بها المجني عليه (المماثلة)..

طبعًا المسألة محل خلاف، منهم من قال أن القصاص يكون دائمًا بالسيف: (لا قَوَدَ إلا بالسيف)، وإن كان هذا الحديث رواه أحمد وفي سنده مقال، ولكن الحنابلة العمل عندهم على ذلك وجمعٌ من الفقهاء أنه لا قود إلا بسيف، والذي عليه أكثر الفقهاء أن العقوبة تكون بالمماثلة –والله طلعتونا من الدرس.. الله يهديكم.. أصبح درس قضاء–، الذي عليه أكثر الفقهاء أن القتل يكون مماثلةً ولكن اشترطوا شرطًا: أن لا تكون الآلة أو الطريقة محرمة.. يعني رجل قتل آخر بأن سقاه خمرًا حتى مات، الطريقة محرمة فلا يجوز المماثلة هنا، ويُصار إلى السيف.

أو كذلك أُصيب بالعين وهكذا..

رجلٌ –أجلكم الله– لاطَ برجل آخر حتى مات، الطريقة محرمة إلا أن ابن حزم –رحمه الله– رأى مشروعية أن يُدخَل فيه لوح من الخشب حتى يموت، ولكن يقال أن الآلة والطريقة ما دامت أنها ممنوعة فيُمنع من ذلك فيُصار إلى السيف.

وهناك طرق للقتل قد تتعذر فيها المماثلة، فهنا كذلك يُصار إلى السيف.

الجواسيس الذين يضعون الشرائح –عليهم من الله ما يستحقون– هم يلقون الشريحة فيُقتل الهدف بالانفجار والنار، فلو حُرِقَ أو وضعنا عليه ما يسمى بسلك الكورتكس –الّي يعرفون بالمتفجرات–، نضع عليه سلك مُتفجّر أو مثلًا حشوة متفجّرة نضعها على جسده (تي إن تي) أو شيء من العجائن المتفجّرة، نلفها عليه ثم بعد ذلك نُفجّره، ما حكم ذاك العمل؟ مماثلة .. مشروع.

هنا مسألة: في بعض الأحيان قد يتعذر علينا القتل بالسيف، ما يوجد عندنا رجل ماهر، وقتل السيف يحتاج إلى رجل ماهر، يوضع الجاني ثم بعد ذلك بطريقة معينة بضربة واحدة يُفصل الرأس عن الجسد، في بعض الأحيان قد يخُطئ فيضرب الظهر أو يضرب الرأس فيتعذب هذا ولا يُقتل، فإذا تعذر علينا فيُصار إلى آلة تُزهق الروح في الغالب كالمسدس أو الأسلحة.. مع أن بعض الأحيان قد تضع الطلقة في رأسه ويبقى حيًا..

الشاهد من ذلك أنه إذا ثبت شرعًا في حق شخص أن قتله واجب فإننا نستخدم في حقه آلة تزهق الروح في الغالب، شريطة ألا تكون هذه الآلة ممنوعة.

– أخ: التمثيل بعد القتل، هو قتل شخص ومثّل به، هل نقتله ونمثّل به؟

– الشيخ: نعم هنا النبي ﷺ نهى عن المثلة ابتداءً ولكن لو كان مماثلةً فعموم النصوص تدل على مشروعيته، ولكن إذا غلب على ظننا أن المماثلة ستتجاوز الحد منعناها، فإذا قطع أذن تُقطع أذن، قطع أنف يُقطع أنف، فقأ عين تُفقأ عين، مِثلًا بمثل.

لكن لو مثّل بطريقة يتعذر علينا فعلها، فيقال بالمنع ويُكتفى بالقتل وهكذا.

إذا كان الفعل محرمًا نحن قلنا لا يُفعل، ولكن إذا كان مثلًا هناك مُثلة نعم، من باب القصاص نعم يُقتص من هذا الجاني ويُفعل به كما فعل، إلا إذا كان محرمًا.. البعض يسأل يقول إذا وقع الاغتصاب من العدو هل يجوز لنا أن نغتصب نساءهم؟ نقول لا، ولكن إذا قتلوا نقول نعم نقتل منهم على وجه المماثلة.

– أخ: إذا أتى شخص مسلم يريد أن يقتل مسلمًا آخر، فأتاه من خلفه وطق رأسه هل هذا عمد أم شبه عمد؟

– الشيخ: لا شك فيه القصاص، وإذا كانت الطريقة كذلك فيها غدر وخيانة فقد يُعاقب عليها قبل القصاص، يجتمع فيها حقٌّ عام وحقٌّ خاص، حتى لو تنازل أولياء المقتول عن القصاص وطالبوا بالدية، فقد تبقى في حقه عقوبة الغدر، وفي بعض الأحيان إذا كان القتل على صفة وهيئة فقد يُسقِط الأولياء المطالبة بالقصاص، ولكن يرى إمام المسلمين قتله تعزيرًا..

يعني مثلًا رجل قفز على بيت آخر ثم اغتصب ثم قتل ثم مثّل ثم فعل، احتفَّ بهذه الجناية عقوبات تغلظ العقوبة، فهنا اجتمع عندنا حق خاص وحق عام، الحق الخاص هو لأولياء المقتول، والحق العام هو لهذا المجتمع المسلم الذي يعيش فيه هو، ويقوم على هذا المجتمع إمام، لأنه لو قصرت القضية على

القصاص وحق أولياء الدم لأهدر حق المجتمع الذي تجرأ عليه هذا الجاني، فهنا حتى وإن تنازل أولياء الدم وجبت الدية في مال الجاني وقد يُقتل الجاني تعزيرًا إذا رأى الإمام ذلك، لأن الصحيح من أقول أهل العلم جواز القتل تعزيرًا، وآراء أهل العلم في القتل في التعزير متفاوتة، أوسع المذاهب في ذلك مذهب مالك -رحمه الله-، وأضيقهم مذهب أبي حنيفة، وأوسطهم مذهب الشافعي وأحمد، إلا أن الكل اتفق على أن القتل تعزيرًا للمصلحة جائز اتفاقًا، ولكنهم اختلفوا في بعض الصور وبعض المسائل.

فمثل هذه الدناية إذا رأى الإمام أن قصرَ هذه الجناية فقط على أولياء الدم فتنازلوا عن القصاص إلى الدية، فإن الإمام حماية لهذا المجتمع من مظاهر الفساد والتجرؤ على حرمات الناس ودمائهم وأموالهم فإنه لا بد من الزجر والتأديب والردع.

مسألة: لو استحق هذا الجاني القتل من وجهين الوجه الأول القتل العمد العدوان والثاني القتل تعزيرًا، ماذا نقدم؟

يُقدّم حق أولياء الدم، لأن حقهم هنا خاص والغاية من القصاص التشفّي، فإذا قُتل الجاني تعزيرًا ما تحقق التشفي، لكن إذا قيل لأولياء الدم نعم قتلناه لأنه قتل ابنكم فهنا يتحقق التشفي، فإذا تنازل هؤلاء ذهبت قضية التشفي ولهم بدل ذلك وهو الدية، ويبقى حق هذا المجتمع الذي عُنيَ به هذا الإمام فإن رأى المصلحة في قتله قتله.

وقد يُقام عليه حدّ الحرابة إذا ثبت في حقه الإفساد في الأرض.

(٢): هنا في خبر بَجَالَة بن عبدة، قال: (**كتب إلينا عمر بن الخطاب ﷺ: "أن اقتلوا كل ساحر وساحرة"، قال: فقتلنا ثلاث سواحر**)، هذا يقرر ما سبق الإشارة إليه من أن الصحابة رضي الله عنهم كان عملهم على أن الساحر يُقتل.

وهنا (أن اقتلوا كل ساحر وساحرة): يدل على أن الحكم يستوي فيه الذكر والأنثى، وفي هذا رد على الأحناف الذين قالوا بأن المرتدة لا تُقتل وإنما تُحبس حملًا لها على الإسلام حتى تموت محبوسة،

خلافًا لجمهور العلماء مالك والشافعي وأحمد، والصحيح من أقوال أهل العلم أن المرأة والرجل يستويان في هذا الحكم، ويدل عليه كذلك خبر عمر رضي الله عنه.

(٣): **(وصح عن حفصة رضي الله عنها: أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقُتلت)**: وهذا يدل كذلك على أن المرأة إذا ارتدت تُقتل.

ومر معنا أن الساحر يُقتل ردةً –وهو رأي جماهير العلماء– لأن السحر بكل صوره وأشكاله شرك وكفر بالله عز وجل.

إن تاب قبل القدرة فهي مسألة أخرى، وإذا تاب بعد القدرة فتكون توبته في الباطن، وأما الظاهر فالتوبة لا تُسقط العقوبة.

– أخ: حد الساحر يا شيخ أنت قلت يُقتل ردةً وليس حدًا.. قصدي قلتَ بالأمس أنه ما يقام عليه الحد لأن الحد ممكن أن يُستتاب، يُقتل ردة.. وهذا القول أن حد الساحر..؟

– الشيخ: والردة كذلك حد، لكن لما قلنا يُقتل ردةً أم حدًّا قصدنا أن حد الردة ليس كحد الزنا وشرب الخمر وحد القذف، يختلف، وهذا الذي رجحناه يُقتل ردةً، مع أنهما يشتركان في الاسم –هذا حد وهذا حد–، لكن فرق.. فهذا يُقتل لكفره وهذا يُحد لمعصيته وقد يُقتل لمعصيته إذا كان محصنًا يُرجم بمعصيته.. وهكذا.

– أخ: سؤال: رجال من قرية مرتدة نصيريّة دخلوا قرية مسلمين وقتلوا كل من فيها حتى الطفل الصغير، فهل يجوز دخول قريتهم وقتل كل من فيها أم لا يجوز؟

– الشيخ: على العموم يُفرّق هنا بين القتل بالمباشرة أو بغير المباشرة.. مثلًا إذا كان القتل بالمباشرة يعني هم دخلوا فقتلوا الصغير والكبير، فنحن نقتلهم بغير المباشرة.. مثلًا إذا ضربناهم بأمر يعم به الهلاك مثل العمليات الاستشهادية أو رماية الصواريخ أو القذائف عليهم فهذه لا تُفرّق بين صغير وكبير ولا بين ذكر وأنثى، وهذا من باب المماثلة، لكن في حال الممايزة يُفرّق فيها، وهذا متوقف على حكم الصغير

أصلًا.. المرأة تأخذ حكم الكبير إذا قلنا أنه مرتد والمرأة كذلك مرتدة، فالرجل والمرأة إذا حكمنا عليهما بالردة فالقتل في حقهما واجب، وقتل المرتد واجب إجماعًا، حكى الإجماع على ذلك الإمام ابن قدامة وابن المنذر وابن رشد وغيرهم من أهل العلم حكوا الإجماع على وجوب قتل المرتد. إذن فحكى أهل العلم الإجماع على قتل الذكر والأنثى البالغين.

وأما قضية الصغير الذي ولد من أبوين مرتدين، هذه المسألة وقع فيها الخلاف، فمنهم من يقول أنه مرتد كوالديه بناءً على ذلك يأخذ حكم أبويه، فكما أنهما يقتلان فيُقتل كذلك، وبعضهم قال أنه يأخذ حكم الكافر الأصلي لأنه ولد من أبوين كافرين في الحقيقة ولم يسبق له إسلام، فقالوا أن حكمه هنا أنه على الكفر الأصلي، وإذا علمنا أنه على الكفر الأصلي فالأولاد في حكم الأموال، فأولاد الكفار الأصليين لا يُقتلون لأنهم في حكم المال.. في حكم الغنيمة، ولا يجوز في هذه الحال أن نتلف الغنيمة بغير سبب، وهكذا.. على هذا الخلاف تبنى المسألة.

نعم، أصبح درسًا فقهيًا وخرجنا من لبّ الموضوع هداكم الله..

– أخ: سؤال: لو قام شخص بقتل شخص ظن أنه مرتد؟ كأن سمعه يقول يا علي يا علي..

– الشيخ: هنا على العموم إذا كان القتل مبنيًا على طُرق الثبوت الشرعية فتبين الخطأ، فهذا لا إثم عليه وعليه ضمان الدية، وأما إذا كان القتل بغير تحرٍّ وفيه تساهل فهذا عليه الإثم وكذلك الدية، ولكن إذا علم أنه مسلم فقتله فهذا فيه القصاص، لكن إذا لم يعلم فهو لا يخلو من حالين: لم يعلم أنه مسلم لكنه بنى ذلك على شكوك وأوهام بدون تحرٍّ بطرق التحري الشرعية فهذا قلنا فيه الإثم والدية. وإذا كان قد تحرى فقتل، فتبين خلاف ذلك فلا إثم عليه وعليه الدية، وهذا في حالة عدم الامتناع أما في حالة الامتناع فهذا أمر آخر.

نعم، هذا والله تعالى أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الرابع والعشرون

قال المصنف -رحمه الله-: باب بيان شيء من أنواع السحر.(١)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

نستأنف وإياكم معاشر الأحبة مدارسة كتاب التوحيد..

مر معنا في الباب الماضي بيان معنى السحر من الناحية اللغوية والاصطلاحية، وبينّا أن السحر في اللغة هو ما خفي ولطف سببه، ومن ذلك سمي آخر الليل سحرًا لاختفاء أفعال الناس فيه.

وقلنا أن السحر من الناحية الاصطلاحية هو عبارة عن عُقد ورُقى وتعاويذ وأبخرة أو عزائم تؤثر في الأبدان والقلوب فتقتل وتُمرض، وتُفرّق بين المرء وزوجه، وكل ذلك لا يقع إلا بإذن الله عز وجل: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.[البقرة]

ثم بعد ذلك بينّا حكم السحر، وبينّا أن العلماء اتفقوا أن كل سحر فيه استغاثة بالشياطين أو تقرب إليهم من دون الله فإنه كفر قولاً واحدًا بلا خلاف، أما إذا لم يكن في السحر تقرب أو ما شابه ذلك فهذا الذي وقع فيه الخلاف.

ونحن قلنا أننا إذا نظرنا إلى هذا الإطلاق الذي جاءت به نصوص الشرع نجد أنها لم تفرق بين سحر وآخر، بل أعطت السحر حكمًا واحدًا، لذلك جاء الإطلاق، وقلنا مادام أن النص الشرعي جاء مطلقًا فلا يُقيد إلا بنص، وحين لم يوجد نص يُقيّده فيبقى النص على إطلاقه.

وهذا ما استظهره ومال إليه الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- حيث أنه عدّ السحر ناقضًا من نواقض الإسلام، ولم يُفرّق بين سحر وآخر..

ثم بعد ذلك تحدثنا عن الساحر وقلنا أن العلماء اختلفوا هل يُقتل حدًا أو ردة؟

حدًا، أي حاله كحال الذنوب التي فيها الحد كالزنا وشرب الخمر وما شابه ذلك، أما ردةً فهذا ردته مغلظة فلا يُستتاب وتجري عليه أحكام المرتد.. وهكذا.

(١): وهنا المصنف -رحمه الله تعالى- قال: **(باب بيان شيء من أنواع السحر)**..

يعني أن الإمام هنا سيبين أنواعًا من السحر، وهنا سيذكر تحت هذا الباب ستة أنواع، منها ما هو كفر ومنها ما هو سحر من الناحية اللغوية، مثل قول النبي ﷺ: ((إن من البيان لسحرًا))، فإن هذا على التقسيم الذي سنذكره سنبين فيه حكم هذا البيان متى يكون من قبيل السحر الحلال ومتى يكون من قبيل السحر الحرام، لأن السحر المراد هنا قد يُحمل على السحر الحقيقي الذي فيه الاستغاثة وفيه الرُقى والتعاويذ والعزائم والأبخرة والأدخنة، وقد يُطلق السحر ونريد به المعنى المجازي لا نريد الحقيقة، يعني مثل ما جاء في الخبر: ((إن من البيان لسحرًا))، هل المراد هنا العُقد التي يقوم بها الساحر وما شابه ذلك؟ لا. كما سيأتي معنا.

إذن سيذكر المصنف هنا ستة أنواع، وهنا لم يُرد الإمام الحصر وإنما أراد أن يذكر شيئًا من الأعمال التي قد تندرج تحت هذا المعنى العام، على اختلاف بين هذه الأنواع في الحكم كما سنبين..

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن حيّان بن العلاء: حدثنا قَطَن بن قبيصة، عن أبيه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: (إن العِيافَة والطَّرْقَ ،والطِّيرَة من الجبت)، قال عوف: الطيرة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط في الأرض، والجبت: قال الحسن: رنَّةُ الشيطان.(١) **إسناده جيد. وفي المسند: (إنَّهُ الشيطان) هو الصحيح. ولأبي داود والنسائي، و ابن حبّان في صحيحه: المسند منه**

---

(١): (**إن العِيافِة والطَّرق، والطِيرَة من الجبت**): العيافة كما قال عوف: زجر الطير، والعيافة نوع من التطير والتشاؤم.

عندنا عيافة وعندنا طيرة، ما الفرق بينهما؟

نوجز الكلام فنقول أن العيافة تشاؤم بالطير خاصة، والطيرة تشاؤم بالطير وغيره. إذن الطيرة والعيافة يشتركان في التشاؤم، العيافة تشاؤم بالطير خاصة والطيرة تشاؤم بالطير وغيره.

مثلًا: رجل أراد السفر أو أراد أن يعقد شراكة مع شخص فأخذ الطير فزجره فاتجه الطير إلى الشمال، فتشاءم فترك الشراكة، اسم هذا الفعل عيافة.

مثلًا: رجل أراد السفر فلما خرج من بيته سمع رجلًا يصرخ ويقول يا خسارتي.. يا خسارتي.. فهذه طيرة (تشاؤم بالمسموعات)، لأننا قلنا أن الطيرة تشاؤم بالطير وغيره.

مثلًا: رجل أراد السفر أو أراد أن ينكح فلانة من الناس، فلما فتح الباب ليخرج وجد في وجهه رجل قد احترق وقد تقطعت أطرافه.. فقال بس الموضوع بيّن من عنوانه مثل ما يقال.. هذه طيرة.

فعلى تفسير السلف أن العيافة زجر الطير، فهو تشاؤم بالطير خاصة، وأما الطيرة فهو تشاؤم بالمسموعات وبالمرئيات وبالطير وبغيره وحتى بالناس.

مثلًا: رجل أراد أن يدخل في مشروع ما فأول شخص استقبله في ذلك اليوم رجل معروف أنه صاحب مشاكل ومصائب، ما يخرج من مصيبة إلا يدخل في أخرى.. فقال بس انتهى الموضوع خلاص.. هذا يسمى تطيّر.

– أخ: بعض الناس إذا أراد القيام بأمر يفتح القرآن، فإذا كانت آية زجر أو عن جهنم امتنع عن الأمر.. هل هذا من الطيرة؟

– الشيخ: نعم هذا من الطيرة.

– أخ: شيخ، هذا اسمه استفتاح..

– الشيخ: ليست العبرة بالتسميات، وإنما هو أحجم أو أقدم بناءً على ما حصل عليه عند فتح المصحف، فمثلًا فتح المصحف فوجد نص وعيد فأنهى كل شيء، وهذا أمر ما أنزل الله به من سلطان.

ثم بعد ذلك هذا فيه رجم بالغيب، وما الذي أدراك أن إقدامك على هذا الأمر سيكون شرًا استنادًا على فعلك هذا؟! هذا رجم بالغيب.

(قال عوف: والطرْق الخطُّ يخطُّ في الأرض): صفة الطرق أن يأتي الرَّمَّال على كثيب الرمل، فيخط عليها خطوطًا عشوائية بدون عدد، ثم يمسحها مثنى مثنى، خطّين خطّين، خطّين خطّين.. حتى إذا بقي من كل هذه الخطوط خطّين تفاءل، وإذا بقي خط واحد تشاءم، فهو إذا كان المسح ينتهي على عدد فردي تشاءم، وإذا كان على زوجي تفاءل.. هذا معنى الطرق، وهذه تدخل كذلك في الطيرة.

وهذه عرفت من قِبل المسلسلات المنحطة التي للأسف أصبح فئام من أبناء المسلمين يتربى عليها، وتجد أن المسلمين أصبحوا يتخلقون بأخلاق من لا أخلاق لهم، ويتركون التخلق بالنبي ﷺ وأصحابه

الكرام، لذلك أصبح أبناء الأمة يُرون على غير هيئة سوية، فكم هم الذين ظاهرهم لا يمت للدين بصلة؟! ناهيك عن الباطن الذي بينهم وبين الله.. ولكننا أُمرنا بالتعامل مع الناس بما أظهروا، ولا شك أن الظاهر عنوان للباطن –هذا في الأعم الأغلب–، وما من قصور في الظاهر إلا وله ارتباط بالقصور في الباطن.. تجد أن الرجل يألف الكذب، هناك خلل باطني، رجل فيه كِبر، هذا لا شك أن هناك خلل باطني، رجل يتهاون في حقوق الناس، رجل فيه جرأة على الظلم يظلم جاره يظلم قرابته يظلم زوجته يظلم أبناءه يظلم إخوانه.. انظروا إلى هذه القضايا التي لا تعد ولا تحصى التي تُرفع إلى محاكم المسلمين كلها فلانٌ يشتكي على أخيه في مسألة من مسائل المواريث أو في أرض تنازع عليها إخوة.. حتى وصل الأمر بهم إلى أن وقعت القطيعة بينهم والسبب في ذلك (هذه الأرض لي أو لأخي)..

وشتان بين هؤلاء وبين غيرهم.. يذكر لي أحد طلبة العلم موقفًا عظيمًا حقيقة يعني في خضم هذا الزخم الهائل من القضايا التي ترفع إلى المحاكم الشرعية على هذا النحو كلها منازعة بين إخوة من النسب على حق مالي ثم يؤول هذا النزاع إلى القطيعة والتنازع، وفي نفس الوقت يترافع اثنان إلى قاضٍ من قضاة المسلمين فتجد أن القاضي يقف منبهرًا أمام هذه القضية، فما ظنكم أو ماذا تتوقعون حينما يترافع أخ على أخيه يطالبه بماذا بالمال وهكذا أليس كذلك؟

لكن هذه القضية لها شأن آخر.. أخ رفع دعوى على أخيه ما مضمون هذه الدعوى: يقول الأخ للقاضي يا شيخ، إني أخاصم في مجلسك هذا أخي الشقيق، يقول القاضي: وعلى ماذا، قال: أخي استأثر بخدمته لأمي، وإنه قد فازَ وحازَ أجرًا عظيمًا، وإني أخاصمه فإني أتمنى أن أكون شريكًا له في هذا العمل.. هذا يقول أريد أن أخدم أمي، أريد أن أكون بارًا بها، والآخر يقول والله ما تأخذها، فانظروا الفرق، أناس يقتتلون على أموال ليست لهم أصلًا هم استلبوها إما من أخواتهم أو من أخ لهم ضعيف مغلوب على أمره، وهذا يترافع يقول أمي تكون عندي، أنا أولى منك بخدمتها..! فسبحان الله شتان بين هذا وهذا.

(**والجبت قال الحسن: رنّةُ الشيطان إسناده جيد**): هنا قال بعض أهل العلم أن هذه اللفظة فيها تصحيف، ما معنى تصحيف؟ : أي ما يسمى في عرفنا الحالي خطأ مطبعي، في السابق ما كان في مطابع

وإنما كان هناك نَقلَة.. نسخ، النسخ يكون يدوي بخط اليد، فإذا أخطأ الناسخ يسمى خطؤه في عرف المتقدمين تصحيفًا، وفي عرفنا الحالي إذا وُجدت آلات ومطابع يسمى خطأً مطبعيًّا، ولو أطلق عليه تصحيف تجوّزًا فلا حرج.

قال بعض أهل العلم هنا أنه تصحيف، والمعنى الصحيح أن الحسن قال: "إنّه الشيطان" ليس "رنّة الشيطان"، أين الخطأ؟ في الراء، وهذا وارد، قد تكون مثلًا الألف مائلة أو انمسح جزء منها، فظن الناسخ أنها راء، فالذي استظهره بعض أهل العلم أن هذه اللفظة طرأ عليها التصحيف والصحيح أن الحسن قال: "إنّه الشيطان".

ما وجه الشبه بين العيافة والطرق والطيرة، ما وجه شبه هذه الأمور بالسحر؟

وجه الشبه بين السحر وهذه الأمور الثلاثة أنهم يشتركون في كونهم شعوذة ودجل وخداع وكذب وتخرُّص ورجم بالغيب، فتجد مثلًا أن هذه الأشياء قد تصيب مرة وتخطئ مئات المرات، كما أن الساحر قد يصدق في كلمة ويضيف عليها مئة كذبة، فهذا وجه الشبه بين هذه الأمور والسحر.

(والجبت: قال الحسن إنه الشيطان): بناء على التعبير هذا يوافق بذلك ما قاله بعض السلف في تفسير الجبت، فمر معنا أن الجبت فُسِّرَ بالكاهن والسحر والساحر والشيطان والشيء المستقذر الخبيث، وكذلك قد يُعطى معنى الطاغوت أحيانًا ما تجاوز به الحد من متبوع أو معبود أو مُطاع.. هناك عدة تفاسير للجبت.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (من اقتبسَ شُعبةً من النجوم؛ فقد اقتبسَ شُعبةً من السِّحرزاد ما زاد).(١) رواه أبو داود وإسناده صحيح

---

(١): **(من اقتبس)**: أي من تعلّم، **(شُعبةً من النجوم)**: أي شيئًا من علم النجوم، **(فقد اقتبس شعبةً من السحر)**: أي فكأنما تعلّمَ شيئًا من السحر، **(زاد ما زاد)**: أي أن جُرمه كلما زاد في التعلم تزيد عقوبته بقدر هذا التعلم.

علم النجوم ينقسم إلى قسمين: علم يباح تعلمه. وعلم يحرم تعلمه.

العلم الذي يباح تعلمه: كأن تعرف مثلًا النجم الذي تستدل به على جهة الشمال أو الذي يُستدل به على جهة القِبلة، فهذا مما لا حرج فيه وهذه موجودة في علم النجوم ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾. [النحل]

والعلم الذي يحرم تعلمه من علم النجوم: هو العلم الذي يستدل به على التغيرات الفلكية، ويستدل به على الأحداث الأرضية وهذا هو عين علم الأبراج.

يعني أن يخرج هناك نجم معين أو تظهر هناك ظاهرة فيقول: سيقع كذا أو يحصل كذا أو ما شابه ذلك، فهذا من التكهن.. هذا علم يحرم تعلمه، وسيأتي معنا إن شاء الله باب مستقل سنتحدث فيه عن أحكام علم النجوم بالتفصيل إن شاء الله تعالى.

إذن علم النجوم لا يخلو من هذين النوعين: إما أن يكون علم يُباح تعلمه أو علم يحرم تعلمه.. لعلكم تسمعون الآن بعلم الأبراج؛ الحوت، السرطان، الجدي.. فتجد أنه يقول: من كان مواليد كذا وكذا فبرجه كذا ومن كان برجه كذا فصفاته أنه طيب وأنه عاطفي..ووإلخ، وتجد أنها تخالف الحقيقة..

رجل عاطفي وهو صاحب مشاكل سريع الغضب سريع الانفعال ما يتحدث معه أحد إلا ويفقأ عينه.. فهذه مشكلة كذلك..

- أخ: هذا كذلك يدخل في التطير..

- نعم صدقت.

وترجمة هذا العلم كذلك حرام، فإذا قلنا أن هذا العلم حرام وتعلمه حرام فترجمته كذلك حرام وداخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.[المائدة]

- أخ: وكذلك علم الأحرف أن يأخذ اسمه واسم أمه ويجمع الأحرف ويقول له أنت نجمك ترابي..

- الشيخ: كل هذا مما يمنع شرعًا لأنه أصلًا كلها رجم بالغيب، وكم هم الذين يتأثرون، وهذه مصيبة فإذا وقع التأثر وقع الميل القلبي؛ وتحقق المنهي عنه، أنك تعزو الأثر لهذه الحسابات وتجعل لهذه الحسابات أثر في حياتك اليومية وفي طبيعة معاشك.

وليس ذلك عند النساء فحسب، كثير من الرجال وقع في مثل ذلك.. صحيح أنك تقول أن المرأة عاطفية وعندها تسرع دائم في اتخاذ القرارات ووإلخ.. فيُتصور وقوعها في مثل ذلك، لكن الإشكال في ناس تقول عقل ما شاء الله رزين وتجده لابس النظارات ينظر للبروج.. حقيقة مصيبة..

حتى يحدثني أحد الإخوة، يقول كانت هناك جريدة أو مجلة -لا أدري حقيقة- لكن هو شيء مقروء يُباع، ما فائدة أصلًا إلا أنها تذكر فيها الأبراج، وما أكثر إقبال الناس عليها، حتى أن هناك وقت معين إذا تأخرت عنه لن تجد لك نسخة، وحقيقةً مشكلة! وللأسف الشديد نحن لا نتحدث عن بلاد فيها يهود ونصارى، نحن نتحدث عن بلاد يصلون ويصومون وإذا سألته أجابك بملء فيهِ: أنا الموحّد الصائم القائم الراكع الساجد..! وتجده يتبع الأبراج وما شابه ذلك فالله المستعان!

الله سبحانه وتعالى جعل هذه النجوم زينةً وجعلها رجومًا للشياطين وجعلها علامات يستدل بها الناس أثناء سيرهم في الليل وما شابه ذلك، ولا شك أن هناك حكم عديدة لهذه النجوم، ولكن لم يجعلها الله سبحانه وتعالى علامات على الأحداث الأرضية.

وهنا مسألة: من اعتقد ما ليس بسبب سببًا هذا من قبيل الشرك الأصغر، وإذا اعتقد أن الأمر الفلاني هو بذاته يؤثر فهذا شرك أكبر..

مثلًا إذا طلع النجم الفلاني فقال هذا النجم هو سبب نزول المطر فهذا هنا جعله سبب، والله لم يجعله سببًا فهذا شرك أصغر.

وإذا قال هذا النجم هو بذاته يُنزل المطر فهذا شرك أكبر، فقد جعله مع الله ندًا ومساويًا وشريكًا لله عز وجل في هذا الفعل.

- أخ: ما معنى علامات؟

- الشيخ: علامات يُستدل بها مثلًا على الجهات، جهة الشمال، جهة القبلة، الغرب من أين، الشرق من أين وهكذا..

- أخ: بالنسبة للكسوف..؟

- الشيخ: بالنسبة للكسوف، هناك ما يسمى بالتلسكوب عبارة عن عدسات تقرب البعيد ويكون هناك صفاء في الرؤية، فأنت ترى عن طريق التلسكوب أمورًا فوق قدرة العين المجردة، فلو رأينا به الكسوف أو الخسوف ولم نره بالعين المجردة، ما دام أن العين المجردة لم ترَ الكسوف أو الخسوف فلا يترتب عليه أحكام صلاة الكسوف حتى وإن رأيته في التلسكوب، لأن الصلاة معلقة بوجود الكسوف أو الخسوف، وهذا معلق بالرؤية المجردة الطبيعية.. لأن الناس يشتركون في ذلك، لكن هذا التسلكوب تجد أنه قد يطلع عليه شخص متخصص وما شابه ذلك..

كذلك الهلال، الرؤية عن طريق هذه المناظير لا يُعتد بها في ثبوت الرؤية، لأنها قد ترى الهلال قبل ولادته وهذا فيه إشكال.. فتكون بالعين المجردة رجل السوي صاحب بصر سليم ورجل ذا خبرة يعرف أين منازل الهلال وأين مظان رؤيته ومتى يُرى وما حكمه إذا رئي في وقت معين وإذا رئي في وقت آخر ما هي الرؤية التي يعتد بها.. هناك أحكام..

لكن أنت الآن في بعض الأحيان يُرى الهلال في موضع فيكون لليلة الماضية وقد يُرى في موضع فيكون لليلة القادمة، فلك أن تتصور أن هذا في اختلاف المواضع في يوم واحد فما بالك بالنظر بالتلسكوب، وقد تراه وهو لليلة أخرى أو ما شابه ذلك.

الشاهد من ذلك: فإذا رُئي الخسوف والكسوف عن طريق هذه الآلات قبل تحققه برؤية العين المجردة فلا يترتب على الرؤية بالتلسكوب أحكام صلاة الخسوف والكسوف، وإنما تترتب إذا رؤي بالعين المجردة.

كذلك قد نسمع أن الفلكيين يقولون ويبثون عبر وسائل الإعلام أن في اليوم الفلاني في الساعة الفلانية سيقع كسوف أو خسوف، فتجد أن الناس بدؤوا يتجهزون في المساجد قبل أن يرونه بالعين المجردة.. هذا كله بدع، لأننا نؤمر بالذهاب إلى المسجد عندما نراه، لكنه الآن ما رُئي.

ثم بعد ذلك الخسوف والكسوف لا شك أنهما آيتان من آيات الله يخوّف بهما عباده، لكن الواقع الآن أصبحت ظاهرة فلكية الناس تتأمل وتجتمع وتلبس نظارات شمسية ويتفرجون ويأخذون بعض الصور..! يعني أصبحت فُرجة!

النبي ﷺ حينما وقع في زمنه مثل ذلك خرج يجر رداءه عليه السلام فزعًا خائفًا، والصحابة رضي الله عنهم كذلك كانوا يظنون أن القيامة قد قامت، يا الله انظروا إلى الفرق..!

– أخ: هذا ما ينطبق عليه حديث النبي ﷺ أن الله لا يجمع الله على عبد خوفين ولا أمنين..؟ وهذا لم يخف، جعلها سياحة..

- الشيخ: لا شك والله يا أخي الإنسان حقيقة يخشى على نفسه ويخشى على مجتمعه حيث أن هناك أمور تفشت وانتشرت وأصبحت من الظواهر التي لا يمكن إخفاؤها، تجد هناك إهمال وتقصير حتى أن ذلك ملاحظ في واقعنا.

[هنا يقطع صوت القصف كلام الشيخ أنس -تقبله الله- فيقول]:

أسأل الله أن يرد كيدهم في نحرهم يا رب، الله عز وجل قد يبتلي العباد ليعلم صدقهم من كذبهم، ونحن ولله الحمد في بيت من بيوت الله، وفي مجلس تحفنا فيه ملائكة الله عز وجل، وهذه نعمة عظيمة أن الله سبحانه وتعالى يهيئ لعبده مجلسًا مثل هذه المجالس، يذكر الله عز وجل فيها ويتدبر آياته ويتدبر أحاديث نبيه ﷺ، هذا لا شك أنه أمر عظيم..

ووالله أن هؤلاء ليسوا بشيء حتى وإن جاؤوا بالطائرات والراجمات، والله الذي لا إله غيره ولا ربّ سواه أن الله سبحانه وتعالى قلل من شأنهم وحقّرهم في أعيننا: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[آل عمران]..

ثم بعد ذلك لماذا يضطرب القلب؟! ولماذا يضطرب الفؤاد..؟! أهو خوف من الأعداء؟! أو هو عدم اشتياق للُقيا الله سبحانه وتعالى..؟!

لا شك أن الإنسان حينما يعلم ويوقن أن مآل المقتول في هذا الطريق -إن صدق السائر مع ربه سبحانه وتعالى- أن مآله جنان الخلد خالدًا فيها أبدًا، وهذه نعمة عظيمة نسأل الله سبحانه وتعالى أن يُهيئ لنا أسباب ذلك.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وللنسائي من حديث أبي هريرة : (من عقد عقدةً ثم نفثَ فيها فقد سَحَرَ، ومن سَحَرَ فقد أشرك، ومن تعلّق شيئًا وُكِلَ إليه).[١]

وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ألا أنبئكم ما العَضَه؟ هي النميمة، القالة بين الناس).[٢] رواه مسلم

ولهما عن ابن عمر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: (إنَّ من البيان لسحرًا).[٣]

= نكمل إذن ما تبقى.. (**اقتبس شعبة من النجوم**): بينّا أن الاقتباس هنا أي تعلم علمًا من النجوم.

والعلم قسمناه في مثل هذا الباب إلى قسمين: علم يباح تعلمه وعلم محرم.

(**زاد ما زاد**): أي أن الإثم والجُرم يكون بقدر ما وقع من المتعلم

(١): (**من عقد عقدةً ثم نفثَ فيها فقد سَحَرَ**): هذا الذي يعُرف ويُؤلف عن السحرة، أنهم يعقدون عقدًا ثم ينفثون فيها، ويذكرون بعض الأذكار الشركية والكفرية والعزائم والاستغاثات بالشياطين فيقع التأثير بقضاء الله عز وجل.

وهناك أمر كوني قدري، وأمر شرعي، قد يُطلق الأمر ويراد به القضاء ولا يُراد به الأمر (افعل).

وهذا الحديث تكلم عليه الحُفّاظ، والذي عليه أكثر الحفاظ تضعيف هذا الخبر، ولكن على فرض صحته فهذا من جملة النصوص التي أطلقت الحكم في السحر، وهذا النص -على فرض صحته- يؤيد ما ذهب إليه جمهور العلماء.

(**ومن سَحَرَ فقد أشرك**): هذا إطلاق يتبين لنا فيه حكم السحر.

(**ومن تعلق شيئًا وُكِل إليه**): وقد مر معنا أحكام تعليق التمائم، وقلنا أن التعلق إما أن يكون حقيقيًا حسيًا أو معنويًا والتعلق الحقيقي هو أن يضع القلادة عليه وما شابه ذلك، والتعلق المعنوي تعلق القلب يضع الشيء لكن قلبه متعلق معه.

(٢): وعن ابن مسعود ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (**ألا أنبئكم ما العَضَه؟ هي النميمة، القالة بين الناس**): هنا جاء التفسير في نفس السياق للعضه: وهي النميمة، والنميمة هي نقل الكلام بين الناس على وجه الإفساد..

وما وجه الشبه بينها وبين السحر؟

تجد أن المؤدى في السحر والنميمة واحد وهو التفريق، فتجد أن الساحر ديدنه أن يُفرق بين المرء وزوجه، وكذلك النمام ديدنه أن يُفرق بين الأشخاص وبين كذلك المرء وزوجه.. وقد يوضع السحر بغرض التفريق، ووُجِدَ.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٣): (**إنَّ من البيان لسحرًا**): البيان يُطلق ويراد به الكلام الذي يعبر به الإنسان عما في خَلَده وما في ضميره وبهذا المعنى يشترك فيه الكل، وهذا السياق المراد به التزيين.

(إنَّ من البيان لسحرًا): أي إن من الكلام المزيّن ما يكون سحرًا، وهو على نوعين: سحر حلال، وسحر حرام.

أن يُزَيّن الكلام لإحقاق الحق فهو سحر حلال.

أن يُزين الكلام لإحقاق الباطل فهو سحر حرام.

مستعدين نستمر؟ هههههه أذكر موقفًا حصل لي في جبهة من الجبهات، وتكرر لي هنا، وهذه المرة الثانية التي يتكرر هنا، وباعتبار الجبهات ممكن هذه المرة الثالثة أو الرابعة..

كنت في يوم من الأيام على جبل من الجبال في معسكر من المعسكرات، فكنت أحرّض الناس على الجهاد وهكذا وكان أمامي قرابة ثمانين أو مئة من إخوتي المجاهدين كانوا في معسكر التدريب، فكنا نتحدث عن اليقين والتوكل، في هذه الأثناء جاءت طائرة مروحية.. بدون مقدمات.. وأنا أتكلم عن اليقين والتوكل.. حقيقة ليس من الناسب يقين وتوكل ولما جاءت الطائرة أول من يهرب أنا هههههه ليس من المناسب.. لكن سبحان الله بدأت أتحدث معهم، وكلما اقتربت الطائرة ازداد الغضب، فبدأت أتحدث قلت والله أنهم ليسوا بشيء وأنهم كذا وكذا.. ففي هذه الأثناء رمت الصاروخ الأول هههههه وكان انفجاره قريب حقيقة، لكن من ناحية قطر الانفجار بعيد، لكن الصوت ودوي الانفجار كان قريب.. فالشاهد قبل الطائرة الناس متأثرين ومنسجمين والأسماع والأبصار والوجوه كلها متجهة إلي، فلما جاءت الطائرة الكل يلتفت الكل يبحث عن طريق بس للفرار.. فسبحان الله، قلت لهم لا بد للإنسان أن يقع في قلبه خوف من هؤلاء، ولكن أخذ الحذر لا يتنافى مع ذلك لأن الله سبحانه وتعالى الذي قال ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران]، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾[البقرة]، هو الذي قال: ﴿يَآأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[النساء]. لكن لا ينبغي للإنسان حقيقة أن يكون عنده خوف زائد.

يعني الآن مثلًا بالعكس هنا مكاننا أأمن، أنت في طابق أرضي يعني قبو.. الطائرات الآن أو الصواريخ والقذائف التي ترمى عن طريق الطيران، أأمن مكان لها الأقبية، إذا الله سبحانه وتعالى جعل هذا السبب نافع، وإلا أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة..

– سؤال: يحرم عدم الأخذ بالأسباب؟ نحن الآن إذا كنا في مقر أو في دائرة وبدأ الطيران، يوجد قبو، هل يحرم عدم النزول إلى القبو؟ نجد إخوة يقولون أنا أتمنى الموت.. فهل يحرم عدم الأخذ بالأسباب وعندنا أسباب؟

– الشيخ: والله حقيقة هذا يتنافى مع الأمر الشرعي، لذلك لماذا أُمر النبي ﷺ بصلاة الخوف؟ مع أن الصحابة كلهم يتمنون القتل في سبيل الله وأولهم محمد ﷺ: ((لوددت أن أغزو في سبيل الله فأُقتل، ثم أغزو فأُقتل، ثم أغزو فأُقتل)).[صحيح ابن ماجة]

والله عز وجل قال له: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ..﴾[النساء] إلى آخر الآية.. هنا أُمر النبي ﷺ بأن يأخذ حذره حتى في العبادة وجاء تخفيف في أفعال العبادة مراعاة لقضية الخوف والاحتياط..

– الأخ: نحتاج إلى فتوى منكم جزاكم الله خير، أحيانًا نكون في مجالس، فبعض الإخوة يظن أن هذا يتنافى مع حب الشهادة ويتنافى مع التوكل، فيطعن بمن يأمر بالنزول إلى القبو..

– الشيخ: لا بالعكس.. لذلك النبي ﷺ هو الذي كان يقول ((لوددت أن أغزو في سبيل الله فأُقتل...)) ولبس الدرع والمِغْفَر عليه السلام وأخذ بالأسباب، وكذلك الصحابة رضي الله عنهم من أكثر الناس حبًا لهذه الخاتمة.

– أخ: سيدنا عمر رضي الله عنه ما أخذ بالأسباب، قال من أراد أن تثكله أمه فليلقني..

– الشيخ: عمر رضي الله عنه يعلم أن الناس تخاف منه وأنهم ليسوا بشيء، وهنا لا بد أن يُظهر المسلم عِزَّته.

ولا نقول هنا الآن أن عمر أفضل من النبي ﷺ، لا، لكن النبي ﷺ في مقام التشريع، ولو خرج النبي ﷺ على نفس الهيئة التي خرج بها عمر لشق ذلك على الأمة، ويكون ذلك من قبيل التكليف بما لا يُطاق.

هو حقيقة لا بد أن يُفرق، نحن مر معنا في الدرس الماضي مشروعية التغرير بالنفس.. لذلك ما أجمل كلام ابن النحاس –رحمه الله– ذكر كلامًا لأهل العلم أُوجزه إجمالًا وقد أرويه بالمعنى لأن عهدي به بعيد.. يقول أن هناك من يريد أن يُقتل في سبيل الله يُريد منزلة الشهيد فقط، يُنصر الدين يُرفع الظلم عن المستضعفين يُذب عن أعراض المؤمنين.. هذا الشيء لا يُراعى.. فقط يريد منزلة الشهيد.. هذا له أجر، لكنه ليس كمن تعرّض للقتل في سبيل الله وهو يريد إعزاز الدين والذب عن أعراض المسليمن.. هناك فرق، لذلك قال النبي ﷺ كما في الصحيحين: ((إنَّ في الجنَّة مائةَ دَرَجَة أعَدَّهَا الله للمُجاهِدين في سَبِيل الله ما بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ).

لذلك وُجِد التفاوت، ولا شك أن المجاهدين حينما تُقلِّب ناظريك فيهم فهم يتفاوتون، منهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات، منهم الصوّام، منهم القوّام، منهم الذي عنده معاصي، منهم الذي عنده ذنوب خلوات، منهم الذي عنده أعمال سر من الأعمال الصالحة، فهم يتفاوتون ليسوا على درجة واحدة..

- أخ: (مَن قاتَل لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا فهو في سبيلِ اللهِ).

- الشيخ: لا شك، هو إذا لم يكن هناك قتال لإعلاء كلمة الله في الأصل..

لكن من يندرج تحت هذا الإطار العام ولكن هدفه فقط أن ينال درجة الشهيد، لا يريد شيئًا آخر، يقول بس أنا أريد أن أُقتل وأريد الحور العين وأريد كذا..

يعني هو لا شك أن الإنسان إذا تأمل.. أنت تعلم أن المقتول في سبيل الله سيكون له كذا وكذا.. فأنت لا تجعل هذا هو الأصل والغاية الأساسية، لأن هذه الأمور ستتحصل عليها، فلا تجعلها هي الأصل، اجعل الأصل هو إعزاز الدين ونصرة هذا الدين ونصرة المستضعفين وإحقاق الحق وإبطال الباطل وإقامة دول للإسلام وهكذا..

- أخ: أحيانًا ينقلب عندنا الحذر إلى تولية الأدبار..

- الشيخ: يعني يُنظر.. هناك حذر له مبرره الشرعي.. أضرب لك مثالًا: طائرة تقذف بحممها على المسلمين، أنت لست في مواجهة الآن مباشرة معك سلاحك العدو معه سلاحه، هذه مواجهة مباشرة هنا حقيقة الشجاعة والثبات.. لكن هو جبان أصلًا تجد أن بينك وبينه مئات الأمتار بل ممكن أن تصل إلى آلاف الأمتار، ويغير عليك بغتة وبطريقة سريعة، هذا جبن هو يعجز عن المواجهة..

لكن مثلًا رجل يجلس على مضاد للطائرات، أو رجل معه صاروخ أرض جو مضاد للطائرات ستينغر، سام ٧.. هذه الأنواع، نعم نقول هذا يثبت نعم.. هذا يجب عليه الثبات ويواجه، في كفاءة بين الآلتين أو السلاحين.. يجلس ثابت وكلما أغارت الطائرة واجهها.. لكن رجل بكلاشنكوف ولّا معه مسدس.. هو لا حرج الإنسان يتقي الله عز وجل بما يستطيع، وقد يُبارك الله سبحانه وتعالى في هذا

السبب توكلًا على الله، ولكن هذا الله سبحانه وتعالى قد يجري على يد العبد أمرًا خارقًا للعادة والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[القصص]، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[طه].. كل هذه تدل على أن هناك خوف فطري لا يؤاخذ عليه الإنسان، لكن الكلام أن يكون هناك خوف مقيت، خوف غير مبرر، خوف الباعث منه الإرجاف والتعظيم من شأن العدو، وهم ليسوا بشيء، لذلك كان للسلف الصالح مواقف رائعة حقيقة في مثل هذا الباب.. شيخ الإسلام ابن تيمية حينما قيل له أن الناس أعدوا عددهم وعدتهم لقتلك، فأخذ شيئًا من التراب ورماه هكذا.. وقال أنهم ليسوا بشيء.. يريد أن يربي نفسه.

ثم بعد ذلك هناك أمر مهم، الخوف الزائد الخارج عن الإطار والحد الشرعي قد يؤول بالإنسان إلى أن يُقتل وهو مدبر.. ولذلك هناك تقسيم وهو تقسيم اجتهادي أنا من عندي هذا.. لكن الواقع يحكيه:

الإقدام على قسمين والإدبار على قسمين:

هناك إقبال بالظاهر والباطن: مُقبل حقيقة ومعنى.. يعني جسده مُقبل وقلبه كذلك مُقبل يطلب القتل على هذه الصفة وهذه الهيئة.

وهناك إقبالُ في الظاهر إدبارٌ في الباطن: رجل مقبل، لكنه يقول يا الله يا رب والله إني ودّي أتزوج.. ودّي بس يا رب سنتين بس أعيش.. يا رب.. هو مُقبل.. هو يريد الإقبال لكنه ما زال عنده مشاريع.. يا الله يا رب والله ولدي ما بعد شفته يا رب تكفى ودّي أشوفه.. هكذا.. هذه صورة من صور الإدبار القلبي.

وقد يكون هناك إدبارٌ حقيقي إقبالٌ قلبي: حال التحرّف أو التحيّز أو الانسحاب التكتيكي، أمر الأمير بالانسحاب التكتيكي والعدو خلفك، ولكن قلبك مقبل على العدو تريد أن تواجهه.

وهناك إدبار حقيقي ومعنوي أو إدبار في الظاهر والباطن: هذا هو التولي يوم الزحف أو تولي الدبر على التقسيم الذي ذكرناه ومتى يشرع ومتى يحرم.

نكون بذلك أنهينا ما يمكن أن نذكره تحت هذا الباب، هذا والله تعالى أعلى وأعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الخامس والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

قبل أن نشرع في درس هذا اليوم أحب أن أعلق على أمر حري بكل مسلم أن يسارع وأن يبادر إليه..

لا يخفى على كريم علمكم أننا في شهر الله المحرم، وقد صح الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: ((أفضل الصيام بعد رمضان صيام شهر الله المحرم))[مسلم]، وأعظم أجر يناله الإنسان في هذا الشهر هو صيام يوم عاشوراء.

حينما قدم النبي ﷺ إلى المدينة فرأى يهود تصوم عاشوراء، فسأل عن سبب صيامهم لذلك اليوم، فبينوا أنه يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، فهم يصومون هذا اليوم شكرًا لله، فقال النبي ﷺ: ((نحن أولى بموسى))[مسلم]. فصامه ﷺ وأمر بصيامه.

وصح كذلك عنه ﷺ أنه قال: ((لئن بقيت إلى قابل لأصومنَّ التاسع)). وقد بيّن ﷺ أن صيام هذا اليوم يكفر الله به سنة كاملة قد مضت على المكلف، وهذا محض كرم وجود ومنة من الله عز وجل.

وقد تكلم أهل العلم على مراتب صيام يوم عاشوراء وجعلوه على ثلاثة مراتب:

المرتبة الأولى: وهي المجزئة، ويتحصل الإنسان إن أداها على الأجر المرتب على صيام يوم عاشوراء، والصفة هي أن يفرد يوم عاشوراء بالصيام، أي أن يصوم فقط يوم عاشوراء، ومن اقتصر على صيام يوم عاشوراء أدرك الفضل وخالف الأولى.

الدرجة الثانية: أن يصوم يوم عاشوراء ويومًا قبله أو يومًا بعده، وهذه وقع الخلاف فيها بين أهل العلم، والذي عليه الصواب –والله تعالى أعلى وأعلم– أن الأصح من حيث السند والرواية صيام عاشوراء ويومًا قبله، والحديث ثابت [في الصحيح]: «لئن بقيت إلى قابل لأصومنَّ التاسع»، وأما رواية: «لأصومنَّ يومًا قبله أو يومًا بعده» هذه تكلم فيها أهل العلم.

الصورة الثالثة: أن يصوم يوم عاشوراء ويومًا قبله ويومًا بعده. وهذه عدّها أهل العلم من أكمل الصفات.

وإذا علمنا أن تقدُّم يوم عاشوراء (بأن يصوم الإنسان التاسع) هي ثابتة في الصحيح، بقي عندنا صيام اليوم الذي يلي العاشر من محرم، فإذا نظرنا إلى عموم قول النبي ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان صيام شهر الله المحرم» علمنا أن إيقاع عبادة الصيام في عموم هذا الشهر له فضيلة، فإذن نقول لا حرج أن يصوم الإنسان بعد عاشوراء، وأن الصيام قبل عاشوراء بيوم فهذا ثابت، ولو أراد الإنسان أن يكثر من الصيام في هذا الشهر فكذلك الفضيلة في ذلك ثابتة.

إذن هذه هي الصفات أو هذه هي الدرجات أو هذه هي مراتب صيام يوم عاشوراء، وقد ذكرها ابن القيم –رحمه الله– وأجاد وأفاد، فأهيب بإخواني المسلمين ألّا يفرّطوا في إدراك هذا الفضل، يكفر الله سبحانه وتعالى بصيام يوم عاشوراء السنة الماضية، وهذا من رحمة الله عز وجل ومن كمال جوده وإنعامه على عباده أن هيّأ لهم أسباب العفو والمغفرة، حيث أن الله سبحانه وتعالى هيّأ لهم في بداية هذا العام الجديد أن يقدموا بين يدي الله عز وجل طاعةً تكون سببًا لمحو ما اقترفه الإنسان في عامه الذي مضى وانقضى، وهذا من كمال رحمة الله عز وجل.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: باب ما جاء في الكُهَّان ونحوهم.(١)

---

(١): سيبين المصنف –رحمه الله تعالى– حكم الكاهن وحكم الإتيان إليه، ومن في حكم الكاهن وما حكم الإتيان إليه.

فسيورد المصنف –رحمه الله– نصوصًا سنبين فيها حكم الكاهن وحكم العراف، وقد تحدث أهل العلم على تعريف الكاهن والعراف، فجمعٌ من أهل العلم جعلوا الكاهن والعراف بمعنى واحد، أي أن كل كاهن عراف وكل عراف كاهن.

وبعضهم قال في الكاهن والعراف كما قيل في الإيمان والإسلام، أنهما لفظان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا..

فالكاهن: هو الذي يدعي علم الغيب أو علم المستقبل عن طريق الجن والشياطين.

والعراف: هو الذي يستدل على مكان الضالّة والمال المسروق بطرق خفية.

يعني مثلًا رجل سرقت منه سيارته فذهب إلى رجل، فقال: سيارتي سرقت فقال: أنا أعلم أين هي، هي في (شارع تل أبيض)، فهذا يسمى عرافًا، يستدل على مكان الضالّة بأمور خفية.

لكن رجل فقد راحلته، ثم جاء إلى رجل، فقال له فقدت راحلتي، فقال له: أين كنت تضعها؟ فقال مثلًا في الحظيرة، فذهب معه إلى الحظيرة، وأخذ ينظر إلى أثر هذه الراحلة ويتتبع هذا الأثر حتى وصل إلى بيت من البيوت فقال: راحلتك هنا، هل هذا يسمى عرافًا؟ لا، ما يسمى عرافًا، هذا يسمى قصّاص الذي يقصّ الأثر، ويسمى في بعض البلدان بالمرّي أو ما شابه ذلك..

فما الفرق بين القصّاص والعراف؟

الفرق بينهما أن العراف: يستدل على مكان الضالّة بأمور خفية، وهي في الغالب تكون عن طريق الجن.

وأما القصّاص -ومن في حكمه-: فهو يستدل على مكان الضالّة بأمور محسوسة مُدركة بالحس كأن يتبع أثر.

عندنا مسألة أخرى: هب أن رجلًا عنده أرض زراعية ويريد أن يحفر بئرًا فيها، وجاء برجلين -تأملوا معي يا إخوة- أحدهما أخذ يتحسس وينظر ويرفع الحجارة ويأخذ التربة وينظر فيها ويحفر قليلًا ثم يترك، ثم بعد هذا البحث والتقصي قال: احفر هنا.. هذا يسمى قصّاصًا، لأنه استدل على مكان الماء بأمور محسوسة، وهذا يمكن إدراكه بطرق معينة، وكبار السن وأصحاب الدُربة يدركون ذلك، وبعضهم بالتجربة، وهذا ليس بشيء مجهول، شيء محسوس، فهناك جاذبية ومعادلات فيزيائية..

لكن جاء رجل عنده مكتب، فجاءه صاحب الأرض، فقال يا أخينا يا الحبيب عندي أرض زراعية في مكان كذا وكذا أريد أن أحفر بئرًا فيها، فأخذ يغمض عين ويفتح الأخرى، وقال اذهب إلى الزاوية الشرقية واخطُ أربع خطوات إلى جهة الشمال ونصف خطوة إلى جهة الوراء مثلًا ثم احفر.. هذا عراف.

إذن فنحن نعلم أن الذي يستدل على مكان الضالّة أو المال المسروق عن طريق المحسوس فهذا يسمى قصّاصًا أو ما شابه ذلك، وإذا كان يستدل على مكان الضالّة أو الشيء المسروق بطرق خفية فهذا يسمى عرافًا.

والكاهن أعم، فالكاهن يُخبر عن المغيَّبات عن طريق الجن والشياطين، وتجد أن في بعض المجتمعات يشتهر ذلك، وأدخل أهل العلم بعض الممارسات التي تصدر مثل ما يسمى بقراءة الكف وقراءة الفنجان.. تأتي امرأة في الغالب تكون عجوز شمطاء تأخذ الفنجان بعدما يتم شرب ما فيه ويبقى أثر يسير ثم تأخذ هذه العجوز بتقليب الفنجان، وتنظر ماذا يظهر لها من التصاوير على جدران الفنجان، فإذا رأت مثلًا صورة مطرقة أو صورة نار تشاءمت وقالت لها إن كنتِ دخلتِ في تجارة فستخسرين، وإن كنتِ في سفر فسيقع لكم حادث وستنقلبون وستموتين وستتقطعين..

وإن رأت مثلًا أثناء تقليب هذا الفنجان صورة وردة أو ما شابه ذلك بدأت تبشرها.. إن دخلتِ مثلًا تجارة ستربحين وستجنين أموالًا طائلة.. هذا كله كهانة وتكهن.

فهذا بالنسبة للكاهن والعراف..

والكاهن له طرق عن طريقها يُخبر بالأمور المغيبّة، منها ما يأتيه عن مسترق السمع، وعن طريق التخرّص والدجل فيتخيل ويتوقع توقعات..

والطريق الثالث عن طريق القرين، لذلك عمر ﷺ سأل رجلًا -قبل الإسلام-: "ما أعجب ما أخبرتك به جنّيتك؟" يقصد بذلك القرين.

والعلم الذي يدعيه الكاهن فهو لا يخلو من ثلاث:

علم غيب مطلق: وعلمنا ما حكم من يدعي علم الغيب المطلق أنه كفر أكبر لأن الله سبحانه وتعالى هو وحده الذي يعلم الغيب ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَٰوٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهَ﴾[النمل]، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[لقمان]، قال أهل العلم أن هذه الأمور الخمسة تدور حول علم الغيب المطلق الذي لا يعلمه أحد إلا الله، لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، بل إن الله سبحانه وتعالى تفرد بعلمه.

إذن فهو لا يخلو إما أن يدعي علم الغيب المطلق أو علم الغيب النسبي.

وبينّا معنى علم الغيب النسبي: هو قد يكون مثلًا وقع وانتهى وانقضى فعلم به البعض وغاب عن البعض، أو أنه في نفس الوقت هناك أمور تحدث في الحال يعلم بها البعض ويغيب علمها عن البعض.

والقسم الثالث: علم المستقبل الذي في طريقه للحدوث والحصول، وهذا دائمًا الذي يأتي به مسترق السمع، تجد حينما يأتي الأمر يسترقه الشياطين ثم بعد ذلك يُلقون بذلك الخبر عند ذلك الساحر فيضيف عليه مائة كذبة.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (من أتى عر افًا فسأله عن شيء فصدّقه بما يقول، لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا).[١]

= **وحكم** الكاهن في الإسلام أنه كافر مرتد عن دين الله لادعائه علم الغيب.

والكاهن حينما يدعي علم الغيب المطلق فهو كافر بالإجماع.

وأما علم الغيب النسبي فهذه الصورة اختلف فيها أهل العلم، منهم من قال أن مدعي علم الغيب النسبي كافر حكمه كحكم علم الغيب المطلق، ومنهم من قال أنه دون ذلك، والصحيح -والله تعالى أعلى وأعلم- أن من ادعى علم الغيب النسبي فحكمه الكفر، ومن صدقه يقع في الكفر كذلك.

(١): **عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (من أتى عرافًا فسأله عن شيء فصدّقه بما يقول، لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا)**: هنا جاء في هذا الإسناد الجهالة، جهالة بعض أزواج النبي ﷺ، وأهل العلم يقولون أن جهالة الصحابي لا تضر بإسناد الحديث، بناءً على ذلك جهالة الصحابي ليست بعلة قادحة يُعل بها الحديث، فالصحابة كلهم عُدول.

(من أتى عرافًا): الخطاب عام يشمل الذكر والأنثى والصغير والكبير، والأصل في خطابات الشرع أنها تشمل الجنسين إلا إذا دل دليل أو اقترنت قرينة تخصص أحد الجنسين بهذا النص، والآن لم يوجد فيبقى الأمر على أصله، ولكن هنا نحن قلنا كذلك أنه يشمل الصغير والكبير.

وهنا مسألة اختلف فيها العلم: هل تقع الردة من الصغير أم لا؟

وتحرير محل النزاع في هذه المسألة أن يُقال أن الردة تقع من الكبير اتفاقًا، ولا تقع من الصغير دون سن التمييز اتفاقًا، واختلف أهل العلم هل تقع الردة من المميّز أم لا، قولان لأهل العلم:

القول الأول: قالوا أنها لا تقع، والنبي ﷺ قال: رُفِع القلم عن ثلاث وذكر منهم: (والصبي حتى يبلغ)، وهذا ما عليه مذهب أحمد.

والقول الآخر: قالوا أنها تقع منه، ولكن تؤجل أحكامه إلى البلوغ، أي أنه يُستتاب بعد البلوغ فإن تاب وإلا قُتل على الردة.

ثمرة هذا الخلاف: من يقول أنها لا تقع منه، لو مات مثلًا أبوه المسلم يرثه.. لكن من قال أنها تقع منه الردة، لا يرث، فليس هناك توارث بين المرتد والمسلمين.

كذلك لو كان هذا الصبي عنده زوجة -يُتصوَّر- تجد الابن مثلًا في العاشرة وعند العم ابنة في التاسعة أو في الثامنة فيقول أحد الأخوين للآخر يقول لابن أخيه زوجتك ابنتي فلانة، ينعقد النكاح إذا تم شروطه وأركانه، فلو وقعت الردة من الصبي المميز دون سن البلوغ بعد هذا النكاح تُحل أواصر النكاح إذا انقضت العدة..

طبعًا هنا البنت الآن لا تحيض فتكون عدّتها ثلاثة أشهر ﴿وَالَّٰئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّٰئِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[الطلاق] هنا العدة تكون ثلاثة أشهر، فبعد انقضاء العدة وهذا الصبي لم يرجع إلى الإسلام فهنا على الصحيح -وهناك خلاف طويل في هذه المسألة- لكن الصحيح أنها تنتظر أيام العدة فإن رجع إلى الإسلام في عدتها فهو أحق بها من غيره بدون عقد وبدون مهر، وإذا انقضت العدة فهي مخيرة إما أن تنتظره حتى يعود إلى الإسلام فإن عاد عادت إليه بدون عقد ومهر، وإن انقضت العدة ولم تنتظر زوجها جاز لها أن تنكح ما شاءت من الأزواج.

ودليل ذلك ما فعله النبي ﷺ مع العاص زوج زينب، فإن النبي ﷺ أرجع زينب إلى زوجها بعد مدة طويلة ولم يُحدِث النبي ﷺ عقدًا جديدًا. والرواية التي جاء فيها أن النبي ﷺ أعادها بعقد جديد لا تصح، بل الرواية الصحيحة أنه لم يحدث عقدًا جديدًا.

(من أتى عرافًا فسأله عن شيء فصدّقه بما يقول): رجل عراف جاءه شخص قال ما أدري وين مخبز الأندلس..؟ فقال العراف مخبز الأندلس تلف ثم يمين تلف يسار تروح.. هذا لا تُقبل له صلاة؟

طبعًا هنا جاء "شيء"، وهذه نكرة في سياق (من أتى عرافًا فسأله عن شيء) في سياق الشرط فتفيد العموم.. هو لو كان لا يعرف فلا شك الإعذار بجهالة الحال واضح، لكنه يعرف أنه عراف لكن ما زالوا مثلًا يتحرّون عنه يريدون أن يلغون الحسبة وما شابه ذلك..

إذن نقول هنا: فسأله عن شيء من أمور الغيب –التي تتعلق بالغيب–، فهذا يختلف عن إن سأله عن شيء آخر من أمور الدنيا.

مثلًا رجل مسلم ضعيف وأخوه عراف –مثلًا–، فهو رفع أمره إلى السلطان، ونظرًا لكثرة التكاليف ما جاءت فقرة لاعتقاله في هذه الفترة مثلًا.. هذا يعيش معه فجاء قال وين أمي –مثلًا–؟ قال في الغرفة فوق.. صدقه أو ما صدقه؟ صدّقه. لكن هل هذا يدخل في هذا العموم؟ لا، لا يدخل في هذا العموم.

فالمراد هنا: سأله عن شيء له ارتباط بالغيب.

فتأتي هنا مسألة أخرى: (فصدّقه): إذا حصل التصديق هذا كفْر حتى بدون السؤال. وإذا حصل السؤال بدون تصديق فهذا الذي لا تُقبل له صلاة.

مثال: رجل جاء إلى عراف أو إلى كاهن فقال له أعطني حالتي بعد سنة أو سنتين؟ كيف هي حالتي المادية وحالتي الصحية من الآن إلى بعد سنتين؟

هذا أخبار عن غيب.. فبدأ العراف يقول ستلتقي بفلان وجارك هذا سيأتيك ضرر منه، فغيّر بيته هذه كلها علامات تصديق، فهو صدقه في ادعائه لعلم الغيب في المستقبل وهذا بحد ذاته مناط كفري.

لكن -كما ذكرنا- هب أن رجلًا نريد أن نتحقق منه، وردت عندنا معلومات أن فلان من الناس كاهن، ولكن ما زلنا في طور التحقق والتثبت، فقلنا قد نضطر في بعض الأحيان أن نرسل إليه أحد الأشخاص ليتثبت منه، هذا السائل الآن ما حكم سؤاله هنا؟

جائز، لأن هذا من قبيل التحري وكذلك لإزالة هذا المنكر، ولكن قلنا أن مثل هذا يُصار إليه في حال الاضطرار، والضرورة تُقدّر بقدرها، فإذا كنا نعلم حقيقة هذا الرجل بسؤال أو سؤالين لم يجز لنا الزيادة على ذلك، يعني خلاص سؤال سؤالين بس، بعد ذلك نحن نتأكد أن ذلك الخبيث يدعي علم الغيب.

فلو تحقق بسؤال أو بسؤالين، فلا يُشرع الزيادة على ذلك، لكن لو سألنا سؤالين وثلاثة وأربعة ولم نتبين بعد فلا حرج من الزيادة، وإن أتيناه مرة ولم يثبت من المرة الأولى لا حرج من الذهاب مرة أخرى، لكن بغرض التحري والتثبت لأجل إذا بان أمره تعاملنا معه المعاملة الشرعية.

- أخ: لو سأله ثلاث أسئلة وتثبت أنه يدعي علم الغيب ثم سأله سؤالًا رابعًا؟

- الشيخ: نعم، هنا يدخل في عموم هذا النص.

(فسأله): إذا كان مجرد سؤال هنا لم تقبل له صلاة أربعين، وإذا اقترن التصديق بالسؤال فقد كفر.

هنا يُفرق بين السؤال -مجرد السؤال-، وبين السؤال مع التصديق..

والحديث له رواية كذلك "فسأله" فقط..

هنا قوله ﷺ **(لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا)**: النفي هنا ليس نفي الإجزاء وإنما نفي الثواب.

وهنا مسألة نريد أن نذكّر بها: أن من سأله عن أمر من أمور الدنيا لا علاقة له بالأمور الغيبية مع علمه بكونه كاهن فهذه لها حكمها، وكذلك من سأله فصدّقه في أمر غيبي فهذا له الحكم المقرر الذي قررناه قبل قليل.

(لم تقبل له صلاة أربعين يومًا): هنا النفي نفي الثواب، وبناءً على ذلك نفهم أن مجرد السؤال ذنب ومعصية لا يكفر بها الإنسان، ولكن التصديق إذا صدّقه في أمر غيبي أخبر به فهذا كفر، فليس هناك حاجة أن تقول له لا تُقبل له صلاة، لأن المرتد أصلًا لا تُقبل له عبادة وهذا محل إجماع كما حكى الإجماع الماوردي -رحمه الله- وغيره من أهل العلم.

فهنا المنفي هو الثواب، وبناءً على ذلك هو مطالب بالصلاة، ومخاطب بها ويجب عليه أداءها، ولو أداها برئت ذمته من المطالبة ولا ثواب له.

بعضهم يسمع أن من شرب الخمر لم تُقبل له صلاة كذلك أربعين، فتجد بعضهم يقول والله راحت علينا.. تلقاه سهران يوم الخميس الله المستعان فقال يالله هذه إجازة أربعين يوم..! أصبح نفاس.. فقال أربعين يوم ما نصلي.. لا، لا، هنا يعامل أنه تارك للصلاة ويأخذ أحكام تارك الصلاة.

هنا .(لم تُقبل له صلاة)، لم يأتِ النص (لا تصلي)، وإنما لا يُثاب على صلاته أربعين يومًا.

والأصل هنا أن الصلاة جاءت مُنكَّرة، فتشمل الفرائض والنوافل، وقلنا أن الإنسان في مثل هذه الحال يجب عليه أداء الصلاة والتوبة إلى الله سبحانه وتعالى والإكثار من الاستغفار ويمكث هذه المدة لا يُثاب على صلاته.

وهنا جاء في النص ذكر الصلاة فقط، فلو صام أو حج أو تصدق، يُقبل، لأن النص هنا ذكر الصلاة خاصة ولم يذكر غيرها، وكان في الوسع أن يُقال لم تقبل له عبادة.

- أخ: هل يقصد بها صلاة الفريضة أو صلاة التطوع أو الاثنين؟

- الشيخ: والله ظاهر النص (لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا) وهنا جاءت الصلاة منكرة، فإذا تعاطينا معها من حيث الدلالة فهي تشمل جنس الصلاة، لكن الذي يظهر -والله تعالى أعلى وأعلم- أنه لم يرد التفريق بين الفريضة والنافلة.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد).(١)

وللأربعة والحاكم، [وقال صحيح على شرطهما] عن أبي هريرة ﷺ: (من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد).(٢)

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفًا.

---

(١): انظروا الفرق بين النصين: الأول جاء فيه ذكر السؤال ثم التصديق (لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا)، وهنا فقط (**فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**)، فنعلم أصلًا أن التصديق بالكُهَّان ومن في حكمهم على أنهم يعلمون الغيب هذا كفر مستقل سواءً صحب ذلك الذهاب إليهم أم لا، فإذن عندنا سؤال بدون تصديق، وعندنا سؤال مع التصديق، وعندنا تصديق بدون السؤال.

وصور التصديق التي تظهر ممن أتى الكاهن فسأله تكون بأمور:

الأمر الأول طمأنينة القلب بقوله، أن يطمئن قلب السائل لجواب الكاهن، فهذه صورة من صور التصديق، كذلك أن يصرح السائل بلسانه على أن قول الكاهن صدق أو أن قوله حق، وكذلك من صور التصديق إذا قال له أن الأذى سيأتيك مثلًا من جارك فانتقل من بيته لبيت آخر، قال له إن فعلت كذا جاءك كذا، فترك فعل ذلك الشيء، قال إن لم تفعل كذا لجاءك كذا فمباشرة بادر بالفعل فهذا صورة من صور التصديق وهكذا.

(٢): (**من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**): هنا جاء النص بذكر العراف والكاهن وبينّا الفرق بينهما، والكاهن حكمه كما بينّا الكفر سواء ادعى العلم المطلق أو

العلم النسبي، وأما السائل إذا صدقه في علم الغيب المطلق فهذا التصديق يعد كفرًا أكبر، وتصديقه في علم الغيب النسبي هذا كذلك على الصحيح كفر أكبر، لأن النص جاء مطلقًا فجعل تصديق الكاهن في الأمور الغيبية يُعد كفرًا بالله عز وجل.

– أخ: شيخ، نساء اثنين يشربون قهوة، وجاءت واحدة صارت تقرأ لهن الفنجان، وهذيج تصّدق بيها.. إيش حكمهم هذولا؟ هذولا يدخلون في الكفر الأكبر؟

– الشيخ: هذا تكهّن هذا كله تخرّص من علم الغيب، فإذا قرأت الفنجان مثلًا قالت أنتِ ستتزوجين، وستتزوجين رجلًا غنيًا وفارسًا شهمًا ويسافر بك إلى كل أنحاء العالم.. مثل ما تتخيل كل النساء.. فنعم هذا ادعاء لعلم الغيب، وهذه الأمور أصلًا الكفر فيها يقع من الجاد والهازل ليس هناك فرق بين الجاد والهازل، فكل من تخرّص وادعى علم الغيب عُدّ ذلك وقوع منه في مناط كفري سواءً كان جادًا أو هازلًا.

– أخ: شيخ، مجرد العادة، تضع الصحن على الفنجان وتحركه وتقلبه.. بس ما تتكلم.. لكن عادة أنها تضع الصحن على الفنجان وتحركه وتقلبه.. تنظر فيه بس.. هذا فعل النسوان أغلبهم..

– الشيخ: نعم، داخل في الكهانة، كل ذلك يدخل في الكهانة، فمن ظن أن ما يعلق على جدار الفنجان مما يبقى من حثالة القهوة ويجعل هذه الصور التي تعلق في جدار الفنجان هي دليل على مستقبل صاحب هذا الفنجان، فهذا ضرب من أضرب التكهن، ونحن بينّا أن الكهانة هي ادعاء لعلم الغيب، ومن ادعى شيئًا من علم الغيب فقد نازع الله سبحانه وتعالى في صفة من صفات الله.

كذلك من يقرأ بالأعين، فيقول مثلًا رأيت في عينك أنك سعيد فهذا تكهن، من أين جاء بهذا؟! أنت لا تعرف ما سيقع لك بعد ساعة وهذا يعرف ما سيقع لك بعد سنوات! فيعني الله المستعان

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وعن عمران بن حُصين مرفوعًا: (ليس منّا من تَطيّر أو تُطيّر له، أو تَكهّن أو تُكهّن له، أو سَحر أو سُحر له، ومن أتى كاهنًا فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ).(١) رواه **البزار بإسناد جيد**

مر معنا أن التطير هو التشاؤم بالطير أو بغيره من المسموعات أو المرئيات أو الصور وما شابه ذلك. وقلنا أن العيافة هي التطير أو التشاؤم بالطير خاصة..

(١): وهنا يقول: (**من تَطيّر أو تُطيّر له**): ما معنى أو تُطيّر له؟

يعني مثلًا رجل يسكن مع آخر فكان أحدهما يريد السفر، فخرج صاحبه الذي لن يسافر معه، فلما خرج وجد رجل أعمى محترق الوجه مقطوع الأطراف مجدوع الأنف فلما رآه أول ما فتح الباب، رجع لصاحبه قال والله إني ناصح لك أمين، لا تسافر.. خير إن شاء الله؟ قال والله فتحت الباب فرأيت كذا وكذا وهذا نذير شؤم، هذا يسمى تُطيّر له.

أو أنه قال له اذهب واخرج فانظر إن وجدت خيرًا فهذا فأل، وإن وجدت غير ذلك فهذا نذير شر. فهذا كذلك يدخل في عموم قوله: (من تَطيّر أو تُطيّر له).

(**أو تَكهّن أو تُكهّن له**): كذلك نفس السياق، رجل مثلًا تكهن، قال والله أظن أنني بعد سنتين كذا وكذا وسيقع لي كذا كذا.. أخبر عن أمر غيبي.

(**أو تُكهّن له**): قيل له مثلًا عن طريق الفنجان أو عن طريق الكف أو ما شابه ذلك أنه سيقع لك أو سيقع عليك في المستقبل كذا وكذا.. كل هذا من قبيل الإخبار عن أمر مُغيّب، وهذا داخل في الكهانة التي بينّا حكمها.

– أخ: شيخ، تفسير الأحلام هل يدخل ضمن الكهانة؟

– لا لا، تفسير الأحلام مبناه على رؤيا تُعرض ثم ينظر الرائي إلى الرؤيا فيقرنها بدلالة النصوص لأنها أولًا إذا وُجد تفسير أو معنى لها من نصوص الوحيين فسّر المؤول هذه الرؤيا استنادًا على نصوص الوحيين.

وكذلك المؤول دائمًا يجتمع فيه أمور ثلاثة: العلم بالكتاب والسنة، والعلم بحال الرائي، والفراسة.

ولا شك أن المعبرين يتفاوتون فمنهم من تكون فراسته قوية، وعلمه وإحاطته بالكتاب والسنة ضعيفة، ومنهم من تكون إحاطته بالكتاب والسنة قوية، وفراسته ضعيفة، فكلما ضعف الإنسان في أحد هذه الجوانب الثلاثة لا شك أن تعبيره سيكون أضعف، وكلما قوي كان تعبيره أقوى وهكذا.

ولكن حقيقة هي تعتمد على هذه الأمور الثلاثة، وتعرفون قصة ابن سيرين حينما جاءه أحدهم وقال يا إمام رأيت أني أؤذن، فقال أبشر فإنك ستحج، واستند في هذا التعبير على قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾[الحج]، فجاء آخر فقصّ عليه نفس الرؤيا فقال ابن سيرين أمسكوا صاحبكم فإني ما أراه إلا سارق ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾.[يوسف]

فهنا الرؤيا واحدة والواقع مختلف والنص مغاير للآخر، فهذا يدل على أن الرؤيا هي عبارة عن علم بالنص ومعرفة لواقع الرائي وقوة في الفراسة.

هذا من باب الاستطراد: كان هناك أحد المعبرين وكان من أهل العلم ومن أهل الحديث وقد فتح الله سبحانه وتعالى عليه في التعبير، فكنا في مجلس معه فقال أيها الناس لقد عرضت علي امرأة رؤيا فأريدكم أن تعبّروها لي –هو معبِّر ولكنه أراد أن يمتحننا–، فقال: اتصلت علي امرأة وقالت لي: يا شيخ قمت فزعة من النوم.. قال: خيرًا إن شاء الله ماذا رأيتِ؟ قالت: رأيت زوجي ووجهه أسود وفيه سواد مخيف جدًا.

فكل من كان في ذلك المجلس حينما سمع قال أعوذ بالله، تبسّم الشيخ وقال أفتوني في الرؤيا.. فأحدهم قال هذا خبيث وهذا مجرم، لعله زنى بجارته وهكذا.. وأخذ الكل يتكلم..

فلما سبحان الله رجع الدور إلى الشيخ قال: يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[النحل].. فيقول: سألت هذه المرأة حينما قصت عليّ رؤياها هل أنت حامل؟ قالت نعم، قال خيرًا إن شاء الله لعلك إن شاء المولى ترزقين ببنت، وذكر لها الآية.

فما شاء الله بعض الناس على طول يعطيك التأويل، ليس عنده إحاطة بالقرآن ولا بواقع الرائي وليس عنده حتى فراسة، فالنتيجة ما هي؟ تعبير صفر.. هذا كذا وهذا كذا..

- أخ: هل يدخل تأويل الرؤى في باب الفُتيا؟

- الشيخ: نعم، حتى أن هناك كلام للإمام الشافعي -رحمه الله- عنف فيه، قال كيف يتلاعب بسنة النبي ﷺ أو بنبوة النبي ﷺ؟ أو كلامًا نحو هذا، فحواه ومعناه أنه لا يُشرع للإنسان أن يخوض في علم التعبير بدون علم ودراية.. بعض الناس يقول اه نعم قل قل الرؤيا.. ثم ينظر في الشخص ويقول والله أتوقع وأظن.. فتذهب كلها توقعات وظنون كأنه أرصاد جوية..

- أخ: شيخ ما هو الفرق بين التعبير والتأويل؟

- الشيخ: والله الذي يظهر أنهما بمعنى واحد، لكن هنا التأويل يراد به التفسير، لكن على العموم التأويل والتفسير يطلقان في بعض السياقات ويراد بهما معنى واحد.

- أخ: من رأى رؤيا وفُسرت هل تقع؟

- الشيخ: والله نعم إذا فُسرت تفسيرًا صحيحًا تقع والله تعالى أعلى وأعلم.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

من حديث ابن عباس، دون قوله: (ومن أتى كاهنًا..) إلى آخره.[١]

قال البغوي: العراف الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالّة ونحو ذلك.

وقيل: هو الكاهن، والكاهن الذي يخبر عن المغيبات، وقيل الذي يخبر عمّا في الضمير.[٢]

وقال أبو العبّاس [ابن تيمية]: العراف اسم للكاهن والمُنجِّم والرمّال ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.[٣]

---

(١): نعم، كما مر معنا العراف يدعي معرفة مكان الضالّة والمسروق بأمور خفية، وذكرنا على ذلك أمثلة عرفنا فيها ماهية وحقيقة العراف، فقلنا مثلًا لو أن رجلًا ضلّت راحلته أو دابته فأخبر هذا الرجل العراف فقال له راحلتك في المكان الفلاني بدون أن يسند قوله إلى شيء محسوس وما شابه ذلك، فهذا لا شك أنه ضرب من أضرب الكهانة ورجم بالغيب وادعاء لعلم الغيب.

لكن لو قال له سمعت أن رجلًا جاءني بالأمس القريب يقول رأيت راحلةً ضالّة تسير في الصحراء عند جبل كذا وكذا، فهذا أخبره.. لكن غير داخل في العرافة لأنه أسند قوله إلى شيء محسوس (سمعت رجلًا يقول كذا وكذا)..

(٢): **(وقيل: هو الكاهن، والكاهن الذي يخبر عن المغيبات، وقيل الذي يخبر عمّا في الضمير):** وهذا مر معنا أن هناك بعض السلف يُعرّف الكاهن والعراف بتعريف واحد فيجعلهما بمعنى واحد، وبعضهم يجعل للكاهن معنى مستقل وللعراف كذلك.

وهما يشتركان في ادعاء علم الغيب، ولكن العراف يدعي علم الغيب في أمور خاصة، والكاهن في أمور عامة، لأننا عرّفنا واقع العرّاف بأنه يدعي معرفة مكان الضالة والمسروق وما شابه ذلك..

عن طريق الجان بدون أن يسند ذلك إلى شيء محسوس، وبينّا صفة إسناده إلى شيء محسوس.. مثلًا يتتبع الأثر أو يأخذ بصمات أو ما شابه ذلك.

- أخ: طيب شيخ لو كان ليس عن طريق الجان وإنما كذاب؟

- الشيخ: إذا أظهر لنا أنه يعرف هذا الشيء وهو يكذب في دعواه فظاهر فعله أنه مُدّعٍ لعلم الغيب.

(والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل، وقيل الذي يخبر عمّا في الضمير): لا شك أن الكاهن يعتمد اعتمادًا كبيرًا على الجان وعلى القرين وما شابه ذلك، يعني مثلًا من الطرق والسبل التي يقوم بها السحرة وكذلك الكُهان أن القرين الذي عنده يخاطب القرين الذي عند الآخر، فمثلًا يدخل عليه.. أول ما يدخل الرجل هو جاي مسكين يبحث عن.. -وأغلب الذين يذهبون إلى الكهنة وإلى السحرة غالبهم جهلة ونساء وخفاف عقل وما شابه ذلك- فتجد أنه يأتي.. ها ما شاء الله يقول الكاهن جاي مع شارع تل أبيض ها؟ راكب في التاكسي مع أبو حمزة.. وكان عندكم زحمة ها؟ وصدمكم رجل مع الزحام من الخلف..؟ ثم بعد ذلك نزلت وتحدثت معه ثم تشاتمت أنت وإياه، ثم نزلت من التاكسي ونسيت حقيبتك في التاكسي.. فيقول بس بس بس اه نعم مضبوط مضبوط! فبعد ذلك لو قال له الكاهن أي شيء سيصدقه مباشرة، وهذه دائمًا يستخدمها السحرة وكذلك الكُهان دائمًا، فهم يستمدون ذلك عن طريق القرين.

(٣): **(وقال أبو العبّاس [ابن تيمية]: العراف اسم للكاهن والمُنَجِّم والرمّال ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق)**: نعم، فالعراف أو الكاهن يدخل فيه عدة أعمال وعدة أفعال يقوم بها بعض من يدعي علم الغيب، فهو وصف أو اسم عام يندرج تحته أعمال وأفعال كثيرة.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقال ابن عباس في قوم يكتبون [أبا جادٍ] وينظرون في النجوم: ما أرى مَن فعَلَ ذلك له عند الله من خلاق.[١]

---

(١): هنا يقصد الحروف الأبجدية (أبجد هوّز).

بعضهم يكتب الاسم ثم يحذف بعض الحروف ويكتب كذلك اسم الأم أو الأب ويجمعها ثم يستدل بالمجموع على مستقبل هذا الشخص.. هذا كله داخل في الكهانة وما شابه ذلك.

وكذلك التنجيم، ونحن قلنا أن كذلك من الناس من يستدل بالمتغيرات الفلكية على الحوادث الأرضية، وقلنا كذلك هذا داخل وسيأتي إن شاء الله عندنا باب مستقل نتحدث فيه.

هذا ما تسنى ذكره وإيراده والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، هذا والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس السادس والعشرون

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: باب ما جاء في النُّشرة.(١)

عن جابر ﷺ: أن رسول الله ﷺ سُئل عن النُشرة فقال: (هي من عمل الشيطان).(٢) رواه **أحمد بسند جيد و أبو داوود**

وقال: سُئل أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدى وتقى وصلاحًا وسدادًا ورشادًا يا رب العالمين.

نستأنف وإياكم معاشرة الأحبة مدارسة كتاب التوحيد..

(١): **(باب ما جاء في النُّشرة)**: أراد المصنف –رحمه الله تعالى– في هذا التبويب أن يبين حكم النشرة، وسيورد –رحمه الله تعالى– تحت هذا الباب نصوصًا ونقولًا يتضح للقارئ منها حكم النشرة.

والنُشرة: في اللغة هي الحلُّ والفك.

وهي من الناحية الاصطلاحية: علاج المسوس.

وهي من حيث الحكم تنقسم إلى قسمين: نُشرة مشروعة، ونُشرة غير مشروعة.

النشرة المشروعة: هي حل السحر عن المسحور بالرقى والأدعية والأذكار الشرعية، وهي جائزة بل مستحبة بل قد تكون واجبة في بعض الأحيان.

كأن يوجد شخص يحسن الرقية ويحسن أحكامها، ويكون هناك أخ من الإخوة ممسوس وقد لحقه الأذى والضرر من هذا المس، فيجب على الذي يحسن الرقية أن يرقي أخاه خصوصًا إذا رأى وشاهد الضرر والأذى الذي لحق أخاه بسبب مس الجان، والنبي ﷺ يقول: ((من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل)). [أخرجه أحمد]

(٢): **عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سُئل عن النُشرة فقال: (هي من عمل الشيطان)**: هذا النص يبين أن النُّشرة حكمها من عمل الشيطان، وظاهر النص يقتضي التحريم.

أي أن حلَّ وفكَّ السحر يسمى نُشرة.

ومر معنا أن النشرة من حيث الحكم تنقسم إلى قسمين، فهذا النص يُحمل على القسم المحرم.

وحقيقة النشرة المحرمة: هي حل السحر عن المسحور بسحر مثله.

وهذه لا تخلو من حالين: حلّ السحر بسحر مثله، مع تقرب الساحر إلى الشيطان، وتقرب الذي يريد حلّ السحر إلى الشيطان.

يعني التقرب وقع من جهتين: من الذي يريد حلّ السحر ومن الساحر نفسه.

والساحر بطبيعة الحال أنه أصلًا يتقرب إلى الشياطين فتُسخّر الشياطين له الجن لخدمته.

وهناك صورة أخرى تحدث عنها أهل العلم وهي أن يأتي الذي يريد حلّ السحر إلى الساحر فيعطيه شيئًا من المال، فيقع التقرب إلى الجان عن طريق الساحر دون الذي يرغب في حلّ السحر.

والصحيح -والله تعالى أعلى وأعلم- في هذه الصورة أن حكم الآتي والذي يريد النشرة بهذه الصورة الكفر، لأنه مر معنا أن الإتيان إلى السحرة وما شابه ذلك وحصول السؤال والتصديق فهذا كفر بالله العظيم.

وإن كان هناك رأي -ولكنه ضعيف-، أنه إذا جاء الرجل إلى الساحر ويريد حلّ السحر ولكن لا يقع هو بالتقريب إلى الجان والشياطين فهذه صورة محرمة ولا تكون كفرًا، ولكن الصحيح -والله تعالى أعلى وأعلم- أنه لا يوجد استثناء يُخرج هذه الصورة من عموم ما جاء به النص بالحكم على السحرة ومن جاء إليهم، فإذا لم يوجد الاستثناء فيبقى الأمر على عمومه.

إذن هي من عمل الشيطان، وهذا النص يُحمل على النشرة المحرمة (غير الشرعية) التي حقيقتها أن يحلّ السحر بسحر مثله.

ونحن نعلم أن الأصل في طرائق السحر وفي الأعمال السحرية أن الأصل والغالب فيها أنها لا تخلو من التقرب إلى الشياطين والاستغاثة بهم، لأن الساحر كلما كان أكثر طاعة للشيطان كانت خدمة الجن له أكثر وهكذا، فإذا كان الساحر ذا سحر قوي؛ نعلم أن تقربه إلى الشيطان أكثر، وهكذا.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وللبخاري عن قتادة: قلت لابن المسيّب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته، أيحلّ عنه أو ينشر؟ قال لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع فلم يُنهَ عنه.[1] انتهى

---

(١): هذا الأثر يدل على أن النشرة جائزة ومشروعة، ولكن لماذا حملناها على النشرة المشروعة ولم نحملها على النشرة الممنوعة التي هي حلّ السحر بسحر مثله؟

في الخبر السابق حينما سئل النبي ﷺ عن النشرة فقال هي من عمل الشيطان، علمنا أنها النشرة المحرمة، فالنشرة الشرعية تكون بالأذكار والرقية الشرعية فلا يمكن أن تُحمل هذه الأدعية والأذكار على عمل الشيطان، فنحن نحملها على النوع الآخر (غير الشرعية) التي تتوقف على الذهاب إلى السحرة وحلّ السحر بسحر مثله وما شابه ذلك، فتلك التي نحملها على هذا المعنى.

لكن هنا لما سُئل ابن المسيب -رحمه الله-: **(رجل به طب)**: أي به سحر، وهنا سمي المسحور مطبوبًا من باب التفاؤل كما أن العرب تسمي اللديغ سليمًا، والكسير جبيرًا، وهكذا من باب التفاؤل.

(أو يؤخذ عن امرأته): أي لا يأتيها، وهذا يسمى في عرفنا الحالي بالربط (مربوط)، وهذا لا شك أنه يكون بأمرين: إما أن يكون مرض عضوي وهذا يسمى عند الفقهاء بالعِنّين، وحكم العِنّين إذا اشتكت المرأة أن يمهل سنة فإن وصل وإلا حق لها أن تخالع.

إذن هذا هو حكم ما يسمى عند الفقهاء بالعنين.. وهذا إما أن يكون مرض عضوي أو عن طريق الجان والسحر، وهذا يرد وينتشر في بعض المجتمعات التي يكثر فيها الجهل والإعراض عن تعلم أصل الدين، وكذلك الإعراض عن ذكر الله عز وجل وكذلك الاعتراض على أقداره، لأن المرأة قد تجزع وقد تتبرم حينما ينكح زوجها امرأة أخرى، فهذا لا شك أنه اعتراض على هذا القدر، والواجب عليها أن تصبر وتحتسب، لأن هذا مما شرعه الله سبحانه وتعالى وأباحه للرجال..

﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾[النساء]، ولا شك أن هذا مقيد بقيد أن يتمكن الإنسان من تحقيق العدل، والمراد بالعدل هنا أي ألا يُقصّر في الحقوق الواجبة عليه، كالنفقة وما شابه ذلك، وأما ميل القلب والمحبة فقد بين النبي ﷺ أن هذا أمر لا يملكه بني الإنسان، فالإنسان في بعض الأحيان قد يحب إحدى زوجاته أكثر من الأخرى ولكن بغير تقصد (ميل فطري)، تجد أنها أكثر مودة أو محبة له فلا شك أنه سيميل إليها.

وكذلك من أسباب ذهاب الناس إلى السحرة لأجل الربط (ربط رجل عن زوجته وما شابه ذلك) هو عدم الرضا بما يقدره الله سبحانه وتعالى، فقد يكون هناك رجل يرغب في نكاح امرأة ما، ولكن يتعذر عليه ذلك إما لرفض الأب أو رفض المرأة نفسها وعدم قبولها بذلك الرجل، فينكحها آخر، فيذهب الطرف الأول إلى الساحر بغرض صد هذا الزوج عن امرأته وهكذا.

ومر معنا في الدروس التي مضت بيان الطرق الشرعية التي يعُالج بها المسحور، وأنجع طريقة وأفضل علاج في مثل هذه الحالات هو العلاج الرباني، أن تُقرأ عليه الآيات والأحاديث والأذكار -التي وردت فيما قصه علينا النبي ﷺ- والأدعية المأثورة، وأن يقترن بذلك نية صادقة من الراقي واستشعار لأثر القرآن ونفعه وأنه مبارك وقد جعله الله سبحانه وتعالى سببًا للشفاء، وأن يكون هذا الاستشعار من الطرفين من الراقي والمرقي، عند ذلك يقع كمال الأثر، ولا يتعاطى بعض المرضى مع الرقية على أنها تحصيل حاصل إن نفعت وإلا ما ضرت.. لا، هذا لا شك أنه يؤثر.. والإنسان حينما يتعاطى ويتعامل مع الرقية الشرعية مستشعرًا بأن هذا القرآن هو كلام الله، جعل الله سبحانه وتعالى فيه الشفاء ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.[الإسراء]

حمل المفسرون هذه الآية على معنيين: المعنى الأول للتبعيض والمعنى الثاني لبيان الجنس. ما الفرق بين المعنيين؟

التبعيض: أي أن مِن بعض القرآن آيات جعل الله فيها الشفاء للمرضى وجعلها سببًا للشفاء.

وإذا حملنا (مِن) على بيان الجنس: أي أن كل القرآن جنس من أول آية فيه إلى آخر آية فيه.

وهنا تأتي معنا مسألة: هل القرآن يتفاضل أم لا؟

باعتبار جنس القرآن فهو شيء واحد، ولكن باعتبار الآيات فبينها تفاضل، فلا شك أن آية الكرسي ليست مثلًا كآية ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[المسد]، وسورة الإخلاص ليست كسورة الكوثر، وهكذا.

فباعتبار الآيات والسور نعم بينها تفاضل، ولكن القرآن بعمومه هو كلام الله سبحانه وتعالى وهو بمنزلة واحدة.. وهكذا.

– أخ: شيخ، في سورة النساء كانت الآيات تتحدث عن اليتامى ثم عن تعدد الزوجات.. ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ ما الربط بينهما؟

– الشيخ: هنا لأن ولي اليتيم قد يكون رجل يرغب في النكاح وقد يكون اليتيم في مثل هذه الحال فتاة أو بنت، واليتيمة هي من فقدت أباها دون سن البلوغ، والفتاة أو البنت في مثل هذه المرحلة لا أب لها فهذا مظنة أن تُقهر وأن يُسلب حقها، فلذلك جاء التذكير، وقيل في حق هؤلاء ومن في حكمهم أنكم إذا لم تتمكنوا من القيام بحق هذه المرأة وبخستموها حقها لأنها يتيمة فاتركوها وانكحوا غيرها مما طاب لكم من النساء.

هنا في خبر سعيد الذي جعلنا نحمل هذا الخبر على النُشرة المشروعة أنه قال –رحمه الله–: (إنما يريدون به الإصلاح)، فكما أننا حملنا الخبر الأول (هي من عمل الشيطان) أنه لا يُتصوّر أن تحمل النشرة الشرعية على هذا المعنى وهي عبارة عن آيات وأذكار وأدعية، فكذلك نحن حملنا هذا على النشرة المشروعة لأنه لا يمكن حمل الأعمال السحرية والإتيان إلى السحرة على أنه يُراد به الإصلاح.

هنا يقول: (**إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم يُنهَ عنه**): والله عز وجل يقول: ﴿جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[يونس]، فالسحر فساد والسحرة مفسدون، لذلك كان جزاؤهم القتل، وقد مر معنا أن الصحيح من أقوال أهل العلم أن الساحر يُقتل ردةً.

وبناء على ذلك: فلو أظهر توبته فإن التوبة لا تُقبل ظاهرًا، وإنما قد تُقبل في باطن الأمر وهذا يكون مآله إلى الله عز وجل، فالإنسان في مثل هذا الحال إذا ثبت في حقه أنه ساحر أو أنه مثلًا سبّ النبي ﷺ فهنا يتحتم القتل حتى وإن تاب.

والتوبة هنا حينما يقول أهل العلم: (لا تُقبل التوبة) فهذا إنما معناه أي لا تُسقط العقوبة الدنيوية أو يسميه أهل العلم بعدم قبول التوبة في الظاهر، أما في الباطن فأمره إلى الله، فقد يصدق في توبته ويكون مآله في الآخرة إلى روح وريحان، ولكن العقوبة الدنيوية لا تُسقطها التوبة بعد القدرة وثبوت الحد.

– أخ: قول الإمام رحمة الله عليه (إنما يريدون به الإصلاح) هناك مشايخ يُفتون بالنشرة، أن النشرة لو كانت هي سحر فكّ السحر بالسحر، ويقولون يريدون الإصلاح لهذا الرجل وفعلوا النشرة، إيش التعليق؟

– الشيخ: نعم نحن قلنا أن ظاهر الكتاب يدل على أن عمل السحرة هو الشر والفساد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾، وهنا يقول (إنما يريدون به الإصلاح)، ولا شك أن الله سبحانه وتعالى بيّن أن عملهم فساد، والله سبحانه وتعالى هو الذي حكى ذلك عنهم، فلا شك أن هذا مقرر من الناحية الشرعية.. يا أخي إذا كان هذا السحر عُمِل بقوة، فكيف سيحلّه الساحر؟ لا شك أنه سيتقرب إلى الشياطين وسيستغيث بهم وسيذبح لهم وهكذا، ويقع في الشرك ويقع في الكفر بأشكالٍ وأنواع حتى يحقق له الشيطان مراده، ولكن بعد ماذا؟ بعد هذه المراحل الكثيرة من الوقوع في الكفر والشرك بأنواعه وأشكاله المتعددة، فكيف نحمل كل ما حصل من الساحر على أنه إصلاح..؟! لا يمكن أبدًا.

وعلى العموم إذا كانت الغاية مشروعة فلا بد أن تكون الوسيلة مشروعة، لأن الغاية لا تبرر الوسيلة، وهناك فهم خاطئ ومغالطات تقع من البعض، أنهم إذا رأوا الغاية حسنة وأن لها ما يدل عليها من عموم نصوص الشرع، أهملوا وأغفلوا الوسيلة، فجعلوا الحجة من اقترافهم لهذه الوسائل غير المشروعة بكون الغاية مشروعة، وهذا لا شك أنه مردود.

لذلك كان العرب في جاهليتهم وحتى بعد ما جاء الإسلام ماذا كانوا يفعلون؟

كانوا يقتنون الخمر ويبيعونها، ويتعاملون بالميسر وكان الذي يخرج سهمه في هذا المال يتصدق به، فجاء النهي عن ذلك: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[البقرة]، فلذلك جاء أحد الصحابة بعدما حرمت الخمر، فقال للنبي ﷺ: يا رسول الله إن عندي خمر لأيتام (لأنها كانت مال في السابق)، فماذا قال له النبي ﷺ؟ أرِقها.

أمره بإراقتها مع أنها في الأصل ملك لأيتام، مما يدل على أن الخمر مال غير محترم.

الشاهد من ذلك أنهم قد يتعاملون بالميسر.. مثلًا عندنا بقرة قيمتها ألف، فيأتي خمسة ويضع كل واحد منهم ألفين حتى يخرج المجموع عشرة فتُشترى هذه البقرة، ثم توضع أسهم في كيس ويضعون على أحد الأسهم إشارة بحيث أنه إذا خرج هذا السهم لأحد فإنه يتملك هذه البقرة، هذا هو الميسر، فكانوا يفعلون ذلك وإذا خرج السهم لأحد من هؤلاء الخمسة ماذا يفعل بالبقرة؟ يتصدق بها، فهم كانوا يقولون الغاية هي الصدقة، ولكن الوسيلة غير مشروعة.

فالله تعالى لم يتكلفنا بفعل الحرام لأجل أن نطيعه..

مثلًا كأن يأتي رجل ويقول أعداء الأمة كُثُر، ونحن بحاجة إلى الحشد، والنساء كُثُر، فلو أبحنا الزنا لأجل أن يكثر الإنجاب، ثم ما ينتج عن هذه الأفعال نخرجهم إلى معسكرات خاصة وندربهم ليكونوا جيشًا للأمة..!

الغاية الآن: أن يكون هناك جنود وعدد يدافعون.. لكن الوسيلة محرمة.. فإذا كانت الغاية ممدوحة ولها ما يدل عليها من عمومات نصوص الشرع لكن الوسيلة محرمة، فالغاية هنا لا تبرر الوسيلة.

فالرجل مثلًا يقول أن هذا متضرر يا شيخ، مسكين، غريب، دائمًا يُصرع، وهو متضرر وما يستطيع أن يقوم على أسرته.. الآن غاية مشروعة أن ننقذ هذا الشخص.. لكن ما الوسيلة؟ أتذهب إلى الساحر! وهذا عين ما نهى عنه الشارع.

ألم يمر معنا الحديث عن حكم الذهاب إلى السحرة ومن في حكمهم؟ هل ورد في ذلك استثناء أو تخصيص؟ لا، فيبقى الأمر على إطلاقه ولا يخصص إلا بمخصص شرعي، فلم يوجد فيبقى الأمر على إطلاقه.

ثم بعد ذلك ما الذي ينتج عن إجازة وإباحة مثل هذا الأمر؟ أنه لو جئنا وأمسكنا ساحرًا.. سيقول ليش تمسكون؟ أنا لا أحلّ إلا السحر بالسحر، وأنا سمعت أنكم تتدارسون النُشرة.. ممكن تأتيه تسجيلات ولّا شيء.. فيقول أنا سمعت أنكم تتدارسون في مسألة النشرة وعلمت أن هناك مسألة وقع فيها الخلاف وهي حلّ السحر بسحر مثله شريطة أن لا يتقرب الذي يريد الحلّ إلى الشيطان بعمل كفري وإنما يكون التقرب فقط من الساحر..

ولكن إذا وقع التقرب من الشخص الذي يريد أن يحلّ هذا السحر فإنه يكفر نسأل الله السلامة والعافية.

فسيكون هناك مبررات، لا بد أن نفتح مكاتب تقنن السحر نمنع منه شيء.. سيترتب على ذلك مفاسد لا يحصيها إلا الله، فالأصل في ذلك المنع كما بينّا ذلك.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وروي عن الحسن أنه قال: "لا يحلّ السحر إلا ساحر".[١]

---

(١): لا شك أن هذا محمول على حلّه بالعزائم والعقد الشركية، لأنك أنت لو تأملت أن السحر لا يُحلّ إلا بسحر مثله سيبقى السحر موجود، زال سحر وجاء آخر مثله، ثم يأتيك ساحر على هذا السحر ثم بعد ذلك لا تنتهي القضية، وإنما الحل الشرعي هو حل هذا السحر بالرقية الشرعية والأذكار والأدعية.

وقد تكلم أهل العلم عن طرق حل السحر وذكروا حله بالرقية الشرعية وبالطب النبوي.. مثلًا أن يستخدم في ذلك ورق السدر وكذلك العود الهندي وكذلك الحبة السوداء وتمر العجوة وغير ذلك.

وكذلك من الطرق الوقوف على نفس السحر وحلّه مباشرة، ويكون ذلك إما باعتراف الساحر أو بوجود هذه العقدة..

يعني مثلًا يحكى في تسونامي (الفيضان) يقول سبحان الله أنه لما وقعت الفيضانات يبدو أنه انحلت كثير من العقد السحرية فوُجد أن هناك كثير من الناس كانوا يعانون من أمراض مزمنة بل مُقعدين، فسبحان الله بعد هذه الفيضانات أقامهم الله سبحانه وتعالى من أمراضهم وكأن لم يكن بهم بأس، تَلِفت الأسحار فأعاد الله سبحانه وتعالى هؤلاء الناس إلى حالتهم الصحية الطبيعية..

وإذا مسكنا السحر نحلّ هذه العقد بقراءة المعوذات.. وكذلك الآيات مثلًا ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[يونس]، ﴿مَا جِئْتُمُ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ﴾[يونس].. ﴿إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ﴾، ثم تُحل هذه العقد ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ﴾.. ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ..﴾ ثم تُحل، ﴿مِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾.. ﴿مِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ثم تُحل.. وهكذا.

– أخ: شيخ، توجد طريقة ثانية للحل مثل الحرق..؟

– الشيخ: والله هو الأولى أن تُحل ثم تُحرق.

– الأخ: تُحل بالماء يعني؟

– الشيخ: لا لا يعني تحلّ العقدة..

– أخ: ولا بد من القراءة عليها يا شيخ؟

– أخ: والله هذا الأولى.

– أخ: شيخ في أسحار تصير بالحرق لما ينحرق ممكن يبقى السحر؟

– الشيخ: على العموم إذا زال عين المسحور إن شاء الله زال السحر.. إن شاء الله سبحانه وتعالى.

– أخ: هل صحيح السحر لا يُفك إذا وُضع في الآبار أو في المياه الجارية..؟

– الشيخ: على العموم إذا شاء الله سبحانه وتعالى أن يبقى هذا الرجل مسحورًا سيبقى بشيئة الله عز وجل، لكن قد يكون هناك فعلًا بعض العقد السحرية تُخفى في مكان، وهناك بعض السحرة يتعاهدون هذه الأماكن وهذه العقد، فلا شك أنه بالرقية تتأثر هذه العقد، فهو يجددها ويعيد عقدها رجاء أن يبقى المسحور على حاله، ووُجِد، هناك حالات مستعصية وسبب الاستعصاء هنا أن الساحر يتعاهد هذه العقد، لذلك نحن نعلم المنفعة العظيمة المترتبة على قتل الساحر، لأنه لو قُتل ولو لم يعترف عن أماكن العقد فإنها بالرقية الشرعية إن شاء الله ستُحل، لأنه في بعض الأحيان تُحل ثم يعود الساحر فيجدد العقد مرة أخرى فتعود مرة أخرى. وهكذا.

وهنا دعوة إلى التحصن بالأذكار الشرعية، وكذلك تحصين الأبناء والبنات بالأذكار الشرعية والبعد عن المنكرات والأغاني والمسلسلات، بيوت المسلمين للأسف الشديد الآن تعج بهذه المنكرات، إذا مررت على الشارع تسمع صوت التلفاز مسلسلات وغناء ووإلخ..

وهذا واقع مرير، لذلك إذا اشتكى البعض من تسلط مردة الجن عليه فإذا استفصلت منه وجدت أن المنكرات تملأ بيته، لا كتاب يُتلى، ولا سنة تُطبق، ولا تجد فيه إلا المنكرات، فلا شك أن بعض البيوت أصبحت أوكارًا للشياطين، وبعض البيوت أصبحت بيوتًا للملائكة لا تُفارقها الملائكة، يُذكر فيها اسم الله سبحانه وتعالى بكرةً وعشيًا، فشتان بين هذا وذاك.

- أخ: شيخ، هل صحيح ما ورد أن الجن أو الشيطان يشارك الرجل في زوجته أو يشاركهم في الأكل إذا لم يذكر اسم الله عند دخوله من الباب، وإذا لم يذكر اسم الله عند مجامعة زوجته؟

- الشيخ: في قضية الولد لا يؤثر فيه الشيطان.

لكن في قضية الأكل والطعام والمبيت نعم هذا ثبت فيه النص.. ولكن في قضية الجماع "اللهم جنّبنا الشيطان، وجنّب الشيطان ما رزقتنا"، فهنا المجانبة في الرزق الآتي عن هذا الطريق، ولكن هنا عندنا أن الإنسي إذا تلبس به الجان.. نعم تكلم أهل العلم أن الجان قد يلتف على إحليل الرجل فيجامع مكانه، أو كذلك العكس يلتف على فرج المرأة فيقع الجماع على الجان ما يقع على المرأة.

ومن صور تلبس الجان العشق، فقد يعشق الجني الإنسي، وهذا بسؤال الرقاة المبرزين في هذا الباب، يقول أن من أشد أنواع التلبس تلبس العشق، إذا عشق الجني الإنسي، يقول في بعض الأحيان أموت وما أتركه؛ فلذلك يعلم الإنسان عِظم منزلة الأذكار الشرعية التي يتحصن بها المسلم، فنهيب بإخواننا ألا يُفرطوا بها.. النبي ﷺ كان يعوّذ الحسن والحسين: ((أعيذكما بكلمات الله التامة من شرّ ما خلق))[صحيح الترمذي]..

- أخ: وروي عن الحسن أنه قال: "لا يحلّ السحر إلا ساحر" المقصود بالحسن هنا البصري؟

- الشيخ: نعم.

- أخ: شيخ سؤال: شخص متوكل على الله، مفوض الأمر لله، لا يريد رُقى ولا شيء، ولا مهتم بسحر، وما يحسب حساب أنه يُسحر، وحتى لو سُحر ما يرقي وما يأخذ بكل هذه الأسباب، وفقط متوكل على الله ومفوض الأمر لله..؟

- الشيخ: التوكل على الله الشرعي الصحيح هو اعتماد القلب على الله وفعل السبب، والنبي ﷺ سيد المتوكلين ومع ذلك كان يقرأ هذه الأذكار ويتعوذ بهذه المعوذات.

ولا شك أن الإنسان يقولها ويجعلها من ورده في الصباح والمساء، وكذلك يتوكل على الله، ولكن إذا قالها ولم يتوكل على الله لم تؤتِ أكلها.

ونحن قلنا أنه إذا كان هناك ذكر رُتّب عليه جزاء، فكمال الجزاء وتمام الجزاء يُنال إذا أُدِّي الذكر مع تواطؤ القلب مع اللسان مع الجوارح.

يعني إذا كان الذكر يُقال باللسان ولم يكن هناك تواطؤ مع القلب (حضور للقلب)، نعلم أن الجزاء إذا ناله لن يناله بتمامه.

إذا لم يكن هناك أثر كذلك على أعمال الإنسان وفعله، فكذلك سينقص هذا الجزاء المترتب..

ومر معنا في حديث خولة أن: ((من نزل منزلًا فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء منذ ذلك حتى يرتحل من منزله ذلك)).

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

قال ابن القيم -رحمه الله-: النُشرة حلُّ السحرعن المسحور، وهي نوعان: [أحدهما]: حلٌّ بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحبّ فيُبطل عمله عن المسحور. والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة، فهذا جائز.(١)

= فقلنا أن الجزاء إذا كان هناك ذكر رُتّب عليه جزاء أو ثواب، فإن هذا الجزاء وهذا الثواب لا يُنال بكماله إلا بتواطؤ هذه الأمور الثلاث كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام –رحمه الله–: (القلب مع اللسان مع الجوارح).

وإذا حصل الإخلال بأحدهما، فإنه بقدر هذا الإخلال ينقص هذا الجزاء والثواب المرتب، وهكذا.

– أخ: كقبول الصلاة شيخ (إنَّ العبدَ لَيُصَلِّي الصَّلاةَ ما يُكتَبُ له منها إلَّا عُشرُها، تُسعُها، ثمنُها، سُبعُها، سُدسُها، خمسُها، ربعُها، ثُلثُها، نِصفُها)؟

– الشيخ: نعم نعم نعم، هو يؤدي الأفعال، تبرأ الذمة ويسقط الطلب، لكن لا يكون هناك ثواب أو ينقص الثواب بقدر هذا الإخلال.

(١): **(وهي نوعان: حلٌّ بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب فيبطل عمله عن المسحور)**: نعم هذه هي النشرة المحرمة أو الممنوعة أو غير المشروعة، ونحن بينّا أنه سواء تقرب المنتشر إلى الشيطان أو لم يتقرب، فالنشرة في مثل هذا الحال محرمة، وكذلك هي كفر لأنها ذهاب إلى الساحر.

– أخ: طيب شيخ، طيب ليش ما قلنا رقية وقلنا هذه نشرة وخرجنا من هذا الباب؟

– الشيخ: نعم لأنها الآن تُطلق هي، جاءت نقول ونصوص ذُكِرت فيها النُّشرة، وإلا هي في الأصل تسمى رقية، لكن قد يرد معك خبر تُذكر فيه النُشرة ولا يراد بها المعنى غير المشروع، يُراد بها المعنى الآخر، فلذلك نحن هنا اهتممنا بالتفريق بينهما مع التأكيد على أن الاسم واحد ويندرج تحته قسمان.

أما قوله: (**والثاني النشرة بالرقية والتعوّذات والدعوات والأدوية المباحة، فهذا جائز**): نعم وهذا ما ذكرناه، لذلك يحرص الإنسان على تحصين نفسه، وقد يُسحر الإنسان أو يتلبس به الجان بسبب إعراضه عن ذكر الله، بل إن أهل العلم وكذلك أهل الخبرة ذكروا في هذا الباب أن هناك حالات إذا اتصف بها الإنسان تهيأ للجان التلبس به، مثلًا الغضب الشديد والفرح الشديد لأنه قد يفرح الإنسان ويصاحب هذا الفرح منكرات كالرقص والغناء.. وكذلك الخوف الشديد.

ومر معنا أن الجان الأصل فيه أنه يخاف من الإنسي، لكن إذا علم الجان أن الإنسي يخاف منه زاد من إخافته ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن] أي: أتعبوهم وازدادوا من التسلط عليهم.

وأذكر هذا الموقف الذي يذكره أحد الرقاة، كان يرقي المرضى ونطق الجان، فقال له لماذا دخلت فيه؟ فقال له هذا الرجل لا يصلي ولا يذكر الله.. فأصبح كالبيت الذي لا باب له ولا نوافذ.. الكل يدخل متى شاء ويخرج متى شاء.. فقال له الراقي اخرج منه وادخل فيني. قال ما أستطيع، قال لماذا؟ قال والله ما أستطيع.

لأن هذا تحصَن بالأذكار الشرعية وأصبح بينه وبين هذه الأمور حوائل وحواجز.. لكن أن يبقى الإنسان هكذا بغير تحصين فستجد أن الكل يدخل به ويخرج..

وقفت في مرة من المرات على حالة مرضية وُجِدَ فيها جان بأسرته والله يا إخوة جان بأسرته! الزوج مع الزوجة مع الأولاد.. أصبح حِمى..! فلذلك الحل الوحيد والعلاج هو أن يحصن الإنسان نفسه بالأذكار، أما أن يكون الإنسان غير محصن فسيكون حمى مستباحًا للجن والشياطين.

- أخ: شيخ، هل يدخل في الإنسي أكثر من جنّي؟

- الشيخ: نعم نعم قد يدخل فيه.

وهنا مسألة: هناك من العقلانيين من يُنكر تلبس الجان بالإنسي، ولكن لذلك نصوص كثيرة من الكتاب والسنة من أبرزها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾، والنبي ﷺ يقول: ((إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)).[أخرجه مسلم]

وقد ركّب الله سبحانه وتعالى الجن على هيئة وصورة مرنة، فبطبيعتها سبحان الله تستطيع أن تتغلغل في جسم الإنسان وتتشكل، تارة تكون في الرأس، وتارة تكون في الأطراف، وتارة تكون في العين، وهكذا..

لأن المس هناك مس كلي، ومس جزئي، وهناك مس وقتي أو طائفي، ومس دائم.

وكل هذه الحالات تجدها في بني الإنسان، فتجد الإنسان طيبًا معافى، فإذا قُرئ القرآن صُرِع، وإذا توقف القارئ عن قراءة القرآن رجع إليه، وتارة تجد أنه إذا قُرئ عليه القآن ما يُصرع.. وفي بعض الأحيان يُفقد الممسوس الوعي لأجل ألا يستمع إلى القرآن لأنه يتأثر.

وهناك حالات وقفت على بعضها، تجد أن هناك سحر، والساحر يسلط الجان على المسحور، ثم يربط عقدة حتى لا يُمكّن الجان من الخروج، ويضع كذلك على هذا الجان حرس يهددونه إن خرجت ستُقتل.. ولكن بفضل الله وكرمه أن الرقية حلت العقد وأحرقت الجان، والله عز وجل يقول: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾[البقرة]، ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.[البقرة]

فهم أصلًا ليسوا بشيء، ولكن على الإنسان أن يتوكل على ربه وأن يتحصن، وألّا يخاف إلا من الله سبحانه وتعالى، وأن يعلم أن هؤلاء الجان هم أصلًا يخافون من جنس الإنسان سواءً كان محصنًا أو غير محصن، فكيف إذا كان محصنًا، فهنا ستكون الرهبة والخوف من الإنس أكثر، وكذلك إذا كان هناك تحصين يتعذر على الجان الوصول إلى جسده والتلبس به.

نعم، هذا ما تسنى ذكره وإيراده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فهرس المحتويات